

البحر



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار الملك عبد العزيز بالرياض



• نقش كتابي لإنشاء سبيل حراء، عام ١٣٦١هـ (ص ٢٠٣) •



العدد المئتين من السنة الثانية عشرة

ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤١١هـ



صدر العدد الأول للجنة الأولى في شهر
ربيع الأول ١٣٩٥هـ / مارس ١٩٧٥ م.

مجلة فصلية محكمة
تصدر عن دائرة الملك عبد العزيز

العدد الثالث • السنة التاسعة عشرة • ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ

General Organization of the Arabian
Library (GUAL)

Bibliothèque d'Arabie

دائرة الملك عبد العزيز :

أُنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥ في
١٣٩٢/٨/٥هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية يديرها
مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها : خدمة تاريخ المملكة ، وجغرافيتها ،
وأدبها ، وأثارها الفكرية والعمارة بخاصة . والجزيرة وبلاد العرب
والإسلام بعمامة . وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها . وجلب
الوثائق والمخطوطات وتحقيقها . وإصدار مجلة تحمل اسمها . كما
أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات» بمقتضى الموافقة السامية
رقم ١٢٦٠٨/٥ في ١٣٩٦/٥/٢٠هـ .

٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
رقم الفاكسميلي : ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

المشرف العام

معالي أ. د. خالد بن محمد المنقري
وزير التعليم العالي، ورئيس مجلس إدارة الملك عبد العزيز

مدير التحرير

عبد الله بن محمد الحقييل

هيئة التحرير

د. منصور إبراهيم الحازمي
عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس
د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري
د. محمد الله الصالح العثيمين
د. محمد سليمان السديس

الإشراف الفني، والتنفيذ

مصطفى أمين جاهين

الإدارة

ترسل البحوث باسم
رئيس التحرير



٤٤١٣٣١٨

٤٤١٣٩٤٤

الفاكس :

٤٤١٣٣١٦



التحرير

فاكس، ☎

٤٤١٧٠٢٠

• آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة •

ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة، أو بالكمبيوتر على ألا تزيد على ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعياً، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.

ترسل البحوث سريعاً إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.

ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.

لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.

لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

• قيمة العدد •

السعودية: ثلاثة ريالـات - الإمارات العربية المتحدة: أربعة دراهم

قطر: أربعة ريالـات - مصر: ٤٠ قرشاً - المغرب: خمسة دراهم - تونس: ٤٠٠ مليم

خارج البلاد العربية: دولار للعدد

ترسل الاشتراكات بشيك

مصدق باسم

دائرة الملك عبد العزيز

الرياض

• الاشتراكات السنوية •

٢٠ ريالـات للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.

وفي البلاد العربية ما يعادلها.

٦ دولارات خارج البلاد العربية

• الموزعون •

السعودية: شركة الخزنـدار للتوزيع والإعلان ✉ ٤٥٧ الرياض ١١٤١١ ☎ ٤٦٢٦٥٩٠

أبو ظبي: مكتبة المنهل ✉ ٣٧٧٨ أبو ظبي ☎ ٣٢٣٠١

دبي: مكتبة دار الحكمة ✉ ٢٠٠٧ دبي ☎ ٢٢٨٥٥٢

قطر: دار الثقافة ✉ ٣٢٣ الدوحة ☎ ٤١٣٨٠

البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع ✉ ٢٢٤ المتامة ☎ ٢٦٢٠٢٦

مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع ✉ شارع الجلاء - القاهرة ☎ ٧٥٥٥٠٠

تونس: الشركة التونسية للتوزيع ✉ 5 نهج قرطاج

المغرب: الشركة الشريفة للتوزيع ✉ 383 الدار البيضاء - 5

● نقش كتابي لإنشاء سبيل حاء عام ١٣٦١هـ

(طالع البحث ص : ٢٠٣)



في هذا العدد

- ٥ مدير التحرير
- ١٠ د. عبد العزيز الهلابي
- ٥٩ د. عبد العزيز بن سعود الغزي
- ٧٦ د. غيثان بن علي بن جريس
- ١١٢ د. خليل إبراهيم المعقل
- ١٣٣ د. عبد الله بن محمد السيف
- ١٦٢ د. عبد العزيز إبراهيم السويل
- ١٨٤ د. عبد الله سالم المعطاني
- ٢٠٤ د. عادل محمد نور عبد الله غياشي
- ٢٣٣ د. عبد الله بن حمد الحقييل
- ٢٤٢ د. عبد الله إبراهيم الحقييل
- ٢٤٥ إعداد: فيحان العتيبي
- * اليوم الوطني ، إشراقة في جبين التاريخ
- * الحركة العلمية بمكة في العصر الأموي
- * استعراض للدراسات الأثرية للفخار القديم في شرقي المملكة العربية السعودية ٣٠٠ ق.م - ٣٠٠ م.
- * بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني
- * نقشان عريان مبكران من سكاكا
- * الصناعة في اليمن في العصر الأموي
- * نحو دائرة معارف إسلامية عربية اقترح بتأليف دائرة معارف إسلامية عربية باللغة العربية
- * نقد الشعر السعودي في آثار بعض الدارسين
- * أسبلة الملك عبد العزيز على الطريق بين مكة وجدة .
- * قراءة في مكتبة الملك عبد العزيز
- * «كشاف» بيا نشر عن الملك عبد العزيز «طيب الله ثراه» في مجلة الدارة .
- * بيان بالمؤلفات التي تناولت شخصية الملك عبد العزيز «يرحمه الله» وقد تم ترتيبها على فهرس العناوين .

**اليوم
الوطني**

إشراقة في جبين التاريخ

بقلم: مدير التحرير

في الخامس من شهر شوال ١٣١٩هـ، خرج جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مجاهداً في سبيل الله ساعياً وعاملاً على توحيد أجزاء متناثرة من شبه الجزيرة العربية وتكليل جهاده وسعيه بنصر الله . . فبرزت المملكة العربية السعودية في ٢١/٥/١٣٥١هـ وظهرت معلية كلمة التوحيد ومحكمة شريعة الله في كل الأمور وجميع الشؤون ومختلف نواحي الحياة .

ومن هذا المنطلق يشهد التاريخ أن تطبيق الشريعة كان مبدأ أساسياً في حياته - رحمه الله - واستطاع بحكمته وبعد نظره إقامة هذا الكيان الشامخ في بلد شاسع الأرجاء على أسس موضوعية حققت التكامل المبني على المثل السامية

والغايات النبيلة فكان رائداً ورمزاً للعرب والمسلمين بنى لهم هذه الوحدة والمجد والفخر والخير والعزة على أساس الدين والأخلاق فصنع تاريخ هذه الأمة المجيدة بأعماله الكبيرة في حقبة تاريخية دقيقة جدية بالتأمل والدراسة والاستيعاب . . وفي سيرة الملك عبد العزيز وتاريخه سيرة أمة تحولت إلى الحياة والألفة والإيمان والبناء والنظام فهو تاريخ مجيد، ومن حق التاريخ أن يرفع حقه فقد ترك تاريخنا وتراثنا مجيداً وصفحات ناصعة بجمالها وجلالها وسماها، غنية بالعطاء وثرية بالسمو والمعاني والمزايا الخالدة والمثل الأخلاقية العليا .

وذكرى اليوم الوطني منعطف تاريخي ونقله حضارية متميزة وتتويج لجهود عظيمة عالقة في أذهان وحياة الأفراد والجماعات، فالذكرى حافلة بالتاريخ وبصنوف التضحية والشجاعة والوفاء والإخلاص، فهي مثال يحتذى وذكرى غالية على كل مواطن من أبناء هذه البلاد يرتبط بجذور هذه الأرض وأصولها . إن الملك عبد العزيز يعد بحق أحد صانعي التاريخ الحديث، فقد حقق إنجازاً بالغ الأهمية في تاريخ هذه البلاد .

فالיום الوطني من أيامنا المجيدة المضيئة تهل بساحتنا ذكراه العطرة وتتجدد بذكراه وقفات تأمل مع التاريخ حيث يفوح من أريج عبق المجد وذكريات سيرة التاريخ ووقائعه التي ينطلق ويتكون منها هذا اليوم وتاريخه ونتذكر هذه الذكرى عبرة نستلهم فيها معاني - الأمل - وصورة الغد كما هو في تاريخ الأمم والشعوب أيام غالية خالدة تضيء بالفخار والعزم والتألق والمجد وتعزيز البناء وترسيخ انطلاق الحضارة .

وفي أول الميزان من كل عام نتذكر سيرة بطل عظيم له أهمية تاريخية وتطل علينا في هذا اليوم الأغر الذكرى الغالية لتوحيد المملكة العربية السعودية على يد القائد الفذ جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن

تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن - رحمه الله - وطيب ثراه .
فقد غرس في هذه الأرض الطيبة المباركة أعظم وحدة في تاريخ هذه البلاد
فحول ضعفها إلى قوة وتمزقها وفتتها إلى كيان كبير قوي راسخ حتى أصبحت
المملكة العربية السعودية اليوم نموذجا رائعا ومثلا فذا حقيقيا للوحدة الوطنية .

ومن هنا تبرز أهمية اليوم الوطني فإن ما تحقق فيه على يد قائده وموحده يعد
إنجازا عظيما وعملا كبيرا هو مصدر اعتزازنا جميعا . حيث نتذكر بالخير بطولة
الإنجاز الحضاري الذي أسس قواعده فارس عظيم وصانع أول وحدة عربية
من نوعها في التاريخ العربي الحديث .

وكثيرة هي المعارك التي خاضها الملك عبد العزيز ولم يكن لديه من العدة
والسلاح والرجال ما كان لدى خصومه ومع ذلك كتب له النصر في النهاية .

وحينما نتعرف على الكيفية التي أتم بها الملك عبد العزيز توحيد هذا الكيان
على أساس من العقيدة الإسلامية فإننا نجد قد حرص على تطبيق الشريعة
الإسلامية وأحكامها . فكان نصر الله الذي وعده عباده المؤمنين ﴿ إِن نَّصُرُواْ
اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْلِفَنَّ أَقْدَامَكُمْ ﴾ سورة محمد (٧) وبهذه النية الصادقة والالتزام
المطلق بمنهاج الشريعة وتطبيقها ، توحدت المشاعر وسادت الطمأنينة وتحققت
آمال هذه البلاد وانطلق يحمل شعار التوحيد ويتخذ القرآن منهجا وسلوكا
وهكذا سار على قواعد من الإيمان راسخة يخلق في سمائها لواء التوحيد شعارا
ورمزا وجوهرا لتطبيق شريعة الإسلام إلى جانب النوايا الصادقة الحسنة التي
تستهدف توحيد هذا البلد وجمع شتاته وتوجيهها نحو الخير والتطور والتقدم
لإسعاد هذا البلد وأبنائه وقد تحقق ذلك بفضل الله ثم بالجهود الصادقة الأمانة
ولم يزل أبنائه من بعده يسرون على النهج السديد ويسعون جاهدين لتطوير
وتنمية هذه البلاد إلى الخير والنماء والازدهار والتطور وفقهم الله .

إن هذه الذكرى يجب أن تبقى نبراسا لنا جميعا كأبناء مخلصين أوفياء لهذا البلد وللمؤسس كيانه لنمضي تحت قيادتنا الرشيدة في طريق الرقي والتقدم والخير والمحبة والسلام في إطار هذا الشموخ الحضاري الشامل والإنجاز والعطاء السخي المتواصل .

كما أن هذا اليوم تنويع لمعاني شتى ولتجربة فذة عملاقة ورغم ما كتب عن تاريخ الملك عبد العزيز إلا أن تاريخه وما يحتوي عليه من بطولات وخصائص ومميزات يحتاج إلى المزيد من الدراسات وخدمة تاريخ الملك عبد العزيز الذي بنى دولة عصرية ، فتاريخه من الثراء والتنوع والامتداد يتطلب مزيدا من الاهتمام وتقديره للدارسين والمختصين .

ولقد بذل — رحمه الله — من التضحيات والجهد وسعى إلى تحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار وتحقيق وحدة هذه البلاد والدفاع عنها وهذا التاريخ خليق بأن يعرفه ويقراه العرب والمسلمون .

إن تاريخ الملك عبد العزيز صفحة مضيئة من صفحات التاريخ العربي الإسلامي ومنهل ثرى ينهل منه المؤرخون والباحثون والدارسون كما قال الشاعر:

هو البحر من أي النواحي أتيتـه فلجته المعروف والجود ساحله

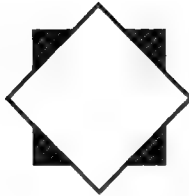
وبعد فيجب أن يكون هذا اليوم التاريخي حافزا لنا على العمل الجاد المثمر والعطاء السخي المخلص لهذا البلد والمثابرة والبناء والعزيمة واستشعار المسؤولية الملقاة على عواتقنا والشكر والحمد لله على ما تفضل به علينا الله من نعمة الأمن والاستقرار ورغد العيش والطمأنينة التي كانت نتيجة كفاح وجهد وبذل وتضحية انتهت بتوحيد هذه البلاد على أساس من العقيدة الإسلامية وقوة الإيمان وحسن التدبير .

وجملة القول فإن في تاريخ الملك عبد العزيز من الحقائق والأبعاد ما يحفز

المؤرخين والباحثين ويدعوهم إلى استخراج ما يفيد ويعطي القدوة والأسوة للأجيال للتعرف على هذا التاريخ فهو علم من أعلام النهضة وقائد بارز من قادة التاريخ الإسلامي. فالتاريخ أمانة ينتقل من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل.

هذا قليل من كثير وغيض من فيض من سجل طويل حافل بالمبادئ والأهداف والشواهد وبالله التوفيق.

• عبد الله بن حمد الحقييل •



الحركة العلمية بعثة في العصر الأموي

د. عبد العزيز المصباحي



كانت مكة أرقى مراكز الاستقرار الحضري في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويعود ذلك إلى جملة أسباب أهمها مكانة مكة الدينية لوجود الكعبة فيها التي يقدسها الكثير من العرب فيأتون إلى مكة للحج في الموسم أو للزيارة في أشهر السنة الأخرى، وعلاقات مكة التجارية الواسعة نسبيًا مع قبائل العرب ومع البلدان المجاورة. وقد كان انتشار القراءة والكتابة بين أهل مكة أكثر من انتشارها في مدن وقبائل الجزيرة العربية الأخرى. ويعكس الجدل القرآني في بعض السور المكية تمتع أهل مكة بمستوى عقلي رفيع نسبيًا. فرفض أكثرهم دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان بالله وحده، ونبذ عبادة ما سواه لم يكن بسبب قصور في الفهم أو الاستيعاب، وإنما بسبب العناد والمكابرة، أو بسبب التشبث بما كان يعبد آباؤهم، أو خشية فقدان مراكزهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو القبلية. فالذين اعتنقوا الإسلام من أهل مكة من غيرهم لم يجدوا صعوبة في فهمه سواء في مجال الاعتقاد أو في مجال التشريع في العبادات والمعاملات.

لقد ترتب على موقف أهل مكة المعادي للرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعوته وللذين اعتنقوا الإسلام منهم أن اضطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون إلى مغادرة مكة والهجرة إلى يثرب ليتمكنوا من أداء شعائر دينهم ونشره بين العرب . وكان من أول ما قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن استقر به المقام في يثرب أن أسس المسجد ليكون مركز عبادة وتعليم ، ومركز قيادة وإدارة لشؤون المسلمين . وكان الوحي ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدونه كتاب مخصوصون ، ويقرؤه المسلمون ويعملون به . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلم المسلمين ويفقههم في أمور دينهم كما كان يوجههم في أمور دنياهم . فكانت حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مصدر هدى وتشريع للمسلمين يسرون وفق أقواله ، ويقتدون بأفعاله .

وأصبحت المدينة نتيجة لذلك مركز القوة والسياسة والعلم في الجزيرة العربية وانحسرت أهمية مكة ، وأخذ من أسلم من أهلها يهاجر إلى المدينة ، ولم تتوقف الهجرة منها حتى بعد أن فتحها الرسول - صلى الله عليه وسلم - سنة ثمان من الهجرة ، ودخول أهلها جميعهم في الإسلام لينعموا بفضل صحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومحاولة التعويض عما فاتهم قبل ذلك ، ثم أخذوا بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشاركون في عمليات الفتح الإسلامي للبلاد المجاورة ومن ثم الاستقرار فيها . ولقد سبب كل ذلك تفرغا كبيرا لمكة من سكانها ، وخاصة الصفوة وذوي الشأن منهم .

وقد كره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عودة المهاجرين إلى مكة بقصد الاستقرار ، وقال : « اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم »^(١) مما جعل العودة للاستقرار بمكة بعد الهجرة تعد أمرا معيبا ، كما

يعكس نص يرويه الواقدي (ت ٢٠٧هـ) : «لا نعلم أحدا من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة - يعني بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - ، فنزلها غير أبي سبرة [بن أبي رهم بن عامر بن لؤي] فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ، ويدفعون أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ، ويغضبون من ذكر ذلك . .» (١م) .

وفي ظل تلك الأحوال لا يتوقع أن تنشأ حركة علمية في مكة ذات بال في العقود المبكرة من تاريخ الإسلام ؛ وهذا ما يجعل بداية الحركة العلمية في مكة يكتنفها الغموض بسبب من عدم عناية المصادر برصد تاريخ مكة بعد عهد الرسالة ، يضاف إلى ذلك أنه لم يبرز في مكة عالم أو أكثر في الفترة المبكرة حتى يلتفتوا الانتباه إلى أنفسهم فيدون علمهم وسيروهم .

كيف بدأت الحركة العلمية في مكة؟

تذكر المصادر ^(٢) أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد واليا عليها ، وعهد إلى معاذ بن جبل الأنصاري أن يقوم بتعليم أهل مكة القرآن والفقه في الدين . على أننا لا نعرف على وجه الدقة المدة الزمنية التي مكثها معاذ لتأدية هذه المهمة ، كما أننا لا نعرف أية تفاصيل عن الذين تتلمذوا عليه ، ولكننا نعرف أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في السنة التاسعة من الهجرة أرسل معاذاً على رأس وفد من الصحابة إلى اليمن ليقوموا بنشر الإسلام ، وجمع الصدقات ^(٣) ، ومن ذلك ندرك أن بقاءه بمكة كان أقل

من سنة . ولا نظن أن الأشهر التي أمضاها في مكة كانت كافية لتفقيه الناس في أمور دينهم ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد عهد بهذه المهمة إلى آخرين من أصحابه ، وإن كنا لا نملك دليلاً على ذلك في الوقت الحاضر.

وكان من نتائج فتح مكة ، ودخول أهلها في الإسلام أن قويت الصلات بين المسلمين في المدينة وإخوانهم في مكة . فأهل مكة أخذوا يذهبون إلى المدينة للالتقاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبالصحابة الآخرين ، وخاصة أقاربهم من المهاجرين ، والمسلمون في المدينة بدأوا يأتون إلى مكة لأداء الحج أو العمرة وزيارة الأقارب وقضاء المصالح الخاصة . كل هذا قوى التفاعل بين أهل مكة حديثي الإسلام ، وإخوانهم في المدينة السابقين إلى الإسلام . وحرص أهل مكة على التفقه في الدين والتعويض عما فرطوا في سابق وقتهم .

والمصادر التي لا تمدنا بمعلومات عن حال التعليم بمكة في العهد النبوي سوى الإشارة إلى دور معاذ بعد الفتح ، فإنها شحيحة كذلك في المعلومات عن حال التعليم في العهد الراشدي إلا أنه يمكن الاستنتاج أنه كان هناك نوع من النشاط العلمي الذي يركز بصفة خاصة على قراءة القرآن ومعرفة السنن . فهي تشير إلى أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي ولي مكة لعمر بن الخطاب استقبل الخليفة عمر عندما قدم إلى مكة في عسفان^(٤) وسأله الخليفة : «من استخلف على أهل الوادي يعني مكة - قال : ابن أبيزي . قال : ومن ابن أبيزي؟ قال : رجل من موالي . فقال عمر : استخلف عليهم مولى ! قال إنه قارئ لكتاب الله عز وجل عالم بالفرائض . فقال عمر : أما إن نبيكم - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن قوما ، ويضع به آخرين»^(٥) .

ويتضح من هذا النص أنه كان في مكة حركة تدريس للقرآن والفرائض في عهد عمر وما قبله، فالحادثة السابقة وقعت كما يظهر في سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وهي السنة التي قتل فيها عمر^(٦). وكان التعليم متاحاً فيها لجميع المسلمين، العرب صليبة والموالي.

ولقد روى عبد الرحمن بن أبيزي الخزاعي أحاديث عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وعمار بن ياسر^(٧)، وهذا يشير إلى لقائه كل هؤلاء الصحابة الأجلاء، وقد يكون اللقاء حدث في مكة أو في المدينة. والأحاديث المحفوظة من رواية عبد الرحمن بن أبيزي كلها تتعلق بأمور الصلاة وأدعية الرسول - صلى الله عليه وسلم -^(٨). ولكننا لا نعرف على من أخذ قراءة القرآن؛ فالمصادر لم تذكر له رواية أو اتصالاً بمعاذ بن جبل.

ومن أوائل المكين الذين كان لهم إسهام في الحركة العلمية عبد الله بن السائب المخزومي (ت. قبل سنة ٦٨ هـ). أسلم عبد الله يوم فتح مكة وهو صغير، وظل مقيماً بمكة إلى أن توفي^(٩)، قرأ عبد الله القرآن على أبي بن كعب، وحدث عنه وعن عمر بن الخطاب، ووصف بمقرئ مكة، وأصبح أستاذاً في القراءة فمقرئو مكة أخذوا القراءة عنه^(١٠). ولا نعرف كيف أخذ القراءة عن أبي بن كعب، هل ذهب إلى المدينة أو أن أبياً أقام في مكة بعض الوقت فتلمذ عليه عبد الله؟، إلا أنه من المتوقع لو أن أبياً أقام في مكة بعض الوقت لتلمذ عليه آخرون غير عبد الله.

وكان جد عبد الله شريك النبي - صلى الله عليه وسلم - في التجارة في الجاهلية وقد أثنى عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -^(١١).

ويبدو أن مكانة عبد الله العلمية والشخصية محل تقدير الخليفة عمر بن

الخطاب فعندما جاء إلى مكة إثر سيول مدمرة حدثت في مكة، وتسببت في تغيير موضع مقام إبراهيم - عليه السلام - عهد الخليفة إلى عبد الله بإعادة المقام إلى مكانه الأصلي^(١٢).

وكان عبد الله يؤم الناس بالمسجد الحرام نستدل على ذلك من قوله « . أنا أول من صلى خلف المقام حين رد في موضعه هذا، ثم دخل عمر وأنا في الصلاة فصلى المغرب . . . فلما قضى عمر صلاته قال : أحسنت »^(١٣).

وكانت علاقة عبد الله بن السائب بعبد الله بن عباس علاقة ود واحترام متبادل، فكان ابن السائب يأتي إلى ابن عباس في مجلسه في المسجد الحرام، ويسأل ابن عباس عن المواضع التي صلى فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - فيقوم ابن عباس فيصلي في المواضع نفسها^(١٤). ولا يحفظ أحمد بن حنبل في مسنده أحاديث من رواية ابن السائب سوى أربعة أحاديث^(١٥).

ومن جيل ابن السائب نفسه نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل أسلم عند فتح مكة وهو صغير السن. ويظهر أن نافعا كان يتقن الكتابة؛ فقد ذكر أنه كتب المصاحف، واختلف إن كان ذلك في عهد عمر بن الخطاب^(١٦) أو في عهد عثمان بن عفان^(١٧). وإسناد مسئولية كتابة المصاحف يستوجب أولاً إجادة القراءة والكتابة، ولكن لا بد أن يكون الكاتب أيضاً مجيداً لقراءة القرآن عارفاً بأسباب نزوله، كما يجب أن يكون فصيحاً عالماً باللغة العربية، وخاصة لغة قريش وأشعار العرب. ولا بد أن نافعاً كان كذلك، وهذا يدل على نمو الحركة التعليمية في مكة في زمن مبكر، وإن كنا في واقع الأمر لا نعرف عن هذه الحركة شيئاً سوى معرفتنا القليلة عن هؤلاء الرجال الذين يمثلون نتاجها.

ومن المساهمين في الحركة العلمية في مكة في هذه المرحلة عبيد بن عمير بن

قتادة الليثي الكناني، وقد ولد على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتوفي سنة أربع وسبعين ، وروى الحديث عن عمر وعلي وأبي بن كعب وأبي موسى وعائشة وابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص^(١٨) . ووصف بأنه ثقة كثير الحديث^(١٩) . وكان عبيد أول من قص بمكة في عهد عمر بن الخطاب^(٢٠) . وكان محل فخر أهل مكة ، قال مجاهد: نفخر على الناس بأربعة: فقيهما ابن عباس ، وقارئنا عبد الله بن السائب ، ومؤذنا أبي مخزومة ، وقاصنا عبيد بن عمير^(٢١) .

وكان القاص يقوم في المسجد الحرام بعد صلاة الصبح ، فيذكر الله تعالى ويدعو ويؤمن الناس ، وذلك خلف المقام بعد تسليم الإمام^(٢٢) . وقد وصف القصاص بأنهم «الذين يذكرون الجنة والنار والتخويف ، ولهم نية وصدق الحديث»^(٢٣) . على أنه ليس كل القصاص كذلك ، فبعضهم ينقصه العلم وصدق النية وصدق الحديث ، ومثل هؤلاء محل نقد من علماء الأمة ، وإن كان لهم بعض القبول من عامة الناس . وعندما سئل عبد الله بن عمر عن قاص من هذه الفئة يقص في المسجد الحرام: أي شيء يقول هذا؟ قال: هذا يقول اعرفوني اعرفوني^(٢٤) .

على أن عبيد بن عمير يجمع بين العلم وصدق النية والحديث ، وكان محل تقدير وإعجاب كل الناس ، فعبد الله بن عمر - وهو من هو في العلم - يأتي إلى حلقة ابن عمير ، ويستمع إلى قصصه ، وتبدأ عيناه تهريقان دموعا من شدة التأثر ويقول: لله درك يا بن قتادة ماذا تحيي به^(٢٥) . وعندما كان ابن عمر في حلقة المسجد الحرام ، والناس يسألونه ، وعبيد بن عمير يقص فقال: خلوا بيننا وبين مذكرنا^(٢٦) .

ولقد عد عبيد من الناحية العلمية في مصاف علماء الصحابة من حيث هم قدوة في سلوكهم الديني، فطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) يقول: «أدركت مشايخنا ابن عباس وجابرا وأبا هريرة وعبيد بن عمير لا يستلمون إلا الحجر الأسود والركن اليماني»^(٢٧). وكان عبيد يجلس مع عبد الله بن عمرو بن العاص حيث يقول: «بينما نحن جلوس في المسجد الحرام بعدما ارتفع النهار، وقلصت الأفياء...»^(٢٨)، ولا بد أن مثل هذا المجلس كانت تدور فيه روايات لأحاديث وأخبار ونقاش لقضايا فقهية كثيرة. وكانت أم المؤمنين عائشة مجاورة بين جبلي حراء وثبير لمدة شهرين، وكان يتردد عليها طلاب العلم وناس من قریش، ومن المتوقع أن يدور في مجالسها الحديث عن سنن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرته. وكان عبيد مع عطاء بن أبي رباح من الذين يترددون على مجلسها، وقد سألها عبيد فقال: أي هتاه! ما قول الله عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢٩). «أما عائشة فقد أوصت عبيدا وقالت: اقصص يوما ودع يوما، لا تمل الناس»^(٣٠)، وفي رواية أنها قالت: «خفف فإن الذكر ثقیل»^(٣١).

وقد روى عبيد عن كعب الأحبار^(٣٢)، وقد تكون روايته عنه مشافهة إلا أننا نستطيع القول إن أثر أهل الكتاب في المواعظ والأحاديث التي يحفظها أبو نعيم لعبيد ضئيل جدا^(٣٣).

وكان عبد الله بن الزبير إبان حكمه لمكة يجلس عبيد بن عمير، ويقدر منزلته العلمية فكان يستشير في المسائل الخطيرة مثل هدم الكعبة بعد احتراقها، وإعادة بنائها، فأشار عليه عبيد مع الصحابي جابر بن عبد الله وعبد الله بن صفوان الجمحي بالشروع في هذا العمل^(٣٤)، كما كان يسأله عن بعض القضايا

التاريخية، منها: كيف بلغك أن إبراهيم دعا إلى الحج^(٣٥)؟ وسأله عن بدو أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -^(٣٦).

ويذكر ابن سعد^(٣٧) أنه عندما بايع أهل مكة لابن الزبير سنة خمس وستين للهجرة كان عبيد بن عمير من أسرعهم إلى بيعته، وبعد هزيمة ابن الزبير وقتله على يد الحجاج بن يوسف سنة ثلاث وسبعين للهجرة سأل الصحابي جابر بن عبد الله عبيد الله بن عمير - ربما مداعبا - : كيف أنت يا ليثي؟ قال: بخير على ظهور عدونا علينا^(٣٨).

ومما يسترعي الانتباه أنه بالرغم من أن كلا من عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانا يقيمان معا في مكة فإننا لا نلاحظ بينهما صلوات قوية، وكلاهما له حلقة في المسجد الحرام، والذين أخذوا العلم عن عبيد هم وجوه أصحاب ابن عباس مثل عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعبيد الله بن أبي مليكة وعمرو بن دينار. ومن الروايات النادرة التي تذكر حدوث الاتصال بينهما ما رواه تلميذهما مجاهد: «أن ابن عباس دخل المسجد وعبيد بن عمير يقص فقال لقائده: اذهب بي نحوه، فجاء حتى قام على رأسه فقال: يا أبا عاصم ذكر بالله وذكر الله، (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)^(٣٩)، واذكر في الكتاب موسى، واذكر في الكتاب إسماعيل^(٤٠)». ومن غير الواضح إن كان توجيه ابن عباس يتضمن نقدا لقصص عبيد أم غير ذلك. ورواية عبيد عن ابن عباس قليلة جدا مع أن مكانة ابن عباس العلمية لا تدانيها مكانة أي شخص آخر خاصة في مكة. ولعل في تناقض مواقفها السياسية من حركة ابن الزبير يكمن تفسير فتور العلاقات بينهما.

وبعض الروايات المحفوظة لعبيد يمكن أن تعطينا تصوراً لاهتماماته

العلمية، فجانب منها يتعلق بتاريخ الأنبياء^(٤١)، وجانب آخر يتعلق بسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم^(٤٢)، وردة بني حنيفة^(٤٣). وكانت له فتاوى يأخذ بها ولاية مكة^(٤٤).

ومن النساء اللواتي أسهمن في الحركة العلمية بمكة وخاصة رواية الحديث صفية بنت شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار حجة الكعبة. ولا نعرف شيئاً عن نشأة صفية، وهل قدر لها أن تتعلم القراءة والكتابة، أو أنها اكتسبت علمها من مجالسة أمهات المؤمنين عندما يقدمن إلى مكة للحج والعمرة وخاصة عائشة وأم سلمة وأم حبيبة. وقد وصف الذهبي صفية بالفقيهة والعالمة^(٤٥)، ولا يمكن إطلاق هذا الوصف على من اقتصر على رواية الحديث. وليس الذهبي من الذين يطلقون الكلم على عواهنه بالرغم من الفارق الزمني بين الواصف والموصوف. وقد أخذ عنها الحديث جماعة منهم ابنها منصور بن عبد الرحمن الحجبي، وسبطها محمد بن عمران الحجبي، وابن محيصن المقرئ وغيرهم^(٤٦).

إن العلماء الذين تناولناهم بالدراسة يمثلون أشهر علماء تلك الفترة الزمنية، ويمكن تسجيل عدد من الملاحظات هي: أنهم خمسة، امرأة وأربعة رجال ثلاثة منهم من قریش (خزوم، نوفل، عبد الدار) وليثي (كناني) وخزاعي. ويظهر أن الصدفة وحدها تدخلت في توزيعهم على هذا النحو، ولكن ذلك لا يخلو على أية حال من دلالة على الوضع السكاني والتغير الاجتماعي بمكة. فكل من قریش وخزاعة وكنانة يسكنون جميعاً في مكة، وإن كانت خزاعة وكنانة في أطرافها. ومشاركة صفية في الحركة العلمية تعطي تصوراً عن الدور الإيجابي للمرأة في الإسلام، وهناك عدد لا بأس به من الصحابيات والتابعيات

المكيات اللواتي لهن رواية للحديث ، ولكنهن لا يصلن إلى مكانة صفية . وما هو جدير بالملاحظة أيضا أن إجادة ابن أبيزى الخزاعي لتلاوة القرآن ومعرفته بالسنن رفعت منزلته الاجتماعية ليصبح أميرا على مكة بالنيابة وهو مولى ، وفيها جميع بطون قريش وبعض خزاعة وكنانة ، ولم يتدمر أحد منهم أو يشتكي إلى الخليفة عمر خصوصا إذا عرفنا أن المدة الزمنية الفاصلة بين دخول أهل مكة في الإسلام بعد الفتح وبين الحادثة لا تزيد على خمسة عشر عاما .

أما العلوم فكانت تقتصر على تلاوة القرآن الكريم ومعرفة السنن والفريضة أو الفرائض وهي كيفية توزيع تركة الميت على ورثته وفقا للشرع الإسلامي .

ولكننا في واقع الأمر في حاجة شديدة إلى معلومات عن التعليم في مراحلہ الأولى . أفكان الصبيان يتعلمون القراءة والكتابة في مكاتب أو في المسجد الحرام ؟ . وعن مدى إقبال الناس على تعليم أطفالهم ، وهل للمنزلة الاجتماعية (قريش ، العرب ، الموالي - الغني - الفقير) ؟ أثر في الإقبال على تعليم الأطفال ومن الذي كان يقوم بتعليم الصبيان ؟ وما هي النظرة الاجتماعية إلى هؤلاء المعلمين ؟ وما هي الأجور التي يتقاضونها مقابل ذلك ؟ وهل يقوم بها بعضهم احتسابا ؟ وهل تدرس علوم أخرى بجانب القراءة والكتابة ؟ وما هي وسائل ومواد الكتابة ؟ وهل هناك مرحلة متوسطة تعقب المرحلة المبكرة ؟ وماذا تسمى ؟ وأين تكون حلقاتها هل في المنازل أو في المسجد الحرام ؟ وماذا يصنف معلومها ؟ أما مناهجها فيمكن تصور أنها كانت تشمل قراءة القرآن الكريم ، وحفظ شيء منه ، ودراسة مبادئ علوم الدين وربما شيء من العربية والنسب . وهل هناك مستوى معين للطلاب يسمح لهم بعده بالالتحاق بحلقات كبار العلماء ؟ كل هذه الأسئلة لا نملك لها جوابا ، ومن المؤكد أن أجوبتها تعين الباحث في دراسة

الحركة العلمية دراسة أكثر عمقا ودقة وتنظيما .

على أن هناك جانبا آخر للحركة العلمية بمكة يمكن اعتباره استمرارا للثقافة العربية قبل الإسلام ، أعني ذلك الذي يهتم بالأنساب والأخبار وأيام العرب والشعر ، ولكن مجيء الإسلام بما فيه من قيم جديدة ركز اهتمام الحركة الفكرية على القرآن تلاوة وتدبرا ، ومعرفة السنن بما فيها من أحكام وآداب ، ونحى الاهتمام بالأنساب والأخبار والشعر من المركز إلى الهامش . ومع ذلك فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن مصادرنا لا تعكس الصورة الواقعية للحركة الفكرية بمكة في العصر الأموي إذ أن اهتمامها انصب بصفة رئيسة على رصد وتسجيل العلوم الإسلامية والمشتغلين بها ، وأهملت أولئك المهتمين بالأخبار والأنساب والشعر إهمالاً يكاد يكون تاما ، والقليل من الروايات التي تحفظها مصادرنا يمكن أن تؤيدنا فيما نذهب إليه ، من ذلك أن بعض المجالس كانت تعقد ، ويتذاكر فيها أخبار مكة وقريش قبل الإسلام فعلى سبيل المثال يروي عبد الله بن أبي نجيح (ت ١٣٢ هـ) عن أبيه قال : جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى (ت ٥٤ هـ) فتذاكروا بنيان قريش الكعبة ، وما هاجهم على ذلك ، وكيف كان بناؤها قبل ذلك ، قالوا . . .^(٤٧) . ويروي ابن أبي نجيح أيضا عن حويطب قوله : «كان في الجاهلية في الكعبة خلق أمثال لجم البهم يدخل الخاييف فيها يده فلا يريبه أحد»^(٤٨) .

ومن المهتمين بأخبار مكة في الجاهلية والإسلام المطلب بن أبي وداعة السهمي - من مسلمة الفتوح - ، ولمعرفته بمعالم مكة وحدودها فقد عهد إليه الخليفة عمر بن الخطاب مع آخرين بتحديد أنصاب الحرم^(٤٩) ، واستمر الخلفاء يعهدون إليه بهذه المهمة حتى عهد معاوية بن أبي سفيان^(٥٠) .

وكان مخزومة بن نوفل (من بني زهرة) (ت ٥٤هـ) مثل حويطب من مسلمة الفتح، وكان له علم بأيام الناس وبقريش خاصة، وعنه يؤخذ النسب^(٥١).

ويحفظ الأزرقى^(٥٢) مثلاً لتذاكر قریش أخبار مكة من رواية الواقدي: . . اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان - وهو خليفة -، نفر من قریش منهم جعدة بن هبيرة (المخزومي) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (المخزومي) وعبد الله بن زمعة بن الأسود (الزهري) فتذكروا أحاديث العرب . . ، وسألهم معاوية عن عدد من الموضوعات تتعلق ببناء البيت، وتقسيم مكة إلى رباة .

أما المرحلة الثانية للحركة العلمية بمكة فتمثل بعبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) وتلاميذه، فقد كان لمجيء ابن عباس إلى مكة واستقراره أثر حاسم فيها، فعلمه الغزير والموسوعي وسع آفاقها بعد أن كان نشاطها محدوداً من حيث التنوع الموضوعي ومن حيث العمق، يضاف إلى ذلك عامل مهم جداً وهو تقاني ابن عباس في أداء رسالته العلمية. ويظهر أنه بعد شعوره بالخيبة من جراء اشتغاله في السياسية إبان خلافة علي بن أبي طالب، وأثناء الفتنة لم يعد له أي طموح آخر سوى نشر العلم. ولم يكن هناك مكان أفضل لتحقيق هذا الهدف من مكة فقد كانت في أمس الحاجة إلى علمه، لأن جُلَّ علماء الصحابة كانوا يقيمون في المدينة، والبقية الباقية منهم تفرقوا في البلدان المفتوحة. يقول عبد الملك بن أبجر: «إنما فقه أهل مكة حين نزل ابن عباس - رضي الله عنهما - بأظهرهم»^(٥٣) ولكن متى نزل ابن عباس مكة؟ تفيد معظم المصادر أو «أمة أهل السير» - على حد تعبير الطبري -، أنه حدث في سنة أربعين من الهجرة سوء فهم بين الخليفة علي بن أبي طالب وواليه على البصرة عبد الله بن عباس ترتب عليه مغادرة ابن عباس البصرة، وذهب إلى مكة^(٥٤). وفي ضوء

المعلومات المتوفرة لا نستطيع الجزم بأنه استقر بمكة منذ تلك السنة، وإن كانت لدينا إشارات تؤيد ذلك؛ فالطبري يروي في أحداث سنة ستين من الهجرة: «أن ابن الزبير والحسين لما دعيا إلى البيعة ليزيد أبيا، وخرجا من ليلتهما إلى مكة فلقيهما ابن عباس وابن عمر جاثين مكة»^(٥٥). وعندما عزم الحسين على الخروج من مكة سنة ٦٠ هـ إلى العراق لإعلان الثورة على بني أمية كان ابن عباس بمكة، ونصحه بالعدول عن هذا المشروع^(٥٦).

ولعله لا يعد استطراداً إلقاء الضوء على جانب من سيرة ابن عباس العلمية المبكرة مما قد يساعد على فهم دوره بالنهوض بالحركة العلمية بمكة. بدأ ابن عباس في تلقي العلم منذ نعومة أظفاره بدءاً بالقرآن الكريم، ولقد أفاد بالرغم من صغر سنه من صحبته للرسول - ﷺ -، ويروى أن الرسول دعا له بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(٥٧). وقد وهب ابن عباس ذكاء وقادراً وقدرة استثنائية على الفهم والاستيعاب مع حب للعلم وجلد ومثابرة في تحصيله، ويضاف إلى ذلك كله قرابته من الرسول - ﷺ - فهو ابن عمه وزوج خالته ميمونة، وهذا أعطاه الفرصة أكثر من غيره لرؤية الرسول ولفياه، والتأدب بأدبه ومعرفة سنته، كما أن هذه القرابة جعلته محل تقدير ومحبة الصحابة - رضوان الله عليهم -.

ويروي ابن عباس طرفاً من تجربته الشخصية في التحصيل العلمي فيقول: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله - ﷺ - من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله - ﷺ - وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحداً منهم إلا سرّاً بإتياني لقربي من رسول الله - ﷺ -، فجعلت أسأل أبي بن كعب يوماً - وكان من الراسخين في العلم - عما نزل من القرآن في المدينة،

فقال : نزل بها سبع وعشرون سورة ، وسائرهما بمكة (٥٨) .

ويقول أيضاً : « وجدت عامة حديث رسول الله - ﷺ - عند الأنصار ، فإني كنت لأتي الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يوقظ لأوقظ ، فأجلس على بابهِ تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ ، متى ما استيقظ وأسأله عما أريد وأنصرف (٥٩) . وقالت سلمى زوجة أبي رافع مولى رسول الله - ﷺ - : « رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله - ﷺ - (٦٠) » .

وقد شهد لنبوغه العلمي كبار الصحابة وعلمائهم ، فعمر بن الخطاب يقول عنه : « ذاكم فتى الكهول له لسان سئول وقلب عقول (٦١) » . وعبد الله بن مسعود الذي نشر العلم بالكوفة يقول عنه : « لو أن ابن عباس أدرك أسنانا ما عشره منا رجل . نعم ترجمان القرآن ابن عباس (٦٢) » . وتنبأ له أبي بن كعب بمكانة علمية فريدة فقال : « هذا يكون حبر هذه الأمة ، أوتي عقلاً وفهماً . . . » (٦٣) . أما سعد بن أبي وقاص فقال عنه : « ما رأيت أحضر فهماً ولا ألب لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس ، لقد رأيت عمر يدعو للمعضلات فيقول : قد جاءت معضلة ، ثم لا يجاوز قوله ، وإن حوله لأهل بدر (٦٤) » .

وابن عباس مثلاً كان حريصاً على تحصيل العلم كان حريصاً على نشره وإذاعته بين الناس أينما كان ، فعندما عهد إليه علي بن أبي طالب إبان خلافته بإمارة البصرة أخذ ينشر العلم بين أهلها . يقول الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) : « كان ابن عباس من الإسلام بمنزل ، وكان من القرآن بمنزل ، وكان يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران فيفسرهما آية آية (٦٥) » .

وبعد أن استقر به المقام في مكة انكب عليه طلاب العلم لينهلوا من معين علمه ، ويصور لنا أحد تلاميذه - وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - مزايا ابن عباس العلمية ، وأنواع الدروس التي تلقى في مجالسه : « كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم وسيب ونائل . وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله - ﷺ - منه ، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ، ولا بفريضة منه ، ولا أعلم بما مضى ، ولا أثقف رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام العرب . وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلاً قط سألته إلا وجد عنده علماً » (٦٦) .

ونلاحظ من هذا النص أن العلوم في مكة اتسعت ، ولم تعد تقتصر على تلاوة القرآن ، ومعرفة السنن ، فأصبحت تشمل التأويل والمغازي وأيام العرب والأنساب . ويشهد لابن عباس تلاميذه الكثر بغزارة العلم والكرم ، فطاء بن أبي رباح يقول : « ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس ، ولا أعظم جفنة ، ولا أكثر علماً . . » (٦٧) ، ومثل ذلك قال مجاهد وعمر بن دينار (٦٨) .

ومر عبد الله بن صفوان (الجمحي) يوماً بدار عبد الله بن عباس فرأى فيها جماعة من طالبي الفقه ، ومر بدار عبد الله بن عباس فرأى فيها جمعاً يتناوبونها للطعام ، فدخل على ابن الزبير فقال : أصبحت والله كما قال الشاعر :

فإن تصببك من الأيام قارعة لم نبك منك على دنيا ولا دين (٦٩) .

وكان منادٍ ينادي بمكة : من يريد العلم واللحم فليأت منزل عبد الله بن

عباس (٧٠).

وقال إبراهيم بن عكرمة: كنت آتي ابن عباس أنا وحيي بن يعلى وسعيد بن جبير، كنت أسأله عن النسب، ويسأله حيي عن أيام العرب، ويسأله سعيد عن الفتيا والتأويل (٧١).

أما أبو صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب أحد تلاميذ ابن عباس فيروي حديثاً طويلاً يعكس إقبال طلاب العلم على ابن عباس إقبالاً كبيراً لدرجة أن المرء يخالجه شيء من الشك في صحته، أو على الأقل، فيه شيء من المبالة، ونصه: «لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان فخراً، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر على أن يجيئ ولا أن يذهب. قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابها، قال: ضع لي وضوءاً. قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أريد منه فليدخل. قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوا عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر. ثم قال: إخوانكم! فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل. قال: فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوا عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر... وصنع مثل ذلك مع الذين يسألون عن الحلال والحرام والفقه، ومع الذين يسألون عن الفرائض وما أشبهها، ومع الذين يسألون عن العربية والشعر والغريب» (٧٢).

وخرج معاوية حاجاً ومعه ابن عباس، وكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم (٧٣). ونظرت عائشة إلى ابن عباس ومعه الخلق ليالي

الحج، وهو يُسأل عن المناسك فقالت: أعلم من بقي بالمناسك^(٧٤). ومثل ذلك قالت أم سلمة عندما قال أحد الحجاج: أرى الناس منقصين على ابن عباس^(٧٥).

وكان لابن عباس مجلس في المسجد الحرام، وكان موضعه في زاوية زمزم التي تلي الصفا وهو على يسار من دخل زمزم^(٧٦). ويقول تلميذه عبيد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧ هـ): كان ابن عباس يجلس في الصفة، وكان الناس يتصدرون عن فتياه، فيقول السقاة: كأنه رسول الله - ﷺ - إلا أنه لم يبعث^(٧٧). والظاهر أن الصفة وزاوية زمزم مكان واحد بدليل الإشارة إلى السقاة الذين يمتحون الماء من عين زمزم. وقد عمل حفيده سليمان بن علي قبة من الخشب على موضع مجلسه في ولاية خالد بن عبد الله القسري على مكة^(٧٨).

وكان طلاب العلم من كل البلدان الإسلامية يحضرون على لقاء ابن عباس والأخذ عنه، ولا يستثنى من ذلك الخوارج، فقد قدموا من اليمامة يرأسهم نجدة بن عامر الحنفي، وإذا هم بعبد الله بن عباس قاعداً قريباً من زمزم عليه رداء له أحمر وقميص فإذا ناس قيام يسألونه عن التفسير يقولون: يا أبا العباس ما تقول في كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا^(٧٩).

ويظهر أن طلاب العلم لا يكتفون بالأخذ عنه في مجلسه فقط بل يجاولون الاستفادة منه في كل الأوقات وجميع الظروف، فأبو العالية البصري (ت ٩٣ هـ) يقول: «كنت أطوف مع ابن عباس وهو يعلمني اللحن»^(٨٠). والمقصود الخطأ في كلام العرب والاحتراز من الوقوع فيه.

وحديث أبي صالح الآنف الذكر والأحاديث التي سبقته تدل على أن ابن عباس يقيم مجالس علمه أيضاً في منزله، ولدينا إشارة تدل على أن له مجلسين،

فعندما سئل عبيد بن يزيد المكي (ت ١٢٦هـ): مع من كنت تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء والعامه، وكان طاووس يدخل مع الخاصة^(٨١). وكلمتا «خاصة وعامه» يمكن أن يفهم من الأولى أن أصحابها ذوو المستوى المتقدم في العلوم، بينما العامة مفتوحة للجمهور أو ذوي المستويات الدنيا في المستوى التعليمي، ولكن وجود مثل عطاء في العامة أمر يدعو للتساؤل فهو من أعلم أصحاب ابن عباس، بلا جدال، إلا إذا كان يعين ابن عباس ويقوم بدور يشبه دور المعيد. ونستبعد أن يكون تصنيف «العامة والخاصة» على أساس الخطوة والمكانة الاجتماعية.

على أية حال ليس لدينا تصور واضح عن الطريقة المتبعة في تنظيم مجالس ابن عباس سواء من حيث تنوع العلوم أو من حيث تصنيف مستويات الدارسين، فعبيد الله بن عتبة في حديثه السابق يذكر أن ابن عباس كان يخصص يوماً لكل فن، بينما حديث أبي صالح يذكر أن أهل كل فن يدخلون على ابن عباس بعد أهل الفن الآخر بالتتابع وفي اليوم نفسه. أما عطاء بن أبي رباح فيذكر «أن أصحاب القرآن في ناحية، وأصحاب الفقه في ناحية، وأصحاب الشعر في ناحية، وأصحاب الأنساب وأيام العرب في ناحية»^(٨١). وربما أن ابن عباس كان يخصص مجالس للتعليم على أساس تحديد المستوى العلمي، ويخصص كل مجلس لفن من الفنون، ومجالس أخرى تكون مفتوحة يسأل فيها من يشاء عما يشاء.

لقد أسهم ابن عباس في بناء نهضة علمية بمكة تمثلت في تلك الصفوة من العلماء الأجلاء مثل عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبر وعبيد الله بن أبي مليكة وطاووس وعكرمة وغيرهم، وقد توافد عليه العلماء من كل

بلدان المسلمين آنذاك، وأخذوا عنه العلم. وكان عامة الناس من أهل مكة وغيرهم يستفتونه فيما أشكل عليهم من أمور دينهم، وتتضح غزارة علم ابن عباس بكثرة الروايات عنه سواء كان ذلك في الحديث أو الفقه أو التفسير.

ولم يكتف طلاب العلم بمكة بالتلمذ على ابن عباس ولكنهم حرصوا على الاستفادة من علماء الصحابة الآخرين مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٣هـ) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣هـ)، وجابر بن عبد الله (ت ٧٨هـ) وغيرهم. وكان هؤلاء يترددون على مكة لأداء مناسك الحج أو العمرة، ويطلبون الإقامة فيها أحياناً. ومن الطبيعي أن يكونوا محل محبة وتقدير جميع الناس لصحبتهم رسول الله - ﷺ - أولاً، ولغزارة علمهم ثانياً. وكان الناس يقبلون عليهم، ويلازمونهم للاقتداء بهم، وسؤالهم عن أمور دينهم، وكان طلاب العلم يختصون بهم أكثر من غيرهم، وهم من جانبهم يخصون طلاب العلم بال العناية والرعاية، ويعطونهم من الوقت ما لا يعطونه لغيرهم. ومن صور هذا التلازم ما يفتي به عطاء بن أبي رباح عن وقت استلام الحجر في الطواف، يقول: «طفت مع جابر بن عبد الله ومع عبد الله بن عمرو بن العاص ومع ابن عباس ومع أبي سعيد الخدري فما رأيت منهم إنساناً استلمه حتى فرغ» (٨٢). ويقول مرة أخرى: «رأيت عبد الله بن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وجابر بن عبد الله إذا استلموا الحجر الأسود قبلوا أيديهم» (٨٣).

ويقول أبو غالب مولى خالد بن عبد الله بن أسيد: كان ابن عمر ينزل علينا بمكة (٨٤). وكان الناس يفتنمون وجود ابن عمر بمكة، فيقول الأزرق بن قيس: كنت جالساً عند ابن عمر في المسجد الحرام والناس يسألونه (٨٥). ويقول آخر: دخلت المسجد، وصليت مع ابن عمر العصر، ثم جلست وحلّقت

عليه أصحابه^(٨٦). أما مجاهد بن جبر فيحدث عن نفسه وعن زملائه فيقول: كنا مع عبد الله بن عمر في الطواف فنظر إلى رجل يطوف كالبدوي طويل مضطرب حجرة من الناس، فقال: أي شيء تصنع؟ قال: أطوف. قال: مثل الجمل تخبط ولا تستلم ولا تكبر ولا تذكر الله تعالى...؟^(٨٧).

ويظهر أن بعض طلاب العلم لا يتيسر له السؤال في حلقة ابن عمر، ربما من كثرة السائلين، فيغتنم أي مناسبة أخرى، فيروي صفوان بن محرز المازني البصري: «بينما نحن مع عبد الله بن عمر وهو يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر! كيف سمعت رسول الله ﷺ — يقول في النجوى؟...»^(٨٨).

وكان طلاب العلم يظهرون كل ضروب الاحترام والتبجيل لهؤلاء العلماء، ويتشرفون بخدمتهم، يقول عطاء: كنت آخذاً بزمam راحلة عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أقود به إلى البيت^(٨٩).

وكانت مجالس العلم تعقد في أفياء المسجد الحرام، وتمتد الجلسات الصباحية حتى تصل الشمس إلى أصحاب الحلقة، فيقول عبيد بن عمير: «كنا جلوساً مع عبد الله بن عمرو بن العاص في الحجر إذ قلص الظل، وقامت المجالس...»^(٩٠).

أما الصحابي جابر بن عبد الله فقد جاور بمكة مرة ستة أشهر في بني فهر^(٩١)، وكان طلاب العلم يأتون إليه ليأخذوا عنه الحديث، يقول عطاء: كنا عند جابر بن عبد الله فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث. ويقول أبو الزبير: كان عطاء يقدمني عند جابر أسألهم الحديث^(٩٢).

وكان لابن الزبير (ت ٧٣هـ) إسهام طيب في الحركة العلمية في مكة، ومن ذلك أنه «كان يصلي الظهر، ثم يضع المنبر فيجلس عليه في العشر كلها - (أي: في عشر ذي الحجة) - فيما بين العصر والظهر فيعلم الناس الحج» (٩٣).

ولم يقتصر طلاب العلم بمكة على تلقي العلم على الذين يقدون إليهم بمكة لكنهم بدأوا يرحلون إلى العلماء في المدن الأخرى، فقد كان عطاء وأقرانه مثل مجاهد متناظرين في المستوى العلمي لكن لما رحل عطاء إلى المدينة، والتقى بعلمائها، وأخذ عنهم ثم عاد إلى مكة ظهر تفوقه عليهم (٩٤).

ولم تلبث هذه الطبقة من طلاب العلم أن تسلمت قيادة الحركة العلمية بمكة، ويأتي في مقدمتهم عطاء بن أبي رباح (٢٧هـ - ١١٤هـ). وكان عطاء يمارس مهنة التعليم منذ مرحلة مبكرة فقد بدأ حياته العلمية معلماً كُتّاب، واستمر على ذلك دهرًا (٩٥)، لكنه بلغ من العلم مستوى يسمح له بالانتقال من تعليم الصغار ليتصدر حلقة في المسجد الحرام ليعلم ويفتي، وقد شهد له أساتذته بأنه كفاء لهذه المسؤولية، فابن عمر قال عندما قدم مكة، وبدأ أهلها يلقون عليه أسئلتهم: «تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح!» (٩٦). أما ابن عباس فقال لطلاب العلم الذين يأتون إلى مجلسه: «يا أهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء» (٩٧) وقد ورث مكانة أستاذه ابن عباس خاصة في الفقه، وكان يحض الناس على حضور حلقات الفقه، ويسمونها «مجالس الذكر»، ولم يكن الفقه أخذ مصطلحه بعد، ويشرح عطاء مجالس الذكر فيقول: «مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي، وكيف تصوم، وكيف تنكح، وكيف تطلق، وتبيع وتشتري» (٩٨). وبالرغم من مشاركة زميله مجاهد له في هذا الموضوع فإنه تفوق على زميله. كما قيل: «انتهت فتوى أهل مكة إلى عطاء ومجاهد في

زمانها، وأكثر ذلك إلى عطاء»^(٩٩). ومن ثم تفرد عطاء في الفتوى فقيل: «كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح»^(١٠٠). ويقول أبو حازم الأعرج: «فاق عطاء أهل مكة بالفتوى»^(١٠١). وقد شهد لتفوق عطاء ونبوغه العلمي وتقواه العلماء من البلدان، فمن المدينة يقول محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: «ما رأيت مفتياً خيراً من عطاء بن أبي رباح...»^(١٠٢)، ومن البصرة يقول قتادة بن دعامة: «كان عطاء من أعلم الناس بالمناسك»^(١٠٣). ومن الكوفة يقول سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء وطاووس ومجاهد»^(١٠٤). ويقول أحد معاصريه: «أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصبح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن عطاء فعبد الله بن أبي نجيح»^(١٠٥).

وإذا كانت شهرة عطاء العلمية محل اعتراف وتقدير العلماء في البلدان الإسلامية فإنها أيضاً محل إكبار أهل البادية، فإن أحدهم دخل المسجد الحرام وسأل في الحلقات: أين أبو محمد؟ فأشار بعض الناس إلى سعيد بن جبير، والأعرابي يعرف أن وصف عطاء لا ينطبق على سعيد، فكرر السؤال: أين أبو محمد؟ فقال سعيد: ما لنا هاهنا مع عطاء شيء»^(١٠٦).

وحتى أصحاب المهن الوضيعة في مكة والذين لم يعيروا العلم كبير اهتمام أفادوا بشكل أو بآخر من علم عطاء. يقول الإمام أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ): «أخطأت في خمسة أبواب من المناسك في مكة فعلمنيها حجام، فقلت له: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل ذلك»^(١٠٧).

ويظهر أنه بالإضافة إلى تفرد عطاء بالإفتاء كان له حق الإشراف على الحلقات العلمية، وبعض الوظائف الدينية في المسجد الحرام قال موسى الجهني: رأيت عطاء بن أبي رباح دعا بخمسة قصاص فقال: قصوا في المسجد الحرام. وهو جالس إلى إسطوانة، فكان خامسهم عمر بن ذر^(١٠٨). وعمر كوفي من تلاميذ عطاء ومجاهد، ويوصف بالفقيه القاص^(١٠٩).

أما نشأة عطاء وحياته المبكرة فلا نعرف عنها إلا القليل، فيذكر بعض المصادر أنه من مولدي الجند باليمن، ونشأ بمكة^(١١٠). وهو الأشهر —، وهناك رواية أخرى تذكر أنه ولد بمكة في دار خالد بن العاص بن هشام وهي دار العلوج الحبش^(١١١). وذكر أن والده نوبي كان يعمل المكاتل^(١١٢). وقد بالغت المصادر في وصف دمامة خلقه، فقيل: إنه كان أسود أعور أفتس أشل أعرج ثم عمي بعد ذلك^(١١٣). وقيل: إنه كان أصلع أرشح أفحج كأن أنفه بكرة أشد سواداً من است القدر^(١١٤).

ونشأته الاجتماعية الوضعية ودمامة خلقه لا تعيننا هنا إلا بالقدر الذي توضح به تغير القيم الاجتماعية، فعند ما سلك عطاء سبيل العلم، وأخلص له وسماً به العلم، وأصبح محل احترام وتقدير كل الناس في مكة وفي الأمصار الإسلامية. ولم يكن عطاء محل تقدير الناس خاصتهم وعامتهم فحسب، بل إن بني أمية كانوا يحلون له ولعلمه وورعه وتقواه، فعندما دخل عطاء على عبد الملك بن مروان وهو على السرير قام إليه وأجلسه معه، وقعد بين يديه فوعظه عطاء^(١١٥). وفي عصر عطاء الذي يتزاحم فيه الشعراء ورؤساء القبائل ووجوه الناس على أبواب الخلفاء من أجل الأعطيات والجوائز مقابل مديح كاذب ونفاق واضح، نجد عطاء يترفع ويسمو عن هذا السلوك، ويظهر أعلى

درجات النبيل وتجسيد روح الجماعة في التعبير عن مطالب الأمة واحتياجاتها وما يصلحها وذلك في لقائه مع الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في مكة: « . فلما دخل عليه تزحزح له عن مجلسه ، فقال [عطاء]: يصلح الله أمير المؤمنين ، احفظ وصية رسول الله - ﷺ - في أبناء المهاجرين والأنصار . قال [الخليفة]: أصنع بهم ماذا ؟ قال : تنظر في أرزاقهم وأعطياتهم . ثم قال : احفظ وصية رسول الله - ﷺ - في أهل المدينة . قال : أصنع بهم ماذا ؟ قال : تنظر في أرزاقهم وأعطياتهم . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم أهل البادية تفقد أمورهم فإنهم سادة العرب . قال : ثم ماذا ؟ قال : ذمة المسلمين : تفقد أمورهم ، وخفف عنهم من خراجهم فإنهم عون لكم على عدو الله وعدوكم . قال : ثم ماذا ؟ قال : يصلح الله أمير المؤمنين ، ثم نهض . فلما ولى قال سليمان : هذا والله الشرف لا شرفنا ، وهذا السؤدد لا سؤددنا . والله لكانها معه ملكان ما يكلمني في شيء فأقدر أن أرده ، ولو سألتني أن أتزحزح له عن هذا المجلس لفعلت (١١٦) .

وهذا النص يبين مقام عطاء عند الناس وعند الخليفة ، وهو مع ذلك أيضاً يعكس حقيقتين أولاهما : التغير في القيم ، والتي أشرنا إليها آنفاً ، فالعلم بالدين والتقوى وقول الحق جعل عطاء سيداً يذعن لقوله الخليفة لمكانته عند الناس ، ولأنه يجسد مصلحة الأمة ، ولم يطلب شيئاً لنفسه ، والحقيقة الثانية : التغير الديموجرافي بمكة ، فدخل كثير من العناصر في الإسلام ، واستقرارها بمكة جعلتهم أصحاب كلمة فيها والمتحدثين باسم أهلها ، وهل يمكن أن يحدث مثل ذلك الموقف في عهد أبي جهل وأبي سفيان وصفوان بن أمية الجمحي وأمثالهم من «أهل النادي والبلد»؟ وإشادة الفاكهي بمكانة قريش في

مكة في هذا الزمن بالذات - وهو زمن ولاية خالد القسري على مكة - مسألة فيها نظر، يقول : «وكانت قريش بمكة أهل كثرة وثروة وأهل مقال في كل مقام، هم أهل النادي والبلد، وعليهم يدور الأمر وفي الناس يومئذ بقية ومسكة»^(١١٧)، والذي يظهر لي أنه بطريقة لا شعورية يعني الفاكهي ما آلت إليه أحوال قريش في القرن الثالث الهجري، فقريش موازنة بالقرن الأول الهجري ضاعت هيبتها وقل شأنها، ولم يعد لها قول في إدارة شئون مكة.

أما كيف يكسب عطاء رزقه فليست لدينا معلومات وافية عن هذا الموضوع، ولا نعرف عندما كان معلم كتاب هل كان يأخذ مقابل ذلك أجراً أو كان يقوم بهذا العمل احتساباً، وإن كنا نرجح أنه كان يتقاضى أجراً نظراً لرقه حاله.

وقد ذكر أنه كان يعيش بعدما أصبح مفتياً من «نيل السلطان وصلة الإخوان»^(١١٨). وعندما رأى أحد جلسائه أن ملابسه رثة عرض عليه أن يعينه ببعض الثياب قال : «إنا لا نقبل إلا من الأمراء»، وفسرها الذهبي : «يريد بيت المال»^(١١٩).

لقد نشأ نشأة فقيرة متواضعة لكنه عاش حياة خصبة غنية بالعلم، فحمله عنه الطلاب في مكة وفي جميع الأمصار الإسلامية، ومات وهو إمام وقوده.

ومن أقران عطاء وزملائه مجاهد بن جبر (٢١ هـ - ١٠٢ هـ) الأسود مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، وقد روى الحديث عن ابن عباس، وعنه أخذ القرآن والفقه، وروى الحديث أيضاً عن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم^(١٢٠). على أن مكانة مجاهد العلمية تركز على القرآن والتفسير لا على

الحديث والفقه، ومن أجلهما فقد لازم ابن عباس مدة طويلة، وكان من أخصائه، فأصبح أعلم أهل زمانه فيها^(١٢١)، ولقب بشيخ القراء والمفسرين^(١٢٢). وإن كان عطاء يتفوق على مجاهد بالفقه فإن مجاهداً يتفوق على عطاء بالقرآن والتفسير^(١٢٣).

وفي أخذ مجاهد القرآن عن ابن عباس لدينا روايتان، أولاهما: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة»^(١٢٤)، والثانية: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية أسأله فيها نزلت وكيف نزلت»^(١٢٥). ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية لأنها أقرب إلى الواقع، ومن الصعب قبول الرواية الأولى على ظاهرها، فوقت ابن عباس لا يتسع لأن يعرض عليه تلميذ القرآن ثلاثين مرة، ولم يكن مجاهد من الغباء ليجتاح إلى ذلك، ولعل المقصود ثلاثين جلسة، أو أنه عرض كل جزء من أجزاء القرآن الثلاثين عرضه واحدة.

ولم يكتف مجاهد بالتلمذ على ابن عباس وحده بل عرض القرآن أيضاً على مقرئ مكة عبد الله بن السائب المخزومي، ومعروف أن عبد الله بن السائب أخذ القرآن عرضاً عن أبي بن كعب. وعناية مجاهد بالقرآن الكريم تلاوة وتفسيراً استأثرت بالجزء الأكبر من اهتمامه العلمي، ومن ثم قللت من مشاركته في العلوم الأخرى، ومجاهد يدرك ذلك حيث قال: «استفرغ علمي القرآن»^(١٢٦).

وقد شهد لتفوق مجاهد بالقرآن والتفسير علماء عصره فقال قتادة البصري: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد»^(١٢٧). وقال سفيان الثوري الكوفي: «خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة أو الضحاك»^(١٢٨).

وقد أخذ القراءة عن مجاهد خلق كثير، فمن المكين عبد الله بن كثير الداري

(ت ١٢٠هـ) صاحب القراءة المعروفة، وقد خلف مجاهداً في القراءة (١٢٩)،
وحميد بن قيس الأعرج المكي القارئ (ت ١٣٠هـ) عرض القرآن على مجاهد
ثلاث عرضات (١٣٠)، وأصبح مقرئ مكة بعد ابن كثير الداري، وعكرمة بن
خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي (١٣١) (ت ١١٦هـ)، وزمعة بن
صالح أبو وهب المكي (١٣٢)، ويسار أبو يحيى المكي (١٣٣). وروى عنه القراءة
من أهل البصرة أبو عمرو بن العلاء (١٣٤) (ت ١٤٦هـ)، ومن أهل الكوفة
عمر بن ذر (ت ١٥٦هـ) (١٣٥).

ونميل إلى الاعتقاد بأنه بجانب أخذ هؤلاء القراءة عن مجاهد فإنهم أخذوا عنه
أيضاً شيئاً من التفسير، فالتوقع أنه يقوم بعض الأحيان بتفسير بعض الآيات أو
شرح سبب نزولها عندما يستدعي المقام ذلك. على أن ابن حبان البستي يقول
في ترجمته للقاسم بن أبي بزة المكي (١٣٦) (ت ١٢٥هـ): «ما سمع التفسير عن
مجاهد أحد غير القاسم بن أبي بزة، نظر الحكم بن عتيبة، وليث بن أبي سليم،
وابن أبي نجيح وابن جريج وابن عينة في كتاب القاسم، ونسخوه، ثم دلسوه
عن مجاهد» (١٣٧). ومثل هذا القول يصعب قبوله، لأنه ليس من المعقول أن
يكون لمجاهد هذا العدد الكبير من الطلاب خصوصاً في الدراسات القرآنية،
ولا يروي عنه التفسير سوى واحد منهم.

ومع اعتراف علماء عصره وشهادتهم له بالتميز في القراءة والتفسير، إلا أن
تفسيره لم يكن محل قبول من الكثير، والسبب في ذلك أنه كان يسأل أهل
الكتاب في بعض الموضوعات، ويضمنها تفسيره. يقول الأعمش (ت
١٤٨هـ): «إنهم كانوا يتقنون تفسير مجاهد لأنهم يرون أنه يسأل أهل
الكتاب» (١٣٧). وأعطى راو آخر سبباً غير هذا وهو: «أنهم يرون أن مجاهداً

يحدث عن صحيفة جابر (١٣٨).

وواضح من التراث المروي عن مجاهد في التفسير أنه أدخل فيه بعض الروايات التي تعود في أصلها إلى التراث اليهودي أو النصراني، وهو ما يسمى بالإسرائيليات. وهو في تفسيره يفسر أحياناً معنى الآية مثل تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَ سَائِلٌ﴾ (١٣٩)، قال: دعا داع (١٤٠). وأحياناً يوضح الخلفية التاريخية مثل تفسيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ (١٤١) و﴿وَيَنْبَغِي شُهَدَاً﴾ (١٤٢)، الوليد بن المغيرة: ماله ألف دينار، وبنوه عشرة (١٤٣).

أما مثال ما نعتقد أنه نقله عن أهل الكتاب في تفسيره مما ليس له سند في السنة النبوية أو التراث العربي تفسيره لآية الكريمة: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (١٤٤) الآية.

قال: كان فيمن قبلكم امرأة، وكان لها أجير، فولدت جارية، وقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب رجلاً، فقال الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية. فقال: أما إن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي براءة، ويتزوجها أجيرها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: فقال الأجير في نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر براءة! لأقتلها، فأخذ شفرة فشق بطن الصبية، وخرج على وجهه، وركب البحر، وخيط بطن الصبية، وعولجت فبرأت وشبت، فكانت تبغي فأنت ساحلاً من سواحل البحر فأقامت عليه تبغي. ولبث الرجل ما شاء الله، ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير، فقال لاهراً من أهل ساحل البحر: ابغني امرأة من أجل الناس، في القرية أتزوجها. فقالت: ها هنا امرأة من أجل الناس ولكنها تبغي. قال: اثنييني بها. فأنتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير، وقال لي: كذا، فقلت كذا. فقالت: إني

قد تركت البغاء، ولكن إن أراد تزوجته. قال: فتزوجها فوقعت منه موقعاً. فبينما هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره. فقالت: أنا تلك الجارية، وأرته الشق في بطنها، وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر. قال: فإنه قال لي: يكون موتها بالعنكبوت. قال: فبني لها برجاً بالصحراء وشيده. فبينما هما يوماً في ذلك البرج إذ عنكبوت في السقف، فقال: هذا عنكبوت. فقالت: هذا يقتلني! لا يقتله أحد غيري، فحركته فسقط، فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته، وساخ سمها بين ظفرها واللحم، فاسودت رجلها فماتت، فنزلت هذه الآية. ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (١٤٤).

ونحن لا نعرف على وجه اليقين من أين استقى مجاهد هذه الأساطير، فهل رواها شفاهاً عن أشخاص من أهل الملتين، أو عن مسلمين كانوا في الأصل يهوداً أو نصارى مثل كعب الأحبار، أو عن مسلمين لهم معرفة واسعة بأساطير هاتين الديانتين مثل وهب بن منبه؟ والاعتقاد يسود بأن مكة أبعد البلدان تأثراً بأهل الكتاب لأنه لا يسمح لهم بالإقامة فيها، ولكن مجاهداً كان كثير التنقل والأسفار، والظاهر أنه يحاول دائماً إشباع فضوله العلمي مهما كلفه ذلك من مشقة، فقد ذهب إلى بئر برهوت بحضرموت، وذهب إلى بابل، وطلب من واليها، - وكان صديقاً له -، أن يعرض عليه هاروت وماروت (١٤٥). ويبدو أنه رحل إلى الكثير من البلدان، وحاول أن يطلع على ما فيها من عجائب. ومن الذين كانوا أصلاً من أهل الكتاب تبع بن عامر الحميري (ت ١٠١هـ) ابن امرأة كعب الأحبار، أسلم في أيام أبي بكر وعمر، ويقال له تبع صاحب الملاحم، قرأ الكتب، ونظر في سير الأولين، وسمع من كعب علماً كثيراً، وكان على علاقة وثيقة بمجاهد ورفيقه في الغزو في قبرص، وروى عنه مجاهد،

وعرض هو القرآن على مجاهد^(١٤٦).

وكان لمجاهد حظ من رواية الحديث أيضاً، وملازمته لعبد الله بن عمر الذي اشتهر بالحديث أكثر من أي علم آخر تعكس ذلك، وكان ابن عمر يكن احتراماً كبيراً لمجاهد تقديراً لعلمه، يقول مجاهد: «كنت أصحب ابن عمر في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي فإذا ركبت سوى ثيابي»^(١٤٧). وقال أيضاً: «صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني»^(١٤٨). أما ابن عمر فقال له: «وددت أن ابني سالماً وغلami نافعاً يحفظان حفظك»^(١٤٩). كما أن مجاهداً يأتي بالمرتبة الثانية بعد عطاء في الفقه إذ أن فتوى أهل مكة انتهت إليهما بعد ابن عباس^(١٥٠)، ومن أمثلة فتوى مجاهد ما رواه تلميذه حميد بن قيس المكي قال: «كنت مع مجاهد وهو يطوف بالبيت فجاءه إنسان فسأله عن صيام أيام الكفارة: أمتابعات أم يقطعها؟ قال حميد: فقلت: نعم يقطعها إن شاء. قال مجاهد: لا يقطعها، فإنها في قراءة أبي بن كعب: (ثلاثة أيام متتابعات)»...^(١٥١).

والخلاصة أن مجاهداً أسهم إسهاماً فعالاً في النهوض بالحركة العلمية بمكة وغيرها، وتمثل إسهامه في تعليمه قراءة القرآن وتفسيره والفقه والحديث.

وهناك علم من طبقة عطاء ومجاهد نفسها ذلكم هو عكرمة البربري مولى ابن عباس (ت ١٠٥ هـ). وكان في الأصل مولى للحصين بن أبي الحر العنبري فوجه لابن عباس عندما كان أميراً على البصرة^(١٥٢).

وكان ابن عباس يعنى بتعليم جميع مواليه. ويروي عكرمة جانباً من أسلوب ابن عباس في تأديبه وإجباره على التعلم: «كان يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن، ويعلمني السنة»^(١٥٣). وبسبب من عناية ابن عباس به، وطول

ملازمته لمجالس ابن عباس - ولا بد أنه كان يملك التأهيل الشخصي المطلوب - فقد وصل إلى مستوى علمي جعل سيده يأذن له بأن يفتي الناس فقال له: «انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون... فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس» (١٥٤).

وعكرمة مثل زميليه عطاء ومجاهد برز في أهم علوم عصره وهي الحديث والتفسير والفقه، ولكن يبدو أن اهتمامه بالتفسير والسيرة والمغازي يفوق اهتمامه بالحديث والفقه، أو أن ما خلف من تراث في هذين الأخيرين لم يكن محل قبول كثير من الأجيال اللاحقة وربما حتى من جيله هو، ومن ثم اطرخوا الكثير من مروياته وآرائه فيهما. وقد شهد له بالتبريز في التفسير علماء عصره فقال الشعبي (ت ١٠٥هـ): «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة» (١٥٥). وقال قتادة: «أعلم الناس بالتفسير عكرمة» (١٥٦). وقال هو نفسه: «لقد فسر ما بين اللوحين» (١٥٧). وفي أحد المجالس أقبل عليه زميله سعيد بن جبير ومجاهد يلقيان عليه التفسير، فلم يسأله عن آية إلا فسرهما لهما، فلما نفذ ما عندهما، جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا (١٥٨).

أما عن علمه في السيرة والمغازي فقال عنه عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ): «كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف كانوا يصنعون ويتقاتلون» (١٥٩). وقال قتادة: «كان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي - ﷺ -» (١٦٠).

أما عن تفوقه في ميدان السيرة والمغازي فالتراث المنسوب إليه والذي وصل إلينا لا يؤيد المقولات السابقة، فالمحفوظ له من الروايات في هذا الميدان عند الواقدي في كتابه «المغازي» لا يتجاوز ثماني عشرة رواية، وابن هشام في «السيرة»

يحفظ له أربع عشرة رواية . ولعل أكثر المصادر حفظاً لروايات عكرمة في السيرة والمغازي الطبري في «تاريخه» ففيه تسع وعشرون رواية . على أن الروايات المحفوظة لعكرمة في هذه المصادر لم تكن كلها تاريخية فبعضها يتعلق بالتفسير، وبعضها يتعلق بتحديد بعض أماكن مشاعر الحج والباقي روايات تاريخية .

واختلفت الآراء حول عكرمة أشد الاختلاف بين ماذح وقادح ، ويبدو أن جوانب من سلوكه جعلت البعض يستهجنونها ويتحرجون في توثيق رواياته ، قال ابن سعد: (١٦١) «وكان عكرمة كثير الحديث والعلم بحراً من البحور، وليس يحتاج بحديثه، ويتكلم فيه» . ولعل ذلك يعود إلى أمور أربعة تضافرت فحملت الناس على أن يحملوا عنه هذه النظرة السلبية ، أولها : أنه كان كثير التنقل والأسفار بين الأمصار الإسلامية بدافع التكسب بعلمه ، وبصحبته لابن عباس ، فقد أجازاه عامل المدائن بثلاثة آلاف درهم (١٦٢) . وذهب إلى مرو للسبب (١٦٣) ولما عاتبه أحد المكيين وقال : تركت الحرمين ، وجئت إلى خراسان ! قال : أسعى على بناتي (١٦٤) . وعندما قيل له مثل ذلك في سمرقند قال : جاءت بي الحاجة . (١٦٥) وقد ارتحل إلى اليمن والشام ومصر والمغرب . وقد قال معاصره طاووس : «لو أن مولى ابن عباس هذا اتقى الله ، وكفّ من حديثه لشدت إليه المطايا» (١٦٦) .

وثانيها : زعم بعض معاصريه أنه كان يرى رأي الخوارج ، وأنه وفد على نعدة بن عامر الحنفي - قتل ٦٩ هـ - زعيم الخوارج النجدات ، وأنه كان ينشر آراءه ، وأقام عنده ستة أشهر ، فلما عاد إلى سيده ابن عباس قال : قد جاء الخبيث (١٦٧) . كما يروى أنه هو الذي نشر مذهب الخوارج الصفرية في أفريقية (١٦٨) . ويروى عن عطاء أنه قال : كان عكرمة إباضياً (١٦٩) . على أن

هناك من العلماء من نفى عنه اتباعه للمذهب الخارجي مثل البخاري والنسائي، فقد قال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة^(١٧٠).

وثالثها: أن هناك من العلماء حتى من زملائه ومعاصريه من يرى أنه كان يكذب في الرواية عن ابن عباس^(١٧١).

ورابعها: أنه كان صاحب دعاية، وقد يسف في دعابته أحياناً لدرجة تسقط احترامه وهيئته^(١٧٢).

وبالرغم من كل الأقوال والآراء السيئة في عكرمة فقد روى عنه عالم كثيرون ذكرتهم المصادر التي ترجمت له، وتميز من بين هذه المصادر ابن أبي حاتم في تصنيف الرواة عن عكرمة حسب أمصارهم^(١٧٣).

ومن الذين أسهموا في الحركة العلمية في القرن الأول الهجري في مكة وغيرها سعيد بن جبير، ولا نعرف شيئاً عن نشأته وصباه، وأول معرفة لنا به تبدأ عندما اتصل بابن عباس وسأله: ممن أنت؟ قال: من بني أسد. قال: من عريهم أو مواليهم؟ قال: من مواليهم. قال: فقل: أنا ممن أنعم الله عليه من بني أسد^(١٧٤). ووصف سعيد بأنه كان أسود اللون^(١٧٥).

ويظهر أنه لازم ابن عباس مدة طويلة قبل أن يفقد ابن عباس بصره وبعدما فقده، فيذكر أنه كان يسائل ابن عباس قبل أن يعمى، ولم يستطيع أن يكتب معه، فلما عمي ابن عباس كتب معه فبلغ ذلك ابن عباس فغضب^(١٧٦). ويقول: ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملاها، وكتبت في نعلي حتى أملاها، وكتبت في كفي حتى أملاها، وربما أتيت فلم أكتب حديثاً حتى أرجع لا يسأله أحد عن شيء^(١٧٧). ويبدو أن اهتمامات سعيد العلمية تركز بصفة رئيسة على الفقه والتفسير حيث إن أكثر أسئلته لابن عباس في

هذين الموضوعين (١٧٨)، وقد قرأ على ابن عباس أيضاً القرآن، وأخذ عنه الحديث، كما أنه أخذ الحديث عن عدد آخر من الصحابة (١٧٩).

وعندما سأل سعيداً أحد تلاميذه: أكل ما أسمعك تحدث سألت عنه ابن عباس؟ فقال: لا، كنت أجلس ولا أتكلم حتى أقوم فيتحدثون فأحفظ (١٨٠). وبلغ سعيد بملازمته التعلم على ابن عباس درجة جعلت ابن عباس يأمره بأن يحدث، فقال سعيد: أحدث وأنت هاهنا! فقال: أو ليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك (١٨١). ولعله يمكن أن يفهم من هذا النص أن المقصود ليس رواية الحديث فحسب ولكن يشمل تعليم الفتوى أو الفقه، وربما شيء من التفسير.

ويأتي ابن عمر في المرتبة الثانية من حيث الأستاذية لسعيد، وربما أن سعيداً قوى صلته بابن عمر بعد وفاة أستاذه ابن عباس. وكان سعيد يسأل ابن عمر، ويدون الإجابات خفية دون علم ابن عمر لأنه كان لا يقر الكتابة (١٨٢).

وبعد أن شعر سعيد بأنه بلغ مستوى من التحصيل العلمي يوجب عليه أن يقوم بنشره ترك مكة، وبدأ يطوف الأمصار الإسلامية، وتنقل بين العراق وفارس وأصبهان وأذربيجان وغيرها، ثم استقر به المقام بالكوفة. وكان - بالإضافة إلى حرصه على نشر علمه - يبحث له عن دور في المجتمع والحياة يليق بمكانته العلمية. وكان محل التقدير والإكرام في جميع البلدان التي سكنها، وأقبل عليه طلاب العلم فمنهم من أخذ عنه الحديث، ومنهم من أخذ عنه القرآن والتفسير، ومنهم من أخذ عنه الفقه. وكان إضافة إلى ذلك يقصص على أهل الكوفة في مسجدهم فيذكرهم ويعظهم. ولم يقتصر الاحتفاء بسعيد على طلاب العلم وعامة الناس بل حتى الولاة ينزلونه المنزلة اللائقة به، فيروى أن الحجاج بن يوسف وإلى العراق أعطاه مائة ألف درهم (١٨٣)، كما أنه عهد إليه

ببعض الأعمال الحكومية كان آخرها بأن جعله مسئولاً عن عطاء الجند حين وجه عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رتبيل (١٨٤).

وقد شهد له أساتذته بقدرته العلمية فكان ابن عباس إذا أتاه بمكة أهل الكوفة، يسألونه قال: تسألوني وفيكم ابن أم دهماء (١٨٥) وبعد وفاة ابن عباس كان سعيد يجمع المسائل التي تكون موضع خلاف بين علماء الكوفة ويعرضها على ابن عمر عندما يلقاه بمكة (١٨٦). وكان كثير التردد على مكة فكان يحرم كل سنة مرتين مرة للحج، ومرة للعمرة (١٨٧). على أن أستاذه ابن عمر يرى أنه أعلم منه في بعض الفروع العلمية، فعندما جاء رجل وسأله عن فريضة فقال: اثبت سعيد بن جبير فإنه أعلم بالحساب مني وهو يفرض منها ما أفرض (١٨٨).

وحرص سعيد على نشر علمه يتمثل في قوله: «لأن أنشر علمي أحب إلى من أذهب به إلى قبري» (١٨٩). وقوله: «وددت أن الناس أخذوا ما عندي فإنه مما يهمني» (١٩٠). وقال أحد معاصريه: «رأيت سعيد بن جبير يطوف بالبيت يحدث أصحابه ويفتي» (١٩١). وفي ظروف كان المفروض فيها أن يختبئ سعيد ولا يظهر للناس، إلا أنه لم يستطع مقاومة رغبته في نشر العلم فعندما هرب من الكوفة خوفاً من الحجاج، ولجأ إلى مكة بعد فشل ثورة ابن الأشعث (٨٢هـ) جلس فيها يفتي الناس (١٩٢).

قُبض على سعيد بن جبير في مكة سنة ٩٥هـ، وأعيد إلى الحجاج في العراق فأعدمه مع أعداد هائلة من المشاركين في حركة تمرد ابن الأشعث (١٩٣)، وترك إعدام سعيد خاصة حزناً وأسى في نفوس عامة المسلمين وخاصتهم، وكان من الأمور التي زادت نقمة الناس على الحجاج والأمويين، ونعاه معاصروه من العلماء منهم ميمون بن مهران قال: «لقد مات سعيد بن جبير، وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى سعيد» (١٩٤). وقال إبراهيم النخعي: «رحمه الله ما

خلف مثله» (١٩٥).

لقد كانت حياة سعيد غنية وجهوده في نشر العلم ثمرة فخلف طلاباً وتراثاً في معظم البلدان الإسلامية. أما تراثه المحفوظ فهو يجمع بين الحديث والفقه والتفسير، على أنه لم يسلم مثل بعض علماء عصره من المكين من الاقتباس مما يسمى بالإسرائيليات (١٩٦).

الملاحظ أن علماء مكة الأربعة الذين تناولناهم بالدراسة كانوا من الموالى أي من الطبقة الاجتماعية الدنيا في المجتمع المكي، وهي ظاهرة تسترعي الانتباه. ولعل حرصهم على التعليم، وتفوقهم في هذا الميدان على القرشيين خاصة والعرب عامة يمكن أن يفسر بأن دوافعهم كانت، - في البداية -، الرغبة في تحسين أوضاعهم المعيشية ورفع منزلتهم الاجتماعية. ولعل أسيادهم لم يكونوا أقل حرصاً منهم على تعليمهم إما بدافع الاحتساب - وهو الغالب - أو بدافع المنفعة. ومجاهد يؤكد هذا الرأي بقوله: «طلبنا العلم ومالنا فيه نية، ولكن رزق الله النية بعد» (١٩٧). ويقول سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحداً يريد بهذا وجه الله إلا هؤلاء الثلاثة: عطاء ومجاهد وطاووس» (١٩٨).

ومن أسهم في الحركة العلمية بمكة من القرشيين عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧ هـ) وهو من أحفاد الزعيم القرشي الجاهلي المشهور عبد الله ابن جدعان. ويقول عن نفسه: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي - ﷺ - (١٩٩). وقد أخذ علمه عن عدد كبير من هؤلاء الصحابة ومن التابعين خاصة المكين. ويظهر من استقراء من روى عنهم الحديث أنه لم يسافر إلى البلدان الإسلامية الأخرى سواء لطلب العلم أو لنشره أو للتكسب (٢٠٠)، وقد وصف بأنه ثقة كثير الحديث (٢٠١)، وروى عنه الحديث كثير من أهل زمانه من أهل مكة ومن الواردين عليها (٢٠٢).

وكان كثير الملازمة لابن عباس، ولما ولاه ابن الزبير قضاء الطائف - ربا بسبب كونه قرشياً وتيمياً بالذات أحوال عبد الله بن الزبير - قال قلت لابن عباس: «إن هذا قد بعثني على قضاء الطائف ولا غنى بي عنك أسألك؟ فقال لي: نعم، فاكتب إلي فيا بدا لك أو سل عما بدا لك» (٢٠٣). ويظهر أن ابن الزبير ولاه على قضاء مكة بعد ذلك (٢٠٤). ومن القضايا التي أشكل القضاء فيها على ابن أبي مليكة وهو قاضي الطائف فأرسل إلى ابن عباس يسأله قال: «رفع إلى امرأتان كانتا في بيت تحوزان، فادعت إحدهما أنها طعنتها في يدها، وقوم في بيت آخر سمعوا حيث نادت، فوجدوها جميعاً في بيت فكتبت إلى ابن عباس أسأله عن ذلك فقال: إنه لا يقضى في مثل هذا إلا بالرؤية، ولكن ادع بالتي أدعي عليها فاقراً عليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (٢٠٥) الآية، ثم استحلفها، فقرأت عليها الآية ثم ذهبت استحلفها، فأبى أن تحلف فأقرت» (٢٠٦).

وروى ابن أبي مليكة قضية ثانية عرضت له وهو قاض في الطائف، وسأل عنها المقدمين في الفقه في مكة ونصها: «إن عبيد بن عدوا - وهو عامل الطائف - على خمار امرأة، فسألتها، فقالا: حملنا عليه الجوع، واضطربنا إليه. فكتبت فيهما إلى ابن عباس، وعبيد بن عمير، وعباد بن عبد الله بن الزبير. فكتب عباد: أن اقطعهما. وكتب عبيد بن عمير: أن قد أحل الميتة والدم ولحم الخنزير لمن اضطرب. وكتب ابن عباس: أن قد أصبت، لا تقطعهما وغرم سادتهما ثمن الخمار وإن كان بهما جلد فاجلدهما لثلا يعتل العبد بالجوع» (٢٠٧).

وقد أرسل ابن أبي مليكة إلى ابن عباس يسأله عن جواز قبول شهادة الصبيان فأجابه: لا أرى أن تجوز شهادتهم، أمر الله بمن يرضى وأن الصبي لا يرضى (٢٠٨).

ونختم الحديث عن رجال هذه الطبقة بأبي الزبير محمد بن تدرس المكي (ت ١٢٨هـ) مولى حكيم بن حزام.

واهتمامات أبي الزبير المكي تكاد تتركز على رواية الحديث ومعظمها عن الصحابي جابر بن عبد الله، ويظهر أنه كان كثير الملازمة له عندما يأتي إلى مكة ويقيم فيها، وكان يعتمد على الكتابة مثل اعتماده على الرواية الشفوية. يقول الليث: قدمت مكة فجئت أبا الزبير فدفع إليّ كتابين، وانقلبت بهما، ثم قلت في نفسي: لو عاودته فسألته: أسمع هذا كله من جابر؟ فرجعت فسألته، فقال: منه ما سمعته منه، ومنه ما حدثت عنه. فقلت له: أعلم لي ما سمعت، فأعلم لي على هذا الذي عندي (٢٠٩).

ولم يكن لأبي الزبير حسب ما اطلعنا عليه من مصادر نشاط يذكر في التفسير أو الفتوى، وإسهامه العلمي أقل بكثير من أقرانه مثل عطاء ومجاهد، إضافة إلى ما يروى من بعض الهنات في سلوكه والتي دعت بعض رجال الحديث إلى التوقف في الرواية عنه (٢١٠)، مع أن ابن سعد قال عنه: كان ثقة كثير الحديث (٢١١).

وتمثلت المرحلة العلمية الثالثة بمكة بالدراسات القرآنية، ودراسات الفقه والحديث. أما الدراسات القرآنية فكان عمادها طلاب عبد الله بن السائب المخزومي وعبد الله بن عباس ومجاهد بن جبر، وقد تخصص هؤلاء الطلاب في قراءة القرآن، وتلقاها بعض عن البعض الآخر، واشتهروا بها ليس في مكة فحسب ولكن في كل الأمصار الإسلامية، ويأتي في طليعة هذه المدرسة عبد الله بن كثير الداري (٤٨ هـ - ١٢٠ هـ). ولد بمكة وعاش فيها، وهو مولى لبني علقمة الكنانيين، والظاهر أنه ولاء حلف لا ولاء عتاقة لأن أصل عبد الله من أبناء الفرس الذين كانوا حكاماً باليمن قبل الإسلام، ولا نعرف متى انتقلت

أُسرته إلى مكة. وقد كان عبد الله عطاراً، ومن هذه المهنة جاءت نسبته الداري، لأن العرب كانت تنسب من يبيع العطر إلى دارين الجزيرة المشهورة على الخليج العربي في استيراد وبيع الطيب في العصر الجاهلي^(٢١٢). ولعبد الله مشاركة في رواية الحديث لكنه مقل في هذا الشأن، وقد روى الحديث عن ابن الزبير وبعض التابعين المكيين^(٢١٣).

ومكانة عبد الله العلمية تقوم أساساً على أنه مقرئ مكة في عصره، وله قراءة معروفة به^(٢١٤). وقد أخذ القراءة على أول مقرئ في مكة عبد الله بن السائب المخزومي صاحب أبي بن كعب، ولكن المشهور أخذه القرآن على مجاهد، ودرباس مولى ابن عباس^(٢١٥). ويظهر أن تتلمذ عبد الله على مجاهد اقتصر على تلاوة القرآن فلا نلاحظ له مشاركة في التفسير رغم شهرة أستاذه في هذا الميدان.

وكان من عادة دارسي القرآن في ذلك العصر أنهم يقرأون القرآن على أكثر من قارئ، ويعرضون عليهم القرآن. يروي أحد تلاميذ عبد الله وهو أبو عمرو بن العلاء البصري: «ختمت على مجاهد وعلى ابن كثير، وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد»^(٢١٦).

ومن تلاميذ عبد الله الذين أخذوا القراءة عنه، والذين أصبحوا مقرئين على طريقتيه وتسمى «قراءة أهل مكة» إسماعيل بن عبد الله القسط، وإسماعيل بن مسلم، وجريير بن حازم، وإلخارث بن قدامة، وحامد بن سلمة، وحامد بن زيد، ومعروف بن مشكان، وزمعة بن صالح أبو وهب المكي^(٢١٧)، وشبل بن عباد وهو الذي خلفه في القراءة والإلقاء^(٢١٨)، وهشام بن إسماعيل الخزومي. ولم يكن عبد الله قارئاً فحسب فقد كان قاص الجماعة يساعده على ذلك فصاحته وقدرته العالية في الوعظ والتأثير على سامعيه^(٢١٩).

وقد ظل عبد الله الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى وفاته سنة ١٢٠هـ (٢٢٠).

ولأهل مكة عادة في قراءة القرآن ينفردون بها عن غيرهم من أهل الأمصار الأخرى، وهي أنهم عندما يبلغ قراؤهم في قراءتهم سورة (والضحى) يكبرون حتى يَخْتَمُوا (٢٢١). ومن عاداتهم أيضاً إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى (أولئك هم المفلحون)، ثم يقطعون القراءة. ويسمون فاعل ذلك «الحال المرتحل» أي: ختم القرآن وابتدأ بأوله ولم يفصل بينهما بزمان. وقيل: أراد بالحال المرتحل: الغازي الذي لا يقفل من غزو إلا أعقبه بآخر (٢٢٢).

ومن معاصري ابن كثير واشتهر في القراءة حميد بن قيس الأعرج المكي - ت ١٣٠هـ - مولى آل الزبير بن العوام. أخذ القراءة عن مجاهد، وعرض عليه ثلاث مرات، ثم تصدر للإقراء بعد ذلك، ولم يكن بمكة بعد ابن كثير أحد أقرأ منه (٢٢٤).

وإذا كان حميد بن قيس يأتي بعد ابن كثير في القراءة فإنه كان أعلم أهل مكة في الحساب والفرائض، وكان بالإضافة إلى قراءة القرآن ثقة كثير الحديث (٢٢٥). وكان حميد يقرأ في المسجد الحرام، ويجتمع الناس عليه حين يختم القرآن، ومن الذين حضروا إحدى ختماته عطاء بن أبي رباح (٢٢٦).

روى القراءة عنه عرضاً أبو عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة وجنيد بن عمرو العدواني وآخرون (٢٢٧). وبالإضافة إلى أستاذه في القراءة والفرائض فقد كان من رواة الحديث وأخذ عنه جماعة من التلاميذ (٢٢٨).

وهناك قارئ ثالث معاصر لابن كثير وابن قيس هو محمد بن عبد الرحمن بن محيصة السهمي المكي المقرئ (ت ١٢٣هـ)، وشاركها في أخذ القراءة عن

مجاهد ودرياس مولى ابن عباس، كما أخذ القراءة أيضاً عن سعيد بن جبير^(٢٢٩). وقد كانت شهرته أقل منهما ربما لأن قراءته شاذة وفيها ما ينكر. قال ابن مجاهد: «كان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذهب العربية فخرج به عن إجماع أهل بلده، فرغب الناس عن قراءته وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه»^(٢٣٠).

وهناك موضوع أكد الرواة على تفوقه فيه وهو علم العربية، وهو موضوع قلما ألفت إليه المصادر التي عنت بتسجيل الحياة العلمية بمكة في القرن الأول الهجري بالآ. وقد نقل الجزري^(٢٣١) شهادات عدد من العلماء على تفوق ابن محيصن في العربية منها: قال ابن مجاهد: كان ابن محيصن عالماً بالعربية. قال أبو عبيد: كان ابن محيصن أعلمهم بالعربية وأقواهم، وقال أبو حاتم: ابن محيصن من قريش وكان نحويًا.

وهذه الأقوال تؤكد أنه كان هناك اهتمام باللغة العربية بل حتى النحو كان موضوع اهتمام ودراسة بمكة في ذلك العصر.

ويتمى إلى مدرسة القرآن بمكة رجال كثيرون منهم من كان معاصراً لهؤلاء لكنه لم يصل إلى مرتبتهم، ومنهم من أخذ القراءة عليهم، وخلفهم في قراءة القرآن.

ومثلما توسعت الدراسات القرآنية في المرحلة العلمية الثالثة بمكة فإن الدراسات الفقهية ورواية الحديث كانت أكثر توسعاً، فالمشتغلون فيها كانت أعدادهم كبيرة جداً، وذلك يعود إلى عاملين أولهما: الجهود الخيرة التي بذلها علماء المرحلة الثانية وهم ابن أبي رباح وجيله، والثاني: الإقبال الكبير من جانب عدد كبير من الناس على الاشتغال في العلم لدوافع مختلفة، ولكن بالرغم من كثرة طلاب العلم في هذه المرحلة فإن أحداً منهم لم يتجاوز شهرته

حدود مكة باستثناء عالم واحد ذلك هو عمرو بن دينار (٤٦ هـ - ١٢٦ هـ) مولى بني جمح. قال أحمد بن حنبل: كان مولى هؤلاء ولكن الله شرفه بالعلم^(٢٣٢)، ولقد أخذ العلم عن عدد من صغار الصحابة الذين أدركهم مثل ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة والمصور بن مخرمة، وغيرهم كما أخذ عن تابعي مكة مثل عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير، وأخذ عن تابعي المدينة مثل أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأخذ عن تابعي اليمن خاصة طاووس بن كيسان، وأخذ عن تابعي البصرة مثل أبي الشعثاء جابر بن زيد كما وصف بأنه من أئمة العلم والاجتهاد^(٢٣٣). وقد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس حديثه، وثلثاً يصلي^(٢٣٤).

وبالرغم من وصف ابن سعد له بأنه ثقة ثبت كثير الحديث فإنه يقول أيضاً: كان عمرو يحدث بالمعاني وكان فقيهاً^(٢٣٥). ويمكن فهم هذا بأن عمراً كان يستنبط الأحكام من الأحاديث، ولا يحرص على إيراد نصوصها، إذ الغاية من ناحية فهم مضمون الحديث، ومن ناحية أخرى خشية ألا يورد المتن بلفظه. وكان متفانياً في أداء رسالته العلمية ونشرها بين طلاب العلم، يقول عنه تلميذه شعبة: «جلست إلى عمرو بن دينار خمسمائة مجلس، فما حفظت عنه سوى مئة حديث، في كل خمسة مجالس حديثاً»^(٢٣٦).

وكان عمرو من أكثر الناس ملازمة لعطاء، وأكثر الطلاب حفظاً لفقه عطاء وآرائه فقالوا بأنه أثبت الناس في عطاء^(٢٣٧)، أما عطاء فعندما سأله طلابه حين حضرته الوفاة وقالوا له: بمن تأمرنا؟ قال: بعمر بن دينار^(٢٣٨). وكان طلاب عمرو حريصين على تسجيل كل شيء يقوله، وكان هذا مدعاة غضبه، خصوصاً أنه كان يغلب عليه الفقه، وهذا يستدعيه استنباط الأحكام من القرآن ومن الحديث الشريف، وهذه مسألة تستوجب إعمال الرأي، وهذه في

حد ذاتها عملية اجتهادية معرضة للخطأ والصواب . ويقول محتجاً على طلاب العلم الذين يسارعون إلى تقييد ما يقول : «يسألوننا عن رأينا فنخبرهم فيكتبونه كأنه نقر في حجر، ولعلنا أن نرجع عنه غداً» (٢٣٩).

وقد وصفه الذهبي بقوله : «شيخ الحرم في زمانه وكان من أوعية العلم وأئمة الاجتهاد» (٢٤٠). وتذكر المصادر أنه بعد وفاة عطاء قال له أمير مكة محمد بن هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي : «أجري عليك رزقاً وتجلس تفتي الناس؟ قال : قلت : لا أريده» (٢٤١). وربما أن هذا الرفض كان مؤقتاً في وقت إمرة محمد بن هشام أو الرفض لأخذ الرزق، لأن مصادرنا تذكر أنه كان مفتي مكة، فلما مات كان يفتي بعده ابن أبي نجيع (٢٤٢).

ويظهر أن علماء مكة بدأوا في مطلع القرن الثاني الهجري يتطلعون لمنافسة علماء المدينة الذين طالما تفوقوا عليهم، فكان عمرو بن دينار يرى نفسه أعلم من الزهري (ت ١٢٤هـ) وقال : أي شيء عند الزهري ؟ أنا لقيت ابن عمر ولم يلقه، ولقيت ابن عباس ولم يلقه. فقدم الزهري مكة بعد ما هزم عمرو فقال عمرو : احمولني إليه وقد أقعد، فحمل إليه، فلم يأت إلى أصحابه إلا بعد ليل. فقالوا له : كيف رأيت؟ فقال : والله ما رأيت مثل هذا القرشي قط (٢٤٣). ويظهر أنه بعد هذا اللقاء توطدت المعرفة بين هذين العالمين، حيث يروي تلميذ عمرو، سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) قال : مرض عمرو بن دينار فعاده الزهري فلما قام الزهري، قال عمرو : ما رأيت أنص للحديث الجيد من هذا الشيخ (٢٤٤).

وأخذ العلم عن عمرو علماء كثيرون، منهم أبو جعفر الباقر المدني الذي يقول : «إنه ليزيدني في الحج رغبة لقاء عمرو بن دينار فإنه يجبنا ويفيدنا» (٢٤٥). وكان تلاميذه لا يقدمون عليه أحداً فعبده الله بن أبي نجيع الذي أصبح

مفتي مكة من بعده يقول: «ما رأيت أحداً قط أفقه من عمرو بن دينار لا عطاء ولا مجاهداً ولا طاووساً»^(٢٤٦). وقال تلميذ آخر - وهو عالم مكة سفيان بن عيينة -: «ما كان عندنا أحد أفقه من عمرو بن دينار ولا أعلم ولا أحفظ منه»^(٢٤٧).

ويبدو أن اهتمام عمرو بن دينار بالسيرة والتاريخ كان ضئيلاً، فكل ما يحفظ له الطبري في تاريخه أربع روايات في السيرة النبوية^(٢٤٨)، ورواية واحدة عن النزاع بين ابن الزبير ويزيد بن معاوية^(٢٤٩).

وفي نهاية العصر الأموي برز عالم يجسد الشمولية في علوم عصره كما كان يمثل طموح وتطلعات جيله وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (٨٠ هـ - ١٥٠ هـ). وجريج جد عبد الملك كان عبداً رومياً لأم حبيب بن جبير بن مطعم زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي^(٢٥٠).

كانت اهتمامات عبد الملك المبكرة في تتبع الأشعار والأنساب، ولكن يظهر أن سوقها في تلك الأيام كانت كاسدة، ولا يمكن تحقيق مكانة علمية واجتماعية إلا عن طريق الاشتغال بالفقه والحديث والدراسات القرآنية، ولهذا فقد نُصح عبد الملك بالأخذ بهذه العلوم وترك ما هو فيه. وقد أخذ هذه النصيحة على محمل الجد، وربما أنه هو نفسه قد أدرك حقيقة هذا الأمر، ثم قرر الالتحاق بمجلس عطاء أشهر علماء مكة في عصره، ولكنه لم يكن في مستوى علمي يؤهله إلى الالتحاق بهذا المجلس، يقول: «أتيت عطاء وأنا أريد هذا الشأن وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير (ت ١١٣ هـ) فقال لي ابن عمير: قرأت القرآن؟ قلت: لا، قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم. فذهبت فغيرت زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاء، وعنده عبد الله فقال: قرأت الفريضة؟ قلت: لا. قال: فتعلم الفريضة، ثم اطلب العلم. قال: فطلبت الفريضة،

ثم جث فقال: الآن فاطلب العلم. فلزمت عطاء سبع عشرة سنة (٢٥٢). وإذا كان ميلاد عبد الملك سنة ثمانين هجرية و وفاة عطاء سنة أربع عشرة ومائة فكانت سن عبد الملك عند التحاقه بحلقة عطاء قرابة سبع عشرة سنة، وهذا يؤدي بنا إلى استخلاص نتيجتين من هذا النص: هما أن حلقة أو مجلس عطاء يشبه المرحلة الجامعية في عصرنا الحاضر فلا بد للملتحق بها أن يكون على مستوى علمي معين ومن معينة. أما ما ورد في النص: «قرأت القرآن؟ قلت: لا». يجب ألا يفهم أنه لم يقرأ القرآن على الإطلاق فهذا أمر مستبعد، وإنما الظاهر أن المقصود قراءة معينة أو قراءات، وربما حفظ القرآن أو شيء منه ومعرفة بالتفسير وأسباب النزول.

وقد أخذ العلم من حديث وفقه وقراءات عن عدد كبير من التابعين، وقائمة شيوخه تعطي صورة عن المشاركين بالحركة العلمية (٢٥٣). وكان شديد الملازمة لعطاء بصفة خاصة، فقد قال: «لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد. فليل له: ما منعك عن يمينه؟ قال: كانت قريش تغلبني عليه» (٢٥٤). وبسبب من ذلك الحرص وتلك الملازمة قيل: «لم يكن في الأرض أحد أعلم بعطاء من ابن جريج» (٢٥٥). ولم يقنع ابن جريج الاكتفاء بعلم عالم مكة في عصره عطاء بن أبي رباح فقد قال: «جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاء سبع سنين» (٢٥٦).

وابن جريج كان صادقاً مع نفسه ومع غيره في دوافعه لطلب العلم تلك السنوات الطوال، قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول لنفسه غير ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس. وقد أعجب قوله الذهبي فقال: ما أحسن الصدق! واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم؟ فيأدر ويقول: طلبته لله. ويكذب

إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه (٢٥٧).

وبالرغم من اعتراف ابن جريج بصدق دوافعه فإننا نرى مع ذلك، أنه لا يمكن أن يتفانى ابن جريج في تحصيله العلم دون أن يكون لديه رغبة حقيقية في محبة العلم سواء كانت دوافعه دينية أو دنيوية أو الاثنين معاً.

وقد اعترف أستاذه عطاء بنبوغة فلما سئل: «من نسأل بعدك يا أبا محمد؟ قال: هذا الفتى إن عاش - يعني ابن جريج -» (٢٥٨). وقال عنه أيضاً: «سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج» (٢٥٩).

ولم يكتف ابن جريج بالأخذ عن العلماء المكيين فقد قال أحد علماء المدينة وهو أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة (ت ١٦٢ هـ): قال لي ابن جريج: اكتب لي أحاديث سنن: قال: فكتبت له ألف حديث ثم بعثت بها إليه ما قرأها علي وما قرأتها عليه (٢٦٠).

ويمثل ابن جريج نقله نوعية في الحركة العلمية بمكة وغيرها، فقد قال عنه أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠ هـ): أول من صنف الكتب ابن جريج وابن أبي عروبة (٢٦١). وكان يقول عن نفسه: «ما دون العلم تدويني أحد» (٢٦٢).

ويروى أن ابن جريج خرج إلى البادية في أطراف مكة فصنف كتبه على ورق العشر ثم حولها في البياض، فكان إذا قدم محدث حمل إليه كتابه فيقول: أفدني ما كان في هذه الأبواب (٢٦٣). وقد وصفه الذهبي بصاحب التصانيف (٢٦٤).

على أنه يجدر القول بأن هناك إشارات إلى كتب لبعض العلماء أسبق من ابن جريج مثل ما ذكره موسى بن عقبة (ت ١٣٥ هـ) قال: «وضع عندنا كريب حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس، فكان على بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إلي بصحيفة كذا وكذا. فينسخها فيبعث إليه بإحداها» (٢٦٥). ومثل ذلك الرواية التي أشرنا إليها آنفاً أن القاسم بن أبي بزة

قد روى تفسير مجاهد ودونه في كتاب. والذي يظهر لنا أن كتب ابن عباس والقاسم بن أبي بزة وأمهاها من الصحائف أنها لا تعدو من حيث المنهج أن تكون مماثلة للروايات الشفهية إلا أنها مدونة، بينما عمل ابن جريج هو أقرب إلى التأليف الموضوعي الذي نعرفه وإلا لما استحق عمله الإشادة من الآخرين. قال أحد معاصريه: «كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإن لم يحدثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به»^(٢٦٦). وقيل: «ابن جريج ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب»^(٢٦٧). ربما تعود تسميتها بكتب الأمانة إلى مقارنتها بصحف عمرو بن شعيب^(٢٦٨) ووهب بن منبه^(٢٦٩) التي هي محل طعن كثير من النقاد.

وكان ابن جريج - على ما يروي - يعتقد مثل شيخه عطاء بصحة زواج المتعة وقد تزوج بستان امرأة، وقيل: إنه عهد إلى أولاده بأسائهن لئلا يغلط أحد منهم فيتزوج واحدة مما نکح أبوه بالمتعة^(٢٧٠). أما الشافعي فيروي أنه استمتع بتسعين امرأة^(٢٧١).

قد اشتغل ابن جريج في التجارة وكان شريكاً لزياد بن سعد الخراساني وقد وصفه زياد بأنه من أهل الحفظ والإتقان في السر والإعلان^(٢٧٢). ويظهر أن أسرة ابن جريج كانت ميسورة الحال فأبواه يخرجان كل سنة إلى الطائف، ويقعان فيها في فصل الصيف، وربما أنها كانت تملك بستاناً أو بساتين بالطائف.

على أنه ضاق به الحال في آخر عمره بالرغم من كونه شيخ الحرم ومفتي مكة فعمل مثلما كان يعمل الكثير من العلماء في مكة في السفر إلى الأمصار الإسلامية طلباً للرزق فسافر إلى العراق وسافر إلى اليمن^(٢٧٤)، وربما أنه سافر إلى غيرها.

لقد خلف ابن جريج علماً كثيراً تمثل بالكتب والطلاب، ومن الذين تفقهوا عليه مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٨٠ هـ) وتفقه بالزنجي الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) وكان الشافعي بصيراً بعلم ابن جريج عالماً بدقائقه (٢٧٥).

لقد خلاص البحث إلى عدد من النتائج هي: أن بداية الحركة العلمية، وهي ما أسميناها بالمرحلة الأولى، كانت متواضعة جداً، وكانت العلوم في هذه المرحلة: قراءة القرآن، ورواية السنن، والقصص الذي يتضمن المواعظ والتذكير.

وتغير الوضع كثيراً بمجيئ ابن عباس إلى مكة واستقراره فيها، فقد نشر علماً كثيراً وكثر طلاب العلم، وتوسعت العلوم نسبياً، وتعمق الدارسون في هذه العلوم. وقد شارك في نشر العلم بمكة، بالإضافة إلى ابن عباس عدد من علماء الصحابة مثل عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله. وبرز عدد من العلماء المكيين منهم عطاء بن أبي رباح الذي تفوق في الدراسات الفقهية، ومجاهد بن جبر الذي تفوق في الدراسات القرآنية، قراءة وتفسيراً، ومنهم من جمع بين هذين الفرعين مثل عكرمة مولى ابن عباس وسعيد ابن جبير، ويمثل هؤلاء مع آخرين المرحلة الثانية في الحركة العلمية بمكة. أما المرحلة الثالثة فقد تميزت بأمرين، الأول: هو كثرة الطلاب كثرة لافتة للانتباه، والثاني: وجود مدرستين متميزتين، إحداهما كان تركيزها على الدراسات القرآنية ومن أهم علمائها عبد الله بن كثير الداري الذي أصبح له طريقة في القراءة أخذها عنه المكيون كما أخذها عنه بعض طلاب الأمصار الإسلامية الأخرى. والمدرسة الثانية كان تركيزها على الدراسات الفقهية والحديث ومن أبرز علمائها عمرو بن دينار وعبد الملك بن جريج.

بقية الموضوع في العدد القادم إن شاء الله تعالى

استعراض للدراسات الأثرية للفخار القديم في شرقي المملكة العربية السعودية «٢٠٠ق.م - ٢٠٠م»

د. عبد العزيز بن سعود الفيضي

ملخص البحث



يحتوي البحث على استعراض للأعمال الأثرية الخاصة بفخار شرقي المملكة العربية السعودية الموزع للفترة الواقعة بين ٢٠٠ق.م. و ٢٠٠م. بهدف البحث لحصر المادة المنشورة ذات العلاقة، ولاستعراض نتائجها، محاولاً من وراء ذلك أن يبين معايير تاريخها وحجمها بالنسبة لحجم المادة المكتشفة.

لم تشكل مادة المخلفات الفخارية في شرقي المملكة العربية السعودية موضوع دراسة وحوار حتى أواخر الخمسينيات من القرن الحالي^(١)، على الرغم من أن بداية الاهتمام بآثاره قد نشأت في أواخر القرن التاسع عشر^(٢). ومع استمرار الوقت وتنفيذ المزيد من الأعمال الميدانية توافرت كميات ضخمة من المخلفات الفخارية لم ينشر معظمها، والمنشور منها جاء من نتائج المسح، والختنادق الاختبارية. وتحتوي المادة المنشورة على مخلفات فخارية تعود لفترات مختلفة زمنياً تبدأ أقدمها في الألف السادس قبل الميلاد وتقع آخرها في الفترة العثمانية.

ويهمنا في هذه الدراسة المجموعات التي أرخت بشكل أولي للفترة الواقعة بين ٣٠٠ قبل الميلاد و٣٠٠ ميلادية، تلك الفترة المتعارف عليها في التقسيم الزمني للعصور القديمة باسم «الفترة اليونانية - الرومانية»، والتي غالباً ما يطلق عليها اسم الفترة الهلينستية^(٣).

وتشير أحدث الدراسات إلى وجود سبعين موقعاً اكتشف فيها مادة فخارية تؤرخ لهذه الفترة. يتركز انتشار المواقع في وسط المنطقة؛ في أبيق، وعين دار، وعين جاون، وفودا، وريدا، وثاج. وتنتشر في المنطقة الممتدة من واحة الهفوف جنوباً حتى مدينة النعيرية شمالاً، ومن ثاج غرباً حتى الساحل الغربي للخليج العربي شرقاً، وعلى امتداد الساحل الغربي للخليج العربي من الزور في الشمال حتى رأس القرية في الجنوب؛ بالإضافة إلى بعض الجزر الواقعة في الخليج العربي بالقرب من مدينة الهفوف مثل تاروت، وجنا، والمسلمية^(٤).

أعمال المسح

ظهرت أولى الأعمال المنشورة عام ١٩٤٨م عندما نشر المعتمد البريطاني في الخليج العربي السيد ديكسون "Dickson" وزوجته بعض الكسر الفخارية التي حصلوا عليها عام ١٩٤٢م من موقع ثاج^(٥). وبعد نشرها أدلى بعض الباحثين بمناقشات حول مدلولاتها الزمنية^(٦)، مما أغرى الباحث الأمريكي بول لاب "Paul Lapp" بالقيام بزيارة بعض المواقع والتي كان موقع ثاج من أهمها، ونشر مقال عام ١٩٦٣م عن هذه الزيارة وصف فيه باختصار الفخار الذي شاهده، فجذبت الأراء التي طرحها انتباه الباحثين^(٧). بعد ذلك بسنة واحدة، ١٩٦٤م، نشر بيتر بار "Peter Parr" دراسة ناقش فيها آراء بول لاب ووليم ألبرايت "William Albright" حول المجموعة الفخارية التي نشرها ديكسون وزوجته عام ١٩٤٨م؛ وكانت المجموعة حينذاك معروضة في المتحف البريطاني في لندن مما سهل على بيتر بار الإطلاع عليها مباشرة^(٨). وخيم السكون بعد

تلك المقالات القصيرة على هذا النوع من الدراسات حتى حلول عام ١٩٦٨م عندما قامت البعثة الدنمركية الثانية التي أشرف عليها العالم الجيولوجي الإنجليزي جفري بيبى "Geoffrey Bibby" بإجراء مسح في شرقي المملكة العربية السعودية. وحيث إن ما نشرته البعثة قد اقتصر على مادة منقبة فسوف نتعرض له فيما بعد.

وتمثل أعمال إدارة الآثار والمتاحف السعودية النشاط اللاحق في هذا المجال. فقد نفذت موسمين مسح انجزا ضمن مشروع برنامج المسح الشامل لآثار المملكة العربية السعودية. نُفذ الموسم الأول عام ١٩٧٦م، وكان يهدف لمسح الأجزاء الجنوبية في المنطقة، ونشرت نتائجه الأولية عام ١٩٧٧م^(١). ولكن الدراسة المنشورة لا تشتمل على رسوم توضيحية للمادة الفخارية المكتشفة على الرغم من أن نص الدراسة يتضمن مناقشة مقتضبة تدل على اكتشاف كميات من الفخار عائدة للفترة التي نحن بصدد الحديث عنها^(١٠). ونفذ موسم المسح الثاني عام ١٩٧٧م في الأجزاء الشمالية للمنطقة. نُشر تقرير أولي بخصوصه عام ١٩٧٨م قُدم فيه مناقشة مصحوبة برسوم توضيحية لنماذج من المادة الفخارية المكتشفة في بعض المواقع، ولكن المناقشة كانت مقتصرة على إيراد استدلال أولية فقط^(١١).

هناك إضافة إلى ما سبق ذكره كمية من الفخار التقطها عبد الله الدوسري، خلال إجرائه عمله الميداني عام ١٩٨٨م، من مواقع مختلفة شملت: ثاج، وموقع بالقرب من ثاج، والدي (١٦٣/٢٠٨) في منطقة الجبيل. بعض من هذه المادة ضُمَّته في رسالته لدرجة الدكتوراه التي أنجزها عام ١٩٩١م في جامعة ليون في فرنسا. وقد قام بدراسة لبعض القطع منتهجاً دراسة كل قطعة على حدة^(١٢).

أعمال التنقيب

اقتصرت أعمال التنقيب التي تم إنجازها في المنطقة على خنادق اختبارية

نفذت في مواقع محدودة العدد . ومع أن الحفنادق قليلة فلم يتم نشر كميات كافية مما اكتشف . وأهم المواقع التي تعرضت لهذا النشاط هي : ثاج ، وتل تاروت في جزيرة تاروت ، وعين جاون ، وآبار القطيف ، و٢٠٨/٩١ ، و٢٠٨/٩٥ ، ورأس القرية ، ودارين .

ثاج

تقع ثاج على بعد ثمانين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي عن مدينة الجبيل ، وعلى بعد نحو مئة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال الغربي عن مدينة الظهران ، على خط عرض ٢٦° ، ٥٣° شمالاً مع خط طول ٤٨° ، ٩٣° شرقاً . ويعتبر الحفندق الذي حفرت البعثة الدنمركية الثانية عام ١٩٦٨ م بمساحة ٢٠٢ م أقدام أعمال التنقيب في موقع ثاج وشرقي المملكة العربية السعودية بشكل عام ، باستثناء الأعمال غير المنظمة التي حدثت في موقع عين جاون والتي سوف نذكرها فيما بعد . نُقِبَ المجلس حتى عمق قدره خمسة أمتار ، منها آخر نصف متر حُفِر في تربة رملية بيضاء تخلو من أية مخلفات حضارية أو عضوية يمكن أن تدل على وجود الإنسان في المكان نفسه . اكتشف ست عشرة طبقة "Stratum" وجد في كل منها كسر فخارية تتفاوت كثافتها من طبقة لأخرى . واقتصر ما قدم في التقرير المنشور على المادة الفخارية المكتشفة في الست طبقات العليا . ويذكر المنقب إن الفخار متشابه في الست عشرة طبقة المكتشفة حيث إنه أجرى دراسته وتصنيفه في الحقل أثناء تنقيب الطبقات السفلى مما مكنه ، كما ذكر ، من الإطلاع على جميع المادة المكتشفة . وقد جمع أربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وستين كسرة فخارية صنفت في تسعة أنماط اعتماداً إما على أشكال الأواني ، أو على شكل أحد أجزاء الأنية مثل القاعدة أو الشفة . تمثل الأنماط التسعة ٨٠٪ من الفخار المكتشف ، والبقية الممثلة لـ ١٩٪ كانت غير قابلة للتصنيف .

ومن ضمن مجموع الكسر الفخارية ثمانية وتسعون كسرة مزججة على السطح الداخلي والسطح الخارجي للإناء، ويظهر أن بعض الكسر والتي عجيتها الفخارية صفراء اللون تكون أكثر سماكة من غيرها ومزججة على سطح واحد. ويكون التزجيج الحقيقي في أغلب الحالات قد اضمحل وتحولت البطانة الملونة الواقعة تحته مباشرة إلى مسحوق أبيض. وذكر أن كسرتين لا زالتا تحملان اللون المخضر والذي يبدو أنه لون التزجيج الأصلي.

وكان الفخار المدهون قليلاً، فقد اكتشف ست كسر مدهونة باللون الأحمر على بطانة دهنية اللون، وكسرة رمادية مدهونة باللون الأسود. الكسرة الرمادية وكسرة أخرى مدهونة بالأحمر كانتا مصقولتين باستخدام خيط.

ذكر - أيضاً - أن الزخرفة المحززة قد لوحظت على ثلاث وثلاثين كسرة حيث يظهر نماذج هندسية أشهر عناصرها الزخرفية عنصر أسنان المحش (المنجل)، وخط متكسر. ولم يعثر على كسر فخارية مزخرفة بنماذج مدهونة، كما ذكر أنه لم يُكتشف أية كسرة يمكن أن تقارن بالفخار النبطي المشهور بزخارفه المدهونة. بصفة عامة، يذكر المنقب أن المجموعة الفخارية من الحفيرة تُظهر تماثلاً كاملاً. وفيما يخص مسألة التاريخ، فقد اقترح تاريخاً يقع بين ٣٠٠ ق.م - ١٠٠ م. للمادة الأثرية التي اكتشفها، اعتماداً على الأدلة التالية:

١ - اكتشاف كسر فخار أسود مزخرف باستخدام عجلة منحوت عليها طبقات معينة (Roulette).

٢ - التشابه العام بين أشكال الطاسات المكتشفة خصوصاً الطاسات المصقولة والمدهونة باللون الأحمر والطاسات المدهونة باللون الأسود؛ مع الطاسات المكتشفة في طبقات المدينة الرابعة في حفيرة البعثة الدنمركية الثانية في قلعة البحرين وكذلك الطاسات التي وجدت البعثة نفسها في حفريتها في التل الأغرقي في جزيرة فيلكا في الكويت. ولكن، أيضاً، أظهر المنقب ميلاً

نحو إعطاء تاريخ يقع بين ٣٠٠ ق.م. و ١٠٠ ق.م. (١٣) لسبيين هما :

١ - اكتشاف كسر من الفخار اليوناني الأسود المصقول .

٢ - عدم اكتشاف كسر من الفخار الروماني أو النبطي .

ويبدو أن نتائج أعمال التنقيب اللاحقة في المملكة العربية السعودية وأجزاء شبه الجزيرة العربية الأخرى تستدعي مناقشة معظم الأدلة التي اعتمد عليها جفري بيبي عندما اقترح التأريخين المذكورين أعلاه . بالإضافة إلى أن هناك بعض المآخذ على تلك الدراسة ، والتي قد تقلل من قيمة استنتاجات الباحث في وقتها ، وهي :

١ - يبدو أن تصنيف أربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وستين كسرة فخارية في تسعة أنماط أمر أولي لا يعكس تمعنا حقيقيا بالقيمة الأثرية والحضارية والتأريخية لتلك المادة .

٢ - اعتماد الباحث في تصنيف المادة الفخارية في أنماط على أشكال الأواني أو أشكال بعض أجزاء الأنية مثل القاعدة ، بينما أغفل لون العجينة الفخارية الناتج عن تقنية الصناعة ومراحل الإنتاج المختلفة ، والذي يعتبر المعيار الحقيقي للتصنيف المتخصص .

٣ - اعتماد الاستنتاجات التأريخية على المادة الفخارية التي أعتقد إنها مستوردة ، وتجاهل المادة الفخارية التي أعتقد أنها محلية ، والتي تمثل جل المادة المكتشفة والتي تعكس التدرج التقني لهذه المادة في الموقع .

٤ - تجاهل المادة الفخارية العائدة للفترة الإسلامية ، علماً أنه لم يكن خفياً على الباحث إن الموقع كان مستوطناً خلالها (١٤) .

٥ - اكتشاف الفخار النبطي المزخرف بالألوان ، والفخار الروماني عن طريق أعمال التنقيب التي أنجزت حديثاً . وحيث إن البعثة الدنمركية لم تكتشفها فقد

استخدمت ذلك كأدلة لتأريخ .

ولقد أنجز فريق أثري من إدارة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٣م أعمال تنقيب في الموقع نفذت داخل وخارج سور المدينة^(١٥) . أسفر التنقيب عن اكتشاف أربع طبقات معمارية صحبها بعض الكسر الفخارية . وقد أرخ دانيال بوتس ، أحد المشاركين في الأعمال التنقيبية الطبقتين ، الرابعة والثالثة ، للقرن الثالث قبل الميلاد ، واعتبرهما المرحلة الأولى لاستيطان الموقع التي تعاصرت مع منشآت معمارية ، اعتماداً على اكتشاف الفخار الرفيع الذي عادة ما ينسب للفترة السلوقية (نهاية القرن الرابع حتى القرن الأول قبل الميلاد) في بلاد النهرين . أما الطبقة الثانية والذي يمكن ربطها بأول نشاط معماري واسع فيعتقد أنها لا يمكن أن تكون بعيدة عن التاريخ سالف الذكر ، لكونها مرتبطة بالفخار الأغريقي الأسود ، والذي يوحى بتاريخ من القرن الثالث قبل الميلاد ، اعتماداً على أشكال الأواني المكتشفة التي وجد لها نظائر في مواقع إغريقية مؤرخة للفترة نفسها . أما الطبقة الأولى التي تمثل الفترة الاستيطانية الأخيرة في الموقع على حد قوله فقد اقترح لها تاريخاً يقع فيما بين القرنين الثاني والثالث للميلاد ، معتمداً على اكتشاف بعض الكسر الفخارية المزخرفة بطبعات العجلة والتي ذكر لها مشابهاً رومانية من بلاد الرافدين . ويلاحظ عدم إيراد ذكر للفترة الإسلامية في التقرير^(١٦) ، علماً أن الباحث على معرفة بأن الموقع كان مستوطناً خلالها وقد يكون سبب إجحامه عن مناقشة الفترة الإسلامية هو تحديده بحثه في مكان الحفيرة فقط .

أما الجديد في هذا العمل فهو اكتشاف فخار في الطبقة السفلى في الحفيرة «الطبقة السابعة» يؤرخ لتاريخ أقدم من الفترة الهلنستية^(١٧) . واللافت للانتباه هو عدم مناقشة دانيال بوتس هذا النوع من الفخار في أعماله الجديدة على الرغم من مشاركته في التنقيب ، وقد يكون مرد ذلك إلى قلة الأدلة المتوافرة له^(١٨) .

وحسب ما ورد في التقرير المنشور في حولية الأطلال عن العمل نفسه ، فإن التنقيب نفذ في عددٍ من الأماكن المتفرقة داخل وخارج سور المستوطنة الأثرية . شملت الأعمال تنفيذ خمسة خنادق حفرت إلى الرمل الطبيعي في خمسة مبانٍ أو مراحل سكنية . ويذكر أنه لوحظ تشابه أفقيًا وعموديًا فيما يخص طبيعة الأواني وأشكالها .

وقد اكتشف كميات كبيرة من الفخار ملأت حوالي ألفا ومائتي كيس قماش متوسطة الحجم ، وبلغت الأواني الكاملة وشبه الكاملة أو تلك التي يمكن إعادة ترميمها ستين وعاء تقريبًا . وأجري التصنيف على محتويات خمسمائة كيس تحتوي على فوهات ، وقواعد ، وكسر كبيرة مميزة . ووضعت المواد التي صعب تشخيصها وتحديد تاريخها في سبعمائة كيس .

وقد تم تحليل محتويات سبعمائة كيس من الفخار الذي اكتشف في الخنادق . وتم إحصاء الكسر وتصنيفها حسب المكان وطبيعة الفخار . وعلى أساس الدراسة الأولية ، تم تصنيف الفخاريات وتقسيمها حسب أشكال الأواني ولون العجينة الفخارية اعتمادًا على المعثورات الأثرية من الخندق الأول فقط . على أية حال ، صنفّت المجموعة في ثلاثة عشر نمطًا حسب لون العجينة الفخارية . وقسمت نفس المجموعة حسب أشكال الأواني إلى اثني عشر نمطًا ، وضعت في أنماط فرعية يصل مجموعها إلى ستة وثلاثين نمطًا فرعيًا^(١٩) .

ويلاحظ على هذا العمل اعتماده في منهج التصنيف على التسلسل الطبقي ، والمجموعة الفخارية من خندق واحد . ويعني هذا عدم الاستفادة من التسلسل الطبقي في الخنادق الأخرى ، فطبق على مادتها الفخارية تسلسل طبقي من مكان آخر . وهذا أمر غير مقبول ؛ لأنه لم يكن معروفًا للباحثين فيما لو كان المكان ذا فترة استيطان واحدة أو أكثر ؛ ولهذا فإن التسلسل الطبقي في الخنادق قد يكون متغيرًا ، وكذلك المادة الفخارية ودلالاتها الحضارية

والزمانية. كما يبدو أن التصنيف لم يعتمد النظام المتبع في التنقيب حيث لا يبدو أن هناك ربطاً للمادة الفخارية بالمراحل الاستيطانية. وبما يلاحظ على هذا العمل هو أن التصنيف لم يبدأ من حيث انتهى جفري بيبي، ولم يقدم وجهة نظر حول عمله.

من ناحية التاريخ، فقد ذكر نفس التاريخ الذي ذكره بيبي وأعادته مصري ثم بوتس، ولم يقدم أية محاولة لتنفيذه، علماً أن ما اكتشف من مواد أثرية أخرى مثل الأختام، والتماثيل، وقطع العملة؛ كان قادراً على إعطاء معلومات لم تكن متوافرة للباحثين السابقين.

أما الجديد في العمل فهو اكتشاف نوعين من الفخار لم يسبق أن عرفا في الموقع. أحدهما مزخرف بخطوط متقاطعة ملونة باللون الأحمر تظهر على هيئة شبكة، والنوع الآخر مزخرف بشرائط أفقية ملونة بالأسود والأحمر. ذكر الفريق الأثري أنه يمكن مقارنتها ببعض القطع المكتشفة في موقع تل الرميطة، في الإمارات العربية المتحدة، والمؤرخ للنصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد^(٢٠).

وحيث إن الأمر كذلك فلنا أن نتساءل عن سبب إحجام دانيال بوتس عن مناقشة المدلولات التاريخية للنوعين سالفى الذكر، وخصوصاً وأننا نعرف أنه على معرفة بفخار فارس والإمارات العربية المتحدة حيث كانا جزءاً من دراساته العليا. بالإضافة إلى ذلك نلاحظ عدم أخذ الفريق الأثري بمدلولات النوعين عند وضع الموقع في إطار زمني، علماً أن الفريق الأثري هو صاحب المقارنة مع موقع الرميطة الذي لا يمكن أن يؤرخ لما بعد النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

وأنجز فريق من إدارة الآثار عام ١٩٨٤م أعمال تنقيب في الجهة الجنوبية الشرقية لحضرة موسم عام ١٩٨٣م. نُقب أجزاء غير مكتملة من خمسة

مربعات^(٢١). عُثر من خلالها على كميات كبيرة من الفخار صنفت وفقاً لطبقتها الأثرية. وأُستخدم في التصنيف أسلوب مزدوج، بحيث يكون مرة حسب لون العجينة الصلصالية المشوية، ومرة أخرى حسب أشكال الأواني أو وظائفها^(٢٢). ولم ينشر في التقرير مقاطع للحفريات كما أن الفخار لم ينشر بالرسم، إنما نشر صور لبعض الكسر^(٢٣). وبمقتضى تحاليل كربون ١٤ المشع C14 الذي أجري على مادة أثرية التقطت من الطبقة الأخيرة، فإن تاريخ أقدم مرحلة استيطانية معروفة في الموقع قد يعود لسنة ٦٨٣ أو لسنة ٥٢٣ قبل الميلاد^(٢٤).

جزيرة تاروت

تقع الجزيرة على خط طول ٥٠ شرقاً و٢٦ غرباً مع خط عرض ٣٣ شمالاً. وتحتوي على عدد من المواقع من أهمها تل تاروت. حفرت فيه البعثة الدنمركية عام ١٩٦٨م خندقاً واحداً^(٢٥). واكتشفت كمية من الفخار عائدة لهذه الفترة، لكنها لم تدرسها وأودعتها في المتحف الطبيعي في جامعة أرهوس في الدنمرك^(٢٦). وفي عام ١٩٧٢م حفّر عبد الله مصري خندقاً في التل نفسه وكشف عن طبقات أثرية أقدمها يعود لفترة جمدة نصر (حوالي ٢٩٠٠ ق.م). وأحدثها يعود للفترة الإسلامية. أما فخار الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها فقد اكتشفه في الطبقتين «الخامسة والسادسة». وبالنسبة للتأريخ فقد ذكر تاريخاً شبيهاً بالتاريخ الذي ذكره جفري بيبى وذكرناه آنفاً. ويبدو أن عبد الله حسن مصري لم يعر فخار هذه الفترة اهتماماً حيث إن الفخار يعتبر خارج الإطار الزمني لدراسته، والتي بشكل عام لم تكن موجهة لدراسة الفخار أيّاً كان نوعه أو زمنه. أما المادة الفخارية فلم تدرس ولم تنشر بعد^(٢٧).

عين جاون ١٢٩/٢٠٨

تقع شمال غرب جزيرة تاروت بثلاثة كيلومترات على خط طول ٥٧°٤٩

شرقاً مع خط عرض ٣٢°٢٦ق شمالاً. تعرض الموقع لأعمال تنقيب غير منظمة عندما كانت أرامكو تشيد مصفاة الزيت في رأس تنورة في منتصف خمسينيات القرن الحالي حيث فتحت بعض المقابر فاستدعي السيد ف. س. فيدال "Vidal" للإشراف على إنقاذها فتمكن من جمع مادة فخارية^(٢٨) نشرها ليونارد بوين "L. Bowen" عام ١٩٥٠م^(٢٩) وزودها بدراسيتين متخصصتين، تقنية^(٣٠) وتاريخية^(٣١)، حول المادة الفخارية المكتشفة. ودلت نتائجها على أن الفخار يمكن أن يؤرخ للفترة الواقعة بين القرن السابع قبل الميلاد والقرون الميلادية المبكرة^(٣٢).

بعد ذلك قام فريق المسح الأثري لموسم عام ١٩٧٧م بحفر ثلاثة خنادق اختبارية وسماها بـ A و B و C. ولم يناقش في التقرير المنشور بهذا الخصوص إلا حفرة خندق C فقط والذي أسفر الحفر فيه عن سبع طبقات، يفصل بين الطبقة السابعة والطبقة السادسة متر من الرمال الناعمة. وأسفرت الحفريات عن مرحلتين معماريتين. أما المواد التي تم الكشف عنها في الست طبقات العليا فقد أرخت بشكل عام للفترة الهلنستية، وتشمل هذه المواد التالي: ١ - فخار مزجج بلون كحلي، ٢ - فخار أحمر بسطح أبيض، ٣ - فخار أحمر بسطح أحمر، ٤ - فخار أحمر بسطح أسود، ٥ - فخار زهري مصفر بسطح خارجي أبيض وسطح داخلي مدهون بالأحمر.

وقد استند التاريخ المذكور أعلاه إلى اعتبارات تقليدية هي: أ - تشابه أشكال الأواني مع الأشكال السائدة خلال الفترة الهلنستية، خصوصاً الطاسات المفتوحة، والجرات الكروية ضيقة الفوهة، ب - التشابه بين أشكال بعض الأواني المكتشفة ونمط ٢٢ أو ٣ في تصنيف جفري بيبي لفخار شاج من حفرة عام ١٩٦٨م^(٣٣). ولعله من المفيد أن نذكر أن ما قدمه دانيال بوتس كان على سبيل الاستشهاد فقط.

اكتشف في الطبقة السابعة نوع من الفخار طيبته بنية غامقة وغير قاسية، ومضاف إليها شظايا كبيرة من الأصداف لتقويتها (Temper). وذكر أنه ربما يعود لفترة استيطان أقدم من الفترة الهلنستية^(٣٤).

آبار القطيف «٢٠٨/١٢٠»

تقع آبار القطيف عند خط طول ٤٩°٥٨ ق ٤٥°٤٥ شرقاً مع خط عرض ٢٦°٣١ ق ٤٥°٤٥ شمالاً. من حول جدرانها جمع فريق المسح لعام ١٩٧٧ م كسراً فخارية كان من ضمنها بعض الأواني التي اعتقد أنها هيلنستية^(٣٥).

موقع «٩١/٢٠٨»

يقع موقع «٩١/٢٠٨» على بعد ٤ كم جنوب مطار الظهران، عند تقاطع خط طول ٥٠°٥٨ ق شرقاً مع خط عرض ٢٦°١٤ ق ١٥°١٥ شمالاً. حفر فيه عام ١٩٧٧ م ثلاثة خنادق. نفذ الخندق الأول في منطقة «أ» بمساحة ٢٢×٢ م، وأسفر الحفر عن طبقة واحدة سمكها ١٠ سم. اكتشف فيها كسرة فخار واحدة طيبته حمراء اعتقد بأنها تعود للفترة موضوع البحث. نفذ الخندق الثاني في منطقة «ب» بمساحة ٢٧×٢ م. أسفر الحفر عن طبقتين التقط منهما مجموعة فخار لم يقطع بتاريجها. ونفذ الخندق الثالث في منطقة «س» بمساحة ٣٢×٣ م. حفر حتى عمق ٩, ١ م تمثل فيه ثلاث طبقات. وجد بعض الفخار الذي يجمع الإسلامي والهلنستية في طبقة مخربة. وبصفة عامة، يمكن طرح فخار هذه المستوطنة كما يلي:

١ - فخار الفترة الهلنستية ويشتمل على؛ أ - فخار مزيج باللون الأخضر اللامع، ب - فخار شاج الأحمر بسطوح سوداء، ج - فخار ناعم بلون زهري مصفر.

٢ - فخار الفترة الساسانية ويشتمل على؛ أ - فخار بني مصفر ومزود بكسر

حجارة مجروشة، ب - فخار أصفر مغبر ومحزز ومخرم. ونُسب هذان النوعان للفترة الساسانية نظرًا إلى أن هناك أوجه شبه ببعض الفخار المكتشف في موقع «كتسفون = المدائن» في بلاد الرافدين. كما عثر على أنواع أخرى من الفخار لم يذكر أي وصف لها ماعدا إشارة إلى أنها تعود للفترة الإسلامية بشكل عام (٣٦).

موقع «٩٥/٢٠٨»

يقع جنوب مطار الظهران الدولي على خط طول ٨٠°٥٠ شرقًا مع خط عرض ٢٦°١٤ ق ١٥ ث شمالًا نقب مدفن ركامي في الموقع. وأسفر التنقيب عن مادة فخارية اشتملت على: أ - كسر فخار مزجج باللون الأخضر المائل إلى الأزرق، ب - حقين؛ أحدهما من الفخار المزجج باللون الأخضر اللامع، والآخر من الفخار المزجج بالأبيض اللامع. واكتشف الاثنان داخل المدفن مع بقايا العظام. أُقترح لهما تاريخ من القرن الرابع الميلادي، وذلك بناءً على اكتشاف قنينة زجاجية عليها زخرفة بالأبلكة "Applique" على هيئة شبكة اعتقد أنها تشبه القنينات الزجاجية العائدة لذلك الزمن (٣٧).

رأس القرية «١٠٢/٢٠٨»

يقع على خط طول ٢٥°٥٥ ق ٣٠ ث شرقًا وخط عرض ٢٥°٦ شمالًا. يعرف الموقع بالرقم «٢٠٨/١٠٢» في سجلات إدارة الآثار والمتاحف السعودية، ويعرف لأهالي المنطقة باسم رأس القرية، ونقطة منجم الملح. حُفر فيه عام ١٩٧٧م خندقان، أحدهما أنجز بمساحة قدرها ٢×١م، والآخر بمساحة تبلغ ٣×٢م. تم الحصول من الخندق الأول على كسرة فخارية واحدة مزججة باللون الأخضر اللامع، أرخت للقرن الرابع الميلادي بشكل عام، اعتمادًا على المقارنة مع المعثورات المذكورة أعلاه بخصوص موقع ٢٠٨-٩٥. اكتشف أيضًا بقايا محترقة لإناء طينته حمراء تميل إلى اللون البني، وغير نقية (٣٨).

الاستنتاج

من استعراض الأعمال الأثرية في شرقي المملكة العربية السعودية يتبين أنه يتوافر في إدارة الآثار والمتاحف السعودية كمية من فخار الفترة المعنية بالدراسة . ويتضح أنه لم ينشر بخصوصها إلا دراسات أولية مزودة بعدد محدود من الرسوم التوضيحية . وعليه فإننا نقترح إعادة دراسة المادة المتوافرة للخروج بمعلومات مفصلة عن الجوانب الحضارية للمنطقة .

كما يتضح أن التقارير الخاصة بشاج وعين جاور قد أشارت إلى وجود طبقات أثرية يفصلها عن طبقات الفترة المعنية بالدراسة الحالية فترة انقطع خلالها الاستيطان . يعتقد أن الطبقات المذكورة تشخص فترة استيطان سابقة للفترة الهلنستية ، ومع ذلك يلاحظ أن التقارير التي استعرضناها لم تناقش هذه الفترة ، علماً أن هناك دلائل أخرى تشير إلى وجود ذلك الاستيطان وتشجع على البحث فيه . فمن هذه الدلائل : النقوش ، والأختام ، والفخار^(٣٩) ، ويؤيد ذلك ما نشر من معشورات أثرية وجدت في بعض المواقع التي لم تنقب^(٤٠) ، والإشارات التاريخية المدعومة بنقوش مؤرخة لزمان يسبق الفترة الهلنستية^(٤١) . كما أن عدد المواقع العائدة للفترة المعنية بهذه الدراسة ينبئ بوجود استيطان سابق لها . وعليه أقترح إجراء عمل موجه لدراسة هذه الفترة من خلال تنفيذ أعمال ميدانية في مواقع مختارة ، حيث إنها فترة لا نعرف عنها إلا القليل .

الهوامش

(١) على أثر ذكر بعض الرحالة وجود كسر فخارية في بعض المواقع تبه الآثاريون لهذه الظاهرة؛ وبعد نشر ديكسون وزوجته بعض الكسر بدأ ظهور المادة المكتوبة عن الفخار، انظر: هامش رقم ٤ .

ولزيد من المعلومات عن المواقع التي ذكرت في نص المقال، انظر حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية (المنطقة الشرقية، البصرين قديماً)، ٤ مجلدات. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (١٩٧٩/١٣٩٩)؛ عبد الله حسن آل عبد المحسن، من تراث تاورث. الجبيل: مطابع الصناعات المساندة المحدودة، (١٩٨٦/١٤٠٦م)؛ خالد بن جابر الغريب، منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ، ط٢. الخبر: الدار الوطنية للطباعة والنشر، (١٩٨٨/١٤٠٨م)؛ عبد الرحمن بن عثمان آل ملا، تاريخ هجر. الأحساء: مطابع الجواد، (١٩٩٠/١٤١٠م)؛ ف. ش. فيدال واحة الأحساء، ترجمة، عبد الله ناصر السبيعي. الخبر: الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع، (١٩٩٠/١٤١٠م)؛ زين العابدين عبد الرحمن رجب، واحة الأحساء. الدار، عدد ٣٢، سنة ١٦، (١٩٩١/١٤١١م)، ص. ٩٣-١٤٥.

(٢) منذ أن حل الرحالة الأوروبيون في المنطقة والأخبار الأثرية عنها تتوارد على المجتمع الغربي؛ بخصوص عمل يلخص جهودهم، انظر: D.T. Potts, Trans-arabian routes of the Pre-Islamic period. In: J-F. Salles (ed.), *L'Arabie Et Ses Mers Bordières*, Lyon: Travaux de la Maison de l'Orient, N° 16, (1988), pp. 142-145.

(٣) دانيال بوتس وآخرون، التقرير المبني عن الموسم الثاني لمسح المنطقة الشرقية ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، الأطلال، عدد ٢، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ٢٨، ملاحظة ١١. وحيث إنه لا يوجد أي دليل على احتلال للمنطقة من قبل اليونانيين أو الرومانيين الذين ظهروا بعدهم، فإنه من المجحف بحق المنطقة أن تسبب حضارتها للحضارة الهلنستية. فالحاصل هو تأثير وتأثر ويجب أن تشخص المسألة في هذا النطاق، وليس كما هي مصورة في ما هو منشور عن المنطقة.

D. Potts, Northeastern Arabia from the Seleucids to the Earliest Calilghs, *Expedition*, (٤) Vol. 26, N° 3 (1984), pp. 21-30, Fig. 1.

H.R.P. and V.P. Dickson, Thaj and Other Sites. *Iraq*, Vol. x, (1948), pp. 1-8. (٥)

(٦) بعد نشر مقال ديكسون ظهرت آراء تقول إن بعض الكسر الفخارية التي نشرها في مقاله تشبه الفخار النبطي. بخصوص ذلك، انظر: P. J. Parr, Objects from Thaj: In the British Museum. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, N° 176, (1964), p. 22, note 5.

P. Lapp, Observation on the Pottery of Thaj. In: *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, N° 172, (1963), pp. 20-22.

Parr, Objects from Thaj, pp. 20-28. (٨)

(٩) روبرت مايك آدمز وآخرون، تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل، الأطلال، عدد ١، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص. ٣٥-٢١.

(١٠) آدمز وآخرون، تقرير مبدئي، ص ٣٠، واللوحات.

(١١) بوتس وآخرون، التقرير المبدئي، ص ١٠، لوحات ٩-١٧.

(١٢) مناقشة شخصية مع الباحث، الرياض، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، التاسع عشر من شهر رمضان، ١٤١٣هـ، وانظر أيضًا: A.F. Le Dosary, *Carte Archéologique Médiévale De La Région d'al-Sharqiyya, En Arabie Séoudite*. Lyon: Université Lumière Lyon 2, (1990-1991).

G. Bibby, *Preliminary Survey in East Arabia 1968*. Copenhagen: Jutland Archaeological Society Publications, Vol. 12, (1973), p. 10.

J. P. Mandaville, *Thaj: a Pre-Islamic Site in Northeastern Arabia*. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, N° 172, (1963), pp. 10-13.

Potts, *Northeastern Arabia*, p. 25. (١٥)

Potts, *Northeastern Arabia*, p. 26. (١٦)

(١٧) محمد صالح فزدر وآخرون، تقرير عن أعمال ونتائج الموسم الأول لحفريات ثاج ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، الأطلال، عدد ٨، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٥٤، ونهاية السطر العاشر وبداية السطر الحادي عشر في صحيفة ٧٨.

D. T. Potts, *Thaj in the Light of Recent Research*. *Atfal*, N° 7, (1403/1983), pp. 86-102; D.T. Potts, *Northeastern Arabia in the Later Pre-Islamic Era*. In: R. Bouchariat and J-F. Salles (eds.), *Arabie Orientale, Mésopotamie et Iran Méridional de l'Orient*, Lyon, 1983; D.T. Potts, *Thaj and the Location of Gerrha*. *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies*, n° 14, (1984), pp. 87-91; D.T. Potts, *Northeastern Arabia from the Seleucids*; D.T. Potts, *Trans-arabian routes* D.T. Potts, *the Arabian Gulf in Antiquity*. Oxford: Clarendon Press, (1990).

(١٩) فزدر وآخرون، تقرير عن أعمال، ص ٦٦-٦٥.

(٢٠) فزدر وآخرون، تقرير عن أعمال، ص ٧٧.

(٢١) خالد محمد اسكوي ومسيد رشاد أبو العلا، حفريات ثاج - الموسم الثاني ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الأطلال، عدد ٩، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٣٨.

(٢٢) اسكوي وأبو العلا، حفريات ثاج، ص ٤٢ وما بعدها.

(٢٣) اسكوي وأبو العلا، حفريات ثاج، لوحات ٣٠-٤٩.

(٢٤) اسكوي وأبو العلا، حفريات ثاج، ص ٥٣.

- G. Bibby, **Looking for Dilmun**, London: Richard Clay Ltd. (1984), p.389. (٢٥)
- (٢٦) لم يقدم جفري بيبي على حد علمي أية مناقشة لهذا الموضوع، ويرد ما كتبه بهذا الخصوص في كتابين ذكرنا في هامش ١٣ وهامش ٢٥.
- A.H. Masry, **Prehistory in Northeastern Arabia: the Problem of Interregional Interaction**. Florida: Miami, Field Research Projects, (1974), p. 143. (٢٧)
- (٢٨) ف.س. فيدال، العثور على ضريح من عهد الجاهلية في المنطقة الشرقية، المنهل، ١٣٥٦هـ/١٩٧٥م، ص ٥٦-٥٥٣.
- R. Le Baron, Bowen, et al., **the Early Arabian Necropolis of Ain Jawan**. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Supplementary Studies, Nos 7-9, (1950), p.15. (٢٩)
- * F.R. Matson, Technological Notes on the Ain Jawan Pottery. In: Bowen, et al., **the Early Arabian Necropolis**, pp. 57-63. (٣٠)
- F.E. Day, Historical Notes on the Ain Jawan Pottery. In: Bowen, et al., **the Early Arabian Necropolis**, pp. 64-67. (٣١)
- Day, Historical Notes, p. 65. (٣٢)
- D.T. Potts, et al., Preliminary Report on the Second Phase of the Eastern Province Survey 1397/1977. *Atlat*, Vol. 2, (1978), p. 21. (٣٣)
- (٣٤) بوتس وآخرون، التقرير المبدئي، ص ٢٥.
- Potts, et al., Preliminary Report, p. 20. (٣٥)
- Potts, et al., Preliminary Report, p. 17, 26, note 46. (٣٦)
- Potts, et al., Preliminary Report, pp. 15-18. (٣٧)
- Potts, et al., Preliminary Report, p. 19. (٣٨)
- (٣٩) ميرني جولدينج، ملتقطات من مستوطنات عصر ما قبل الإسلام بشرق الجزيرة العربية، الأطلال، عدد ٨، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١٦٠.
- G. Burkholder, **An Arabian Collection: Artifacts from the Eastern Province**. Boulder City: G.B. Publication 862 Jeri Land, (1984). (٤٠)
- Potts, *Thaj in the Light*, p. 77. (٤١)

بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للعمداني

إعداد: د / شيثان بن علي بن جريس

المقدمة:



يعود السبب في اختياري هذا البحث إلى محاولة معرفة بعض الجوانب التاريخية والسياسية والحضارية لبلاد السراة الممتدة من الحجاز شمالاً إلى اليمن جنوباً . ومن يستقص تاريخ هذه المنطقة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيلة يجد شح المادّة العلمية التي تتعرض لها ، مع العلم أن بها بعض العوامل المساعدة لنشوء تاريخ وحضارة بها ؛ فهي حلقة الوصل بين

اليمن في الجنوب والحجاز وما يليه من البلاد الممتدة شمالاً، إلى جانب كثافتها البشرية التي أسهمت وتسهم في أعمال حضارية متنوعة داخل البلاد وخارجها، مع ما بها من الموارد الاقتصادية المتعددة كالزراعة، وممارسة الكثير من الصناعات البدوية والحرف التقليدية، وكذلك النشاطات التجارية المختلفة في كثير من السلع. وتوفر مثل هذه الأمور في بلاد السراة لم يكن مغرباً للجغرافيين والمؤرخين، فيدونوا بعض الجوانب التاريخية والحضارية عن هذه البلاد، والسبب في ذلك يعود إلى صعوبة تضاريس المنطقة لما يوجد بها من جبال، ووهاد، ومضاب وعرة المسالك، أدى هذا إلى عدم الرغبة عند المؤلفين الأول، فلم يكن مجال اهتمامهم، وإن توفرت الرغبة لبعض منهم، أن ينطلقوا من الحجاز متجهين صوب اليمن عن طريق الساحل، أو عن الطريق الواقعة في الأجزاء الشرقية من بلاد السراة، لا سيما وأنها كانت مرتبطة منذ أمد بطرق تجارية عدة يطرُقها الطارق باستمرار، الأمر الذي جعل الطريق الواقعة في المناطق المرتفعة من السراة، والممتدة من الطائف شمالاً إلى نجران وصعدة وصنعاء جنوباً، مهمة نوعاً ما، إلى جانب التركيبة القبلية المتينة فيها، مع صعوبة سكنها، مما ساعد على انطوائها على نفسها، فقلت المعلومات عنها، وهذا من الأسباب التي جعلتني أخوض بقلبي مع صعوبة مهمتي في الحديث عنها من خلال كتاب «صفة جزيرة العرب للهمداني» الذي أسهب أكثر من غيره من كتب التراث الإسلامي في الحديث عن الناحية الجغرافية لبلاد السراة، وعن التركيبة السكانية فيها، فأشار إلى بعض الجوانب الاجتماعية والطرق المعيشية، وإلى بعض الأحوال التجارية، والفكرية والعلمية، ونوع من التقسيمات الإدارية، والطرق الزراعية والرعية وغيرها، وبعمله هذا يكون مؤلفه (صفة الجزيرة) أفضل من غيره في تدوين هذه

الجوانب عن بلاد السراة خلال الفترة التاريخية الإسلامية الأولى منها
والوسيلة، لهذا كان اعتمادنا عليه راجين من الله السداد.

شخصية الهمداني وحياته:

الهمداني هو الحسن بن أحمد بن يعقوب، يكنى بابن يعقوب، ويعرف بالنسابة، وبابن الحائك، ويسمى نفسه بـ (لسان اليمن)، ويكنى نفسه بأبي محمد، وهو من أسرة اتخذت بلاد همدان في اليمن مقراً لها، وقد تحدث عنها في الجزء العاشر من كتابه (الإكليل) حديثاً مستفيضاً، عندما تطرق في حديثه عن همدان وأنسابها، وعيون أخبارها، وأن والده كان تاجراً ذهب في تجارة له إلى حواضر الشام والعراق ومصر^(١).

أما مؤرخنا الحسن - الملقب بالهمداني - فقد ولد في شهر صفر سنة (٢٨٠هـ / ٨٩٣م) في بلاد همدان باليمن، ولكن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن طفولته، وما إن أصبح شاباً حتى عمل مع أبيه وأقاربه في مهنة الجمالة التي كانت قائمة آنذاك على نقل الحجاج والتجار من حواضر اليمن إلى الطائف ومكة المكرمة في الحجاز، وقد أشار الهمداني إلى ذلك بقوله: (وكننت أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة)^(٢). وسنحت له الفرصة، أثناء تنقله بين مدن اليمن والحجاز أن يلتقي برجال الفكر من العلماء والمشائخ، وخاصة في مكة المكرمة، فدرس على أيديهم، وتعلم منهم الشيء الكثير، فتوسعت مداركه، ونضجت معارفه، وازدادت خبرته في الحياة لكثرة ما شاهد ورأى مما زاده معرفة في النفوس بمختلف أصنافها ومستويات علمها، وطرائق عيشها، الأمر الذي أهله لأن يكون علماً من أعلام الفكر والمعرفة في زمنه، فألف العديد

من المؤلفات في الأنساب، والتاريخ، والجغرافيا، والآثار، وغيرها من العلوم الأخرى، وذاع صيته بين الناس، وأصبح معروفاً عند العلماء بفصاحة لسانه وقوة قلمه، وقد أثنى عليه بعض العلماء فقالوا: «إنه لم يولد مثله في اليمن، علماً وفهماً، ولساناً وشعراً، ورواية وذكراً، وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب منها والشعر»^(٣). ويبدو من هذا الوصف تنوع ثقافته التي تمتع بها دون سواء، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته في مختلف ضروب العلم والمعرفة. وإذا استقرنا ذكر مؤلفات الهمداني نجدها كثيرة، ولكن للأسف لم نعر إلا على القليل منها، مما اتسم بذكر الأحداث التاريخية والأنساب والأخبار عن بلاد اليمن، وكتابه (الإكليل) الذي يقع في عشرة أجزاء يتصف بهذه الصفات، وبما وصلنا من هذا المصدر أربعة أجزاء: الأول، ويتحدث عن أصول العرب والعجم وأنسابهم، وخاصة نسب حمير. والجزء الثاني، ويتحدث عن ولد الهميسع بن حمير، وقد طبع الجزءان لأول مرة في القاهرة عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م). أما الجزء الثامن، فيتحدث عن محاهد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها، ومراثي حمير والقيسور، وقد طبع لأول مرة في بغداد عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م). والجزء العاشر، يتضمن أخبار همدان وأنسابها ومعارفها، وطبع لأول مرة بالمطبعة السلفية بالقاهرة عام (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

أما كتاب الجوهريين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء فهذا يعد من أبرز كتبه لأهمية مضمونه؛ لأنه يتعلق بالمعدنين الذهب والفضة، من حيث طرق تعدينها وصياغتها، وضرب عيارهما، وكل ما يتصل بهما في جزيرة العرب، وبخاصة في بلاد اليمن. وقد ترجم إلى الألمانية، ثم نشر باللغتين العربية والألمانية من قبل الأستاذ كريستوفرتل (christophertoll) بمدينة أوسلا

في السويد سنة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).

أما كتابه (صفة جزيرة العرب) الذي وصلنا جزء منه فهو - (كما أشرنا آنفاً) الركيزة الأساسية في بحثنا، ويحتمل أن يكون من خاتمة مؤلفات الهمداني؛ لأنه يشير فيه إلى كتابه (الإكليل)، ويتضمن هذا الكتاب معلومات قيمة عن شبه الجزيرة العربية، وبلاد اليمن خاصة، وقد امتازت معلوماته بدقة الوصف إلى جانب الشمولية والتعليل، والذي يهمننا من هذا المؤلف، ما كتب عن المناطق المرتفعة والواقعة جنوب الطائف والممتدة جنوباً صوب نجران، والتي أطلقنا عليها اسم «بلاد السراة» من خلال كتاب صفة جزيرة العرب لهمداني». (انظر: الخريطة المرفقة مع البحث). وقد استعنا بمؤلفات الهمداني الأخرى التي ورد فيها معلومات ذات بال تعزز بحثنا. ونظراً لأهمية كتاب «صفة جزيرة العرب» فقد طبع عدة مرات، وأول طبعة له كانت في هولندية، عام (١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م)، ثم تلت تلك الطبعة طبعات أخرى، كان أفضلها الطبعة التي حققها محمد بن علي الأكويع الحوالي، والتي أشرف على إخراجها حمد الجاسر عام (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، ولكونها امتازت بالصفات التي ذكرت عنها مقارنة بغيرها من الطبعات الأخرى، كانت الأساسية عندنا في بحثنا.

جغرافية السراة الطبيعية والبشرية:

السراة: لغة، أعلا الشيء، والسراة عند العرب تعني - أيضاً - الجبال المتقاودة الآخذ بعضها برقاب بعض ليس بينها فاصل تام. والسراة هنا: هي السلسلة الجبلية الواقعة غرب بلاد العرب، والممتدة من اليمن جنوباً إلى الحجاز ثم الشام شمالاً، وتخترق هذه السلسلة أودية وشعاب كثيرة يشرق

بعضها، وبعضها يغرب، وهي ليست في مستوى واحد من حيث الاستواء، فمنها الشامخ في العلو، ومنها المنخفض، ومنها المتوسط في الارتفاع. وقد أطلق بعض الجغرافيين القدامى على هذه السلسلة اسم الحجاز؛ لأنها حجزت بين الأغوار التهامية الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر غرباً، والهضاب الشرقية الممتدة صوب نجد شرقاً^(٤). ويطلق على هذه السلسلة اسم (الطود) ونعني بهذه التسمية الجزء الجنوبي من جبال السراة الذي يتدنى بالطائف شمالاً ويتتهي بنجران ثم صعدة وصنعاء جنوباً، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي من هذه الجبال بـ (الجلب الأسود)، ربما لأن صخوره بركانية سوداء، كما يسمى بالسراة، أو السروات، وكل قسم فيه ينسب إلى القبيلة التي تسكنه، وقد يدعى سراة دون آل التعريف. أما القسم الشمالي من السلسلة الممتدة من شمال مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وما يأتي بعدها فيسمى بحجاز المدينة أو السراة^(٥).

وطول جبال السراة وعرضها وأقسامها مثار خلاف عند المتقدمين من الجغرافيين والمؤرخين، وفي الغالب أنها تشمل الجبال الممتدة من الطائف شمالاً إلى اليمن جنوباً، لكن الجبال الممتدة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ثم بلاد الشام، والمسماة هي الأخرى بالسراة، ليست مجال حديثنا لأنها لا تدخل ضمن بحثنا، لكنها بدون شك تختلف عن الأجزاء التي نحن بصدددها من حيث الارتفاع، والاتساع والسمات التضاريسية والمناخية، لكنها تماثلها في التكوين الجيولوجي، وتمتاز الجبال الممتدة من الطائف إلى نجران ثم صنعاء وصعدة في اليمن بأنها متقاربة من بعضها متشابهة بمناخها.

ويعد الحسن بن أحمد الهمداني الشخصية المعرفية في أرض السراة وسكانها، لكثرة تنقله في أرجائها، وله رأي في تسميتها، حيث يقول: «السراة هو ما

استوسق واستطال في الأراضي من جبال هذه الجزيرة^(٦). لكنه لم يجددها، وعند حديثه عن أطرافها الجنوبية الممتدة إلى داخل اليمن ينسب الأرض إلى القبيلة، كسرة الكلاع، والمعافر، وخولان، وغيرها^(٧). وفي حديثه عن السروات أثناء رحلته جنوبا نحو الشمال عند وصوله إلى نجران وما بعدها شيلا أشار إلى سراة جنب، ثم تابع حديثه قائلا: «ثم يتلوها سراة عنز، وسراة الحجر نجدها خثعم، وغورها بارق، ثم سراة ناه من الأزد، وبنو القرن وبنو خالد نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأزد، ثم سراة الخال لشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد بن عمران، ثم سراة زهران من الأزد، دوس، وغامد، والحر، نجدهم بنو سواة بن عامر وغورهم لب، وعويل من الأزد، وبنو عمرو، وبنو سواة خليطي والدعوة عامرية، ثم سراة بجيلة فتجدها بنو المعترف، وأصلهم من تميم، وقال لي بعضهم - والقول للهمداني - : إنهم من عكل، وغورها بنو سعد من كنانة، ثم سراة بني شبابة وعدوان، وغورهم الليث ومركوب فيلملم، ونجدها فيه عدوان مما يصلي مطار ثم سراة الطائف غورها مكة ونجدها ديار هوازن^(٨).

وبعد هذا الوصف الذي أورده الهمداني عن بعض بلاد السراة، والقبائل التي تقطن فيها أشار أيضا إلى بعض فروع تلك القبائل ومواطنها، إما في الأغوار التهامية، أو الأجزاء الشرقية النجدية، ولكنه في مكان آخر من كتابه (صفة جزيرة العرب)^(٩) وضع عنوانا جانبيا ساء (أرض السراة) قال فيه : «ثم يتلو معدن البرام ومطار صاعدا إلى اليمن، سراة بني علي وفهم، ثم سراة بجيلة، والأزد من سلامان بن مفرج، ألمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحجر إلى جرش، ثم قال : « ويطون الأزد مما تتلو عنز إلى مكة منحدر الحجر، وباطنها في التهمة ألمع ويرقى ابننا عثمان في أعالي حلي وعشم، وذلك قفر

الحجر، وتنومة والأشجان، ونحيان ثم الجهوة وهي قرى لبني ربيعة بن الحجر، وعاشرة العرق، وأيد وحضر ووراؤه قرى لبني ربيعة من أقصى الحجر أيضا. وحلبا قرية لبني مالك بن شهر قبلة الحجر على هذا يانها مصال لعنز ومن شأميها بلد الوس والفضع من خثعم، وشرقيها ما جاور بيشة من بلد خثعم وأكلب وغوريها بلد بارق»^(١٠).

وفي مكان آخر تحدث عن هجرة الأزد من بلاد اليمن بعد انهدام سد مأرب، فقال: «وأما من سكن السروات، فالحجر بن لهنؤ، ولهب، وناء، وغامد، ومن دوس وشكر وبارق السوداء وحاء، وعلي بن عثمان، والنمر، وحوالة، وثالة، وسلامان، والبقوم، وشمران، وعمرو»^(١١).

وفي أماكن أخرى يشير إلى بعض المواطنين التي وجدت بها تجمعات سكانية ونهضة حضارية في عصره، أمثال جرش^(١٢)، فيقول عنها: «هي كورة نجد العليا، وهي من ديار عنز ويسكنها ويترأس فيها العواسج»^(١٣) من أشراف حمير، وهم من ولد يريم ذي مقار القيل، ولهم سؤدد... وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من مولاي قريش»^(١٤). ثم يواصل الهمداني حديثه عن موقع جرش وما جاورها من البلاد فيقول: «فجرش رأس وادي بيشة، ويصالي قصبه جرش أوطان حزيمة من عنز ثم يواطن حزيمة من شاميها عسير قبائل من عنز، وعسير يمانية تنزرت، ودخلت في عنز فأوطان عسير إلى رأس تية، وهي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها...»^(١٥).

ثم يفضل الحديث في ذكر مناطق مختلفة في منطقة جرش، التي هي جزء من سراة عنز، ثم يقول: «ويأتي بعد سراة عنز سراة الحجر بن الهنؤ بن الأزد، ومدنها الجهوة، ومنها تنومة، والشرع من باجان، ثم يتلوها سراة غامد، ثم سراة دوس، ثم سراة فهم وعدوان، ثم سراة الطائف»^(١٦). ولكنه في مكان

آخر يفصل حديثه نوعا ما عن سراة الحجر بن الهنو، فيقول في مطلع حديثه: «فأول بلاد الحجر من يمانها عبل واد فيه الجبل ساكنه بنو مالك بن شهر، وباحان به القرى والزرع، وساكنه بنو مالك وبنو ثعلبة، وبنو نازلة من بني مالك بن شهر بن الحجر، وذبوب واد لبني الأسمر من شهر، ثم الرهوة رهوة بني قاعد من العدنيين من بلاد شهر قرية شعفية على رأس من السراة. .» (١٧). ويواصل الهمداني حديثه عن بقية سراة الحجر، وأحيانا يذكر بعض الأجزاء التهامية والنجدية لتلك السراة، مع الإشارة إلى شيوخ بعض القبائل فيها، ومثال ذلك يذكر بلدة نحيان التي هي جزء من أجزاء سراة الحجر ثم يورد اسمي علي بن الحصين العبدى من بني عبد ابن عامر، وابن عمه الحصين بن دحيم، ويشير إلى أنهما الحكام على نحيان، ويذكر أيضا مدينة الجهوة وزنانة العرق في السراة نفسها، ثم يقول: «وهي لجابر بن الضحاك» (١٨).

من هذا الوصف الموجز الذي أورده لنا الهمداني عن بلاد السراة يمكننا القول بأنه ترك لنا معلومات قيمة عن تلك البلاد، بحيث لا نستطيع أن نجد لها في أي مصدر آخر، ولكن قبل الخوض في تحليل ما ذكره عن الأرض والسكان لبلاد السراة يجدر بنا أن نورد نبذة مختصرة عن التركيبة الطبيعية والبشرية لهذه البلاد في عصرنا الحاضر، وذلك ليسهل الربط بين المواقع الحالية، وبين المواقع التي مازالت تحمل الأسماء التي كانت أيام الهمداني، والمواقع التي حرفت أسماؤها وتغيرت عما كانت عليه في أيامه. ونقطة البدء في هذه النبذة تبدأ من الطائف في الشمال إلى نجران في الجنوب.

وأول جزء من سراة الطائف الهداة الواقعة غرب الطائف، وهي عبارة عن جبل ضخم يسكنها قبائل من ثقيف، ومعهم جماعة من هذيل، ولذا يليها من



السروات الواقعة بين الطائف ونجران

الجنوب شفا هذيل، ثم يليها شفا بني سفيان، وهم بطن من ثقيف، ويلى ذلك من الجنوب سراة بني سعد، ثم سراة بلحارث، وجميع السروات والأشفية تسمى بسراة الطائف، وربما أطلق على الأجزاء المحاذية للقسم الجنوبي من الطائف سراة فهم، وعدوان، وقد تعرف بسراة بني شبابة وعدوان، وغورها الليث ويللم، ونجدها وهي الأراضي الواقعة شرق أودية الطائف وجنوبها التي أشار إليها الهمداني باسم يصلي مطار. سراة بني مالك، وهذه السراة التي كانت تعرف بسراة بجيلة على بعد مائة كيلو متر جنوب الطائف، وتجري المياه المنحدرة من شرقها صوب تربة، والمياه المنحدرة من غربها صوب الليث، وقد سماها أحد الشعراء بسراة بني جرير، نسبة إلى الصحابي جرير بن عبد الله البجلي^(١٩)، الذي هجا خالد بن عبد الله القسري، فقال:

تمني الفخـر في قيس وقـسر. . . كأنك من سراة بني جرير^(٢٠)

أما سراة غامد وزهران، فتبدأ من أول حدود بني مالك وبلحارث، وتبدأ صعوداً في جبل شمرخ الممتد جنوباً إلى بلد خثعم وشمران، وتنصب مياهها الشرقية، شهاها في تربة، وشرقها في رنية، أما مياهها الغربية فتصب من الشمال إلى الجنوب في وادي عليب، ووادي دوقه ووادي الأحسبة، وكلها في الأغوار التهامية، والباحة قاعدة سراة غامد وزهران^(٢١). وتقع سراة خثعم وشمران إلى الجنوب من سراة غامد وزهران، والممتدة نحو الشرق والجنوب الشرقي حتى السهل، ومياهها الشرقية تنصب في بيشة، والغربية في وادي قنونا الذي يصب في سهول القنفذة من الشرق، أما سراة بلقرن الواقعة ما بين سراة خثعم وشمران في الشمال، وبلاد الحجر في الجنوب، فتصب مياهها الغربية في مناطق القنفذة وما حوها، والشرقية في بيشة، وقاعدة هذه السراة سبت العلابة.

وتمتاز سراة بلاد الحجر بطولها وعرضها، فهي تمتد من بلاد بلقرن شمالاً إلى

المناطق القريبة من مدينة أبها جنوباً، وتتكون من أربع قبائل هي: بنو عمرو، وبنو شهر، وبللسمر، وبللحمر، ومعظم قرى هذه القبائل تقع في الأجزاء السروية، في حين أن هناك أفخاذاً وقرى في تهامة والبوادي تتبع بلاد السراة، ومن أكثر المراكز فيها، النماص، وتنومة ببلاد بني شهر، وسوق الاثنين ببللسمر، وصبح ببللحمر، وتصب مياه الحجر الغربية في واديين كبيرين هما (بيه) و(حلي) وكلها تصب جنوب القنفذة، أما في شرقها فلا يزال وادي بيشة يتلج كل أودية السروات، وأهم روافد بيشة ببلاد الحجر وادي ترح، ووادي عياف، ووادي صلح^(٢٢).

أما سراة عسير (عنز) فتحيط بمدينة أبها، وتشتمل على أشهر القبائل العسيرة، وهي: علكم، وبنو مغيد، وربيعة ورفيدة، وبنو مالك. وكل هذه القبائل تقطن في الأجزاء الجبلية من عسير، ويتبعها قبائل رجال الملع في تهامة، وقد يدخل في هذه التبعية، من حيث الموطن الجغرافي، بعض قرى وأفخاذ وعشائر من قبائل شهران، ولا سيما القريبة منها بمدنيتي أبها وخميس مشيط^(٢٣)، وتصب مياه عسير الشرقية في وادي بيشة، وتصل بين بيشة وسراة عسير بعض الروافد من أشهرها وادي ذهبان الذي أطلق عليه فيما بعد اسم وادي ابن هشبل، أما مياه السراة الغربية فتصب في مناطق البرك، والقحمة، والشقيق في تهامة، وأهم الأودية وادي محامل الذي يصب في حلي، ووادي ريم وعمرم اللذان يصبان في مناطق الشقيق، أما وادي عتود فيصب في المناطق الواقعة إلى الجنوب من البرك، والقحمة والشقيق.

أما سراة قحطان التي تندمج مع بعض عشائر شهران في بعض المواطن، والمسماة قديماً بـ (سراة جنب)، والواقعة إلى الجنوب الشرقي من سراة عسير «عنز»، فتبدأ هذه السراة بالمناطق الواقعة من الشمال والشمال الشرقي من سراة

عسير إلى ديار نجران وما حولها في الجنوب . وغالبية سكان هذه السراة من قبائل قحطان، كوداعة، وسنحان، وبني بشر، وعبيدة، ورفيدة، والجارمة، وخطاب وقبائل أخرى . وهذه السراة عبارة عن طود عظيم يقع ما بين السهول الممتدة شرقا إلى التهائم غربا، ومياهها تتجه إلى ثلاث اتجاهات : شمالا نحو بيشة، وغربا نحو بيش، وأهل بيشة في الشمال، وأهل بيش في الغرب يتقاسمان الماء الآتي من السراة الواقعة ما بين أبها ونجران، أما المياه الشرقية للسراة نفسها فتصب في وادي حيونن واليدمة نحو بلاد يام .

وسبق لنا أن أشرنا إلى رحلة الهمداني الذي انطلق من سراة جنب (بلاد قحطان) متجها من الجنوب نحو الشمال، وأثناء رحلته ذكر سراة عنز، وبعض المواطنين والمراكز التي كانت بها، ثم سراة الحجر، وسراة بلقرن وغامد وزهران حتى وصل بذكره إلى بجيلة وعدوان والطائف، ويستفاد مما ذكره أن هناك أسماء للسروات مازالت إلى يومنا هذا حية في الأذهان متداولة على اللسان، وبعضها اندثر، مثل ناه، وأحيانا تلفظ باه، والخال لشكر، وأحيانا أخرى يذكر أسماء أماكن في البوادي أو الأغوار، فيشير إلى أن سكانها من قبائل بلاد الأزد السروية، لكنه لا يذكر لأي الأفخاذ أو العشائر ينتمون، ولا ندري ما سرّ اختفاء هذه الأسماء، وما هي العوامل التي أدت إلى اختفائها . ومن سياق حديث الهمداني عن ناة أو باة، والخال لشكر، وأيضا بني خالد، تبين أن مواطنهم ربما كانت ببلاد سراة الحجر أو سراة بلقرن، أو ضمن بعض الأجزاء الخنعمية، شرق سراقي بلاد الحجر وبلقرن والدليل على هذا القول، أن الهمداني نفسه، يذكر سراة الحجر في أثناء ذهابه من الجنوب إلى الشمال، ثم يذكر السروات التالية لبلاد الحجر نحو الشمال، قائلا : « . . وسراة ناة من الأزد، وبنو القرن، وبنو خالد، نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأزد، ثم سراة

الحال لشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد ابن عمران^(٢٤)، وبهذا الوصف يذكر سراة الحجر من الجنوب، وخثعم من الشرق، وبنو القرن (الذين يطلق عليهم في وقتنا الحالي بلقرن) في الوسط، وربما إلى الشمال مع بعض عشائر خثعم، ثم يلي ذلك بقية السروات السابقة الذكر، كغامد، وزهران، وبجيلة وغيرها^(٢٥). وبهذا العرض الجغرافي يتضح أن ناة، وبنو خالد، والحال لشكر، كانت ربما مجاورة لبلاد الحجر من الشمال، ومن المحتمل أن تكون مشاركة لها في بعض المواطن الشمالية، أما بلاد بلقرن فمن المؤكد أنها مجاورة لهم، بل ومشاركة لهم في كثير من المواطن، لأننا نجد الهمداني في الوصف السابق يذكر ناة ثم بني القرن (بلقرن)، ثم بني خالد، والحال لشكر، ثم غامد وزهران حتى يصل بلاد الطائف^(٢٦). وسر اختفاء ناة والحال لشكر وبنو خالد، ربما أنهم اندمجوا مع قبائل السراة المجاورة، كسراة بلقرن، أو بلاد الحجر، أو خثعم، فصاروا جزءا منهم. وكما هو معروف أن القبائل الصغيرة تدخل تحت حماية القبائل الكبيرة، إما بالغلبة، أو الاستجارة، أو الارتباط بالأحلاف، ومع مرور الزمن تنسى القبائل الصغيرة أسماءها، ويذوب كيائها في كيان القبائل الكبرى فتسمى بأسمائها^(٢٧).

وأورد الهمداني ذكر السروات في أكثر من مكان في كتابه (صفة جزيرة العرب) فذكرهم وهو ذاهب من الجنوب إلى الشمال، وذكرهم وهو ذاهب من الشمال إلى الجنوب، مع إيراد بعض الاختلاف لأسماء بعض السروات في كل مرة يذهب ويعود من عليها، فعلى سبيل المثال، سراة شبابة وعدوان الواقعة إلى جنوب الطائف ذكرها بهذا الاسم، ثم يعود مرة ثانية فيسميها سراة بني علي وفهم، وكلا الاسمين صحيح، لأن تلك الأجزاء تعرف باسمي سراة بني علي وفهم، وسراة شبابة وعدوان^(٢٨). أما بعض المواطن والقبائل في السروات،

فلم يذكرها إلا مرة واحدة . فمثلاً ؛ يقول : البقوم ، وشمران ، وعمرو ، وكل هذه الأسماء تطلق على عشائر أو قبائل تشكل بموطنها جزءاً من بلاد السراة ، فشمران ، مثلاً ، جزء من سراة خثعم وشمران ، وعمرو جزء من سراة الحجر . وقد يتراءى للبعض أن الهمداني قد وقع في خطأ ، ولكن الواقع كان يذكر أحياناً اسم السراة للتعميم ، وأحياناً أخرى يشير إلى جزء منها ويسميه باسم القبيلة القاطنة فيه ، ويتبين لنا من الوصف الجغرافي لبلاد السراة عند الهمداني ، الذي يعد وصفه أفضل وصف وصل إلينا في القرون الإسلامية الأولى ، أن معظم الأماكن السروية مسماة بأسماء القبائل والعشائر القاطنة فيها ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الترابط الاجتماعي بين هؤلاء السكان ، الأمر الذي أكسبها قوة في بنيتها الاجتماعية تماثلت مع بنية التكوين لهذه لجان ، وقد أدى هذا التماسك إلى التكافل الاجتماعي ، وإلى تعمق المفهوم القبلي ، رغم وجود الأنظمة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى الوقت الحاضر ، الأمر الذي أدى إلى حدوث اتحاد بين النظام القبلي ونظام السلطة العليا الممثلة في الدولة التي ضمنت الاستقرار والأمن للجميع بالتعاون معهم إدراكاً منهم لأهمية السلطة العليا وفائدتها .

ولم يقتصر الهمداني في كتابه على وصف الأماكن وتسميتها بأسمائها الجغرافية ، أو بأسماء القبائل أو العشائر القاطنة فيها ، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث يذكر مواقع هذه القبائل أو العشائر في بعض المواطن من بوايد ونجود وسهول وأغوار ، متتبعاً أفخاذ هذه العشائر أو القبائل في الأماكن التي استقرت فيها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يذكر بعض الحواضر والأرياف في أجزاء من السروات ، كتنومة ، ونحيان ، والجهوة ، وعاشرة ، والعرق ، وأيد ، وحضر ، وباحان ، وبني ثعلبة ، وبني نازلة ، وجميع هذه المواطن في بلاد سراة

الحجر^(٢٩)، والطريف في الأمر أن أغلبها إن لم يكن جميعها مازال يحمل الاسم نفسه الذي كان يسمى به في عهد الهمداني، ولا تزال أسماء هذه الأماكن متداولة على الألسن إلى يومنا هذا^(٣٠).

وأفرد الهمداني عنوانا خاصا لمدينة جرش وضواحيها^(٣١)، فأشار إلى موقعها، ومن سكن فيها من القبائل والعشائر، وعقد مقارنة بينها وبين بلاد الحجر، باعتبار الأولى جزءا من سراة عنز، وربما عدت أيضا من شمال سراة جنب، أما بلاد الحجر فهي سراة تقع بين سراة عنز (عسير) جنوبا، وسراة بلقرن شمالا^(٣٢).

والواقع أن جرش لها سجل في التاريخ لا عند الهمداني فحسب، بل في كتب السير وغيرها، فقد ورد اسمها عندما قدم وفدها بزعامة صرد بن عبد الله الأزدي على الرسول (ﷺ) في السنة العاشرة للهجرة^(٣٣)، وذكرها اليعقوبي فقال: «وكورة بلاد اليمن تسمى مخاليف، وهي أربعة وثلاثون» ثم ذكر منها مخلاف جرش^(٣٤)، وذكرها بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل كابن خرداذبة، والمقدسي، وابن حوقل، والإصطخري، والإمام أبي إسحاق الحربي، وابن الجاور، وغيرهم، فبينوا أهميتها الحضارية ونشاطها التجاري خلال القرون الإسلامية المبكرة^(٣٥). وبهذا فجرش في القرون الإسلامية الأولى، ربما كانت أعظم مدينة حضارية، لأنها كانت تشمل منطقة كبيرة تحوي أغلب منطقة قبائل عسير، وجزءا من منطقة قبائل قحطان وشهران، وليس ببعيد أنها كانت مركزا حضاريا مرموقا ليس في سراة عنز وجزء من سراة جنب، بل في بلاد السروات بشكل عام، ولا يستبعد أنها كانت تأتي في المنزلة الثانية بعد مدن اليمن والحجاز الكبرى. وتعود أهمية جرش إلى نموها الحضاري لقربها من المراكز الحضارية الكبرى في اليمن، كصعدة، وصنعاء وغيرها. إلى جانب

قربها من الطريق التجاري الذي يصل مدن الحجاز بمدن اليمن، والواقع إلى الشرق من هذه المدينة. ولم يعد اسم جرش يستخدم إلى اليوم، وإنما اختفى تقريبا من بعد القرن الخامس أو السادس الهجري، فلا نجد الجغرافيين المتأخرين يذكرونه، علما أن موقع المدينة الأساسي يقع - حاليا - إلى الجنوب من خميس مشيط بحوالي خمسة عشر كيلو مترا، على الطريق المؤدي إلى مدينة نجران^(٣٦).

الحياة الاجتماعية:

أما الحياة الاجتماعية في بلاد السراة كما نخبرنا عنها الهمداني فقد بين في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن التركيبة السكانية في هذه البلاد تقوم على القبيلة، مشيرا إلى مواطن القبائل وفروعها في هذه البلاد، فمشلا، قبائل الأزد بمختلف فروعها استوطنت البلاد الواقعة ما بين نجران وجازان إلى الطائف وتائم مكة في الشمال، وقد اختلط مع هذه القبائل قبائل عدنانية، والاختلاط بين القبائل العدنانية والقحطانية في بلاد السراة قائم منذ أمد^(٣٧). الأمر الذي أدى إلى اندماج العشائر النزارية مع القبائل الأزدية، باعتبار الأولى أقل عددا من القبائل الأزدية القحطانية، فاندجت بها أحيانا تحت ظروف القهر والغلبة، أو الجوار والمصاهرة. ويفهم من حديث الهمداني عندما قال: «... ثم سراة زهران من الأزد، ودوس، وغامد، والحر، نجدها بنو سواء بن عامر، وغورها لب، وعويل من الأزد وبنو عامر، وبنو سواء خليطي والدعوة عامرية...»^(٣٨) بأن الاختلاط والاندماج كان قائما، ولكن ربما بنسب، فبنو سواء خليط من أفخاذ وعشائر سواء كانت قحطانية أو عدنانية، وأحيانا

يكون خليط مجموعة من العشائر مندرجا تحت مظلة واحدة أو اسم قبيلة أو عشيرة معينة .

وفي حديث الهمداني عن السراة ، لم يذكر وجود طبقة معينة من العبيد بها ، ولكن لا نستبعد أن يكون قد وجد بها نسبة منهم ، لأجل وقوعها في الوسط بين حواضر الحجاز واليمن الكبرى ، التي اشتهرت بنشاط أسواقها في بيع العبيد وشرائهم ، وغيرهم من السلع المختلفة ، إلى جانب أن أغوار بلاد السراة تطل على البحر الأحمر الذي يوجد به عدد من المواني التي كان لها صلات جيدة مع مصر والحبشة والسودان والصومال وغيرها من بلاد العالم^(٣٩) . أما طبقة الموالي في بلاد السراة فقد ذكرها الهمداني صراحة عند حديثه عن جرش فقال «وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش^(٤٠) ، ولعلها نالت هذا التخصيص بسبب كثرتها ، الأمر الذي أدى فرض وجودها ، مع العلم أن النص الذي أورده الهمداني لا يوضح إلى من ينتسب إليه أولئك الموالي من قبيلة قريش ، وكيفية الولاء الذي كان بينهم وبين قريش^(٤١) ، ولكن الأهم من ذلك أنه ربط مهنة الجزارة بالموالي دون سواهم ، لأن القبائل العربية تأنف أن تتخذ مثل هذه المهن وأشباهاها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في فصل خاص بمقدمته (العرب أبعد الناس عن الصنائع)^(٤٢) ، والملاحظ أن المهن إلى اليوم لها انعكاسات على أصحابها في المجتمعات العربية .

وأثناء حديث الهمداني عن مواطن السكان ومجاورتهم لبعضهم البعض ، لم يكن يذكر معلومات عن نوعية مساكنهم ومرافقها ، ولم يوضح مما كانت تبني بيوتهم ، وكيف تصمم ، ونوع الأثاث الذي كان يوضع بها ، مع العلم أنه ذكر بعض التفاصيل عن بناء البيوت ومرافقها في حواضر اليمن الكبرى ، فأشار إلى سعة بعض الدور عند الأغنياء خاصة في صنعاء وغيرها من المدن الكبرى ،

واستخدام الحجارة في البناء على هيئة طابق وطابقين ونادرا ما تكون أكثر من ذلك، وغيرها من المعلومات الجيدة حول البناء وما يتعلق به^(٤٣). ونظرا للمجاورة بين بلاد السراة وحواضر اليمن فليس ببعيد أن يكون شكل بعض الأبنية والمواد المستخدمة في بنائها مثلما هو الحال في صنعاء وغيرها.

والطريف في وصف الهمداني أنه لم ينس ذكر بعض الأماكن التي وجد بها بعض المراكز الحضارية، فيذكر منطقة جرش قائلا: «ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز، ثم تندحة، وهي العين من أودية جرش، وفيها أعناب وآبار وساكنه بنو أسامة من الأزد، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة، والعيا بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز، ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز، والقرعا لشبية من عنز ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع يقال لها المسقى، وهم مسالمون للعواسج»^(٤٤).

وهذا العرض من الهمداني لبعض أجزاء بلاد جرش نجده يذكر أسماء أماكن عديدة، تغير أسماء بعضها، وبقي أسماء البعض الآخر إلى يومنا هذا، وكلما ورد ذكره يغطي أجزاء من المناطق المعروفة حاليا بخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومنتزه القرعا والجرة وما حولها. وكونه ينوه لذكر شبية من عنز في أرض القرعا، ويبين أن لهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع، فهذا يدل على دقة ملاحظته، فلم يكن يغفل عن حجم القرية التي كانت كبيرة، وبها مسجد جامع للمصلين^(٤٥). ولم يكن أيضا يغفل عن ذكر بعض المراكز الحضارية، وتجمعات المواطن السكنية بها، فيورد أسماء بعض القرى المهمة في جرش، كتندحة، وغيرها، ثم يذهب إلى سراة بلاد الحجر فيذكر بها تنومة، ثم يقول: «وهي واد فيه ستون قرية أسفله لبني يسار، وأعله لبليحارث بن شهر»^(٤٦). ثم يشير إلى مدينة الجهوه التي تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، ويواصل تدوين

ملاحظاته الجيدة عن بعض القرى في سراة خثعم، وبلقرن، وشمران، وغامد، وزهران، وبجيلة حتى مدينة الطائف. والملاحظ أن الأماكن التي أشار إليها الهمداني لم تبقى على ما كانت عليه، بل تغيرت في تقسيماتها، وأحيانا في أسمائها، فعلى سبيل المثال كانت منطقة الجهوة في زمنه تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، وهي من أرض بني شهر لسراة الحجر، لكنها في الوقت الحاضر أصبحت جزءا صغيرا من قرية بني بكر التابعة لمنطقة الناهض.

وعلى الرغم من أهمية معلومات الهمداني، فإنه لم يذكر الألبسة المستخدمة لدى أهل السراة، والمواد وكيفية تصنيعها، كما أنه لم يشر إلى أدوات الزينة والطيب عند أهل هذه المنطقة، لا سيما وأنها تقع على مفترق الطرق التجارية الكبرى التي تربط حواضر اليمن والحجاز، وبالتالي كانت هذه الحواضر مركز جلب الألبسة والمنسوجات بأنواعها، سواء كان من الجزيرة العربية أو خارجها^(٤٧).

أما الموائد والأطعمة التي لاحظها وذكرها، فكان جلها من الشريد، وهو عبارة عن خبز يفت ويبل بالمرق، ويوضع فوق اللحم^(٤٨)، ولعله يشبه ما يسمى ببلاد الشام (بالفتنة) والمضيرة، وهي طبخ اللحم باللبن حتى ينضج وتختثر المضيرة، ثم تعد للأكل، وموائد أخرى تتضمن الخبز، والزبد، واللبن، والحليب، واللحوم. وجميع هذه الأطعمة محلية لتوفر موادها في بلادهم، فالقمح، والذرة، والشعير تزرع في السراة بكميات كبيرة. أما اللحوم والحليب فتؤخذ من مواشهم الموجودة بكثرة حيث المراعي الشاسعة. وأشاد الهمداني بنسوع من الأطعمة، يسمى اللحوح، وهو خبز رقيق يصنع من الذرة، ويستخدم عادة مع اللبن، وقد لاحظ رفته فوصفه بالقول: «إنه إذا وقع في اللبن استرخى فلا يحتمل إلا بأكثر الأصابع»^(٤٩).

وأشار إلى أطعمة السفر التي يتزود بها المسافرين من اليمن إلى الحجاز، وربما تزود بها أهل السراة، فقال: «وكنا نحن نستعمل في أسفارنا الخبز والسمن واللحم والكشك والمهاد»^(٥٠). وكان من أفضل المشروبات عند أهل السراة شراب اللبن مع الزبدة، ومن أفضل المأكولات السمن الذي يستخرج من ألبان المواشي، حيث كانوا يستخدمونه مع الخبز والعصيد والمريس»^(٥١)، وهذا النوع من الطعام مازال مرغوباً وخاصة عند المسنين من أهل تهامة والسراة.

وبالنسبة للعادات والتقاليد عند أهل السراة كالكرم، والشجاعة، والتكافل، والتآزر سواء في المواسم أو الأعياد أو غيرها من المناسبات، فالواقع أن هذا المجتمع كان ينبوعاً وقدة لغيره من المجتمعات في التطبيق، ولكن مع الأسف لم يشر إليه الهمداني إلا باقتضاب شديد حينما يتحدث عن النواح بأرض السراة ومشابته بنواح اليمن، وتبين أن الذين يقومون به هم من النساء والعييد الموالى^(٥٢).

ومن الملاحظات المهمة للهمداني -يرحمه الله- اهتمامه بالجانب اللغوي عند أهل السراة، ومقارنته بالجوانب اللغوية الأخرى عند أهل اليمن، والكثير من مناطق شبه الجزيرة العربية^(٥٣). وخلص إلى أن أهل السراة أكثر فصاحة في القول، وسلامة في اللغة حيث يقول: «الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزيد، فبني الحارث مما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام، فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسامة فعنز، فختعم، فهلال، فعامر بن ربيعة، فسراة الحجر، فدوس، فغامد، فشكر، ففهم، فثقيف، فبجيلة، فبني علي، غير أن أسافل سروات هذه القبائل ما بين سروات خولان والطائف دون أعاليها في الفصاحة»^(٥٤).

وطراً على بلاد السراة ما طراً على غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية بسبب سهولة المواصلات، وتيسر سبلها، الأمر الذي أدى إلى جعل العالم وكأنه بلد واحد، فحدث خلط جماعي بين سكانها، وبين الوافدين عليها من مختلف الأماكن، بل حدث أيضاً الاختلاف في بعض المفردات واللهجات من عشيرة أو قبيلة إلى أخرى. والواقع أن التبدل والتعدد في اللهجات والمفردات ببلاد السراة له أهميته مثلما له طرافته، حبذا لو تصدى له بعض الباحثين اللغويين لبيّنوا تاريخه، ودوافعه وأسبابه، فإنه موضوع مهم جداً في علم اللغويات، وبالتالي يتم إبراز وجه التراث العربي الأصيل.

الحياة الاقتصادية:

أما عن الحياة الاقتصادية في هذه البلاد التي حباها الله بعدة مزايا تؤهل ساكنيها لمزاولة العيش فيها، فهناك المراعي، والأراضي الزراعية الخاصة، وهناك الموقع الجغرافي المهم، كل هذا ساعد على امتنان الرعي ومزاولة الزراعة والتجارة إلى جانب ممارسة الحرف اليدوية على مختلف أنواعها. فالرعي عند أهل البادية من المهن الأساسية في الحياة، يشاركون فيه - أحياناً - أهل الحضر، ونتيجة لكثرة المراعي وأهميتها في مقومات الحياة فقد ذكرها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) فقال: «والصحن مرّاج لبني شهر نجدتها مما يصلي بيشه»^(٥٥). ويبدو أن المناطق الشرقية من السراة تمتاز بكثرة مراعيها، مما جعلها منطقة رعي عندهم إلى زمن قريب، والأكثر من هذا أننا نجد حواضر تزاوّل الرعي إلى جانب الزراعة، وهذا مما يعبر عنه عند علماء الاجتماع بنهاية مرحلة الانتقال وبداية مرحلة الاستقرار الدائم، مع التنوع في أساليب العيش لتحسين الدخل.

ومن المواشي التي ورد ذكرها في كتاب الهمداني عن بلاد السراة، وبقيت إلى زمن قريب الماعز، والضأن، يليهما الإبل التي كانت تكثر في المراعي الشرقية للسراة لما يناسبها من اتساعها وتوفر أعشابها، إلى جانب الأبقار والمطايا من الحمير وغيرها في البلاد السروية عامة، وفي الأجزاء النجدية والتهامية معا. وذكر الهمداني أفخاذا وعشائر في مناطق متعددة من بلاد السراة، اقتصر عملهم على رعي الماشية، وجمع الحطب، وصيد الحيوانات البرية، ومعظمهم من سكان المناطق الشرقية للسراة^(٥٦). ويبدو من كلامه أيضا أن الزراعة كانت لها الأولوية بين المهن، لكثرة المزارع والبساتين وما بها من خضر وفاكهة، ويعود ذلك لوفرة المياه في الآبار والأودية، ونزول الأمطار في معظم أيام السنة بسبب هبوب الرياح الموسمية على اليمن وعلى بلاد السراة بشكل عام، ومما ذكره الهمداني بهذا الخصوص قوله: «وسراة الحجر البر، والشعير، والبلس، والعتر، والسويسا، واللوز، والتفاح، والخوخ، والكمشري، والإجاص والعسل...»^(٥٧) ويذكر ثانية سراة الحجر: «... ثم نحيان واد مستقبل القبله فيه التفاح واللوز والثمار...»^(٥٨) ويذكر عدة أصناف من المحاصيل الزراعية التي اعتاد الفلاحون زراعتها، في بلاد جنب وعنز وغامد، وزهران، وبجيلة، وغيرها من المناطق الأخرى. وإن دلّ هذا على شيء، فإنها يدل على صلاحية المنطقة للزراعة، لما تحويه من وفرة المياه، وخصب التربة، لكن مع الأسف لم يذكر لنا الأساليب الزراعية المستخدمة في المنطقة، ولا كيفية بناء المدرجات الزراعية وحفر الآبار لاستخراج الماء من باطن الأرض، رغم وجودها منذ زمن بعيد^(٥٩).

والملاحظ أن هذه المنطقة غنية بالأشجار والأعشاب البرية، ومن هذه الأشجار شجر الطرفاء، والأثل والسلم، والقرظ، والشبرم، والشوحط،

والتالب، والشث وغيرها^(٦٠). ولم ينفرد الهمداني بذكر ما في السراة من أشجار برية متنوعة، بل سبقه في ذلك أبو حنيفة الدينوري^(٦١)، ومن يطالع كتابه (النبات) يجد أنه لا يكتفي بذكر أسماء الأشجار، بل يشير إلى وصفها من حيث شكلها، والمناطق الملائمة لها، وأين تكثر وأين تقل، والأغراض المستخدمة من أجلها، سواء كان في التجارة أو الدباغة، أو الصياغة أو غيرها^(٦٢).

أما الحرف والمهن اليدوية، فلم يكن الهمداني يهتم بذكرها، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك العديد من الحرف التي يتم مزاولتها لدى أهل البلاد، والسبب الذي يجعلنا نجزم بوجود بعض منها، هو أن المقومات الأساسية لبعض الحرف كانت متوفرة، وأشار الهمداني نفسه إلى بعضها، فمثلاً حرفة الدباغة كانت تحتاج إلى مناخ معتدل، وإلى جلود المواشي، وكذلك إلى بعض أوراق الأشجار المهمة في عملية الدباغة، وكل هذه الأشياء في متناول أيدي أهل السراة^(٦٣)، وقس على مهنة الدباغة مهناً أخرى، كالحرازة، والحدادة، والخياطة، والصباغة وغيرها من الحرف الكثيرة^(٦٤).

ولم يغفل الهمداني عن ذكر الجانب التجاري في بلاد السراة أثناء تجواله في ديارها من الجنوب إلى الشمال بسبب امتهانه مهنة الجمالة، حيث كان هو وصحبه ومن شاركهم في هذه المهنة يحملون أمتعة المسافرين والتجار على جماهم، لكنه مع الأسف لم يذكر لنا تفاصيلهم المتبعة في هذه المهنة، من حيث الأجور: هل تحسب بحسب الزمن ونوع الأمتعة، أو بالمسافة وكمية الأمتعة؟ كما أنه لم يشير إلى أساليب التعاون وكيفية تطبيقها بين الجمالين. ولم يشر إلى كيفية التعامل والتبادل التجاري الذي كان معمولاً به في المراكز التجارية ببلاد السراة، ولا إلى الأعراف التجارية والعقود المبرمة بين أصحاب المهن والتجار في كل من حواضر اليمن والحجاز كالطائف ومكة المكرمة، والمدينة المنورة،

وصنعاء وصعدة، وغيرها من الحواضر الأخرى، حيث نشطت التجارة في هذه الحواضر منذ أمد بعيد حتى أصبح لها تراث تجاري زاخر في التقاليد والأعراف التجارية، وهذا ما أشاد به الهمداني وغيره من أصحاب المؤلفات الجغرافية، خاصة ممن كانت مؤلفاتهم في ذكر الأقاليم، وما يوجد بها من خيرات، وذكر المسافة فيما بينها^(٦٥). وخصّ الهمداني الطرق التجارية التي كانت تربط الحجاز باليمن مارة ببلاد السراة، ابتداء من صنعاء وانتهاء بمكة المكرمة، فذكر الطريق الممتد من صنعاء مارا بصعدة، فجرش، فبيشة حتى الطائف ثم مكة المكرمة، والطريف في الأمر أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال، وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه فيها^(٦٦). وذكر الطريق الساحلي الذي يربط الحجاز باليمن مارا بالسهول الواقعة على الساحل بمحاذاة البحر الأحمر، ذاكرا المراكز والمحطات التي يمر بها بعد مروره من اليمن، ومن تلك المراكز، حلي، وقنونا، ودوقة، والسرين والليث، وغيرها حتى يصل مكة المكرمة. وهناك له طريق تجاري آخر يصل حضرموت بمكة المكرمة، ويلتقي مع طريق صنعاء - مكة المكرمة - السابق الذكر - في محطة تبالة^(٦٧).

الحياة العلمية والفكرية:

وكان الجو العلمي والفكري في السراة مناسبا لنمو البذور العلمية بسبب وضع السراة المميز ما بين اليمن والحجاز، حيث وجد فيها كثير من المراكز الحضارية والفكرية، والأهم منها الحرمان الشريفان في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وقصد الناس إليهما على مختلف مستوياتهم العلمية، لأداء فريضة

الحج، وربما للاستقرار في إحدى الحاضرتين لمجاورة أحد الحرمين، إلى جانب ما تمتعت به المدينة المنورة من مركز سياسي مرموق أيام كانت عاصمة الدولة الإسلامية في زمن الرسول - ﷺ - وزمن الخلفاء الراشدين. ومع انتقال عاصمة المسلمين إلى دمشق في بلاد الشام أيام الأمويين، إلا أن هذا الانتقال لم يقلل من أهمية الحاضرتين، لا سيما من الناحية العلمية، لأنها بقيتا مركزا استقطابا للعلماء في مختلف التخصصات، ولكون بلاد السراة تقع ما بين اليمن والحجاز، فلا بد أن تنال قسطا من العلم سواء من علماء اليمن أو علماء الحجاز، خاصة وأنها معبر لأهل اليمن أثناء توجههم لمكة والمدينة. والقارئ لكتب التراجم وغيرها من كتب الأولين، ككتاب الطبقات لابن سعد، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، كل هذه الكتب وغيرها يجد فيها القارئ معلومات قيمة عن علماء وفقهاء، وشعراء، وأرباب سيف وغيرهم، عاشوا في حواضر هذين القطرين (اليمن والحجاز)، وفي غيرها من حواضر العالم الإسلامي كالكوكة، والبصرة، ودمشق، وبغداد، وغيرها، وبعضهم كانوا سراة المولد، حجازيون، أو يمنيون، أو كوفيون، أو بغداديون، أو دمشقيون بالاستقرار. ولكن مع الأسف لم نجد لهذه المنطقة (السراة) ذكرا واسعا وصرحا في مثل هذا المجال. ولعل السبب في ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين والمؤلفين بشكل عام بالمراكز الحضارية الشهيرة في العالم الإسلامي أكثر من اهتمامهم بالمناطق المغورة، والواقع أن منطقة السراة ظلت منسية ردحا طويلا من الزمن، ولهذا وجب علينا أن نقوم بالبحث عن المصادر التي تعرضت لها لكي نظهرها للوجود حتى تكون غذاء دسما وضروريا للأجيال

وها هو الحمداني - يرحمه الله - يدون لنا معلومات قيمة استفدنا منها الكثير في معرفة أحوال المنطقة من جميع الجوانب، لكن على الرغم من أهميتها، فإنها لم تف بالمطلوب في معرفة الحياة العلمية وأساليب التعلم فيها، وفي التعرف على الشعراء والأدباء الذاهبين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو ذهابهم هم أنفسهم إلى المدينتين المقدستين والاجتماع برجال العلم والفكر فيهما، ومن أبرز الشعراء الذين عرفناهم في بحثنا هذا الشاعر أبو الحياش الحجري الذي يتنسب إلى الحجر بن الهنو ببلاد سراة الحجر الذي ورد ذكره أثناء تجمع بعض الشعراء من نجد والحجاز والسراة في مكة المكرمة، وكان أبو الحياش يمثل أهل السراة، عندما غلب على الناس القحط وقلة الأمطار، فأنشد الشعراء قصائد شعرية ليتوسلوا فيها إلى الله جل جلاله طالبين الرحمة والغيث، وقد ذكر الحمداني بعض تلك القصائد التي قالها الشعراء المختلفون في مكة المكرمة (٦٨)، وقد أورد القصيدة التي قالها أبو الحياش، فقال في مطلعها :

رَبِّ مَا خَابَ مِنْ دَعَاكَ وَلَا يَحْـ _____
لَمْ يَنْجُ لِلنَّبِيِّ يَعْقُوبُ يَا ذَا الـ _____
رَبِّ أَنْتَ الَّذِي رَدَدْتَ عَلَيْهِ _____
بَصْرًا كَانَ قَدْ مَحَاهُ الْبُكَاءُ _____
ثم جاء إلى وصف الأرض التي عمها القحط فكان أغلب ما ذكر مواطن ببلاد تهامة والسراة، فقال :

رَحْمَةُ مَنْكَ هَبْ لَنَا إِنَّا نَحْـ _____
إِنْ هَاتَا لَأُزِمَّةٌ عَمَتَ النَّا _____
وَلَكُمْ ثُمَّ كَمْ سَقِيتَ لَنَا الْأَرْ _____
سَقِيتَ بِرَمَّةٍ قَرَى خَلْبَ مَنْـ _____
فَجَازَانِ تِلْكَ فَالْصِّيَاءُ _____

فقري بيش ، فالدويات فالبر — ك فحلي معطورة غيناء
ومن الطود فالزمامات خضر رويت فالنتومة الزهراء
فقري الحجر جهوة الزرع والضر ع فأشجانا الحنا فالجباء
فجبال السراة فالفرع الوس — طي حكين الجنان فالخفاء
فالذري من سراة غامد فالنم — رفأجبال دوسها طخياء
فقري السدارتين أرض على سهلها والجبال منها الماء
فقتونا فأرض دوقة فالليب — ث فعشم السرين فالسراء (٦٩)

ويستنتج القارئ من قراءته لهذه الأبيات حرص الشاعر أبي الحياش على ذكر أسماء بعض الأماكن والمواقع في بلاده (أرض تهامة والسراة) وقد حاول عد البعض منها، وبين حرصه مع صبغ عاطفته على جميع الأماكن التي ذكرها، راجيا من الله أن يشملها برحمته بنزول الغيث عليها. كما يستخلص أيضا من مشاركته مع غيره من شعراء شبه الجزيرة العربية أن بلاد السراة كانت غير خالية من العلماء والأدباء والشعراء، ولو لم يكن ذلك لما كان هذا الشاعر السروي قام وأخذ نصيب المشاركة مع غيره من الشعراء، وبخاصة في حاضرة مكة المكرمة التي عرف عنها النشاط الفكري والثقافي منذ عهود قديمة، ولكن كما ذكرنا سابقا أن النسيان وعدم التدوين عن هذه البلاد جعل الكثير من تراثها يندرس ويضيع.

ومن معوقات العيش في بلاد السراة، فلم يكن الهمداني ينسى ذكر بعضها، وبخاصة القحط وقلة الأمطار، كما ورد معنا، وكذلك غلاء المعيشة وقلة الأطعمة وغيرها من العوائق التي قال عنها: «أصاب الناس أزمة شديدة مكثوا سنة جرداء سموها سنة الجمود، لجمود الرياح فيها، وانقطاع الأمطار، وذهاب الماشية وهزالها، وثبات الغلاء، وقلة الأطعمة، وتصرم المياه في الأودية

والإبارة^(٧٠). ومثل هذه المشاكل لا بد أن تكون قد أثرت على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، أيضا قد لا تكون معوقات الحياة مقصورة على ما أورد الحمداني، ولكن من المحتمل أن يكون هناك عوائق أخرى، البعض منها قد يكون سياسيا أو اقتصاديا واجتماعيا. ومن يعرف أحوال العشائر والقبائل العربية ولا سيما البعيدة عن المراكز السياسية في العصور الإسلامية الوسطى، فلا بد أن يدرك أن الفوضى والسلب والنهب والحروب القبلية كانت جزءا من حياة أفراد العشيرة أو القبيلة الواحدة، ولا يستبعد أن تكون بلاد السراة، بما فيها من عشائر وقبائل، كانت من أكثر المناطق امتلاءً بالفوضى والصراعات القبلية، وذلك لكثرة القبائل المتعددة بها، ولبعدها عن مراكز القيادة والإدارة المركزية في عواصم الخلافة الإسلامية.

الخاتمة

وبهذا فالحسن الحمداني يعد رائدا في كتاباته عن بلاد السراة، فلم يكن يقصر تدوين ملاحظاته على مواطن القبائل وتوزيعها، لكنه أضاف أشياء مفيدة في جوانب علمية مختلفة.

وبعد فقد تميز البحث في الكشف عن نقاط غامضة، وأخرى مبهمة، فقد تطرق إلى موقع السراة مبينا أهميته، وإلى اسم المنطقة وسبب هذه التسمية، واختلاف الاسم الحديث عنه، كما أشار البحث إلى الناحية الاجتماعية مبينا مواطن القبائل، ونظام الموالد، وطرق الطهي، وأسماءه، وأشار إلى المراكز التجارية وأثرها في نمو المراكز الحضرية، والازدهار الثقافي الناجم عن توسطها بين مركزين مهمين، اليمن والحجاز، وخاصة الأخير الذي لا يزال يتمتع بشهرة كبيرة بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه.

وما أشرنا إليه في هذا البحث قد يفتح الأفاق لبعض الباحثين، وبخاصة من أهل السراة أنفسهم، لأنهم أدركوا بمواطنهم من غيرهم فيضيفوا بالتحليل أو النقد أو التصحيح لكل ما تم إيراد، آمين من الله التوفيق والسداد في بناء هذا الصرح العلمي لهذه المنطقة التي لا يزال الكثير من قضاياها التاريخية بحاجة إلى جهود الباحثين والدارسين لإبرازها.

المواش والتعليقات

- ١- انظر: الحسن بن أحمد الحمداي. الإكليل من أختار اليمن وأنساب حمير، تحقيق محب الدين الخطيب (بيروت: دار المناهل، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص ٢٥ وما بعدها، جرجي زيدان. تاريخ آداب القاهرة: دار الهلال، تاريخ النشر غير معروف) ج٢، ص ٢٠٩-٢١٠.
- ٢- الحسن بن أحمد الحمداي. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأوكج الحوالي، وإشراف حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ص ٣٥٦، وللمزيد من التفصيلات عن حياة الحمداي: انظر: المقدمة التي كتبها حمد الجاسر في أوائل صفة جزيرة العرب، وقاموس الأعلام، لخير الدين الزركلي، (طبعة بيروت، ١٩٨٠م) ج٢، ص ١٧٩.
- ٣- انظر: مقدمة الجاسر في كتاب صفة جزيرة العرب، ص ١٨.
- ٤- انظر: تفصيلات أكثر عن الحجاز، بما فيه بلاد السراة المعنية في هذا البحث، صالح أحمد العلي «تجليد الحجاز عند المتقدمين» مجلة العرب ج ١ (١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨م) ص ١-٩، عبد الله الوهيبي «الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب» مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود (الرياض سابقا) (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ج١، ص ٥٣-٧٠.
- ٥- الحمداي، صفة جزيرة العرب، ص ١١٥ وما بعدها، عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، انظر: مقدمة المحقق، ص ٨-١٣، ج ٣، ص ٧٣، شهاب الدين ياقوت. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ج٢، ص ٢١٨-٢٢٠، ج٣، ص ٢١٧-٢١٨.
- ٦- الحمداي، صفة جزيرة العرب، ص ٦٤.
- ٧- المصدر نفسه، ص ١٠٥ وما بعدها.
- ٨- المصدر نفسه، ص ١١٩-١٢٠.
- ٩- المصدر نفسه، ص ٢٦٠-٢٦١.
- ١٠- المصدر نفسه.

١١- المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

١٢- جرش من أعظم المراكز الحضارية في بلاد السراة خلال القرون الإسلامية الأولى، وقد كان يطلق عليها أحيانا مخلاف جرش، وربما تأتي في المرتبة الثانية بعد الحواضر البياتية الكبرى، كصنعاء وصعدة وغيرها، وللمزيد من التفاصيل عن موقعها وأهميتها انظر: . البكري. معجم ما استمعهم مج ١، ج ١-٢، ص ٣٧٦، ياقوت. معجم البلدان ج ١، ص ١٢٦-١٢٧، محمد أحمد معبر. مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة (خمس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١١-٣٥، حمد الجاسر. «جرش قاعدة الأزده» مجلة العرب، ج ٧، السنة الخامسة، محرم/١٣٩١هـ، ص ٥٩٣-٦٠٠.

١٣- والعواسج يقطنون اليوم في وادي ابن هشيل، ببلاد شهران، ويطلق عليهم العواشز حتى يومنا هذا.

١٤- الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥.

١٥- المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

١٦- المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

١٧- المصدر نفسه، ص ٢٦١.

١٨- المصدر نفسه.

١٩- جرير بن عبد الله البجلي كان من الذين وفدوا على الرسول ﷺ من وفد بجيلة، وكان له مساهمات عظيمة في توطين الإسلام بين أهل السراة، وكذلك في ميادين الفتوح الإسلامية المبكرة، وبخاصة في جبهة الجهاد ضد الفرس. للمزيد من التفاصيل عن شخصية جرير بن عبد الله وأعماله، انظر: محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان، تاريخ النشر غير معروف) ج ٣، ص ٣٦٥، ٣٦٩، المنسوب إلى عبد الله بن مسلم بن قتيبة. الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزيني (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م) ج ١، ص ٨٢، أحمد بن محمد بن عبد ربه. العقد الثمين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م) ص ٣٠٧-٣٠٨.

٢٠- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٣٠؛ حمد الجاسر. في سراة غامد وزهران، نصوص، مشاهدات، انطباعات (الرياض: دار اليمامة، ١١٣٩هـ/١٩٧١م) ص ٣٥٦.

٢١- للمزيد من التفاصيل عن بلاد غامد وزهران، انظر: كتاب الجاسر المذكور في الملاحظة السابقة.

٢٢- للمزيد من التوضيحات عن قرى وعشائر ومواطن أهل سراة الحجر انظر: ، عمر غرامة العمري.

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد الحجر (الرياض: دار اليمامة، ١٤٩٧-

١٣٩٨هـ).

٢٣ - وللمزيد عن بلاد عسير وشهران، انظر: هاشم النعمي. تاريخ عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، مكان وتاريخ النشر بدون: محمود شاكر. عسير (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)؛ عبد الكريم عائف سعيد آل طالع. قبيلة شهران بين الماضي والحاضر (الرياض: المطابع الأهلية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢٤ - الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢١٩ - ١٢٠.

٢٥ - المصدر نفسه.

٢٦ - المصدر نفسه.

٢٧ - للمزيد من التفصيل عن وضع القبائل العربية في العصر الجاهلي، والعصور الإسلامية المختلفة، وكيف كانت العشائر والقبائل الصغيرة تدخل في حماية القبائل الكبيرة، وبالتالي يغلب اسم القبيلة الكبيرة على أسماء القبائل الصغيرة التي دخلت تحت حمايتها. انظر: جواد علي. الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م - ١٩٧٨م) ط ٢، ٣، ٤.

٢٨ - الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٠، الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٣٥٦.

٢٩ - انظر: الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

٣٠ - للمزيد من المعرفة عن أسماء ومواقع هذه الأماكن بسراة الحجر، انظر: عمر غرامة العمري، بلاد رجال الحجر، ص ٥١ وما بعدها.

٣١ - انظر: الحمداني، المصدر السابق، ص ٢٥٥ وما بعدها.

٣٢ - وللمزيد من التفاصيل عن حديث الحمداني حول جرش وبلاد الحجر، انظر: صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥ - ٢٦٢.

٣٣ - لمزيد من المعلومات عن وفد جرش الذي قدم على الرسول (ﷺ). انظر: عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا (مكان وتاريخ النشر غير معروفين) مج ٢، ٤، ص ٥٨٦ - ٥٨٨، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ج ١، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

٣٤ - أحمد بن واضح اليقوي. كتاب البلدان (تحقيق إم دي غوي (لين: مطبعة بريل، ١٨٩١م) ص ٣١٧ - ٣١٨.

٣٥ - انظر: محمد أحمد معبر. المرجع السابق، ص ٣٧ - ٤٤.

٣٦ - للمزيد من التفصيل عن مدينة جرش، تاريخها، وموقعها، انظر: محمد أحمد معبر، المرجع السابق،

ص ١١ وما بعدها، حمد الجاسر «جرش قاعدة الأزدي»، ص ٥٩٣ وما بعدها.

٣٧- لمزيد من التوضيحات عن القبائل القحطانية (الأزدية) والعدنانية في بلاد تهامة والسراة، انظر: .

هشام بن محمد الكلبي، جهرة النسب الكبير، رواية السكري عن ابن حبيب، تحقيق ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨١م)، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي. جهرة أنساب العرب (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٨ وما بعدها، عمر بن غرامة العمري. قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ج ١، ص ٥٧ وما بعدها.

٣٨- الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١١٩ - ١٢٠.

٣٩- النشاط التجاري خلال العصور الإسلامية الوسطى كان جيداً، وبخاصة في مكة المكرمة، والمدينة

المنورة بالحجاز، وصناعة وصعدة وغيرها من مدن اليمن الكبرى، إلى جانب وجود طرق تجارية، برية وبحرية، نشيطة تربط تلك الحواضر مع أجزاء عديدة في العالم الإسلامي آنذاك. وللمزيد من التفصيل انظر: في المصادر والمراجع التالي ذكرها. شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي. كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، إم دي غوي (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٦م) ص ٧٩، ٩٧، محمد بن أحمد بن جبير. رحلة ابن جبير (بيروت: اسم الناشر وتاريخ النشر غير معروفين) ص ٩٦ وما بعدها؛ ناصر الدين خسرو القبادياني المروزي. رحلة ناصر خسرو، ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٢١ وما بعدها؛ غيثان علي جريس. «الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة» مجلة العرب، ج ٧، ٨، السنة (٢٦)، ١٤١٢هـ، ص ٤٤٧ - ٤٦١.

٤٠- الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

٤١- كان العرب في صدر الإسلام ولا سيما في العهد الأموي يسمون غير العرب من المسلمين بالموالي، وكان المسلمون في البلاد العربية، كالعراق، والشام، والحجاز وغيرها قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة والانتماء إلى قبائلها اسما، وإن لم يكونوا منها فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب، كالمساعدة، والحماية، والتأييد. ومن الموالى أيضا من كان في منزلة الرق ثم أعتقوا من قبل ساداتهم فصاروا في مكانة أخرى بين الرق والحرية هي منزلة الولاء أو الموالى. للمزيد من التفصيل عن الولاء انظر: محمد بن منظور لسان العرب، نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ج ١٥، ص ٤٠١ -

٤٠٦.

٤٢ - عبد الرحمن محمد بن خلدون . تاريخ ابن خلدون (بيروت : دار العلم للجميع ، تاريخ النشر غير معروف) ج١ ، ص ٣١٨ وما بعدها .

٤٣ - انظر : تفصيلات أكثر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٤٤ وما بعدها ؛ وللمزيد من التوضيحات عن الحياة الاجتماعية في حواضر اليمن ، وبخاصة في صنعاء وما حولها ، انظر : . المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٤ وما بعدها ؛ أحمد بن عمر بن رسته . كتاب الأعلام النفسية ، تحقيق . إم دي غوي (لندن : مطبعة بريل ، ١٨٩١م) ص ١٠٩ - ١١٥ .

٤٤ - الهمداني ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .

٤٥ - الهمداني ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

٤٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .

٤٧ - لمزيد من المعلومات عن الحياة التجارية في اليمن والحجاز وعلاقة تلك الأجزاء ببلاد السراة ، انظر : ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠٠ وما بعدها ، جريس «الطرق التجارية .» ص ٤٤٧ وما بعدها ، أحمد عمر الزليفي . مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧هـ (الرياض : عيادة شئون المكتبات بجامعة الرياض ، ١٩٨١م) ص ١٥٥ وما بعدها .

٤٨ - الهمداني ، صفة ص ٣٤٠ ، ٣٥٦ .

٤٩ - الهمداني ، المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

٥٠ - المصدر نفسه ، ص ٣٥٦ ، والمهادو الخبز المهود والكشك طعام يتخذ من نفع البرغل بعد اختباره فيقت ويطح ، الهمداني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٦ ، ملحوظة (٢) .

٥١ - الهمداني ، المصدر نفسه ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

٥٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ ، وقد أخبرني بعض المختصين في تاريخ المغرب والأندلس ، فذكر أن مثل هذه العادة كانت ولا تزال عند بعض المغاربة ، وبخاصة في المغرب الأقصى .

٥٣ - انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

٥٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٩ .

٥٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ .

٥٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ ، ٣٠٢ .

٥٧ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ .

٥٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .

٥٩ - من يلاحظ الآبار والمدرجات الزراعية ببلاد السراة، في يومنا هذا يلاحظ الجهد الكبير الذي بذل في بناء مدرجات عالية الارتفاع، لكي تحافظ على تربة المزرعة، وكذلك آبار بعيدة العمق، والتي بعضها حفر في صخور صماء، وبأدوات يدوية قديمة. حبذا لو خرج أحد أبناء السراة بدراسة علمية جادة تتبع فيها متى وكيف عملت تلك المدرجات الزراعية التي نلاحظها في طول وعرض البلاد، وكذلك تلك الآبار الكثيرة التي يظهر على بعضها قدم العهد.

٦٠ - المصدر نفسه، ص ٢٧٦، ٣٠١.

٦١ - يعتبر الدينوري من أفضل من كتب عن النباتات وبخاصة في بلاد السراة من بلاد الجزيرة العربية، ومن كتبه التي وصلتنا عن النباتات ما يلي: كتاب النبات، الجزءان الأول والثاني، تحقيق محمد حميد الله، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، عام ١٩٧٣م، والجزء الثالث، والنصف الأول من الجزء الخامس، شرح وتحقيق المستشرق برناردلفين، بألمانيا عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٦٢ - وقد جاء بعد الدينوري والممداني بعض الجغرافيين واللغويين فذكروا أسماء عديدة للأشجار والنباتات الموجودة ببلاد السراة، ومن أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر، عرام بن الأصمغ السلمي، في كتابه أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه؛ والبكري في كتابه، معجم ما استعجم؛ وياقوت الحموي، في كتابه معجم البلدان، وفي بعض المعاجم اللغوية، كالقاموس المحيط للفيروزآبادي، ولسان العرب، لابن منظور، وتاج العروس، للزبيدي.

٦٣ - للمزيد من التفصيلات عن مهنة الدباجة، كيفيتها، وأساليب مزاولتها، والمواد الأساسية في ممارستها. انظر: «باب الدباجة» المذكور في كتاب النبات، للدينوري، تحقيق المستشرق برناردلفين، ص ١٠٤ - ١٢١، أيضا انظر: كتاب المخصص، لابن سيدة (مطبعة بولاق بالقاهرة، ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) ج٤، ص ١٠٤ - ١١٦.

٦٤ - ولمعرفة بعض التوضيحات عن المهن والحرف بشكل عام خلال القرون الإسلامية الأولى، وبخاصة في المناطق المجاورة لبلاد السراة كمواضر الحجاز واليمن. انظر: عبد العزيز إبراهيم الثمري. الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (الدوحة: مركز التراث الشعبي، ١٩٨٥م) ص ٤٧ وما بعدها: عبد الله محمد السيف. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٥١ - ١٦٨؛ جميل حرب محمود. الحجاز واليمن في العصر الأيوبي (جدة: دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ١٢٦ - ١٢٨، ١٤٨ - ١٥٠؛ غيثان علي جريس «أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة» مجلة المنهل عدد (٤٩٢) مج ٥٣ (١٤١٢هـ) ص ٨٢ - ٩٦.

٦٥ - لمزيد من التفاصيل عن النشاط التجاري في حواضر اليمن والحجاز خلال العصر الإسلامي الوسيط. انظر: المقدمي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤ وما بعدها؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٩٦ وما بعدها، الزيلعي. مكة وعلاقتها الخارجية، ص ١٥٥ وما بعدها، جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص ١١٧-١٥٩.

Patricia Crone. *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Oxford): Basil Blackwell Ltd., (1987):
Abdullah Alwi Hassan. "The Arabian Commercial Background. *Islamic Culture* (Vol. LXI.
No. 2. April, 1987, p. 70-83.

٦٦ - حول شرح الهمداني لأطوال تلك الطريق التي تربط بين صنعاء والطائف مروراً بالسراة، انظر: صفة جزيرة العرب، ص ٣٣٨ - ٣٤٠. لم يكن الهمداني هو الوحيد الذي ذكر تلك الطريق، وإنما بعض من الجغرافيين الأوائل أشاروا إليها أيضاً مثل: اليعقوبي، البلدان، ص ٣١٤ وما بعدها، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة. المسالك والممالك تحقيق، إ.م. دي غوى (لندن: مطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م) ص ١٣٣ وما بعدها، وضمن هذا الكتاب، كتاب الخراج وصناعة الكتابة. لأبي الفرج قدامة بن جعفر، الذي أشار أيضاً إلى ما أشار إليه اليعقوبي وابن خرداذبة، ص ١٩١ وما بعدها، انظر: أيضاً، الإمام أبا إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ٦٤٣-٦٤٩.

٦٧ - الهمداني، المصدر السابق، ص ٣٤١-٣٤٣.

٦٨ - انظر: تلك الأشعار في كتاب، صفة جزيرة العرب، ص ٣٧٨-٣٨٤، وأيضاً انظر: تفصيلات أكثر في مقالة عبد الله الناصر الوهبي «تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية».

بحث مقدم في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ج١، ص ٣٦٣-٣٧٥.

٦٩ - الهمداني، المصدر السابق، ص ٣٨١-٣٨٢.

٧٠ - المصدر نفسه، ٣٧٨.

نقشان عربيان مبكران من سكاكا

د. خليل إبراهيم المعين

عشر على هذين النقشين^(١) على جبل صغير يسمى القلعة، يقع إلى الشمال من مدينة سكاكا بـ ٥ كم على الجانب الأيمن للطريق المؤدي إلى صرعر، ضمن مجموعة نقوش نبطية قام بدراستها ميليك وستاركي ونشرت الدراسة في كتاب وينيت^(٢). بالرغم من أن هذين النقشين يقعان أسفل مجموعة النقوش المشار إليها أعلاه، إلا أنه لم يتطرق إليهما مع أهميتهما في دراسة تطور الكتابة العربية، ربما يكون السبب وراء ذلك هو اعتقاد ميليك وستاركي في دراستهما على الصور فقط، والتي لم تُظهر النقشان بشكل واضح، كما هو ملاحظ من نوعية الصور المنشورة في كتاب وينيت^(٣).



نقش رقم (۱) :

النص :

۱- ح م أ

۲- ب ر ج ر م و

الترجمة :

۱- ح م أ

۲- بن جرم

التعليق على النص :

يتكون هذا النقش من سطرين، الأول يحوي كلمة واحدة تتكون من ثلاثة أحرف. بينما الثاني يتكون من كلمتين عدد أحرفها ستة.

السطر الأول :

يتكون من كلمة واحدة ذات ثلاثة أحرف؛ الحرفان الثاني والثالث م، أ على التوالي وقراءتهما ليس عليها غبار^(٤)، أما العلامة الأولى فغير واضحة بيد أنها ربما تكون شكلاً سيئاً لحرف (ح) النبطي^(٥)، لذا فالاسم يحتمل أن يقرأ (ح م أ) من الجذر حمى كما اقترح جوردن^(٦)، وهو اسم بسيط يعني (حار)، أو أن يكون من حمى، (دافع)، وفي هذه الحالة يكون اسم علم مختصر يعني «محمي بواسطة (اسم الآلة)»، وقد وجد اسم مشابه (ح م ي ن) في النقوش النبطية^(٧).

السطر الثاني :

يتكون من كلمتين الأولى (ب ر) وهو اسم البنوة بن، أما الكلمة الثانية (ج ر م و) فهي اسم مختصر ويعني «(اسم الإله) قرر». وقد وجد الاسم في

النبطية ^(٨)، والاسم يئاثل الاسم (جَزم) المعروف في المصادر العربية ^(٩).
دراسة أشكال الأحرف :

حرف الألف :

ظهر حرف الألف في نهاية الكلمة في السطر الأول بهذا الشكل () وهو الشكل الثالث لحرف الألف، هذا الشكل أكثر تطوراً من شكل الألف في نقش النمارة ^(١٠) ()، حيث ظهر الألف في هذا الشكل مرتبطاً بالحرف الذي يسبقه، حرف الميم، وقد ظهر ارتباط الميم بالألف النهائية في نقش مدائن صالح المؤرخ بسنة ٢٦٧ م ^(١١)، لكن طريقة الربط في هذا النقش أقرب إلى الكتابة العربية خاصة شكل الميم.

حرف الباء :

ورد حرف الباء في بداية السطر الثاني () مرتبطاً بحرف الراء، وهو أكثر تطوراً نحو الباء العربية من الباء في كلمة (بر) في نقش النمارة ^(١٢)، حيث يظهر هنا في شكله أقرب إلى الباء العربية، ولكنه لم يصل لشكل الحرف في نقشي زبد وحران ^(١٣).

حرف الجيم :

الشكل الأول لحرف الجيم ظهر في بداية الكلمة الثانية في السطر الثاني () ويقارب في شكله حرف الجيم في نقش النمارة ^(١٤)، وكذلك من حرف الجيم في نقش أسوان المؤرخ بسنة ٣١ هـ ^(١٥). لذا فهو أكثر تطوراً نحو العربية.

حرف الواو :

شكل حرف الواو () يعد أحد الأمثلة المتطورة إلى الشكل العربي، وقد ابتعد كثيراً عن أصله النبطي ^(١٦) حيث اتجه إلى الاستدارة من الأسفل وهذا يشبه شكل الواو في نقش جبل أسيس () ^(١٧)، كذلك نجد هذا الشكل

أكثر تطوراً من نقش أسوان^(١٨).

حرف الحاء :

حرف الحاء في هذا النقش لا زال قريب الصلة بالشكل النبطي ويشبه إلى حد كبير الحاء الواردة في السطر الثالث من نقش النجارة^(١٩).

حرف الميم :

ظهر حرف الميم مرتين في السطرين الأول والثاني () ، وهو متطور نحو الشكل العربي لهذا الحرف ، وأكثر تطوراً من حرف الميم في نقش مدائن صالح^(٢٠) ، ونقش النجارة ، حيث إن شكل الميم في النجارة لا يزال يحتفظ ببعض خصائص الميم النبطية بينما نجده هنا يشبه حرف الميم في نقوش أم الجمال الثاني وزيد وأسوان^(٢١).

حرف الراء :

ورد مرتين في السطر الثاني () ، وهو أكثر تطوراً نحو العربية من الراء النهائية في نقش النجارة التي وردت بهذه الأشكال ()^(٢٢) ، لكن الراء في هذا النقش لم تصل بعد للشكل المتطور للراء في نقش رقم (٢) الذي يتشابه مع نقش زيد^(٢٣).

أهمية النقش وتاريخه :

يُعد هذا النقش من النقوش القليلة والمهمة المكتشفة في شمال الجزيرة العربية وهذه الأهمية لا تتبع من الجانب اللغوي أو التاريخي للنص بل من زاوية تطور أشكال حروفه ، حيث يمثل حلقة مهمة لدراسة تطور الكتابة العربية من أصولها النبطية .

من خلال دراستنا لأشكال الحروف في النقش وبالأذات الباء ، الجيم ، الواو ، الميم ، والراء ، اتضح أن أشكالها أكثر تطوراً نحو العربية من نقش النجارة

المؤرخ بسنة ٣٢٨م، مع محافظة بعض الحروف (الحاء والألف) على أشكالها القريبة من النبطية^(٢٤)، وأنه لم يصل لمستوى نقش زبد، لذلك يبدو أن تاريخ النقش يقع في الفترة الواقعة بين نقش النمارة وزبد الذي يؤرخ لبداية القرن السادس، وهكذا فهو ربما يعود إلى القرن الرابع - الخامس الميلادي.

نقش رقم (٢) :

النص :

- ١ - ب ع ص و
- ٢ - ب ر ع ب د م ر ا ل ق ي س
- ٣ - ب ر م ل ك و

الترجمة :

- ١ - ب ع ص و
- ٢ - بن امرؤ القيس
- ٣ - بن ملك (مالك)

التعليق على النص :

يوجد هذا النقش بالقرب من النقش السابق على نفس الواجهة الصخرية، ويتكون من ثلاثة أسطر، الأول يحوي كلمة واحدة، والثاني أربع كلمات، أما الثالث فيتكون من كلمتين.

السطر الأول :

يتكون من كلمة واحدة (ب ع ص و) وهو اسم علم يتحمل عدة قراءات؛ الحرف الأول يمكن أن يقرأ (ن) أو (ب)، أما الحرف الثالث (ص) أو (ش)، لهذا الاسم يمكن أن يقرأ : (ن ع ش و) أو (ن ع ص و) أو (ب ع ش و) أو (ب ع ص و)، والقراءة الأخيرة هي المحتملة، وهو اسم علم بسيط يعني

(النحيف، ضئيل الجسم)، من البُعْص : وهو نحافة البدن ودقته (٢٥). وقد ورد اسم مشابه في النقوش العربية القديمة (ن ع ص ت) (٢٦).

السطر الثاني :

يتكون من أربع كلمات (ب ر ع ب د م ر ال ق ي س). (ب ر) اسم البنوة (بن) يسبق دائماً اسم الأب. (ع ب د م ر ال ق ي س) اسم علم مركب من عنصرين (ع ب د)، ويعني (خادم)، و (م ر ال ق ي س) المقابل لاسم العلم المعروف في المصادر العربية (امرؤ القيس) (٢٧)، و (م ر ال ق ي س) هذا إما أن يكون سيد من الأسياد أو ملك من الملوك، أو على علاقة بالإله (ق ي س) الذي عثر على معبد له في مدائن صالح (٢٨). واسم العلم (ع ب د م ر ال ق ي س) لا يعدو أن يكون اسماً لشخص كان عبداً أو خادماً للملك من الملوك، وربما يكون هذا الملك هو امرؤ القيس ملك العرب، صاحب نقش النهرة المشهور (٢٩)، وهذه الأسماء المكونة من اسم علم زائد اسم، معروفة في النقوش النبطية (٣٠).

السطر الثالث :

يتكون من كلمتين (ب ر) اسم البنوة (بن) و (م ل ك و) اسم علم بسيط إما أن يكون على علاقة بالكلمة (ملك) وفي هذه الحالة تكون الواو عوضاً عن الضمة أو السكون، أو أن يكون مختصراً من الاسم (م ل ك أل) أو (م ل ك ب ل)، كذلك ربما يكون الاسم له علاقة بـ (م ل ك) وهو من الآلهة التي عبدت لدى الأنباط والثموديين والصفويين وغيرهم (٣١). الاسم ورد في النقوش النبطية (٣٢)، ويطابق اسم العلم (ملك) الذي ورد كثيراً في المصادر العربية (٣٣).

دراسة أشكال الأحرف :

حرف الألف :

ظهر حرف الألف مرة واحدة في السطر الثاني () وهو متطور نحو شكله في العربية حيث تخلص من الاستدارة في النهاية السفلية للحرف ، وبهذا ابتعد عن شكل الألف النبطية كما في نقش النجارة^(٣٤) ، وبذلك يصبح هذا الشكل حلقة مهمة في تسلسل تطور الحرف النبطي نحو العربية . لذا نعتقد أنه يعود لفترة أحدث من نقش النجارة وأقدم من نقش أم الجهمال وزيد^(٣٥) .

حرف الباء :

تكرر حرف الباء أربع مرات بشكليته الابتدائي والأوسط ، وهو أكثر تطوراً من شكل الباء الابتدائية في نقش النجارة^(٣٦) ، ويشبه شكل الباء في نقش جبل أسيس^(٣٧) ، وأشكال الباء العربية التي ظهرت في نقوش القرن الأول الهجري^(٣٨) .

حرف الدال :

ظهر الشكل النهائي لحرف الدال () في كلمة (عبد) في السطر الثاني ، هذا الشكل أكثر تطوراً من شكل الحرف في نقش النجارة ()^(٣٩) ، وهو يشبه حرف الراء في كلمة (ب ر) في نفس السطر ، وهذا الشكل يعد أحد مراحل تطور الحرف إلى الشكل العربي كما في نقشي حران (٥٦٨ م)^(٤٠) ، وأسوان (٣١ هـ)^(٤١) .

حرف الواو :

الشكل النهائي لحرف الواو ظهر مرتين () وهو يشبه الواو النبطية ما عدا ظهور تقوس الساق وهذا يمثل مرحلة تطور الواو النبطية نحو الشكل العربي المقوس كما في نقوش زيد ، أسيس وحران^(٤٢) . شكل حرف الواو الواردة في السطر الثالث قريبة الشبه من شكل الواو في نقش أسوان^(٤٣) .

حرف الياء :

الشكل الأوسط لحرف الياء الوارد في السطر الثاني () ذو شكل عربي خالص ، حيث تخلص من الانحناء الذي يظهر في الياء الوسطى النبطية^(٤٤) ، بل نجد أن هذا التطور في شكل الحرف لا يُرى في نقوش أم الجمال الثاني ، زبد وأسيس^(٤٥) ، في حين يتشابه مع شكل الحرف في نقش حران المؤرخ بسنة (٥٦٨م)^(٤٦) . من جانب آخر نرى أن شكل حرف الياء الأوسط في نقش أسوان لا يزال يحتفظ ببعض التأثيرات النبطية^(٤٧) .

حرف الكاف :

الشكل الأوسط لحرف الكاف () أظهر تطوراً واضحاً نحو الشكل العربي الذي ظهرت مراحل تطوره من خلال النقوش العربية المبكرة وهذا يتضح من خلال مقارنة هذا الشكل مع نقش النمارة^(٤٨) ، من جانب والنقوش العربية المبكرة من جانب آخر^(٤٩) . لذلك فهذا الشكل يمثل مرحلة وسط في تطور الحرف العربي بين نقش النمارة ونقشي أسيس وحران .

حرف اللام :

يتضح من خلال شكل حرف اللام الابتدائي والأوسط () ، الواردة في السطرين الثاني والثالث أن هذا الحرف من أكثر الحروف تطوراً نحو العربية كما يظهر من شكل حرف اللام في كلمة (القيس) وهو شكل عربي ابتعد كثيراً عن أصوله النبطية كما يظهر في نقش النمارة^(٥٠) ، والنقوش السابقة له^(٥١) ، بل نجد أن هذا الحرف أكثر تطوراً منه في نقش أسوان^(٥٢) .

حرف الميم :

الميم الابتدائية التي ظهرت في هذا النقش () ابتعدت كثيراً عن

الشكل النبطي باتجاه الشكل العربي ، الذي ظهرت بوادره في القرن الرابع الميلادي^(٥٣) . شكل حرف الميم في نقش النجارة لم يصل بعد لهذا التطور باتجاه الشكل العربي والذي يظهر في النقوش المبكرة مثل أم الجمل الثاني ، زبد ، أسيس وحران ، بالإضافة لنقوش سكاكا موضوع البحث^(٥٤) .

حرف السين :

حرف السين النهائية () من الحروف المتطورة جدًا نحو الشكل العربي حيث نجدها تختلف عن الشكل النبطي المعروف للسين^(٥٥) ، بل نجد أن حرف السين في نقش النجارة لم يصل بعد لهذا الشكل المتطور القريب الشبه بالشكل العربي المبكر الذي ظهر في نقوش زبد ، أسيس ، حران وكذلك أسوان^(٥٦) . التطور الذي حدث لهذا الشكل ، في نقوش القرن الأول الهجري ، هو اتجاه الساق للاستدارة أكثر مما هي عليه في هذا النقش^(٥٧) .

حرف العين :

الشكل الابتدائي والأوسط () هما امتداد لشكل العين النبطية التي ظهرت في النقوش النبطية المتأخرة^(٥٨) ، الشكل الأوسط يشابه كثيرًا شكل العين الابتدائية في نقوش القرنين الأول والثاني الهجري^(٥٩) ، حيث إن شكل العين الوسطى في النقوش الإسلامية المبكرة تكون في الغالب مفتوحة () أو مثلثة ()^(٦٠) .

حرف الصاد :

شكل حرف الصاد الذي ظهر في السطر الأول () يمثل امتدادًا لشكله النبطي ولم يُظهر أي تطور نحو الشكل العربي^(٦١) المعروف في نقوش القرنين الأول والثاني الهجري^(٦٢) .

حرف القاف :

شكل القاف الوسطى التي ظهرت في هذا النقش () تُعد أكثر تطوراً من شكل القاف في النقوش النبطية المتأخرة ونقش النارة^(٦٣)، حيث ارتكز الشكل الشبه دائري على الخط الأفقي للكلمة واختفت العصا التي تحمل الشكل المستدير التي رأيناها في النقوش النبطية. هذا الشكل يشابه القاف الوسطى في نقش زبد وأسوان^(٦٤).

حرف الراء :

الشكل النهائي لحرف الراء () متطور جداً نحو الشكل العربي وبذلك فقد الحرف صلته بالشكل النبطي، ومن الملاحظ أن شكلي الراء والذال في هذا النقش متشابهة وهذه الظاهرة نجدها في نقوش القرنين الأول والثاني الهجري^(٦٥).

أهمية النقش وتاريخه :

هذا النقش أكثر أهمية من النقش السابق، ولذلك يعد مهماً جداً للدراسة تسلسل تطور الكتابة العربية من أصولها النبطية. الجملة الواردة في السطر الثاني (عبد امرؤ القيس) تضيف بعداً آخر من الأهمية لأن هذه الجملة عربية في تركيبها. ظهور (ال) التعريف العربية في السطر الثاني في كلمة (القيس) وهي من خصائص اللغة العربية، رغم أنها قد ظهرت في النقوش النبطية المتأخرة^(٦٦).

أشكال الحروف في هذا النقش ابتعدت كثيراً عن أصولها النبطية ما عدا حرف الصاد () الذي لا يزال متأثراً بالشكل النبطي. حرفا الراء والذال في هذا النقش يتشابهان، وهو ما نراه بوضوح في كتابات القرنين الأول والثاني الهجريين^(٦٧). كل هذه الخصائص تؤكد أهمية هذا النص في دراسة تطور

الكتابة العربية خلال القرون السابقة للإسلام، التي اتضحت من خلال مقارنة هذا النقش بنقوش النمارة من جانب وأم الجهم الثاني وزيد من جانب آخر. لذا فإن هذا النقش يعود إلى الفترة الزمنية الواقعة بين نقش النمارة المؤرخ بسنة ٣٢٨م، ونقوش أم الجهم الثاني وزيد والتي تؤرخ لبداية القرن السادس الميلادي. على ضوء ذلك نعتقد أن هذا النقش يؤرخ للقرن الخامس الميلادي، وهي فترة نجهل عنها الكثير فيما يتعلق بتطور الكتابة العربية، وهذا يتضح من خلال مقارنة أشكال الحروف في نقش النمارة مع نظيراتها في نقوش أم الجهم الثاني، زيد، أسيس، وحران^(٦٨)، حيث اختلاف أشكال الحروف واضح نظراً إلى أن نقش النمارة لا يزال واقعا تحت التأثير النبطي، فيما استطاعت نقوش القرن السادس الميلادي من أن تتخلص من هذه التأثيرات، من ذلك يتضح لنا أهمية هذا النقش الذي كشف لنا عن مرحلة مهمة من مراحل التطور، إضافة إلى أن هذا النقش والذي سبقه يمثلان أول نقشين يكتشفان في شمال الجزيرة العربية حسب علمنا.

اكتشاف هذين النقيشين ربما يجعل منهما نقوشاً مهمة جداً لتأكيد الآراء المطروحة فيما يتعلق بنشأة الكتابة العربية داخل الجزيرة العربية وليس خارجها وأن الحجاز لعب دوراً بارزاً في عملية انتقال الكتابة من النبطية. النقوش النبطية المكتشفة في الحجاز (العلا - مدائن صالح - الجوف) تمتاز عن غيرها من النقوش النبطية المكتشفة في بلاد الشام، وذلك باتجاهها السريع نحو الكتابة العربية واشتغالها على بعض خصائصها^(٦٩)، مثل ظهور (ال) التعريف واتجاهها إلى الشكل اللين وارتباط الحروف بعضها ببعض إضافة إلى لغة بعض النقوش ذات الطابع العربي^(٧٠).

المراجع والهوامش

(١) عثر على هذين النقشين المؤلف والدكتور سليمان النقيب خلال أعمال مسح للنقوش النبطية قاما بها عام ١٤١١ هـ.

(2) Winnet, W.F., and W.L Reed, Ancient Records From North Arabia, Toronto: University of Toronto, (1970) PP. 142-144.

(انظر كذلك، سليمان عبد الرحمن النقيب : «دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجوف، المملكة العربية السعودية»، مجلة جامعة الملك سعود، تحت النشر.

(3) Winnet, Ancient Records, PP. 214, 215.

(٤) انظر جدول رقم (١).

(5) Klugkist, A., Midden - Aramese Schriften in Syrie, Mesopotamie, Perzie en Angrenzende Gebieden, Rijks Universiteit et Groningen (1982), P. 222; Healey, J.F., "Nabataean to Arabic: Calligraphy and Script Development Among the Pre-Islamic Arabs", Manuscripts of the Middle East, (1990) Forthcoming, table I.

(6) Gordon, C., Ugaritic Textbook, Rome: Pontifical Biblical Institute 35 (1965), P. 397.

(7) Contineau, J., Le Nabatéen, Paris: Librairie Ernest Leroux (1930) (2 vols) P. 97; Al-Khaysheh, F., Die Personennamen in den Nabataischen Inschriften des corpus

Inscriptionum Semiticarum, Irbid, Marbug (1986), P. 86.

(8) Contineau, Nabatéen, P. 76, Negev, A., "The Inscriptions of wadi Haggag, Sinai",

QEDM, 6 (1977), P. 72, No. 265, Al-Khaysheh, Personennamen in den Nabataischen, PP. 56-7.

(٩) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جوهرة أنساب العرب، بيروت : دار الكتب العلمية (١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م) ص ٤٥١ — ٤٥٢؛ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة : مؤسسة الخانجي بمصر (١٣٧٨ هـ —

١٩٥٨م) ص ٥٣٦.

(١٠) خليل يحيى نامي، «أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام»، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية المجلد الثالث - الجزء الأول ١٩٣٥م، ص ٧٢؛ سهيلة ياسين الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد، ١٩٧٧م، لوح (٥) أ، جدول رقم (١). (انظر كذلك : Healey, J.F., The Early Alphabet, London, British Museum Publications, 1990, P. 54, Pls. 37, 38.

(١١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري، أحمد حسن غزال، جفري كنج، مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، المُلا (ديدان)، الحجر (مدائن صالح). الرياض : قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م)، ص ٣٢.

(١٢) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٧٣؛ سيد فرج راشد، «الكتابات القديمة»، عالم الفكر، المجلد الخامس عشر، العدد الرابع، ص ٢٤٠.

(١٣) الجبوري، أصل الخط العربي، اللوحات، ٦، أ، ٧، جدول رقم (٢).

(١٤) الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (٢).

(١٥) إبراهيم جمعة، دراسة في تطوير الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة. القاهرة : دار الفكر العربي، ص ١٣٢، لوحة ٦.

(16) Healey, "Nabataean to Arabic", table 1.

(١٧) الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (٢).

(١٨) جمعة، دراسة في تطور الكتابات، ص ١٣٢، لوحة ٦.

(19) Naveh, J., Early History of the Alphabet, Jerusalem: The Magnes Press, The Hebrew University, 1987, Fig. 144

(20) Healey, J.F. and G.R. Smith, "JS 17 - The Earliest Dated Arabic Document", Atfal, 12, (1989), Plate 46, Ls. 3, 5 - 9.

(٢١) (انظر الجداول رقم (١)، (٢)؛ الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (٢).

(٢٢) الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (١).

(٢٣) (انظر شكل الراء في نقش زيد، جداول رقم (١)، (٢).

(24) Healey, "Nabatean to Arabic", P.10.

(٢٥) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، بيروت : دار صادر، ١٩٥٥م، (١٥ جزء) ج ٧، ص ٧؛ ابن دريد، جوهرة اللغة، بيروت : دار صادر، ١٣٤٤ هـ، (٤ أجزاء)، ج ٣، ص ٣٨١، ٤١٧.

(26) Harding, G., An Index and Concordance of Pre-Islamic Arabian Names and In-

scriptions, Toronto: Near the Middle East Series 8 (1971) P. 593.

(٢٧) الأندلسي، أنساب العرب، ص ١٣٩، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، جوهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م) ص ١٨٨.
(٢٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت - بغداد: دار العلم للملايين، مكتبة النهضة العربية، ١٩٧٦ م، (١٠ أجزاء)، ج ٦، ص ٢٨٨.

(29) Cantineau, Nabatéen, P. 49; Shahid, I., "Philological Observations on the Namara Inscription", Journal of Semitic Studies, 24 (1979) PP. 33-42.
(٣٠) مثل اسم العلم (ع ب د ر ب ال) انظر:

Starcky, J., "Nouvelles Steles Funeraires A. Petra", ADAJ, 10 (1965) No: 5, P. 47).
(٣١) جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ص ٣٠٠ - ٣١٣؛ محمود محمد الروسان، القبائل النضوية والصنوفية: دراسات مقارنة، الرياض، عيادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)، ص ١٨٤.

(32) Cantineau, Nabatean, P. 114; Littman, E., "Nabataean Inscriptions from Egypt", BSOAS, 16 (1954) P. 234; Winnett, Ancient Records, No. 49; Al-Khaysheh, Perso
nennamen in den Nabataischen, P. 108.

(٣٣) الأندلسي، أنساب العرب، ص ١١؛ أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م)، ص ١٧٨.

(٣٤) نامي، أصل الخط العربي، ص ٧٢؛ الجبوري، أصل الخط العربي، ص ٤٢ جدول رقم (١)، انظر كذلك: Healey, Early Alphabet, P. 54.

(٣٥) الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (٢)؛ محمد فهد عبد الله الفهر، تطور الكتابات والقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، جدة، تهامة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م، ص ص ١٣٩ - ١٤١، ٣٧٦؛ انظر كذلك: Safadi, Y.H., Islamic Calligraphy, London, Thames 1978, p.6: and Hudson.

- (٣٦) الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (١٠)؛ راشد، «الكتابات القديمة»، ص ٢٤٠؛ نامي، «أصل الخط العربي»، ص ص ٧٢، ٧٣.
- (٣٧) (انظر الجداول رقم (١)، (٢)، حيث يظهر التطور واضحاً فيما يتعلق بالباء الابتدائية. انظر: الجبوري، أصل الخط العربي، جدول رقم (٢).
- (٣٨) صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٩م، الطبعة الثانية، ص ص ٢٩ - ٣١، ٤٠ - ٤١، شكل ٦٩؛ جمعة، دراسة في تطور الكتابات، ص ١٣٢، لوحة ٦.
- (٣٩) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٧٥، كذلك.
- Healey, "Nabataean to Arabic", P.7, table 1.
- (٤٠) الجبوري أصل الخط العربي، جدول رقم (٢)؛ نامي، «أصل الخط العربي» ص ص ٩٣، ٩٤.
- (٤١) (انظر جدول رقم (١)؛ نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٩٤.
- (٤٢) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ص ٧٥، ٩٥؛ الجبوري؛ أصل الخط العربي، ص ٥٦، جدول رقم (٢).
- (٤٣) (انظر جدول رقم (٢)).
- (٤٤) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٧٧.
- (٤٥) الجبوري، أصل الخط العربي، ص ٥٧، جدول رقم (٢).
- (٤٦) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ص ٩٦، ٩٧.
- (٤٧) المنجد، تاريخ الخط العربي، ص ٢١؛ (انظر كذلك جداول رقم (١)، (٢)).
- (٤٩) نقصد بالنقوش العربية المبكرة، نقوش أم الجبال الثاني، زيد، أسيس وحران. (انظر الجداول رقم (١)، (٢)).
- (٥٠) (انظر جدول رقم (١)).
- (51) Healey, "Nabataean to Arabic", table 1.
- (٥٢) جمعه، دراسة في تطور الكتابات، ص ١٣٢، لوحة ٦، المنجد تاريخ الخط العربي، ص ص ٤٠، ٤١، أشكال: ١٥، ١٦، ٢١، ٢٢.
- (53) Healey, "Nabataean to Arabic", table 1.
- (٥٤) (انظر الجداول رقم (١)، (٢)).
- (55) Healey, "Nabataean to Arabic", table 1.
- (٥٦) نامي، «أصل الخط العربي» ص ٩٩؛ (انظر الجداول رقم (١)، (٢)).
- (٥٧) الجبوري، أصل الخط العربي، ص ١٠٦، جدول رقم (٤).

(٥٨) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٧٩؛ كذلك :

Healey, "Nabataean to Arabic", P. 7 table 1.

(٥٩) جمعة، دراسة في تطور الكتابات، ص ص ١٣٢، ١٣٧، ١٤٧، ١٥١؛ المنجد، تاريخ الخط العربي، ص ص ١٠٢، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩.

(٦٠) الجبوري، أصل الخط العربي، ص ص ١٢٦، ١٢٧، جدول رقم (٣)، (٤).

(٦١) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ص ٨٠، ٩٨.

(٦٢) الجبوري، أصل الخط العربي، جداول رقم (٣)، (٤).

(٦٣) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ٩٨.

(٦٤) (انظر جداول رقم (١)، (٢)).

(٦٥) الجبوري، أصل الخط العربي، ص ص ١٢١، ١٢٨، جداول رقم (٣)، (٤).

(٦٦) أول ظهور لـ (ال) التعريف كان في نقش مدائن صالح المورخ سنة ٢٦٧ م.

(انظر : الأنصاري، مواقع أثرية وصور من حضارة العرب، ص ٣٢؛ راشد، «الكتابات القديمة، ص ص ٢٣٧، ٢٣٨؛ كذلك :

Healey, "JS 17 - the Earliest" PP. 78, 80, 82, P1. 346, L. 7

(٦٧) الجبوري، أصل الخط العربي، جداول رقم (٣)، (٤).

(٦٨) (انظر الجداول رقم (١)، (٢)).

(٦٩) نامي، «أصل الخط العربي»، ص ص ١٠٤، ١٠٦.

(٧٠) مثال على ذلك نقش مدائن صالح المورخ سنة ٢٦٧ م. (انظر :

Healey, "JS 17 - The earliest", P. 82.

كذلك سليمان بن عبد الرحمن الذيب وخليل إبراهيم المعقل، «نقوش نبطية جديدة من قارة الزاد، سكاكا»، مجلة المعصور، تحت النشر.

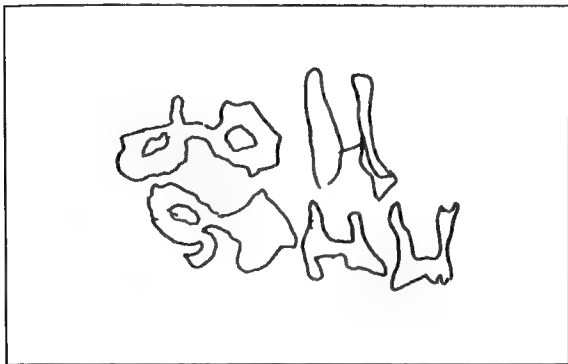


جدول رقم (۱)

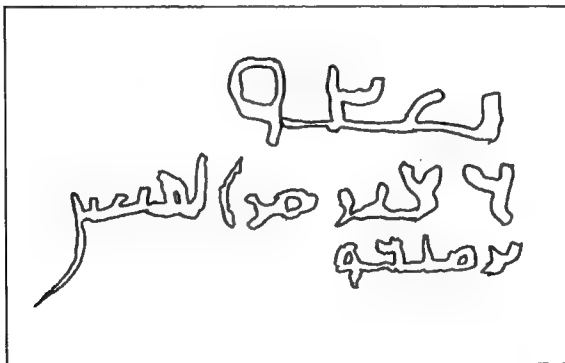
الانجليزية			(الفارق)			سكالا (١)			سكالا (٢)			أم الجبال (٣)			
النيطية	أبتدائ	وسط	نقث	أبتدائ	وسط	نقث	أبتدائ	وسط	نقث	أبتدائ	وسط	نقث	أبتدائ	وسط	نقث
٥٥٥٥	٦٦٦			١	٥				٦				١١١		
١١١	٢٢	٢٢	٢	٢٢	٢				٣	٣	٢٢	٢	٢	٢	٢
٢٢٢٢	٣٣	٣٣							٤	٤	٣٣				
٣٣٣٣	٤٤								٥	٥	٤٤				
٤٤٤٤	٥٥								٦						
٥٥٥٥	٦٦								٧						
٦٦٦٦	٧٧								٨						
٧٧٧٧	٨٨								٩						
٨٨٨٨	٩٩								١٠						
٩٩٩٩	١٠١٠								١١						
١٠١٠١٠	١١١١								١٢						
١١١١١١	١٢١٢								١٣						
١٢١٢١٢	١٣١٣								١٤						
١٣١٣١٣	١٤١٤								١٥						
١٤١٤١٤	١٥١٥								١٦						
١٥١٥١٥	١٦١٦								١٧						
١٦١٦١٦	١٧١٧								١٨						
١٧١٧١٧	١٨١٨								١٩						
١٨١٨١٨	١٩١٩								٢٠						
١٩١٩١٩	٢٠٢٠								٢١						
٢٠٢٠٢٠	٢١٢١								٢٢						
٢١٢١٢١	٢٢٢٢								٢٣						
٢٢٢٢٢٢	٢٣٢٣								٢٤						
٢٣٢٣٢٣	٢٤٢٤								٢٥						
٢٤٢٤٢٤	٢٥٢٥								٢٦						
٢٥٢٥٢٥	٢٦٢٦								٢٧						
٢٦٢٦٢٦	٢٧٢٧								٢٨						
٢٧٢٧٢٧	٢٨٢٨								٢٩						
٢٨٢٨٢٨	٢٩٢٩								٣٠						
٢٩٢٩٢٩	٣٠٣٠								٣١						
٣٠٣٠٣٠	٣١٣١								٣٢						
٣١٣١٣١	٣٢٣٢								٣٣						
٣٢٣٢٣٢	٣٣٣٣								٣٤						
٣٣٣٣٣٣	٣٤٣٤								٣٥						
٣٤٣٤٣٤	٣٥٣٥								٣٦						
٣٥٣٥٣٥	٣٦٣٦								٣٧						
٣٦٣٦٣٦	٣٧٣٧								٣٨						
٣٧٣٧٣٧	٣٨٣٨								٣٩						
٣٨٣٨٣٨	٣٩٣٩								٤٠						
٣٩٣٩٣٩	٤٠٤٠								٤١						
٤٠٤٠٤٠	٤١٤١								٤٢						
٤١٤١٤١	٤٢٤٢								٤٣						
٤٢٤٢٤٢	٤٣٤٣								٤٤						
٤٣٤٣٤٣	٤٤٤٤								٤٥						
٤٤٤٤٤٤	٤٥٤٥								٤٦						
٤٥٤٥٤٥	٤٦٤٦								٤٧						
٤٦٤٦٤٦	٤٧٤٧								٤٨						
٤٧٤٧٤٧	٤٨٤٨								٤٩						
٤٨٤٨٤٨	٤٩٤٩								٥٠						
٤٩٤٩٤٩	٥٠٥٠								٥١						
٥٠٥٠٥٠	٥١٥١								٥٢						
٥١٥١٥١	٥٢٥٢								٥٣						
٥٢٥٢٥٢	٥٣٥٣								٥٤						
٥٣٥٣٥٣	٥٤٥٤								٥٥						
٥٤٥٤٥٤	٥٥٥٥								٥٦						
٥٥٥٥٥٥	٥٦٥٦								٥٧						
٥٦٥٦٥٦	٥٧٥٧								٥٨						
٥٧٥٧٥٧	٥٨٥٨								٥٩						
٥٨٥٨٥٨	٥٩٥٩								٦٠						
٥٩٥٩٥٩	٦٠٦٠								٦١						
٦٠٦٠٦٠	٦١٦١								٦٢						
٦١٦١٦١	٦٢٦٢								٦٣						
٦٢٦٢٦٢	٦٣٦٣								٦٤						
٦٣٦٣٦٣	٦٤٦٤								٦٥						
٦٤٦٤٦٤	٦٥٦٥								٦٦						
٦٥٦٥٦٥	٦٦٦٦								٦٧						
٦٦٦٦٦٦	٦٧٦٧								٦٨						
٦٧٦٧٦٧	٦٨٦٨								٦٩						
٦٨٦٨٦٨	٦٩٦٩								٧٠						
٦٩٦٩٦٩	٧٠٧٠								٧١						
٧٠٧٠٧٠	٧١٧١								٧٢						
٧١٧١٧١	٧٢٧٢								٧٣						
٧٢٧٢٧٢	٧٣٧٣								٧٤						
٧٣٧٣٧٣	٧٤٧٤								٧٥						
٧٤٧٤٧٤	٧٥٧٥								٧٦						
٧٥٧٥٧٥	٧٦٧٦								٧٧						
٧٦٧٦٧٦	٧٧٧٧								٧٨						
٧٧٧٧٧٧	٧٨٧٨								٧٩						
٧٨٧٨٧٨	٧٩٧٩								٨٠						
٧٩٧٩٧٩	٨٠٨٠								٨١						
٨٠٨٠٨٠	٨١٨١								٨٢						
٨١٨١٨١	٨٢٨٢								٨٣						
٨٢٨٢٨٢	٨٣٨٣								٨٤						
٨٣٨٣٨٣	٨٤٨٤								٨٥						
٨٤٨٤٨٤	٨٥٨٥								٨٦						
٨٥٨٥٨٥	٨٦٨٦								٨٧						
٨٦٨٦٨٦	٨٧٨٧								٨٨						
٨٧٨٧٨٧	٨٨٨٨								٨٩						
٨٨٨٨٨٨	٨٩٨٩								٩٠						
٨٩٨٩٨٩	٩٠٩٠								٩١						
٩٠٩٠٩٠	٩١٩١								٩٢						
٩١٩١٩١	٩٢٩٢								٩٣						
٩٢٩٢٩٢	٩٣٩٣								٩٤						
٩٣٩٣٩٣	٩٤٩٤								٩٥						
٩٤٩٤٩٤	٩٥٩٥								٩٦						
٩٥٩٥٩٥	٩٦٩٦								٩٧						
٩٦٩٦٩٦	٩٧٩٧								٩٨						
٩٧٩٧٩٧	٩٨٩٨								٩٩						
٩٨٩٨٩٨	٩٩٩٩								١٠٠						
٩٩٩٩٩٩	١٠٠٠								١٠١						
١٠٠٠١٠٠	١٠١١								١٠٢						
١٠١١١٠١	١٠٢٢								١٠٣						
١٠٢٢١٠٢	١٠٣٣								١٠٤						
١٠٣٣١٠٣	١٠٤٤								١٠٥						
١٠٤٤١٠٤	١٠٥٥								١٠٦						
١٠٥٥١٠٥	١٠٦٦								١٠٧						
١٠٦٦١٠٦	١٠٧٧								١٠٨						
١٠٧٧١٠٧	١٠٨٨								١٠٩						
١٠٨٨١٠٨	١٠٩٩								١١٠						
١٠٩٩١٠٩	١١٠٠								١١١						
١١٠٠١١٠	١١١١								١١٢						
١١١١١١١	١١٢٢								١١٣						
١١٢٢١١٢	١١٣٣								١١٤						
١١٣٣١١٣	١١٤٤								١١٥						
١١٤٤١١٤	١١٥٥								١١٦						
١١٥٥١١٥	١١٦٦								١١٧						
١١٦٦١١٦	١١٧٧								١١٨						
١١٧٧١١٧	١١٨٨								١١٩						
١١٨٨١١٨	١١٩٩								١٢٠						
١١٩٩١١٩	١٢٠٠								١٢١						
١٢٠٠١٢٠	١٢١١								١٢٢						
١٢١١١٢١	١٢٢٢								١٢٣						
١٢٢٢١٢٢	١٢٣٣								١٢٤						
١٢٣٣١٢٣	١٢٤٤								١٢٥						
١٢٤٤١٢٤	١٢٥٥								١٢٦						
١٢٥٥١٢٥	١٢٦٦								١٢٧						
١٢٦٦١٢٦	١٢٧٧								١٢٨						
١٢٧٧١٢٧	١٢٨٨														

جدول رقم (۲)

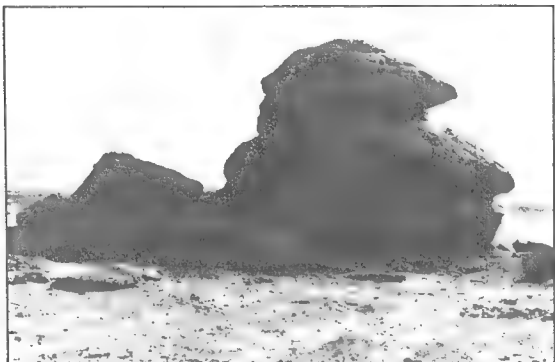
الأبجدية عربية	أسوان			حران			أسيس			زبد		
	نقش	وسط	ابتداء	نقش	وسط	ابتداء	نقش	وسط	ابتداء	نقش	وسط	ابتداء
أ												
ب	د	د	د			ر			ر			د
ج		د	د									د
د	د	د	د	د	د	د				د		
هـ	د	د	د				د	د	د	د	د	د
و			د	د	د		د	د	د	د	د	د
ز												
ح		د	د			د	د			د		د
ط						د						
ي	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ك	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ل	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
م	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ن	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
س		د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ع		د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ف		د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ق		د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ر	د		د	د	د		د	د		د		د
ش						د						د
ص	د	د		د			د			د		
ض			د						د			د



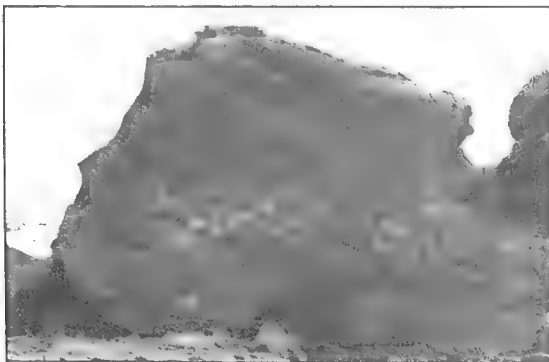
شكل (١)، نقش رقم (١)



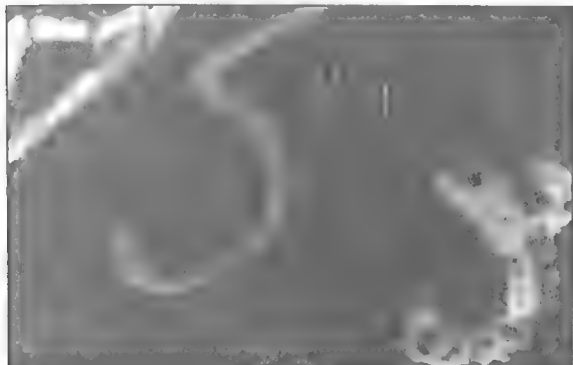
شكل (٢)، نقش رقم (٢)



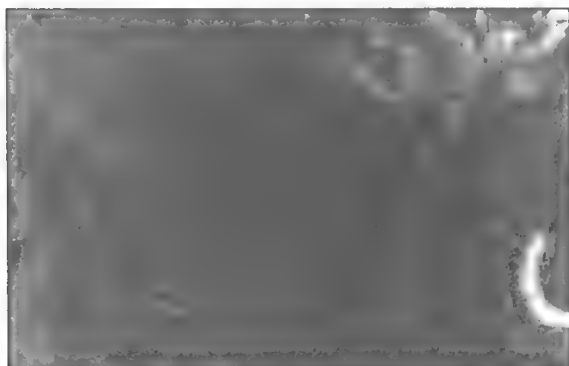
صورة (١) موقع القلعة إلى الشمال من سكاكا



صورة (٢) الواجهة الصخرية التي تحوي النقشين



صورة (٣)، نقش رقم (١)



صورة (٤)، نقش رقم (٢)

الصناعة في اليمن في العصر الأموي

• د. عبد الله بن محمد السيف •



يقع إقليم اليمن في جنوب
غرب الجزيرة العربية ، ومن
الصعب تعيين حدوده بدقة في العصر
الأموي ، لأنه لا يوجد حاجز طبيعي
يفصله عما حوله من أقاليم جزيرة العرب
الأخرى بصورة واضحة (١) . كما أن
التقسيمات التي ذكرتها المصادر الجغرافية
للجزيرة العربية مختلفة (٢) ، بسبب اختلاف
الحدود الإدارية لأقسام جزيرة العرب في
العهود الإسلامية الأولى من وقت لآخر ،
حيث أوجد المسلمون تقسيمات إدارية
تتلاءم مع الظروف والأحوال التي كانوا
يعيشونها دون أن يخضعوها للاعتبارات
الجغرافية (٣) أو البشرية ، فكانت هذه
الحدود تمتد وتنكمش حسب قوة الولاة أو
ضعفهم .

لقد كانت اليمن في القرن الأول الهجري مقسمة إلى ثلاث مناطق إدارية يقول المقدسي : «وكانت ولاية اليمن في القديم مقسومة على ثلاثة أعمال وإلى على الجند ومخالفها وآخر على صنعاء ومخالفها، والثالث على حضر موت ومخالفها»^(٤). وأحياناً كانت هذه المخاليف تجمع لوال واحد مثلما جمعت اليمن كلها ليوسف بن عمر الثقفي .

هذا البحث محاولة لدراسة الصناعة في اليمن في العصر الأموي حيث سيتناول العوامل المؤثرة في الصناعة في ذلك الإقليم في تلك الفترة . كما سيدرس الصناعات التي كانت قائمة مثل صناعة النسيج ودباغة الجلود والصناعات الجلدية والصناعات المعدنية والصناعات الخشبية وغيرها من الصناعات في اليمن في العصر الأموي .

العوامل المؤثرة في النشاط الصناعي :

تتمتع اليمن بموقع استراتيجي مهم فهو يطل على بحر العرب من ناحية الجنوب وبحر القلزم (البحر الأحمر) من ناحية الغرب، وكانت تمر بهذا الإقليم شرايين التجارة العالمية البحرية القادمة عبر المحيط الهندي إلى الخليج العربي أو إلى البحر الأحمر . كما ارتبط اليمن بأقاليم الجزيرة العربية الأخرى بشبكة من الطرق البرية . ولا شك أن هذا الموقع ساعد على استيراد بعض المواد الخام اللازمة للصناعة من ناحية وتسويق الإنتاج الصناعي من ناحية أخرى .

وتوافرت في اليمن المواد الخام اللازمة للنشاط الصناعي من الثروات المعدنية مثل الذهب والفضة والحديد والعقيق والجزع وغيرها^(٥)، كما توافرت الثروة الحيوانية التي يستفاد من صوفها وجلودها في الصناعة كالإبل والبقر

والغنم^(٦). كما قامت بعض الصناعات التي تعتمد على النباتات مثل الصناعات الخشبية والصناعات القطنية. لقد أدى تنوع المواد الخام في هذا الإقليم من منطقة إلى أخرى إلى تنوع الإنتاج الصناعي.

وتعد الأيدي العاملة من مقومات الصناعة الأساسية وكانت متوافرة في اليمن حيث زاول الصناعة بعض العرب والموالي والريقت. فيروي الهمداني^(٧) عن معدن الرضراض أن أهله جميعاً من الفرس الذين قدموا إلى اليمن في العصر الجاهلي والعصر الأموي والعصر العباسي وكانوا يسمون فرس المعدن. واستوطن الفرس في بعض المدن الرئيسة والمراكز الاقتصادية مثل عدن وذمار^(٨) والجند^(٩) وصعدة^(١٠)، إلا أن معظم الفرس استوطن صنعاء مثل «بنو سردوية وبنو مهروية وبنو زنجوية وبنو بردوية وبنو جندويه»^(١١) ويستفاد من حديث خالد بن صفوان أن صناعة المنسوجات ودباغة الجلود كانت من أهم الحرف التي زاولها أهل اليمن يقول: «ماذا أقول: لقوم ليس فيهم إلا دابغ الجلد، أو ناسج برد...»^(١٢) وتذكر المصادر مزاولة بعض العرب للصناعات^(١٣) واشتهر آل ذي يزن بصناعة الأسلحة^(١٤). وساهم كثرة الرقيق في اليمن^(١٥) في تعويض النقص الذي حدث في الأيدي العاملة بعد الاشتراك في الفتوح. وكان ولي اليمن بحير بن ريسان الحميري ولي يزيد بن معاوية يرسل له كل يوم عددًا من الرقيق^(١٦). ويروي الرازي^(١٧) أن طاووس بن كيسان كان يزكي عن رقيقه. ولا شك أن وجود بعض العناصر الأجنبية من الفرس وغيرهم كان لهم تأثير على النشاط الصناعي.

لقد ساعد استتباب الأمن في معظم فترات الحكم الأموي على ازدهار النشاط الصناعي حيث تحرر الناس من الخوف، فأصبحت الطرق آمنة وتنقل الأشخاص والسلع دون قيود في أنحاء الدولة الأموية، كما أن اهتمام الدولة

الأموية بطرق المواصلات التي تربط اليمن بالأمصار الإسلامية الأخرى إلى سهولة التسويق الصناعي، وجلب بعض المواد الخام التي تحتاجها بعض الصناعات في اليمن.

ومن العوامل التي ساعدت على تقدم الإنتاج الصناعي في اليمن تنوع الصناعات وجودتها مثل صناعة المنسوجات، والصناعات الجلدية والصناعات المعدنية وغيرها، مما أدى إلى زيادة الطلب عليها في الأمصار الإسلامية الأخرى مثل: الحجاز والعراق والشام مما سنفصله فيما بعد.

ولا ننكر أن هناك بعض العوامل التي عرقلت نمو النشاط الصناعي في بعض الفترات في العصر الأموي مثل عدم الاستقرار السياسي والفتن الداخلية التي تؤدي إلى عرقلة وكساد الإنتاج. فبعد فتنة صفين والتحكيم سنة ٤٠ هـ توجه بسر بن أرطاة من بني عامر بن لؤي إلى اليمن لتتبع أنصار الإمام علي ابن أبي طالب ^(١٨) (رضي الله عنه) فسار إلى جيشان التي يسكنها خليط من حمير ^(١٩)، وقاتل مؤيدي الإمام علي ثم سار إلى صنعاء حيث قتل عددًا من الأبناء ^(٢٠) الذين كانوا موالين لهمدان وتتبع أعدادًا كبيرة من رجال هذه القبيلة.

وتعرض اليمن لهجمات الخوارج بقيادة نجدة بن عامر الحنفي الذي توجه إلى اليمن قاصدًا صنعاء فبايعه أهلها، فبعث إلى مخالفيها فأخذ منهم الصدقة ^(٢١). واستمرت الأحوال السياسية مضطربة في هذا الإقليم حتى عودة اليمن إلى حظيرة الدولة الأموية مرة أخرى بعد القضاء على حركة ابن الزبير.

وتعرض اليمن في سنة ١٢٩ هـ لثورة «طالب الحق» عبد الله بن يحيى الكندي الذي ثار في حضر موت، وقد ناصرته قبيلة كندة، واجتمعت الأباضية إليه فبايعوه وعامة أصحابه ^(٢٢). ثم سار إلى صنعاء، حيث استولى عليها،

وظل على اليمن حتى تمت هزيمته وقتله من قبل قوات مروان بن محمد (٢٣). ولا شك أن الفتن الداخلية تؤدي إلى تدهور الصناعة ويروح ضحيتها عدد من العاملين فيها.

ويعد ظلم بعض الولاة وسياستهم الداخلية من العوامل المثبطة للنشاط الصناعي فيروي البلاذري (٢٤) أن محمد بن يوسف الثقفي «أساء السيرة وظلم الرعية» كما فرض على أهل اليمن ضريبة من الخراج جعلها وظيفة عليهم وثابتة في أعناقهم يؤدونها كالجزية (٢٥). ويروي الرازي (٢٦). أن طاووس بن كيسان كان يؤدي ضريبة على أرضه كل عام «أخرجت شيئاً أو لم تخرج». وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ألغى هذه الضريبة غير الشرعية (٢٧)، لكنها أعيدت بعد وفاته في عهد يزيد بن عبد الملك. ويعلل طالب الحق ثورته سنة ١٢٩ هـ بالجزور الظاهر والعسف الشديد، وسيرة الولاة القبيحة في الناس (٢٨).

وفي القرن الأول الهجري هاجرت بعض القبائل اليمنية والأبناء واستقروا في البلاد المفتوحة، وكان السبب في خروجهم إما مشاركة في الجهاد والفتوحات الإسلامية أو بدافع طلب العلم (٢٩). ومن المحتمل أن هذه الهجرة الجماعية أثرت على النشاط الصناعي في اليمن في العصر الأموي.

أنواع الصناعات :

(١) صناعة النسيج

أما عن الصناعات التي كانت موجودة في اليمن فتأتي صناعة النسيج في مقدمتها. وكانت مزدهرة في صدر الإسلام وتصدر إلى أقاليم الجزيرة العربية

والأمصار الإسلامية الأخرى كالشام والعراق (٣٠). وقد ورد ذكر المنسوجات اليمانية المصدرة إلى الحجاز بكثرة في المصادر (٣١) مما يدل على أن صناعة المنسوجات كانت تعد أهم الحرف التي زاوها أهل اليمن في العصر الأموي (٣٢). ووصف رجل يزيد بن المهلب أمام مسلمة بن عبد الملك بأنه حائك كندة (٣٣).

إذا نفر السود اليمانون حاولوا له حوك برديه أرقوا وأوسعوا (٣٤). لقد أشارت بعض المصادر (٣٥) إلى بعض الأنسجة اليمانية دون تحديد لنوعية المواد الأولية التي تصنع منها أو ذكر للمناطق التي كانت تصنع فيها مما يدل على أنه كانت في اليمن مراكز للنسيج متعددة «غير أن هذه الأنسجة اليمانية رغم عموميتها كانت ذات صفات خاصة مشتركة تميزها عن غيرها» (٣٦). فيروي البخاري (٣٧) أن الزهري كان يلبس من ثياب اليمن، كما ذكرت مناديل اليمن أمام عبد الملك بن مروان (٣٨). وكان الحسين بن علي (رضي الله عنهما) قبل مقتله يلبس سراويل محكمة النسيج من صنع اليمن (٣٩). وعندما سمع عبيد الله بن زياد خبر مجيء الحسين بن علي إلى الكوفة «أخرج ثياباً من مقطعات اليمن» (٤٠).

وكان الشعبي يلبس عمامة حمراء من ثياب اليمن (٤١)، كما لبس الزبير المعافري (٤٢) وينسب عمر بن أبي ربيعة الثياب إلى الجند والجروب في اليمن فيقول :

كَانَ الرَّبْعُ أَلْبَسَ عِبْقَرِيَا مِنْ الْجَنْدِيِّ أَوْ بَزَّ الْجُرُوبِ (٤٣).

وتعد البرود من أشهر أنسجة اليمن وكانت تصدر إلى بقية أقاليم الجزيرة العربية يقول كثير عزة :

وَالسَّوَاكُ بِالْبُرْدِ الْيَمَانِيِّ وَقَدْ بَدَا مِنْ الْبَيْنِ أَشْرَاطُ لِعَجْلَانِ رَاحِجِ (٤٤).

كما استعملت برود اليمن في بلاط الأمويين بالشام^(٤٥).

وفي صنعاء كانت تنسج البرود، وكانت ذات شهرة كبيرة، وقد نسب الشاعر حميد بن ثور الهلالي نسيج البرود إلى صنعاء، فكان ابنه يراه يذهب إلى الأمراء من بني أمية ويعود مكسوراً، فأخذ بعيراً لأبيه وقصد مروان بن الحكم لكنه لم يعطه شيئاً وعندما عاد قال أبوه :

ما بال بُرديك لم تمسّس حَواشيه من ثَرَمَداء ولا صنعاء تحير^(٤٦).

وقد انتشرت البرود اليمنية في الحجاز خلال العصر الأموي، فيروي ابن سعد أن عبد الله بن عمر كان يلبس بردين معافرين^(٤٧)، واشترى جعفر بن علي بن الحسين برداً يمانياً لوالده^(٤٨). وكان عبد الله بن جعفر يلبس بردين يمانيين^(٤٩). ويروي الأصفهاني أن المغنية جميلة لبست برنساً طويلاً، وعلى عاتقها بردة يمانية^(٥٠)، وكانت تنسج في رمع في اليمن البرود الجياد^(٥١). ومن البرود الأخرى التي كانت تنسج في اليمن البرود السحولية^(٥٢). والبرود القديمة^(٥٣)، والبرود السعيدية التي كانت تنسج في صنعاء^(٥٤). وكذلك البرود الشرعية التي كانت تنسج في شرعب^(٥٥).

وكانت الحلل اليمنية معروفة في الجزيرة العربية في القرن الأول الهجري يقول ابن منظور : «الحلل برود اليمن»^(٥٦). ويروي الرازي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كتب لواليه على اليمن بعد أن كسى الناس الحلل التي جاءت من اليمن، ليبعث بحلتين للحسن والحسين (رضي الله عنهما) فبعث بذلك فكساهما^(٥٧). وكان عمر بن أبي ربيعة يلبس «حلة موشية يمانية»^(٥٨). وتذكر المصادر أن الحسين بن علي لقي في طريقه إلى الكوفة عيراً قادمة من اليمن عليها الورس والحلل^(٥٩). ويقول ابن الفقيه : «ولأهل اليمن الحلل اليمنية»^(٦٠).

وكانت الحبرات تنسج في اليمن^(٦١). وهي من الألبسة الخارجية للرجال،

وكانت معروفة في الأقاليم الإسلامية الأخرى، يروي الأصفهاني أن طويس المغني كان يلبس حبرة قد ارتدى بها^(٦٢)، كما لبس الشاعر نصيب بالطائف قميصاً ورداء وحبرة يمانية^(٦٣) وكان عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) يلبس ثوب حبرة من العصب^(٦٤) وقد تصنع السراق من الحبرة فيذكر خالد بن صفوان أنه قدم على هشام بن عبد الملك، «وقد ضرب له سراق من حبرة، كان يوسف بن عمر صنعه له باليمن فيه فسطاط فيه أربعة أفرشة من خز أحمر مثلها مرافقها»^(٦٥). وكانت الحبرات في صنعاء تتسج من القطن^(٦٦). ولا ريب أن تصدير هذه الأنسجة إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى يدل على متانة صنعها.

ومن الأنسجة اليمنية التي ذكرتها المصادر عصب اليمن^(٦٧). حيث كانت «اليمن معدن العصائب»^(٦٨) ويقول الأصمعي: «أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لا تكون إلا باليمن الورس والكندر والخطر والعصب»^(٦٩) ومن المدن اليمنية التي كان يصنع فيها العصب مدينة الجند في اليمن^(٧٠). وكانت الكعبة تكسى من العصب يقول عمر بن أبي ربيعة:

والبيت ذي الأبطح العتيق، وما جُلِّلَ من حُرِّ عَصْبِ ذي اليمن^(٧١).
ويعد العصب من البرود الثمينة، وقد ظلت اليمن تحفظه بمكانتها كأكبر ممول للجزيرة العربية من البرود الثمينة حتى القرن الرابع الهجري، فيذكر ابن رسته أن البرد اليافى يبلغ خمسمائة دينار^(٧٢). ولم تذكر المصادر ألوان العصب «غير أن غلاء أثاناه واقتصار صنعه على اليمن قد يدل على أن ألوانه المتعددة تظهر منسجمة... وهذا يتطلب مهارة فائقة في الحياكة، ولعل هذه المهارة، وأسرار الأصباغ المستعملة فيه هي التي مكنت أهل اليمن من احتكار صناعته»^(٧٣).

ومن الأنسجة الأخرى في اليمن الملاحف اليبانية، فيذكر الإمام مالك . . . «أن ثياب القطن لا يسلف بعضها من بعض إلا الغلاظ منها الشقائق والملاحف اليبانية الغلاظ . . .» (٧٤) ولم يرد ذكر الملاحف اليبانية في القرن الأول الهجري ويرى صالح العلي بأنه «لا يمكن الجزم بعدم ذكرها وهل هو راجع إلى عدم وجودها آنذاك أو إلى قلة استعمالها أو لأسباب أخرى أدت إلى عدم ذكرها» (٧٥). بيد أننا نرجح أنها كانت موجودة في القرن الأول الهجري لانتشار لبس الملاحف في الحجاز في ذلك القرن، فقد لبسها علي بن الحسين، ومحمد بن الحنفية وجميل بئينة وغيرهم (٧٦). ثم إن إشارة المصادر لها في القرن الثاني الهجري لا يعني أنها لم تكن موجودة وظهرت فجأة غير أن انتشارها ومعرفة الناس بها شاعت بعد تصديرها إلى الأقاليم الأخرى في القرن الثاني الهجري، ويبدو أن ذلك استمر في العصر العباسي، حيث ورد ذكر الملاحف السحولية التي كانت تصنع من القطن في قرية سحول في اليمن وتجلب من مدينة الجند إلى مكة المكرمة (٧٧).

وتعد المنسوجات العدنية من الثياب والأردية والربط والعمائم من أجود المنسوجات التي كانت تصدر من اليمن في العصر الأموي فيروي الأصفهاني أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية أهدت الحارث بن خالد المخزومي ثياباً عدنية (٧٨). وتذكر المصادر أن الإمام مالك كان يلبس الثياب والربط العدنية الجيدة (٧٩). ويبدو أن المنسوجات العدنية كانت ذات جودة عالية بدليل ارتفاع أسعارها فكان مروان بن إبان بن عفان يلبس رداء عدنيا بقيمة ألفي درهم (٨٠) وقد عرفت المنسوجات العدنية في الحجاز والشام والعراق (٨١)، مما يدل على سعة انتشارها ومتانة صنعها. وتنسب إلى جيشان في اليمن الخمر السود (٨٢)، ويذكر ابن سعد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تلبس خماراً أسود جيشانياً (٨٣).

ومن الأنسجة اليبانية الأخرى ثياب الوشي اليباني فيروي المسعودي أن الوشي الجيد كان يعمل في اليمن في عهد سليمان بن عبد الملك^(٨٤). ويقول الجاحظ : «وخير الوشي . . الذي لا يُرسم فيه ولا ذهب وهو اليباني»^(٨٥). ويذكر اليعقوبي أن معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) عمل له الطراز باليمن^(٨٦).

ومن ثياب اليمن الموشاة الناعمة الخال والتجاويز قال الشماخ :
وبردان من خال وسبعون درهماً على ذاك مقروط من الجلد ماعز^(٨٧).
ويقول الكميت الأسدي :

حتى كان عراص الدار أردية من التجاويز أو كراس أسفار^(٨٨).
ويروي الأصفهاني أن الفرزدق كان يلبس «حلة أفواف يمانية موشاة»^(٨٩).

ولا ريب أن الخيوط والحبال وبيوت الشعر كانت تصنع في اليمن وتصدر إلى الأقاليم الأخرى في الجزيرة العربية خلال العصر الأموي لأنها أساسية لحياة البادية على مر العصور.

لقد استلزمت صناعة النسيج قيام صباغة الملابس ، وكان يتم صباغتها بعد نسجها أو بعد خياطتها ، وأحياناً يصبغ الغزل قبل نسجه يقول الشافعي :
«وأحب ما يلبس إلى البياض ، فإن جاوزه بعصب اليمن . . . مما يصبغ غزله ولا يصبغ بعدما ينسج ، فحسن»^(٩٠). ويروي ابن منظور أن العصب «سمي عصباً لأن غزله يعصب أي يدرج ثم يصبغ ثم يحاك»^(٩١). وقد استخدم الصباغون الألوان المستخرجة من النباتات لصباغة الملابس والأقمشة مثل الورس الذي كان ينبت في عدن ، ووادي الجنات وشيعان موضع الورس النفيس^(٩٢). ويروي الأصفهاني «أن جمال عَمَّان كانت تحمل الورس من اليمن إلى عَمَّان فتصفر»^(٩٣). وفي جبل المذيخرة كان ينبت الورس والزعفران^(٩٤). ويستشف من الأسئلة التي كانت توجه إلى الإمام مالك أن

الصباغين كانوا يستخدمون ألواناً متعددة لصباغة المنسوجات مثل الأحمر والأخضر والأسود^(٩٥).

ب) دباغة الجلود والصناعات الجلدية :

ومن الصناعات التي كانت مشهورة في اليمن في العصر الأموي دباغة الجلود والصناعات الجلدية ، وكانت الأدم من أهم صادرات اليمن في العصور الإسلامية الأولى^(٩٦) . لقد سبق أن أشرنا إلى مقولة خالد بن صفوان من أن دباغة الجلود كانت من أهم الحرف التي زاوها أهل اليمن . ويستفاد من شعر عبيد بن شربة الذي أورده في مقام الاقتحار بأبناء قحطان أمام الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن بعض أفراد قبيلة مذحج زاول دباغة الجلود^(٩٧) . ولكثرة من زاول دباغة الجلود والصناعات الجلدية في منطقة حمير وصفت القبيلة بكثرة الخرازين فيها^(٩٨) . ويقول أحمد فاروق بأن «الدباغة كانت العمل الوحيد لأكثر القبائل في اليمن»^(٩٩) . إلا أن هذه العبارة غير دقيقة لأننا نعلم بأن أكثر القبائل في اليمن زاولت صناعات أخرى كصناعة الأنسجة والصناعات المعدنية وغيرها مما تبين لنا من خلال هذا البحث .

لقد ساعد على قيام هذه الصناعة في هذا الإقليم حسن الجو في بعض مناطق اليمن وملاءمته للدباغة ، وحسن الموقع الجغرافي لليمن مما جعل التجار يصلون إليه بسهولة ، وتوفر الحيوانات التي تؤخذ منها الجلود كالإبل والبقر والغنم^(١٠٠) . فمن الإبل المهرية والصدفية والجرمية والداعرية والمجيدية والأرحبية^(١٠١) ، وتعتبر الإبل المنسوبة إلى أرحب من أشهر كرام الإبل يقول عمر بن أبي ربيعة :

سوى أنني قد قلتُ ، يا نَعْمُ ، قولَةً لها ، والعنائقُ الأرحبياتُ تزجرُ^(١٠٢) .

ويبدو أن شهرة الإبل اليبانية قد استمرت في أوائل العصر العباسي ، فيروي الأصفهاني أن الخليفة المهدي وجه مولاة نصيب إلى اليمن في شراء إبل مهريّة^(١٠٣) . أما البقر والأغنام فكانت متوفرة في اليمن كالبقرة الجندية والجبلائية^(١٠٤) . وكانت الأغنام تجلب من الحبشة واليامة ويستفاد من جلودها^(١٠٥) . ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار دباغة الجلود وجود المواد التي تستخدم للدباغة في اليمن كالقرظ الذي كان يوجد حول مدينة صعدة التي يصفها الهمداني بأنها «في موطن بلد القرظ»^(١٠٦) .

لقد كانت اليمن ذات شهرة كبيرة في دباغة الجلود والصناعات الجلدية منذ العصر الجاهلي واستمرت خلال العصر الإسلامي حتى أن مطاحن القرظ بلغت في صنعاء وحدها ثلاثة وثلاثين مطحناً وذلك خلال القرن الرابع الهجري^(١٠٧) . لقد كانت اليمن تنتج من هذه الصناعة ما يزيد عن حاجتها ، فكانت تصدر إنتاجها من الجلود المدبوغة والصناعات الجلدية إلى الأقاليم الأخرى ، فكانت جلود البقر تصدر من اليمن إلى البصرة^(١٠٨) . ويذكر ابن سعد أن علي بن الحسين في الحجاز كان يلبس خفين غليظين من صنع اليمن^(١٠٩) . وكان بنجران وجرش أدماً كثيراً أكثره من صعدة^(١١٠) . ويبدو أن تصدير اليمن للجلود المدبوغة استمر حتى القرن الخامس الهجري ، حيث يذكر ناصر خسرو أن الجلود كانت تجلب من اليمن إلى اليامة والإحساء^(١١١) . ومن أهم المدن التي كانت مشهورة بدباغة الجلود والصناعات الجلدية منذ العصر الجاهلي مدينة صعدة في منطقة خولان ، وتقع شمالي صنعاء ، وكان يعمل بها «دباغ اليمن من الأدم والنعال»^(١١٢) . ويقول الحسن بن محمد المهلبى بأن صعدة «بها مدايق الأدم وجلود البقر التي للنعال»^(١١٣) . وتشتهر صعدة بصناعة الأنطاع الحسنة والركاء الجيدة^(١١٤) ، وأديم الكتابة المعروف بالأديم الخولاني^(١١٥) .

واشتهرت مدينة صنعاء بدباغة الجلود وصناعتها حيث تصنع النعال المشعرة والأنطاع الجيدة^(١١٦). وتعتبر النعال الترخية المنسوبة إلى التراخم من أشرف اليمن من أجود النعال وكانت معروفة في صنعاء وسميت الترخية لأن التراخم بدعوها^(١١٧). وكانت جلود البقر تجلب إلى صنعاء لدباغتها وصناعة النعال^(١١٨). وفي حضر موت كانت تدبغ الجلود في ريذة الصيتر التي كان ينسب إليها الأشئلة الصيترية^(١١٩).

ومن المصنوعات اليانية الأخرى «الأنطاع الصت»^(١٢٠). التي لا ينفذ منها الماء لمتانة صنعها. ويروي الرازي أن طاووس بن كيسان كان يستخدم الأنطاع للجلوس عليها^(١٢١). وكان يتخذ الفرش النفيس من جلود النمر^(١٢٢). ويروي الجاحظ أن الشاعر أبا العتاهية أهدى للخليفة المأمون هدايا كثيرة منها نعالاً سبتية وركاء يمانية^(١٢٣). ومن المصنوعات الأخرى السروج والخيام والحياض والأواني الجلدية مثل العلاب والقرب والعيبة والسقا والدلاء^(١٢٤) وغيرها مما تحتاجه الحياة في الجزيرة يقول عمر بن أبي ربيعة :

ولا دلو إلا القعبُ كان رَشَاءَهُ إلى الماء، نِسْعٌ، والأديمُ المضفرُ^(١٢٥).

ولما كانت اليمن مشهورة بإنتاج العسل فمن المحتمل إن الخافة كانت تصنع فيها، وهو فرو من جلد يلبسها العسال الذي يدخل في بيت النحل^(١٢٦). أما عن الأدوات التي كان الدباغون والحرارون يستخدمونها فلا تفصل المصادر ذكرها ولكن يبدو أن أهمها المحط الذي يستخدم لصقل الأديم، وكان مصنوعاً من الخشب وأحياناً من الحديد. أما المجلاة فتستخدم لتنظيف الوسخ العالق بالجلد. وهناك أدوات أخرى تستخدم لأغراض شتى كالمنحاز والمبقر والمسرد والمفراص والمخصف^(١٢٧). وقد ذكر ابن قتيبة الميجنة وهي التي يدق عليها الأدم من الحجر أو غيره^(١٢٨).

(ج) الصناعات المعدنية :

وتعد الصناعات المعدنية من أهم الصناعات التي كانت قائمة في اليمن في العصر الأموي حيث توجد معادن الذهب والفضة والحديد والعقيق والجزع التي كانت صالحة للاستثمار ففي منطقة همدان كان يوجد معدن ذهب المخلفة (١٢٩). وفي منطقة خولان كان يوجد ذهب القفاعة (١٣٠). ومن مناجم الذهب الجيدة منجم عشم (١٣١). كما اشتهرت معادن جبل نُقم «ففيه معدن ذهب جيد، ومعدن حديد» وقد استمرت هذه المناجم في الإنتاج منذ العصر الجاهلي (١٣٢).

ويعد معدن الرضراض في اليمن من أشهر مناجم الفضة في الجزيرة العربية، وهو معدن «لا نظير له في الغزر» (١٣٣) وكان الذين يعملون فيه من الفرس الذين قدموا إلى اليمن في الجاهلية وأيام بني أمية وبني العباس (١٣٤). وقد استمر هذا المعدن في الإنتاج منذ العصر الجاهلي وحتى سنة ٢٧٠ هـ عندما تدهور إنتاجه بسبب الصراعات القبلية والاعتداء على ساكنيه (١٣٥).

أما عن معادن الحديد فكانت توجد في منطقة حمير في جبل نقم (١٣٦)، وكان هذا المعدن مشهوراً منذ العهد الجاهلي، وأفضل سيوف اليمن ما كان من حديد نقم (١٣٧). ونظراً لقلّة مناجم الحديد في اليمن في العصر الأموي فقد تم استيراد الحديد من الهند (١٣٨).

ومن المعادن الأخرى في اليمن معادن العقيق والجزع التي كان يصنع منها الخرز والفصوص والأواني والعمود (١٣٩). ومن أنواع الجزع، المعرق الذي كان تتخذ منه الأواني لكبره وعظمه (١٤٠). وكان للجزع الظفاري شهرة خاصة (١٤١). ويذكر الجاحظ أن خير العقيق اليمني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه خطوط (١٤٢).

لقد ترتب على وجود المعادن قيام بعض الصناعات المعدنية مثل الحدادة والصياغة فيروي المدائني أن إبراهيم بن غرمة الكندي قال أمام الخليفة السفاح بأنه «ليس من شيء له خطر إلا إليهم» (أهل اليمن) ينسب من فرس رائع أو سيف قاطع أو درع حصينة أو حلة مصونة أو درة مكنونة . . .» (١٤٣). وعلى الرغم من شهرة السيوف اليمانية، إلا أنه يؤخذ على الكندي تعميمه وميوله اليمانية، فهناك السيوف الهندية التي لا تقل جودة عن السيوف اليمانية، وكان العرب يعرفونها ويرغبون فيها (١٤٤).

لقد كانت السيوف اليمانية من أجود أنواع السيوف (١٤٥)، وكانت تصنع في اليمن وتصدر إلى الأقاليم الأخرى في الجزيرة العربية يقول جحدر العكلي :
وقولا جحدرأ أمسى زهيناً يُحاذر وقَع مَصْقُول يَمَان (١٤٦).
وتصنع في اليمن أيضاً الدروع السلوقية (١٤٧) يقول الهمداني : «خبرة سلوك يوجد فيها خبث الحديد . . . وإليها كانت تنسب الدروع السلوقية» (١٤٨).
واستفاد الحدادون من وجود جميع أنواع الجزع وبالدات الشرب فعملوا ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصل سكاكين (١٤٩). ولما كانت معظم مناطق اليمن زراعية لذلك نرجح قيام بعض الصناعات الحديدية التي تتطلبها الزراعة مثل المساحي والفؤوس والمحارث والمناجل وغيرها من الآلات التي تعتمد عليها الزراعة. واستمرت صناعة الحدادة في اليمن في العصر العباسي حيث يذكر الرازي وجود الحدادين في سوق صنعاء (١٥٠).

أما الصياغة فكانت موجودة في اليمن في العصر الأموي، وكان الصاغة يستعملون الرمل الأحمر أثناء عملهم (١٥١). ويبدو أن أهم الأعمال التي كانوا يزاولونها هي صناعة الحلبي من الذهب والفضة وغيرها من المعادن كالأساور والدمالج والخلاخيل والخواتم والعقود، فيروي الزبيدي أن أم المؤمنين عائشة

رضي الله عنها كان لها عقد من جزع ظفار^(١٥٢) ومن الأعمال التي كان يقوم بها الصاغة تحلية السيوف بالذهب^(١٥٣).

د) الصناعات الخشبية :

ومن الصناعات الأخرى في اليمن الصناعات الخشبية كصناعة الأثاث المنزلي كالأطباق والأقداح والأبواب والنوافذ وغيرها كالأطباق الحرازية التي كانت تعمل في بلدة حرازة^(١٥٤)، والأقداح الجيشانية التي كانت تعمل في جيشان^(١٥٥)، ويبدو أن هذه الأقداح كانت تعمل من نبات الشقب^(١٥٦). كما كانت تصنع الرحال التي توضع على ظهر البعير المعد للركوب وكانت تغطي بالأقمشة اليمانية المنقوشة^(١٥٧).

وكانت تصنع أدوات القتال كالرماح والسهم والنبال والأقواس من أخشاب الأشجار التي كانت تنبت في اليمن كالتألب والشوحط والنعج فكانت تصنع الأقواس في بلاد مران من خولان الذين «كان فيهم أكثر صنعة خولان» وإليهم تنسب الأقواس المرائية^(١٥٨). كما تصنع في اليمن الرماح والأسنة اليزنية^(١٥٩) ويقول ابن الكلبي : «إنما سميت الأسنة يزنية لأن أول من عملت له ذو يزن وهو من ملوك حمير»^(١٦٠). ومن الرماح الأخرى التي كانت تصنع في اليمن الرماح السهمرية والشرعية والشراعية^(١٦١)، واشتهرت صعدة بالسهم الجياد والنصال الصاعدية المنسوبة إليها^(١٦٢).

هـ) صناعات أخرى :

ومن الصناعات الأخرى تركيب العطور فاشتهرت اليمن بوجود الكادي وهو نوع من الطيب النفيس الذي لا مثيل له^(١٦٣). واشتهرت اليمن بصناعة

الطور وتركيبها وتصديرها إلى البلدان الأخرى في صدر الإسلام، فيروي ابن سعد أن عبد الله بن أبي ربيعة كان يبعث بعطر إلى المدينة لبيعه فيها (١٦٤). ويروي المزيقي عن عدن قائلاً: «وطيب الخلق جميعاً بها يعبأ ولم يكن أحد يحسن صنعه من غير العرب، حتى أن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول تفخر به في السند والهند وترتقل به تجار البر إلى فارس والروم وأن بالناس على ذلك اليوم ما يحسن اليوم عمله إلا أهل الإسلام بعدن» (١٦٥). ومن المحتمل أن هذه الصناعة كانت رائجة بسبب كثرة العنبر في سواحل عدن (١٦٦).

وتصنع الأواني من الفخار (١٦٧) كالأكواب والقدر، وكذلك القلال التي يوضع فيها الماء للشرب في صنعاء (١٦٨). وتعمل الآنية في اليمن أيضاً من الأحجار كحجر الميضي الذي يشابه الرخام إلا أنه أشد بياضاً منه (١٦٩). ولما كانت اليمن إقليماً زراعياً لذلك نرجح أنه قامت بعض الصناعات المعتمدة على الإنتاج الزراعي كعمل الأقفاس والحصر من سعف النخل، حيث ورد ذكر الخواص الذي يعمل الخوص في صنعاء (١٧٠).

وترتب على وجود العسل بكثرة في اليمن صناعة الشهد الحضورى الجامد الذي يقطع بالسكاكين، لقد كانت هذه الصناعة مشهورة في اليمن منذ العهد الجاهلي (١٧١) ويبدو أنها استمرت خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة يقول الهمداني: «وصفة عمله أن يجر في الشمس ويصير في عقود قصب اليراع، وأقيمت تلك القصة أياماً في بيت بارد حتى يعود إلى جوده، ثم ختمت أفواه القصب بالقصة، وحمل، فإذا أريد تقديمه على الموائد ضرب بالقصة الأرض فأنفلت عن قصبه عسل قائمة، فقطعت بالسكاكين» (١٧٢). ومن سكر العشر السذي ينبت في اليمن، كسان يصنع قطع من السكر على شكل قوالب (١٧٣).

تلك هي أهم الصناعات التي كانت قائمة في اليمن في العصر الأموي، وهذا يدل على أن اليمن شاركت الأمصار الإسلامية الأخرى في النشاط الصناعي، وكانت صناعاتها ذات جودة ومتانة وكان بعضها يصدر إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى وصارت له شهرة كبيرة كالأنسجة البيانية والسيوف والصناعات الجلدية.

أما عن الصناع الذين زاوولوا شتى المهن في اليمن مثل النساجين والحدادين والدباغين وغيرهم، فإن المصادر التي بين أيدينا لا تعطينا صورة عن أحوالهم المعيشية، ومستوى أجورهم ومشكلاتهم، لكننا نعتقد بأن هذه الصناعات المزدهرة في اليمن لا بد أن يكون فيها عدد كبير من العمال والصناع لأن هذه الصناعات تتسم بتعدد العملية الصناعية واعتمادها على الإنسان كصناعة النسيج والعطور والجلود^(١٧٤)، ويمكن أن نقسم العمال إلى قسمين القسم الأول العمال الذين يعملون بأنفسهم ويملكون أدوات العمل الخاصة بهم، ويوفرون المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم وقد يستخدمون الرقيق لمساعدتهم.

أما القسم الثاني فهم العمال المأجورون الذين يقومون بعملهم مقابل أجرة معينة، يتفق عليها مع مستخدميهم وقد تكون بالأجر اليومي أو حسب القطعة. أما عن المشكلات التي كانت تواجه الصناع فلا تفصل المصادر الحديث فيها غير أن أهمها الفتن الداخلية التي تؤدي إلى كساد إنتاجهم ويروح ضحيتها عدد منهم.



الهوامش والتعليقات

- (١) نزار عبد اللطيف الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون تاريخ، ص ٣٧.
- (٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض ١٣٩٤ هـ، ص ٥٨، (رواية ابن الكلبي). البكري، معجم ما استعجم، القاهرة، ١٩٤٥ م، ص ٩، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ج ٢، ص ٢١٩، أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠ م، ص ٧٨-٧٩، ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحلية، بدون تاريخ ص ١٩، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن : ١٩٠٦ م، ص ٦٨-٦٩، وانظر أيضًا : محمد سعيد شكري، جغرافية اليمن في القرن الأول للهجرة، دراسات تاريخية، العدد ٢١، ٢٢، دمشق ١٩٨٦ م، ص ٢٠٦ وما بعدها.
- (٣) صالح العلي، تحديد الحجاز عند الأقدمين، مجلة العرب، ج ١ لسنة ١٩٨٨ م، ص ٢، ٤، ٩.
- (٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٠٥.
- (٥) انظر الصناعات المعلنية من هذا البحث.
- (٦) انظر : الهمداني، الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بغداد، ١٩٨٠ م، ج ٢، ص ٢٣٦ صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨، معجم البلدان ج ٢، ص ١٠٢ ج ٣، ص ١٦٤، ٣٢٩.
- (٧) الهمداني، كتاب الجوهرتين العتيقتين، أوبسالة، ١٩٦٨ م، ص ١٤٥.
- (٨) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٩، البستي، مشاهير علماء الأمصار، بيروت، ١٩٥٩ م، ص ١٢٣، عبد المحسن المدعج، الأبناء منذ دخولهم اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٧، ٣٨، جامعة دمشق، ١٩٩٠ م، ص ٢٥.
- (٩) ابن سعد، كتاب الطبقات، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٥٣٧، ٥٤٧، ابن الديبع، كتاب قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد الأكوع، بيروت ١٤٠٩ هـ، ص ٧٢، ٧٤.
- (١٠) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٩.
- (١١) الهمداني، الجوهرتين، ص ١٤٥-١٤٧.

(١٢) ابن الفقيه، كتاب البلدان، لندن، ١٣٠٢ هـ، ص ٤١، المسعودي، مروج الذهب، القاهرة، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م، ج ٢، ص ١٨٣.

(١٣) الهمداني، الإكليل، تحقيق محمد الأكوخ، القاهرة، ١٣٨٣ هـ، ج ١، ص ٣٢٥، البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ١٠٥٢، الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام، ص ٧٥.

(١٤) الهمداني، الإكليل، ج ٢، ص ٢٣٩، البكري، معجم ما استعجم، ج ٤، ص ١٣٩٤. أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب السلاح، تحقيق الدكتور حامد الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥ هـ/١٣٨٥ م، ص ٢١.

(١٥) المدائني، كتاب التعازي، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م، ص ٧٢، الرازي، تاريخ صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار، ص ٣٤٤، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧. وانظر بيتروفسكي، اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، تعريب محمد الشمعي، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٢٠٤.

(١٦) يحيى بن الحسين بن القاسم، غاية الأمان في أخبار القطر الباني، تحقيق سعيد عاشور ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م، ص ١٠٠، بيتروفسكي، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(١٧) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٣٤٤.

(١٨) المدائني، التعازي، ص ٢٥، الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد الأكوخ، بيروت، ١٤٠٣، ج ١، ص ١٩٦، يحيى بن الحسين، غاية الأمان، ص ٩٦.

(١٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٨.

(٢٠) ابن سمره الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٥٠، ابن الديبع، المصدر السابق، ص ٦٩، الجندي، السلوك، ص ١٩٧. والأبناء هم بقايا الجيش الفارسي في بلاد اليمن، وعندما جاء الإسلام أسلموا لمزيد من المعلومات عنهم انظر: عبد المحسن المدعج، الأبناء منذ دخولهم اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ٢٠ وما بعدها، بيتروفسكي، المرجع السابق، ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٢١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٥٦ هـ، ج ٣، ص ٣٥٣، يحيى بن الحسين، غاية الأمان، ص ١٠٧.

(٢٢) ابن خياط، تاريخ خليفة ابن خياط، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٥ هـ، ص ٣٨٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٤. يروي الأصفهاني أن شعباً البارقي بعد هزيمة الخوارج قام «بقتل

- الرجال والصبيان . ويقر بطون النساء ، وأخذ الأموال ، وأخرب القرى حتى لم يبق أحد من الإباضية إلا قتله . ج ٢٣ ، ص ٢٥٦ .
- (٢٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٨٤ . وانظر أيضاً : يعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، تحقيق ملورد ، بيروت ١٩٦٢م ، ص ١٨ .
- (٢٥) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ١٢٣ . وانظر أيضاً : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٨٤ .
- (٢٦) الرازي ، تاريخ صنعاء ، ص ٣٣٢ .
- (٢٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٨٤ ، وانظر ما كتبه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على اليمن برفع الباطل ، يعقوبي ، تاريخ يعقوبي ، بيروت ١٩٧٠م ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .
- (٢٨) الأغاني ، الأصفهاني ، تحقيق علي السباعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، ج ٢٣ ، ص ٢٢٤ .
- (٢٩) البستي ، مشاهير علماء الأمصار ، بيروت ، ١٩٥٩م ، ص ١٢٥ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٧ وما بعدها ، ابن سمرة الجمدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٥٧ - ٥٨ ، المدحج ، المرجع السابق ، ص ٣١ .
- (٣٠) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ج ٦ ، ص ٢٥٤ ، وانظر هامش ٨١ من هذا البحث .
- (٣١) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٣٨ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة . ١٩٦٠م ، ج ٥ ، ص ٤٥١ ، الرازي ، تاريخ صنعاء ، ص ٥٥ .
- (٣٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ج ٣ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ابن الفقيه ، البلدان ، ص ٤١ .
- (٣٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ٩٥ .
- (٣٤) الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
- (٣٥) انظر مثلاً : الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٥ ص ٤٥١ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢١ ص ٢٦ ، المهجري ، التعليقات والنوادر ، تحقيق حمود الحادي ، بغداد ١٩٨١م ، ج ٢ ، ص ٥٩ .
- (٣٦) العل ، الأنسجة في القرنين الأول والثاني ، مجلة الأبحاث ، ج ٤ لسنة ١٤ ، بيروت ، ١٩٦١م ، ص ٥٥٧ .
- (٣٧) البخاري ، صحيح البخاري ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ ، ج ١ ، ص ٦٨ .

- (٣٨) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢٦.
- (٣٩) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٥٤١.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.
- (٤١) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٥٢.
- (٤٢) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٠م، ج ١، ص ٢١.
- (٤٣) عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة بيروت، ١٩٧١م، ج ١، ص ٢٢، البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ٣٧٨.
- (٤٤) المجري، التعليقات والنوادر، ج ٢، ص ٥٩.
- (٤٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، ص ١٠٦.
- (٤٦) الهلالي، ديوان حميد بن ثور الهلالي، دار الكتب، القاهرة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م، ص ٨٢، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٦.
- (٤٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٤، ص ١٧٥، أبو نعيم، حلية الأولياء، القاهرة ١٩٣٢، ج ١، ص ٣٠٢.
- (٤٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٣٨.
- (٤٩) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١، مخطوط بمعهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، رقم ٨٣٥/١، ص ٤١٩.
- (٥٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ٨، ص ٢٢٦.
- (٥١) البكري، معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٦٧٤.
- (٥٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٨، البكري، الممالك والمسالك، حقق الجزء الخاص بجزيرة العرب د. عبد الله الغنيم، الكويت ١٣٩٧هـ، ص ٢٧، الجاحظ، التبصر بالتجارة، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٥. والسحل الثوب الأبيض من ثياب اليمن، ويقال سحول موضع باليمن تنسب إليه الثياب السحولية. الجوهري، الصحاح، ج ٥، ص ١٧٢٦، وانظر: الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٣.
- (٥٣) البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ١٠٥٢، والبرود القدمية تنسب إلى قبيلة قدم التي سكنت اليمن.
- (٥٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧، ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٦، ويقول الجوهري:

- السعيدية من برود اليمن، الصحاح، ج ٢، ص ٤٨٨، وانظر أيضًا علي، الأنسجة في القرنين الأول والثاني، ص ٥٦٧.
- (٥٥) أبي زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد الهاشمي، الرياض، ١٤٠١هـ، ج ٢، ص ٨٣١، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٣٥.
- (٥٦) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ج ١١، ص ١٧٢.
- (٥٧) الرازي، المصدر السابق، ص ٥٥.
- (٥٨) الأصفهاني، الأغاني، ج ١، ص ٢٥٩.
- (٥٩) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٢٨٥، ابن كثير، البداية والنهاية، الرياض ١٩٦٦م، ج ٨، ص ١٦٦.
- (٦٠) ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٦.
- (٦١) ابن سيده، المخصص، بيروت، المكتب التجاري، بدون تاريخ، ج ٤، ص ٦٧، ٧٣. والخبرة ضرب من برود اليمن، والخبرة من التحبير أي التزيين فيقال ثوب حبر أي موشى انظر نفس المصدر والصفحات. وعن الحبرات انظر: المبرد، الكامل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ ج ٣، ص ١٦٤، ج ٣، ص ٤٨.
- (٦٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ١٥٤.
- (٦٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٣.
- (٦٤) ابن شبة، تاريخ المدينة، تحقيق فهد شلتوت، جدة، ١٣٩٣هـ، ج ١، ص ١١٥.
- (٦٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ٣٣، صالح علي، الأنسجة في القرنين الأول والثاني، ص ٥٦٣.
- (٦٦) البكري، جزيرة العرب، ص ٢٧.
- (٦٧) الإمام مالك، المدونة، بيروت، ١٣٩٨هـ، ج ١، ص ٣٤٣، ابن شبة، تاريخ المدينة، ج ١، ص ١١٥، عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ج ٢، ص ٣٥٥، ابن منظور لسان العرب، ج ٢، ص ٩٤ والعصب برود يمنية يعصب غزلها انظر: الطبري المكي، القرى لقاصد أم القرى، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ص ٤٧٢. ويقول ابن منظور، العصب نوع من برود اليمن (سمي عصبًا لأن غزله يعصب أي يدرج ثم يصبغ ثم يحاك لسان العرب، ج ٢، ص ٩٤.
- (٦٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧.
- (٦٩) ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٦. الكُنْدُر بالضم اللبن، والخطر بالكسر نبات يختضب به.
- (٧٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ٤٣.

- (٧١) عمر بن أبي ربيعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٥.
- (٧٢) ابن رست، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١م، ص ١١٢.
- (٧٣) صالح العلي، ألوان الملايس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ج ٢٦، ص ٩٦.
- (٧٤) مالك، المدونة، ج ٣، ص ١٢٩. والملحفة هي ما يلبس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه.
- انظر: ابن سيده، المخصص، ج ٤، ص ٧٦، ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٢٢٥.
- (٧٥) العلي، الأنسجة، ص ٥٧٢.
- (٧٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ١١٤، ص ٢١٧، ج ٨، ص ٧٣، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٢١٩. وانظر كتابنا: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي مؤسسة الرسالة: بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٢٨١.
- (٧٧) البكري، جزيرة العرب، ص ٣٠.
- (٧٨) الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ١٠٢. وكان الشعبي يلبس بردًا عذنيًا، ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٥٤.
- (٧٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، تحقيق زياد محمد منصور، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ، ص ٤٣٤، ابن قتيبة، المعارف، القاهرة، ١٣٨٨هـ، ص ٤٩٨، الذهبي، تذكرة الحفاظ، حيدر آباد، الهند، ١٣٨٨هـ، ج ١، ص ٢٠٨، القاضي عياض، ترتيب المدارك، بيروت، ١٣٨٧هـ، ج ١، ص ١١٤، ابن فرحون، الديباج المذهب، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ١٩.
- (٨٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٩، ص ١٤٦ - ١٤٧.
- (٨١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٢، ج ٧، ص ١٩، ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٩٨. وانظر أيضًا: القرشي، جبهة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٧٥، ابن سعد الطبقات ج ٦، ص ٣٥٤.
- (٨٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٠.
- (٨٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٨، ص ٧٣.
- (٨٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة ١٣٤٦هـ، ج ٢، ص ١٦٢.
- (٨٥) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ١٩.
- (٨٦) اليعقوبي، مشاة الناس لزمانهم، ص ١٦.
- (٨٧) أبي زيد القرشي، جبهة أشعار العرب، ج ٢، ص ٨٣١، ابن منظور، لسان العرب (طبعة صادر)

- ج ٥، ص ٤١١. ومقروظ أي ملبوخ بالقرظ.
- (٨٨) ابن منظور، لسان العرب، (طبعة صادر، بيروت) ج ٥، ص ٣٣٠.
- (٨٩) الأصفهاني، الأغاني، ج ٩، ص ٣٣٨.
- (٩٠) الشافعي، الأم، طبعة بولاق، القاهرة، ١٣٢١هـ، ج ١، ص ١٧٤.
- (٩١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٩٤.
- (٩٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٣٦ - ٢١٤ - ١١٥، ٣٦٠، الإكمال ج ٢، ص ٢٥٢، المقدمي، أحسن التقاسيم، ص ٩٨، ابن منظور، لسان العرب ج ٨، ص ١٤١.
- (٩٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ص ٣١٨.
- (٩٤) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، بدون تاريخ، ص ٤٣، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٠.
- (٩٥) مالك، المدونة، ج ٣، ص ٣٧٨.
- (٩٦) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الرياض، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٤٠.
- (٩٧) يقول عبيد بن شربة : أخبار عبيد بن شربة طبع مع كتاب التيجان الهند، حيدر آباد، ص ٣٨٦.
- وملحح طراً عليها الليلب
- أحمد فاروق، دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الإسلام، مجلة العرب ج ٧، ص ٨، الرياض ١٣٩٦هـ - ص ٥٤٦.
- ويقول الأصمعي : «اليلب يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة» وقال أبو عبيد : هي جلود تعمل منها دروع فتلبس. انظر : أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب السلاح، ص ٣١.
- (٩٨) الحليشي، أهل اليمن صدر الإسلام، ص ٧٥.
- (٩٩) أحمد فاروق، المرجع السابق، ص ٥٤٧.
- (١٠٠) الهمداني، الإكمال، ج ٢، ص ٢٣٦، صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨، عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ج ١، ص ٩٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦٤، ٣٢٩. أحمد فاروق، المرجع السابق، ص ٥٣٩.
- (١٠١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨.
- (١٠٢) عمر بن أبي ربيعة، المصادر السابق ج ١، ص ٩٤.
- (١٠٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٣، ص ٢.

- (١٠٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٢، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢. وانظر أيضًا : الهمداني، الإكليل، ج ٢، ص ٥٣، الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٢٧.
- (١٠٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٦٨، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦٤، الرازي، تاريخ صنعاء، ص ١١٠.
- (١٠٦) صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٩.
- (١٠٧) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ١١٥.
- (١٠٨) الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٣٠٨.
- (١٠٩) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢١٨.
- (١١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٣، الأصبخري، المسالك والممالك، القاهرة، ١٣٨١ هـ، ص ٢٦، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٨.
- (١١١) ناصر خسرو، جزيرة العرب كما رآها الرحالة ناصر خسرو، ترجمة أحمد البدلي، مجلة كلية الآداب جامعة الرياض، ١٩٧٩، مجلد ٦، ص ٤٠.
- (١١٢) قدامة بن جعفر، الخراج، وصناعة الكتابة، لندن، ١٨٨٩م، ص ١٨٩.
- (١١٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٦.
- (١١٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٦-٨٧، ٨٩، الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٤، ص ١١١. والركاء جمع ركة وهو الزُّق الصغير.
- (١١٥) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج ٤، ص ١٤١، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ج ٢، ص ٩٩١.
- (١١٦) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١١٢.
- (١١٧) الهمداني، الإكليل، ج ٢، ص ٢٩٦.
- (١١٨) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٢٢، ٣٦٢.
- (١١٩) المصدر نفسه، ص ١٦٨. والأشلة الصبغية جلد أو صوف أو شعر مطرز يجعل على عجز البعير.
- (١٢٠) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٣.
- (١٢١) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٣٤٥-٣٤٦.

- (١٢٢) الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٦٣.
- (١٢٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٤، ص ١١١.
- (١٢٤) انظر : المسداتي، التعازي، ص ٣٩، أبو عبيدة، كتاب النقائص، ليدن، ١٩٥٥م، ج ١، ص ١٠ والعلاب جمع علية وهي التي يحلب فيها، وهي تعمل من جلود الإبل، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢١٩. والعيبة وعاء من آدم.
- (١٢٥) عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ج ١، ص ٩٦. والتسع السير العريض الذي يستعمل لشد الرجال على الرواحل، والأديم المضفر الجلد المذبوغ.
- (١٢٦) ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ١٠١، وانظر : نوري القيسي، الملابس في معجم لسان العرب، مجلة التجمع العلمي العراقي، ج ١، المجلد ٣٨، بغداد، ١٤٠٧هـ، ص ١٠٤.
- (١٢٧) ابن سيده، المختص، ج ٤، ص ١٠٠ - ١١٥، أحمد فاروق، دباغة الجلود، ص ٥٤٥.
- (١٢٨) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٠٥.
- (١٢٩) الحمداني، الجوهريين، ص ١٣٩.
- (١٣٠) المصدر نفسه، ص ١٣٩.
- (١٣١) المصدر نفسه، ص ١٣٧.
- (١٣٢) البيروني، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٢٦٩، العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام. القاهرة، ١٩٣٩م، ص ١٥٦.
- (١٣٣) الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٥٢.
- (١٣٤) الحمداني، الجوهريين، ص ١٤٥.
- (١٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤٥.
- (١٣٦) انظر الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٤، البيروني، المصدر السابق، ص ٢٦٩، العرشي، المصدر السابق، ص ١٥٦.
- (١٣٧) البيروني، الجماهر، ص ٢٦٩، العرشي، المصدر السابق، ص ١٥٦. وكانت حبر تعمل من هذا المعدن السيوف الحميرية تسمى اليرعشية نسبة إلى الملك يرعش. انظر نفس المصادر والصفحات.
- (١٣٨) يعقوب الكندي، السيوف وأجناسها، تحقيق عبد الرحمن زكي، مجلة كلية الآداب المجلد ١٤، ج ٢، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٢م، ص ٢١.

(١٣٩) الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٤، ابن رسته، المصدر السابق، ص ١١٢، البيروني، الجواهر، ص ١٧٧، ١٧٩، الفيروز آبادي، تاج العروس، الكويت، ١٤٠٣هـ، ج ٢٠، ص ٤٣٤.

(١٤٠) ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٦.

(١٤١) البيروني، الجواهر، ص ١٧٧، ١٧٩، ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٠، البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٩٠٤، الفيروز آبادي، تاج العروس، الكويت ١٣٩٣هـ، ج ١٢، ص ٤٣٤.

ص ٤٧٥، ج ٢٢٠، ص ٤٣٤.

(١٤٢) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ١٥، وانظر: البيروني، الجواهر، ص ١٧٤.

(١٤٣) ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٩.

(١٤٤) الكندي، السيوف وأجناسها، ص ٨، ٩، ٢١، ٢٤، الأصمعي، كتاب السلاح تحقيق محمد جبار المعيند، مجلة المورد، المجلد ١٦، العدد ١٢، بغداد، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٧٦، البيروني، الجواهر، ص ٢٥٠-٣٥٣، القرشي، جبهة أشعار العرب، ج ١، ص ٢٣١.

(١٤٥) الكندي، السيوف وأجناسها، ص ٨-٩، المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٨٢.

(١٤٦) الأصمعي، كتاب السلاح، ص ٧٩.

(١٤٧) القاسم بن سلام، كتاب السلاح، ص ٢٩، الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٤٣، البكري، معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٧٥٢، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٢.

(١٤٨) الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٤٣.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(١٥٠) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٢٧، ٢٠٤. وانظر: الكندي، السيوف وأجناسها، ص ٩، ٢٨.

يقول الكندي: «غير مولد؛ هي سيوف تطبع باليمن من الحديد السرنديبي...» ص ٩.

(١٥١) الحمداني، الصفة، ص ٢٧٠، الجوهري، ص ٣٠٩، ص ٣٦٥.

(١٥٢) الزبيدي، تاج العروس، ج ٢٠، ص ٤٣٤.

(١٥٣) انظر: الكندي، السيوف وأجناسها، ص ٣٣، الحمداني، الجوهري، ص ٢٩٧.

(١٥٤) الحمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٠٩، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٤.

(١٥٥) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٠. (رواية الكلبي).

(١٥٦) محمد حسن آل ياسين، معجم النبات والزراعة، بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج ١، ص ٨٣.

- (١٥٧) أبو عبيدة، كتاب التفاضل ج ٢، ص ٧٥٦. وانظر : الوشمي، ولاية اليمامة، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز الرياض ١٤١٢هـ، ص ٢٥٨.
- (١٥٨) الحميداني، الإكليل، ج ١ ص ٣٢٥.
- (١٥٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٩. وانظر : البكري، معجم ما استعجم، ج ٤، ص ٣٩٤.
- (١٦٠) أبو عبيدة بن سلام، كتاب السلاح، ص ٢١.
- (١٦١) الحميداني، الإكليل، ج ٢، ص ٣٤١.
- (١٦٢) الحميداني، صفة جزيرة العرب، ص ٩٨، البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٨٣٢.
- (١٦٣) الحميداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٣.
- (١٦٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٨، ص ٣٠٠.
- (١٦٥) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد، الدكن، ١٣٣٢هـ، ج ٢، ص ١٦٤.
- (١٦٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢.
- (١٦٧) الحميداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٥٥.
- (١٦٨) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٢٠٢.
- (١٦٩) الحميداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٣.
- (١٧٠) الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٣٠٤، وانظر : آل ياسين، معجم النبات، ج ١، ص ٨٢.
- (١٧١) الحميداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٥٨، الإكليل، ج ٢، ص ٢٦٨.
- (١٧٢) المصدر نفسه ص ٣٥٨.
- (١٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٠.
- (١٧٤) الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام، ص ٧٤-٧٥.



نحو دائرة معارف إسلامية عربية اقترح بتأليف دائرة معارف إسلامية عربية باللغة العربية (*)

● د. عبد العزيز إبراهيم السويل ●

أولا - المقدمة:



لا شك بأن الحاجة ملحة إلى نشر موسوعة إسلامية عربية تضاهي الموسوعات العالمية، ولولم يكن من قصور في الثقافة العربية المعاصرة غير هذا لكفى دلالة على تقصيرنا في هذا الجانب، والأمر أسهل بكثير مما يصور المبالغون أو يتصورون. ومن يأخذ بنا وصلته إلى الموسوعات العالمية اليوم إنما يجهل تاريخ تطورها وأصلها ونشأتها أو متكاسل ميال إلى التسويف وتعليق الأعباء على كواهل الآخرين.

ويمكن الوصول إلى موسوعة إسلامية عربية بإحدى طريقتين. الأولى بتبني إحدى الموسوعات العالمية القائمة والتعاقد مع القائمين عليها لتعريبها - (أي: نقلها برمتها مع الاختصار عليها إلى العربية) -. والثانية تكون بالتفكير الجاد بتأليف موسوعة عربية ابتداء - أي بتحديد ملامح الموسوعة وكتابتها باللغة العربية أصلاً.

وأود بادئ ذي بدء أن أتطرق إلى الإمكانية، وأقول: إن التأليف أسهل بكثير من الترجمة خاصة إذا استحضر المرء أن المساحة الكبرى مما تحتويه موسوعة عالمية ولنقل ستون بالمائة منها لا يصلح لنا، بل مرفوض حضاريا وثقافيا ودينيا من قبلنا، وكذلك أن المساحة الكبرى مما ينبغي أن تحتويه موسوعة عربية إسلامية ولنقل - أيضا - ستون بالمائة منها لن نجده في موسوعة عالمية (غربية). إذا استحضر المرء ذلك وجد أن أقل من النصف فقط - وهو الأرضية المشتركة - لا يشكل ما يستدعي تبني دائرة معارف عربية قائمة ويمكن تداركه بالرجوع إلى المراجع العالمية بما فيها دوائر المعارف العالمية نفسها، وهذه المساحة المشتركة هي في الواقع معارف عالمية لا تقتصر على حضارة دون أخرى، وليس لأحد حق الحجز عليها أو تحديد تصوّر لها، بل إن كل حضارة قد تراها من منظور خاص يتسق مع مبادئها وفلسفتها.

وسأفترض هنا أن الخيار الوحيد الممكن للوصول إلى دائرة معارف إسلامية عربية هو خيار التأليف، وعلى ذلك فسأتطرق فيما بعد إلى المحاذير التي تحف بخيار الترجمة، والمقصود بالعبارة الأخيرة - أي: خيار الترجمة - هو تبني موسوعة عربية قائمة، وترجمتها بذاتها وبجملتها، وليس المقصود الترجمة عن عدد من الموسوعات أو الأخذ منها، وهذا أسلوب علمي متبع باعتبار تلك الموسوعات مراجع يجوز لكل مؤلف أن يرجع إليها أو يقتبس منها أو يستفيد من محتوياتها.

ومشروع مثل هذا لا بد أن يكون عربيا إسلاميا أصلا وابتداء، وهذا لا يخرج في إطاره العام عن افتراض أن الأمة الثرية كأمتنا تستطيع شراء أحدث الأجهزة، وأحسن المنتجات في العالم، ولكنها لن تستطيع شراء ما له علاقة بدينها وحضارتها وثقافتها وتلك أخص خصوصياتها. والواقع أن أمة في حال كحالنا

ينبغي أن تهتم بالعلوم الإنسانية قبل اهتمامها بالعلوم التطبيقية؛ فالأخيرة بضاعة الغرب وهو بها أولى ونحن نستطيع استيراد نتائجها، أما الأولى فليست لهم، ولا يعرفون لها، وقد لا يهتم معظمهم بها، ولا بد لنا نحن من العمل عليها. فقد نستطيع مثلاً شراء حاسب آلي أو سيارة أو جهاز إنذار أو غيرها، ولكننا لن نستطيع أن نجد يابانياً أو أمريكياً أو ألمانيا يصمم لنا اختباراً نقيس به قدرات الطفل العربي، أو يحدد لنا شخصية المرأة العربية، أو يفصل لنا في الموارث أو يدرس تاريخنا. نحن قد نفيد من التاجات العالمية، ولكننا لن نطمح أن نكل إليهم خصوصيات أمتنا، ونتكل عليهم في شيء يخصنا، ونقوم بترجمة ما ألفوه ليتناسب مع حضارتهم، ويحتوي ثقافتهم. ولئن كانت الترجمة وسيلة مهمة جداً من وسائل التواصل بين الحضارات، وأسلوباً من أساليب التأثير بين الثقافات إلا أنها لا ينبغي أن تكون مصدراً وحيداً لذلك فتكون بمثابة القيد تحجب إبداع الأمة نفسها، وتحرم أبناءها من الاطلاع عليه، وتفرض عليه إبداعات الأمم الأخرى، وتعلمهم من خلال النظرات الغربية عليهم بما هو مصوغ بأساليب غيرهم، ومن منطلقات غيرهم. فالتأليف والترجمة معا يمكن أن يكونا مصدرين مهمين لتحقيق هدف وطني سام كتأليف موسوعة (دائرة معارف). وهذا ما لا يمكن فعله إن اعتمد أسلوب الترجمة. - أي: ترجمة عمل قائم من لغة ما إلى العربية - لأنه سيحرمنا من إضافة ما نريد.

ولعل كل مطلع على مصادر الفكر الإسلامي يعلم بالطبيعة الموسوعية لهذا الفكر مما يشجع على اعتبار التراث الإسلامي والعربي وهو موسوعي بطبعه، وهذه حجة أخرى على اعتماد أسلوب التأليف وليس الترجمة.

ثانياً - ملاحظات مبدئية:

لا بد قبل الدخول في التفاصيل من الاجتهاد في تحديد هوية هذه الموسوعة الجديدة بشكل دقيق يسهم في تحديد شخصيتها، ويوضح ملامحها، ويدخل في ذلك تحديد النقاط التالية، وهذا كله خاضع لرأي أهل الشأن من العلماء والمختصين، ولكن لا بأس من الإشارة إلى شيء من ذلك للتدليل:

١ - الحجم: ويقصد به عدد المداخل التي تحتوي عليها

الموسوعة، وطول أو قصر ما يخص به كل مدخل من معلومات.

٢ - النمط: والمقصود به تبني أحد الأنماط السائدة في السوق،

وينبغي تحديد ذلك بناء على الحاجة، وبعد الاطلاع على المتوفر.

٣ - المستوى: ويقصد بذلك مستوى المعلومات والعمق

والأسلوب والعرض وغير ذلك.

٤ - الجمهور المخاطب: والمقصود بذلك أن يحدد نوعية ومستوى

الجمهور المستهدف وتعليمه وثقافته ومستواه الاجتماعي

والاقتصادي إلى غير ذلك من متغيرات تؤثر في المتلقي، وتحدد

الشريحة المستهدفة منه.

٥ - الطباعة: حجمها، أشكالها، العناوين والهوامش... إلخ.

٦ - مجلس للإدارة يكون قادراً ومؤهلاً ومؤمناً بهذا العمل

وأهميته.

٧ - المجلس العلمي: ويشكل من عدد من العلماء المتخصصين في

مختلف المجالات، وربما بعض الخبراء في المراجع والموسوعات

والقواميس ممن لهم خبرات في المجال وتجارب سابقة، وكذلك

بعض أعضاء مجلس الإدارة.

٨ - هيئة التحرير: وتشكل من قبل المجلس العلمي وتختار من

ضمن أعضائه أو من غيرهم.

٩ - الهيئة التنفيذية: وتتكون من مدير عام ومساعدين وعدد من

المساحين والمدخلين والموظفين للخدمات المساندة.

١٠ - المكاتب حول العالم، ولا بد من إيجاد مكاتب مراسلة في كل من

الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأقصى والعالم العربي بالإضافة

للمكتب الرئيس في المملكة العربية السعودية.

ثالثاً - محاذير تحف بخيار الترجمة:

لقد تطرقنا في المقدمة إلى أن الموسوعة تعد من أخص خصوصيات كل

حضارة، وبالتالي فالترجمة لن تخدم الهدف المطلوب، وذلك لعدد من المحاذير

نجمال بعضها كما يلي:

١ - محاذير حضارية:

أ - أهم المحاذير الحضارية التي ينبغي الانتباه لها هي تكريس التبعية للغرب

نما قد يكون سبباً في رفض الموسوعة، وربما احتقارها من قبل بعض الأوساط

العلمية، وهكذا تكون مرجعاً آخر مترجماً عن الغرب مع إمكانية التأليف

ابتداءً.

ب - تلافي ما قد يضعه القارئون على الموسوعات العالمية من عقبات ناجمة -

في الغالب - عن تعاليهم، وعدم احترامهم للأهم الشرقية، وخاصة العربية

الإسلامية التي يرونها متخلفة وعالة عليهم، ولا يستطيعون تصورها خارج إطار

المستهلك الهامشي الذي يعيش على فئات نتاجهم، ويمكن حسب ظنهم تصور استهلاك هذه الأمة للسيارة والحاسوب وغيرها، ولكنهم عندما يأتي الأمر إلى الثقافة والمعارف يصعب عليهم تخيل جدارة هذه الأمة بذلك. ولعل من يضطر إلى التفاوض معهم لترجمة شيء من نتاجاتهم الفكرية يلاحظ تمتع القائمين على مثل هذه التناجيات وتصدددهم ومحاولاتهم لفرض وجهات نظرهم، بل وربما إملاء ما ينبغي أن تكون الترجمة العربية عليه.

ج- قد يكون في تأليف موسوعة عربية تفادٍ للتجاوزات الغربية في التعامل مع الأمم وكيل الإهانات لحضاراتها والاستهانة بتراثها والتعالي عليها بتعميم المعايير الغربية والأنماط النصرانية على حياة أفرادها، وهكذا قد تكون هذه فرصة لثريّ القوم أنه يمكن تأليف دوائر المعارف بمعايير إنسانية تحترم الجميع، وتقدر نتاجات كل الأمم، ولا تستهين بحضارة تتفق أو تختلف معها. فلا داعي لمشاطرة القوم فحشهم، ولقد آن الأوان لنقدم نموذجاً حضارياً للموسوعة المتجردة.

٢- محاذير لغوية:

١- ومن أهم المحاذير اللغوية مشكلة الترجمة، ومن أبجديات ذلك هي نظرية الترجمة نفسها كأداة لنقل المعارف ولعل من لم يكابد هذه المشكلة لا يرى صعوبة بل واستحالة الترجمة أحيانا، ويمكن استشفاف ذلك من الخلاف العميق بين المنظرين للترجمة إذ تتراوح الأطر النظرية للترجمة من يرون ضرورة الالتزام الحرفي بالنص الأصلي ولو وصل الأمر للإخلال بحفاظا على الدقة والقرب للأصل بقدر الإمكان أو التجاوز الذي يسوغ للمترجم فهم المعنى

العام وإعادة صياغته باللغة المتلقية ، وما بين هذه وتلك من تقسيات نظرية لم يتفق بعد على أي منها . ولا شك أن لكل إطار نظري محاسن ومساوئ ليس المقام هنا مقام الدفاع عن أي منها أو انتقاده .

٢ - من مشاكل الترجمة مشكل إيجاد المترجم - بكسر الجيم - المتمرس ليس فقط بمفردات اللغتين وتراكيبهما بل بالأبعاد الحضارية والمعاني الاجتماعية والثقافية التي تضلل المفردات وتلبس التراكيب لبوسها ، وليس كل من اطلع على لغة أمة استشرب حضارتها بل ليس كل من أجاد لغة أمة فهم ثقافتها ، وحتى لو افترض وجود المترجم للغتين والمتشرب للحضارة يبقى الشك قائما في قدرته على المراوحة بينهما ، والتفكير في كليهما خاصة عندما يطول المقام ، وتتعدد الرؤى ، وتتداخل المعارف . وتكون النتيجة في الغالب مسخا حضاريا لا ينتمي إلى هذه الأمة أو تلك ، فيفقد المؤلف عظمتة وروعته في لغة الأصلية ، ولا يكتسب روعة أو عظمة في اللغة المنقول إليها ، ولو كان الأمر مجرد «تعريب» ألفاظ وتعابير لقامت الآلة مقام الإنسان ، منذ لعب الحاسوب دوره في خدمة الإنسان ولكن للأمر محاذيره ومحدداته .

٣ - ومن مشاكل الترجمة مشكل تنسيق المترجم - بفتح الجيم - ، وتحديد أسلوب العمل للمترجمين ، وهم بلا شك يزيدون على المائة - فيخرج العمل قطعاً مصفوفة لكل واحدة منها نفس يختلف عن الأخرى يعكس اجتهادات وأسلوب وشخصية مترجمه بل وقدرته ودقته وقناعاته إلى غير ذلك من المتغيرات التي تنعكس على النص المترجم .

وإن صرف المرء جهداً في تصميم موازين معيارية لكل المترجمين استغرق ذلك من الوقت والجهد والمال ما قد يفوق الترجمة ذاتها ، وقد ينتج عنه خليط

عجيب يخلط متغيرات لا يمكن تحديدها مهما بذل .

٤ - ومن مشاكل الترجمة مما يتعلق بالترجم - بكسر الجيم - هو بعده عن الموضوع الذي يترجم فيه فلن نجد مترجمين متمرسين ينطوون على كل القدرات التي نتوق إليها ، ويتفادون كل النواقص التي أشرنا إليها ، وهم في الوقت نفسه متخصصون في كل التخصصات التي ستحويها الموسوعة ، ولو وجدنا عددا منهم متخصصا في بعض مجالاتها فلن نحيط بكل ما تحويه ، وغير المتخصص لن يترجم ما نريد كالتخصص .

٥ - ومن مشاكل الترجمة معضلة المصطلح ، وهي قضية تسبب في كل أو معظم ما نراه من مظاهر الانشطار المعرفي في العالم العربي ؛ إذ لم يتفق العلماء المتخصصون في مجال ما من العرب على تعريب للمصطلحات المستخدمة في مجالهم ، بل نجد أن بعضهم يتبنى مصطلحا إنجليزيا ، وآخرين يتبنون مصطلحا فرنسيا بل وربما شرقيا يخالف الاثنين ، ونجد اختلافا في ترجمة المصطلحات ، ففي العرب من ينافح عن تعريب المصطلحات ، ويصر على ذلك ، ومنهم من يستدخل المصطلح الأجنبي بلفظه ومعناه ، وهكذا يتبين أن هذه مشكلة لا بد من إيجاد حل لها قبل الشروع في الترجمة .

٣ - المحاذير الثقافية:

١ - أهم المحاذير الثقافية مشكل المداخل ، ويكون ذلك على أربعة أضرب :
أ - الاعتراض على مداخل برمتها نجدها في الموسوعات الغربية ، ولا نقبل دخولها في الموسوعة العربية .

ب - غياب مداخل في الموسوعات العالمية نرى ضرورة وجودها في العربية .

ج - المساحة والجهد الذي يبذل على المداخل الموجودة التي نتفق معهم عليها.

د - ما يقال في التعريف بهذه المداخل مما قد يكون محل اختلاف .
وإليك تفصيل كل واحدة منها :

أ - مداخل ابتدعها الغرب ، وأصبحت مقبولة عندهم على جميع أو بعض المستويات ، وهي في الشرق محل اعتراض بل هي قد تكون محل اعتراض عندهم ، وهذه في المفهوم الغربي قابلة للنقاش ، وقد تزول - وليست تجربة اليهود مع القواميس اللغوية ببعيدة - خذ مثلاً إطلاق «المحمدية» كمدخل للحديث عن الإسلام ، و«الحريم» للحديث عن مكانة المرأة في المجتمع الشرقي وغيرها .

ب - غياب الكثير من المداخل التي نعتقد نحن ضرورتها ، وأن نقصها خلل في الموسوعة - أية موسوعة - ناهيك عن العربية الإسلامية وليس على المرء أكثر من البحث في أعرق الموسوعات العالمية وأثرها فلن نجد عن الشرق العربي والحضارة الإسلامية العربية غير مداخل محدودة جداً قد تبدأ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وتمر مروراً سريعاً بصحابي أو اثنين ، ثم تقفز قفزاً إلى عمر الشريف وجيهان السادات وتلمس القاهرة ودمشق وكأنهما مدينتان صغيرتان تغفوان تحت سماء الشرق اللاهبة ، وتحتضنها رسالته الجافة الحارقة ، وفي كل ذلك ما فيه من مجافاة الحقيقة وتزوير الأمور والقفز على الحقائق وتقزيم الهام ورفع الوضع مما ليس له أن يدخل في دوائر المعارف أصلاً .

ج - قد نتفق على عدد من المداخل - ربما بلغ أربعين بالمائة من حجم الموسوعة - ولكن مع اتفاقنا على ذلك نختلف اختلافاً تاماً فيما ينفق من جهد

ومساحة على كل مدخل من هذه؛ إذ يعلم كل من أتبع له الاطلاع على دوائر المعارف العالمية أن شخصية كعمر بن الخطاب لا تحتل أكثر من خمسة أسطر، بينما يراق حبر غزير على مساحة ثلاث صفحات للحديث عن مارلين مونرو، ناهيك عن الحديث عن تشرشل أو مارتن لوثر أو كولومبس أو غيرهم ممن يروّضهم من رموز حضارتهم.

د - ونختلف اختلافا تاما فيما نقوله تحت تلك المداخل التي نتفق معهم عليها، فنحن لا نرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم - مصلح وقائد عظيم استطاع أن يوحد العرب خلفه على مبدأ جديد أطلق عليه الإسلام، ولا نرى مثلهم أن القرآن كتاب بلاغي كتب بأسلوب رائع - وربما بتأثير حضاري يوناني أو روماني أو غيره -، وأنه لذلك استطاع أن يلفت انتباه العرب وهم أمة أمية جاهلة، ولكنها تقدر الكلمة وتطرب للشعر، ونحن كذلك بالمقابل لا نكيل المدح لتيودور هرتزل على أنه أحد رواد التحرير في العالم، وأنه استطاع بذكائه وعبقريته تأسيس حركة عظيمة تمخضت عن تأسيس دولة حديثة ديمقراطية.. إلخ.

٢ - ومن المحاذير الثقافية ما يمكن أن نختاره من صور ورسوم وأشكال وتوضيحات لا بد أن تكون جزءاً لا يتجزأ من أية موسوعة، فما مدى العربي الذي نستطيع أن نحمله؟ وما مدى التحرر فيما يتعلق بالتوضيحات المرسومة الذي نستطيع استيعابه؟ وما هو الحد الأدنى والأعلى لما نستطيع نشره فيما يتعلق بحضارتنا وديننا ومجتمعنا؟ فما يباح عندهم قد يكون محرماً عندنا، وما هو مقبول عندهم قد يكون مرفوضاً عندنا، وعلى هذا فقس.

٣ - ومن المحاذير الثقافية ما يمكن أن نتطرق إليه من آراء تتفق أو تختلف مع

ثقافتنا، وتعكس أو تخالف عاداتنا وتقاليدينا، فعندهم كل شيء قابل للدرس والمناقشة - وربما كان هذا حسنة أو منقصة - أما نحن فلنا حدود، تستلزم الواقعية أن نفكر بها، وأن نعطيها ما تستحق من وزن، وإلا انتهينا بمطبوعة ممنوعة في كل بلادنا، ولا يمكن أن يستفيد منها أحد إلا تهريبا من الرقيب وولاية أمور أولادنا في منازلنا، بل وربما أصبحت هدفا للمطاردة والمصادرة والملاحقة، وبذلك يتبخر الهدف المقصود أصلا. لا بد والحال هكذا من تحديد الممكن والمقبول والمستحيل والمرفوض وعلى أسس محلية ثقافيا وحضاريا بل وسياسيا واجتماعيا، ولا بأس من التوسع على أمل أن تكون هذه مدخلا لتوسيع مدارك الناس واستئناس أفكارهم ورفع مستوى تفكيرهم والارتقاء بذوقهم، فلا نريدها أن تكون تكراراً ممجوجاً لمقولات عفى عليها الزمن أو ترديداً أبله لما قضى وانتهى، أو حتى تكريساً لأخطاء شائعة ينبغي لمطبوعة بهذا الحجم أن تصححها.

٤ - المحاذير المتعلقة بحقوق النشر والتوزيع:

١ - ولا شك أن هذه ستكون لازمة تعيش مع المشروع وتلاحقه، وإن تم التوقيع على اتفاقيات تنظم ذلك فستبقى قضية تتكرر كلما أضيف أو حذف أو جدد فيه، ومن يعلم فقد تتغير الشركة المالكة للمشروع الأصلي فنضطر إلى التعامل مع أناس آخرين بأفكار مغايرة وتوجيهات مخالفة، ثم تأتي قضية الكتاب السنوي الذي ينبغي أن يتبع مشروع الموسوعة، ويصدر عنها كل عام وهو مطبوع ينبغي أن يترك لنا حرية إصداره وتوجيهه الوجهة التي نرغب، والتركيز فيه كل سنة على موضوع أو فكرة نريدها نحن، وربما لا يتسنى ذلك

لأن المالك الأساسي لا يريد ذلك، فافترض أن العالم العربي والإسلامي حقق نصراً ما أو إخفاقاً ما في ذلك العام، بل إن أبسط الأمور هو التقسيم التاريخي للعام، فهل نتبع التاريخ الهجري كما هو الأمر في تراثنا أو نتبع التاريخ الميلادي كما هو سائد في الغرب؟ فلو أردنا أن نحتفل بدخول قرن أو مضي قرن، أو تحديد تاريخ معين والاحتفاء به، كل هذه الأمور لا يتسنى الاعتناء بها بشكل لّي إذا كان ارتباطنا دائماً بناسر أجنبي يتبع تقوياً مختلف ويحتفي بتواريخ مغايرة بل ولا يقيم أي وزن لما سواها.

٢- ثم لا شك أيضاً أن مسألة التوزيع ستشكل عقبة أخرى فمن يقرر أين نوزع؟، وأين نبيع؟، وهل لأحد أن يجبرنا على التوزيع في أماكن قد لا نريد التوزيع بها أو التعامل معها؟ ومن يقرر السعر وأسلوب التوزيع؟ وهل لأحد أن يوزع في العالم العربي غيرنا؟ وهل يملك أحد حقوق النشر والتوزيع باللغة العربية غيرنا؟

٥- المحاذير الأسلوبية (نفس الكتابة):

١- تطبع كل لغة تفكير الأمة التي تتحدثها بطابع له مكونات عقلية وحضارية وفكرية تميزه عن الأمم الأخرى - وربما العكس: تؤثر الأمة بلغتها -، على أية حال ما نقصده هنا أن ما يكتب بلغة قوم يعكس فكرها في الأسلوب وليس فقط في المفردات والتعابير، وهكذا فهناك لغة يغلب عليها الأسلوب الشعري البلاغي، ولغة يغلب عليها الأسلوب الشديد التجريد، وكل ما بين هذا وذاك. والشاهد أن ما كتب بنفس أسلوب ينع من ذات اللغة وما اعتاد متكلموها عليه يكون أوقع في نفوسهم وأكثر تأثيراً في عقولهم من ذلك المترجم

عن لغة أخرى ذات نفس أسلوب مغاير، ويقل التأثير طبعاً بحسب قرب اللغتين وبعدهما أو تقاربهما وتنافرهما، ويتضح هذا أشد ما يتضح عند من لا يجيدون اللغة الأخرى أو حتى لم يتعرضوا لها بما يكفي لتذوق نفسها، وتدريب أذانهم على وقعها وموسيقاها. أما ما كتب باللغة نفسها واحتفظ بأغلب مزاياها وطبع من طبائعها وسبك بتركيبتها بلا تعسف ولا قسر فهو بلا شك سيكون ذا تأثير بالغ بل لن يباريه أية ترجمة مهما رقت.

٢- ومن المحاذير الأسلوبية طول التراكيب وقصرها، وتقطيع الكلام وتقسيمه إلى جمل وعبارات ومفردات، وما ترجم لا بد أن يحتفظ بشيء من خصائص لغته الأصلية، ويترك آثاراً - إجماعاً أو صراحة - لكل ذلك بل قد تكون من الظاهر الذي يتدخل في المعنى ويصيبه شيء من العوج فيكون بذلك عائقاً يفت في عضد المتلقي، ويثقل كاهل القارئ الذي كان ينبغي تحرير ذهنه لاستيعاب المعلومة وتمثلها بلا أدنى عناء أو جهد لغوي خارج عن المعنى أصلاً.

٣- ومن المحاذير الأسلوبية فن اختيار الكلمات المعبرة أصلاً في اللغة، والبعد عن الموحش الثقيل مما قد يعوق فهم القارئ، ومهما أوتي المترجم من حسن الاطلاع على مفردات اللغتين يبقى عاجزاً عن التعبير السليق المتجرد، بل يعجز عن نقل مفردة من اللغة الأصلية إلى مفردة أخرى باللغة الهدف - المترجم إليها - بكل دقة وأمانة لسبب يسير، وهو استحالة تطابق المعاني عبر الحدود اللغوية - أي: بين لغتين - وذلك لاعتبارات حضارية واجتماعية وغيرها.

٦ - المحاذير التجارية والمشاركة في الأرباح:

١ - ومن ذلك تحديد أسلوب النشر ونوع الخط والورق والرسوم أو الصور التوضيحية وما شابه مما يدخل في تحديد السعر: وهذا أمر في غاية الخطورة والأهمية فقد يتم الإصرار على مواصفات معينة قد تكون سبباً في حرمان طبقات أو تجمعات سكانية معينة من اقتناء الموسوعة والإفادة منها، بل ربما كانت سبباً في استحالة نشر العمل لأسباب تتعلق باختلاف المعايير ونوع الآلات والسائد من المقاييس والذوق للجمهور المستهلك وغيرها.

٢ - ومن ذلك أسلوب المشاركة في اقتسام الأرباح، ومدة العقود اللازمة، وهذه كلها بذور مشاكل قد تتطور وتصبح أعباء تفت في عضد المشروع إن لم يكن الآن فلاحقاً، وربما تفاقمت فكانت سبباً في قتله والقضاء عليه بعد أن يصبح حقيقة، ويتعلق بها الناس فتكون الكارثة أكبر ودفع المصيبة أشد.

٧ - محاذير عملية:

محاذير عملية تتعلق بالاستفادة من التجارب السابقة بدلا من الاقتصاد على تجربة واحدة، فإذا تقرر ترجمة موسوعة ما، وعقد العزم عليها فلن يكون هناك متسع كبير من الحرية للاستفادة من غيرها، بل سنجد أنفسنا ملزمين بها أسلوباً ونمطاً وتحديدات وفلسفة، وفي ذلك ما فيه من القيد الذي لم نلتزم به أصلاً، فماذا عسانا فاعلين عندما نريد حذف شيء ما أو إضافة شيء ما أو زيادة ما قيل في مدخل أو اختصار الحديث عن مدخل آخر؟

رابعاً - الجدول الزمني:

يتطلب العمل على مشروع حضاري مثل هذا مدة زمنية قد تطول، وليس من السهل التنبؤ بطول المدة أو قصرها بل ستحدد على ضوء ما يحظى به المشروع من تشجيع ودفع يسهمان في تحقيقه، كما يعتمد ذلك بدرجة كبيرة على جدية وحماس القائمين عليه، وتوفيقهم في اصطفاء المهتمين العاشقين لمثل هذا العمل، وليس من المستغرب أن يستمر العمل على مثل هذا المشروع لمدة قد تتجاوز العشر أو الخمس عشرة سنة، ولكن المرء لا بد أن ينظر لمدة زمنية معينة تكون بمثابة النقطة الهدف، وعند بدء العمل والسير في مراحله يمكن إعادة النظر ومعاودة التقويم بشكل واقعي منبثق من التجربة، وهكذا فسنفترض مدة مبدئية لا تقل عن خمس سنوات مقسمة على البرنامج الزمني التالي: وذلك على افتراض تحقق الكوادر البشرية، والإمكانات المكانية والمادية اللازمة للعمل قبل البدء بالتنفيذ.

١ - المرحلة الأولى (مرحلة الإعداد): وتمتد من ستة شهور إلى سنة واحدة، ويقتصر العمل في هذه المرحلة على تصميم وإنجاز وتحميل قاعدتي معلومات. أ - قاعدة معلومات المداخل: وتنقسم المداخل إلى فئتين رئيسيتين. الأولى: المداخل العالمية: ويستفاد في ذلك من الموسوعات العالمية والمراجع المشابهة.

الثانية: المداخل العربية: ويستفاد في ذلك من الموسوعات العربية المتوفرة، وكتب التاريخ العربي والإسلامي وكتب التراث والأدب.

ب - قاعدة معلومات الشخصيات، وستحتوي على أسماء الشخصيات

العربية والإسلامية والعالمية التي ستسهم في كتابة الموسوعة، ومعلومات وافية عنهم تيسر الاتصال بهم، والتنسيق معهم، وتنقسم هذه القاعدة إلى فئات أربع:

الأولى: شخصيات من داخل المملكة والعالم العربي والإسلامي.

الثانية: شخصيات من أمريكا.

الثالثة: شخصيات من أوروبا.

الرابعة: شخصيات من بقية بقاع العالم.

وبانتهاء العمل على قاعدتي المعلومات هاتين قد ينتهي العمل في المرحلة الأولى.

٢ - المرحلة الثانية (مرحلة الكتابة والتحرير): وتمتد من سنتين إلى ثلاث سنوات، تبدأ هذه المرحلة بمجرد تجميع مداخل كافية للبدء بالكتابة، ومداخل كافية عن الشخصيات التي ستعمل على كتابة المتن، ويلاحظ أن هذه المرحلة تتداخل زمنياً مع المرحلة السابقة إذ لا ينبغي الانتظار حتى اكتمال المرحلة الأولى للشروع في هذه وذلك كسباً للوقت وحفاظاً على تنفيذ الخطة الزمنية الموضوعية، وهذه، المرحلة قد تستمر بعد انتهاء المرحلة الأولى إذ سيستمر العمل حتى انتهاء الكتابة عن كل المداخل التي يتقرر دخولها في الموسوعة.

٣ - المرحلة الثالثة (مرحلة النشر): وقد تمتد إلى سنة واحدة على الأكثر من انتهاء المرحلة الثانية، وتبدأ هذه المرحلة بمجرد وصول المكتوب من العلماء، ولا يشترط انتهاء أي من المراحل السابقة للبدء بهذه أيضاً محافظة على الوقت، وتنفيذاً للخطة الموضوعية بأقصى دقة، وتتكون هذه المرحلة من الجزئيات التالية:

- ١ - استلام المکتوب .
- ٢ - فهرسة وتبويب المقالات — حسب النظام الذي سيتبع إما موضوعيا أو ألفبائيا -
- ٣ - انتقاء الصور والرسوم البيانية والتوضيحية التي ستصاحب النصوص .
- ٤ - إجراءات عمليات التحرير والتصحيح .
- ٥ - التحقق من النوعية - الجودة والنوعية - النهائية للنصوص ومصاحباتها .
- ٦ - النشر .

خامسًا - الميزانية:

يتكلف مشروع بهذا الحجم مبالغ طائلة قد لا يستطيع فرد أو مؤسسة بمفردها تحملها بل لا بد من تضافر جهود وطنية، وخاصة لتحمل الأعباء المالية التي قد يتطلبها المشروع، وليس من السهل أيضا التنبؤ بميزانية محددة فهذا يعتمد على الأسس التي أشرنا إليها عند الحديث عن الخطة الزمنية بل قد تتدخل عوامل اقتصادية واجتماعية أخرى لا دخل للمشروع أو القائمين أو العاملين عليه فيها، وهذه على أية حال ستكون محل دراسة سنوية دائمة للتقويم وإعادة التقويم حسب المعطيات المتوفرة كل سنة، ويمكن أن يقدر المبلغ الكلي للمشروع بكل مراحله بما لا يقل عن مائة مليون ريال سعودي، ولا يشترط توفر هذا المبلغ قبل البدء بالعمل بل يمكن الاكتفاء بالتزام عام أو خاص أو هما معا يتم استيفاء المبالغ لتوفير الميزانيات السنوية كل عام في حينه

ويمكن للمرء أن يتصور إمكانية تكوين «بحيرة» تمويل تتكون من :

أ - مساهمات المؤسسين .

ب - العمل على تخصيص وقف بدر ربحا معيناً - ثابتاً أو متغيراً - .

ج - الهبات والعطايا والتبرعات - المالية أو العينية - للمشروع .

هذه ملاحظات أولية ولا بد من التفصيل والدقة عند توفر الأرقام والمعلومات الحقيقية والمباشرة في الإطار العملي للمشروع .

سادسا الكوادر البشرية:

يتطلب العمل على مشروع حضاري كبير مثل هذا توظيف عدد مؤهل من الكوادر المتفهمة لقيمتها، والقادرة على مثله، ويمكن تصور الوظائف التالية لتحقيق المراحل التي أشرنا إليها أعلاه .

١ - الماسحون : والحاجة قائمة للماسحين لتنفيذ المرحلة الأولى، ولا بد من توفر نوعين من الماسحين .

أ - ماسحين يعملون على المداخل، ومهمتهم تنحصر بنقل المداخل من المصادر المذكورة أعلاه بعد تحديدها وتوفيرها، ويمكن أن يكون أولئك من أساتذة الجامعات والكليات والمدارس والقادرين من الهواة من عامة الناس، وأن يعمل هؤلاء الناس على أساس الوقت الخاص - أي : وقتهم - وفي منازلهم أو مكاتبهم وأثناء يومهم وليلهم، وستكون مهمة تحديد المداخل التي ستدخل فعلا في مادة الموسوعة عمل من يعينهم المجلس العلمي ويوافق عليهم مجلس الإدارة .

ب - ماسحين يعملون على الشخصيات، ومهمتهم تنحصر بتقصي

الحقائق عن الشخصيات المبرزة حسب ما جاء في الفقرة (ب) من المرحلة الأولى)، وينطبق على هؤلاء ما ينطبق على ماسحي المداخل.

وتنتهي مهمة الماسحين بانتهاء المرحلة الأولى.

٢ - مدخلو معلومات ويبدأ عمل هؤلاء بمجرد ورود معلومات كافية عن المداخل والشخصيات حتى ولو لم تكتمل ولا بد من توظيف هؤلاء وتدريبهم على المطلوب لأنهم هم الذين سيعملون هذه المعلومات على أجهزة الحاسوب بموجب نماذج خاصة تحتوي على المعلومات الأولية وبرامج ذكية معدة لهذا الغرض، والمطلوب نوعان من مدخلي المعلومات بحسب المعلومات نفسها، أي كما يلي:

أ - مدخلي معلومات يعملون على قاعدة المداخل، وتنحصر مهمتهم بتحميل المعلومات المتعلقة بالمداخل التي يتقرر إدخالها على برنامج هذه القاعدة، ويكون ذلك حسب النماذج المعدة أصلا لكل مدخل على حدة.

ب - مدخلي معلومات يعملون على قاعدة الشخصيات، وتنحصر مهمتهم بتحميل المعلومات المتعلقة بالشخصيات الذين يتقرر استكناهم، ويكون ذلك بموجب النماذج المعدة أصلا لكل شخصية على حدة.

٣ - طاقم إداري مساند وتنحصر مهامه في مثل ما يلي:

١ - القيام بالأعباء الإدارية المساندة ليتسنى للهيئة إدارة أعمالها.

٢ - تصميم بطاقات (نماذج) العمل المطلوبة للمسوح، وتحميل المعلومات وما شابه.

٣ - تأمين وصيانة الأجهزة المطلوبة للعمل.

٤ - المباشرة بالمراسلات وفهرسة الردود تمهيدا للبدء بأعمال المشروع.

٥ - رعاية النواحي النظامية والقانونية والتجارية المتعلقة بالمشروع .

٦ - خدمات السكرتارية (التصوير والنقل والطباعة وغيرها) .

سابعاً الإطار الإداري:

لتحقيق الهدف المطلوب المتمثل بتأليف ونشر وتوزيع دائرة معارف عربية إسلامية يكون للمملكة العربية السعودية شرف المبادرة إليه وتحقيقه ، وهذا أمل طالما داعب خيال المهتمين ، بل هو ضرورة حضارية لا يجوز السكوت عن غيابها ، والتغاضي عنها - أرى أن يصار إلى تأسيس هيئة وطنية دائمة تعمل لتحقيق هذا الهدف وتبقى مسئولة عن متابعة تطوره وتقويمه وتحديث معلوماته ، بل وإصدار كتاب سنوي يكمله ويتابع تطور العلوم والأحداث العالمية وذلك أسوة بالتجارب السابقة الماثلة على النطاق العالمي . وهذه الهيئة هي : «الهيئة الوطنية لدائرة المعارف» ، وتتكون من الهيئات التالية التي سبق الإشارة إليها أعلاه وهي :

١ - مجلس الإدارة .

٢ - المجلس العلمي .

٣ - المكتب التنفيذي : ويتكون من مسئول تنفيذي (مدير الهيئة) ، ومن معه من الموظفين الذين أشرنا إليهم في خامس أعلاه .

٤ - ضباط الاتصال حول العالم .

ثامناً: التجارب السابقة وكيفية الاستفادة منها:

لا بد من الاستفادة من التجارب التي سبقت في هذا المضمار ، ويمكن النظر

إلى ذلك من منظوريين، الأول: المتوفر من الموسوعات العالمية والعربية، والثاني المتوفر من الخبرات العالمية والعربية، وهكذا فالمنظور الأول يمكن بلورته على الأساسين التاليين:

الأول: الأساس العالمي: ويقصد به ما هو متوفر على مستوى العالم من دوائر معارف، وهي معروفة وميسورة لمن يرغب الاطلاع عليها، وينبغي اقتناء نسخة من كل موسوعة لتكون مرجعا عمليا في مكتبة الهيئة.

وكذلك ينبغي الاستفادة من التجارب السابقة على أساس المنظور الثاني المتمثل بما يتوفر من خبرات وقدرات إنسانية أو آلية أو معرفية (معلوماتية) ويمكن بلورة ذلك كما يلي:

أ- الخبرات العربية: وينطوي كثير من الإخوة العرب والمسلمين - بما فيهم السعوديون - على تجارب وخبرات جيدة في مجال دوائر المعارف، ومن بينهم المتخصصون نظريا، ومن سبق لهم تجارب عملية، ويمكن بل يجب الاستفادة من هذه الخبرات إما بتوظيف هؤلاء الناس في الهيئة أو بطلب تعاونهم معها بشكل مؤقت يخدم أهدافاً معينة ويحقق أغراضاً بذاتها وهذا متروك لحينه.

ب- الخبرات المؤسساتية العربية والعالمية، والعالم مليء بالمؤسسات والهيئات التي تتعلق اهتماماتها بهذا الأمر بشكل دقيق أو من بعد، وينبغي تطوير علاقات وإقامة صلات للإفادة مما لدى هذه الهيئات والمؤسسات من خبرات وقدرات بشرية وآلية ومعلوماتية، وستفيد مثل هذه العلاقات عند البدء ومع استمرار العمل في الهيئة، وكذلك للعمل على تحديث المعلومات وتطوير أساليب العمل والكتاب السنوي وغيره من المطبوعات التي قد تصدر عن الهيئة فيها بعد.

تاسعا: خاتمة حول أحقية المملكة العربية السعودية بتبني مثل هذا المشروع

لا شك أن مشروعا وطنيا وثقافيا بل وحضاريا كهذا ينبغي أن يكون ملكا لكل الأمة منبثقا من تجربتها صادرا عن إرثها وأن الواجب إنها يقع على كل من ينتمي لها وهو بذلك فرض عين على كل منتم للإسلام والعرب وقيام البعض به لا يسقطه عن الآخرين إلا أن القدرة توجبه على البعض أكثر من غيرهم والقدرة قد تنحصر في الجانب المادي وقد تشمل الكوادر البشرية . ولما حبا الله المملكة العربية السعودية من خير عميم ونظرة ثابتة وشعور بالمسؤولية ولما عرف عنها وقيادتها الحكيمة من تبني لكل ما فيه خير الأمة وخدمة دينها ولغتها وإحياء تراثها وللحفاظ على هويتها فإنها أحق بهذا الفضل من غيرها وإن لم تستغن عن معونة أخواتها من بلاد المسلمين ورجالات العلم والأدب فيها . وما قيام المملكة بهذا الأمر إلا مثال آخر على تصديها لهم الأمة الأكبر ونذرها نفسها بصمت لتسهم دور القيادة في مسيرة الحضارة الإسلامية والعربية . وكما كان فقد الموسوعة عارا على الأمة كلها فإن وجودها فخر للمملكة ومن يساندها لا يجاريه فخر وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(*) كنت في حوار مع بعض الإنحوسة الأفاضل ممن يتمتعون بالعلم والأدب حول غياب الموسوعة العربية الإسلامية وذكر أحدهم أنه يصدد العمل على مشروع لترجمة إحدى الموسوعات العالية وكان من وجهة نظري أن لا يصار إلى ذلك بل ينبغي تأليف الموسوعة لا ترجمتها عن أخرى غريبة وكانت هذه الصفحات .

نقد الشعر السعودي في آثار بعض الدارسين

إعداد : د. عبد الله سالم المعطاني

لعلي لست في حاجة إلى القول بأن هذا البحث لا يقدم دراسة وافية لأي ناقد من النقاد كما أنه ليس من همي أن أتحدث عن اتجاه معين في النقد الأدبي، وإنما أسلط الضوء على بعض الدراسات البارزة في الأدب السعودي التي تناولت بعض القضايا والأحكام النقدية فدخلت ميدان النقد من بعض طرقه وأبوابه .



وتصعب في هذا المقام الإحاطة الكاملة بكل الأعمال التي قدمت في هذا المجال وإلا لضاق بنا الوقت، وضحنا به، ولكن ذلك لا يعفيني من النقاش والحوار حول المناهج والمعايير التي تعاورها الدارسون في ممارساتهم التأليفية في هذا الحقل . ومن اللافت للنظر أن الدراسات النقدية المتخصصة في الأدب السعودي لم تولد بعد عدا ما يصادفنا من الإشارات والملاحظات العابرة أثناء

حديث بعض المؤلفين عن الشعر والشعراء، ولا أستثني من ذلك إلا دراسة الدكتور الغدامي عن حمزة شحاتة في كتابه «الخطيئة والتكفير» التي حاول خلالها أن يتناول منهاجاً معيناً أحس بأنه جديد على الساحة الثقافية فبذل جهداً كبيراً في الجزء الأول من البحث استنفده في التعريف بهذا المنهج، أما الجزء الثاني فقد درس فيه نصوص حمزة شحاتة الفنية دراسة نقدية تطبيقية تقوم على تشریح النص وتفكيكه فتتخلل مدار القصيدة، وتعيد بناءها معتمداً على محاور ثنائية تتصل بقطين رئيسين في الدراسة هما الخطيئة والتكفير: «تتحرك هذه الثنائيات متصارعة في أدب حمزة شحاتة، وعلى الرغم من أن الصراع يجتد ويجتدم كثيراً فإن المعركة دائماً تحسم لصالح التكفير، ويتوجه الشاعر/ الكاتب بكل ما أوتي من قوة نفسية وبلاغية ليسحق الخطيئة، وإفرازاتها، ويوجه نفسه بصراحة وحسم نحو التكفير»^(١). وما يميز دراسة د. الغدامي أنه ابتعد عن المناهج الوصفية والتاريخية إلى الانطلاق من النصوص والتعامل معها.

ولكن هذا لا ينفي بأي حال من الأحوال وجود إضاءات نقدية مهمة انطلقت مع بداية النهضة الفكرية في هذا البلد على يد الرواد الأوائل الذين تعاملوا مع الشعر والشعراء فسجلوا ملاحظات وأحكاماً نقدية عابرة خلال المعارك والمقالات التي نشرت في ذلك الوقت. إلا أن الذي أدى إلى اضمحلال هذه البدايات وانتهائها انصراف أصحابها إلى ميادين أخرى، أو توقفهم عن الاستمرار، ولعل الروح التي كانت تسيطر على الجدل الأدبي في ذلك الوقت، - وهي روح الهجوم والمقارعة وإثارة الغبار في الوجوه - أدت إلى خلق ضبابية قائمة على كثير من التطلعات العلمية الجادة مما جعلها تراجع أو تركب الموجة العارمة في تلك الأيام، فلو أن العواد وعبد الله عبد الجبار والأنصاري والسرْحان ومحمد سعيد عبد المقصود وحمزة شحاتة وعزيز ضياء وأبا مدين وعبد الله عريف

وعبد الله بن خنيس والفلاحي والآشي والعطار ومحمد سعيد العمودي ومحمد الجاسر وغيرهم ابتعدوا عن المباحكات والمجاشات واتجهوا إلى المناهج النقدية المتعددة لأثروا الساحة الثقافية بأكثر مما وصل إلينا^(٢).

وأول دراسة جادة تناولت بعض الاتجاهات الأدبية في الشعر السعودي هي كتاب «التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية» للأستاذ عبد الله عبد الجبار، فقد كانت فيه لمحات الناقد المتفتح إلى أشربة المعرفة، وخاصة في ربطه أسباب ظهور الرومانسية بحياة القلق والاضطراب التي عاشها الأدباء، وعدم قدرتهم على تحقيق مآربهم مما أدى إلى المزاج الانطوائي عند بعضهم، ويبيّن تأثيرات المدارس الأدبية الأخرى في هذا التيار مثل «أبولو» و «المدرسة الرومانتيكية» بلبنان، والترجمات التي قام بها بعض المصريين، وأثر الصوفية المتحكمة في الشرق^(٣).

وهناك خصوصية لافتة في بعض صفحات التيارات الأدبية وهي أن الأستاذ عبد الله عبد الجبار انطلق إلى الحديث عن بعض الشعراء من ثانياً نصوصهم، ولم ينطلق إلى النص من خلال الحديث عن الشاعر مما جعله يتألق في تحليله للرمزية الخاصة في أدب الجزيرة، وخصوصاً حينما دخل في مفاعلة عميقة مع نصوص كل من حمزة شحاتة والعواد وحسين سرحان وحسن القرشي، فحاور هذه النصوص التي تقوم على الرمز، واحترق في سبيل الوصول إلى لغز النص، أو ما يرمي إليه وهي النتيجة الحتمية للناقد المتمكن التي تقوم على الإبداع النقدي في تفنيق الصور. يقول: «ولحسين سرحان قصيدة عنوانها «الدودة الأخيرة» مهد لها بقوله: إن القصة تلخص فيما أظن في أن الدود يزدحم على جثة الميت. . . فإذا فرغ منها عاد الدود فالتهم بعضه بعضاً، ويبقى منه بعد ذلك دودتان كبيرتان تتنازعان البقاء فتفترس أقوامها أضعفها، ثم تموت الدودة

الأخيرة بعد أن لا نجد ما تقتات به . . . هذه هي الصورة العامة ، وهذا هو المعنى الظاهر من هذه القصيدة ، فما هي الصورة الخاصة والمعنى المستتر الذي كان يعمل في سريرة الشاعر فلم يستطع البوح به إلا عن هذا السبيل الملتوي ؟ . . . هذه صورة غامضة من حلزونية التعبير عن المشاعر الحقيقية لأدباء الجزيرة»^(٤).

وبما يدل على سعة أفق الأستاذ عبد الله عبد الجبار وغازة ثقافته النقدية مقارنته رمزية حمزة شحاتة ببعض الشعراء العالمين ، وذلك خلال حديثه عن قصيدة «يا ليل» لحمزة شحاتة قال : «ورمزية حمزة شحاتة تشبه رمزية الشاعر الروسي «بلوك» ، والشاعر الإيرلندي «بيتس» من حيث إنها رمزية تشير إلى معنى عام وفكرة وطنية ، ولا تعبر عن معنى خاص وتجربة ذاتية مقبوضة ، فهو يتخذ من الليل والخمر والألحان رموزاً»^(٥).

ومن أعظم الخسارات على مثقفي هذه البلاد أن الأستاذ عبد الله عبد الجبار قسم الشعر في الجزيرة العربية إلى تيارات لأنها أفقدته جانباً مهماً جداً لمسناه من خلال حديثه عن الرمزية ، وهو معاورة النص والتحاوّر معه والبحث في زواياه وإيماناته وإيحاءاته ، فقد كان الأستاذ عبد الله يحمل حاسة نقدية متميزة فلو استمر في هذا المجال لأسس مدرسة فاعلة للنقد في هذا البلد ، ولكن تقسيمه الأدب إلى تيارات جعله يلجأ إلى منهج الرصد وعمومية الحديث .

ومن الغريب حقاً أن تختلف هذه الروح وهذا المنهج عند نقده لمرصاد الفلاحي في مرصاد المرصاد^(٦) ، فقد وقع فيما وقع فيه الفلاحي وحسن القرشي وهو النقد الجزئي الذوقي الذي لا ينطلق إلى آفاق الصور واستحضارها .

ونجد أن هناك كثيراً من الدراسات والمؤلفات عن الجيل السابق تتصل بالأدب والأدباء قد أدت دوراً مهماً في فترة معينة كنا وما نزال بحاجة ماسة إليها

لأنها تشكل المادة الحية لكل دارس مثل «التيارات الأدبية» و «شعراء نجد المعاصرون» و «شعراء الحجاز المعاصرون» و «المرصاد ونقده» و «أمواج اثباج» و «وحي الصحراء» وغيرها من الكتب، ويلاحظ على هذه الدراسات ما يلي :

١ - أنها تعد دراسات أدبية في المقام الأول، وإن كانت لا تخلو من الحديث عن بعض الأحكام والملاحظات النقدية العابرة .

٢ - أن الطابع السائد على أكثرها طابع الجمع والترجمة .

٣ - يحمل بعضها كثيراً من المجاملات والإطراء والمديح الفضفاض كما هو الحال عند الساسي في «شعراء الحجاز المعاصرون» الذي كتب مقدمته حمزة شحاتة فنفى الشاعرية عن بعض من كاله الساسي المديح والتقريظ ووصف شعرهم بأنه هراء^(٧) .

٤ - اتسمت بعض أحكام هؤلاء بالهجوم والقسوة ومقارعة المبدعين بأسواط مؤلمة، وأكثر هذا النقد - للأسف الشديد - جزئي يهتم بالشكليات، وهو استدراك خطأ نحوي أو لغوي أو تصحيح وزن بيت من الشعر أو عنوان قصيدة، ويذكرنا بنقد اللغويين في العصور المتقدمة، ولعله تأثر كذلك بروح النقد السائدة في مصر إبان المعارك الأدبية في ذلك الوقت . ولا شك أن مثل هذه الأحكام التي يلي بها النقد العربي منذ نشأته لعبت دوراً مهماً في تكبيل المبدع، ووضعه في قلبية جاهزة قضت على روح الانطلاقة والتجديد، ولعل المجال هنا لا يسمح بالإفاضة في ذلك .

٥ - إن الحديث العام والسطحي في بعض هذه المؤلفات أفضى إلى شيء من الإبهام والتعمية والاختلاف في التفسير .

وإذا انتقلنا من ساحة الرواد الأوائل إلى ساحة الدارسين المحدثين نجد أن بحث د . بكرري شيخ أمين «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» من

أشهر المؤلفات وأقدمها، وهي دراسة تاريخية لمس خلالها بعض القضايا التي تصب في ميدان النقد، وكان طابعها استعراضياً - كما أشار إلى ذلك المؤلف نفسه^(٨) في بعض الصفحات -، ومعظم الكتاب رصد تاريخي للأدب، ووصف عام له تذبذب فيه بين عدة مناهج فمرة عالج الشعر حسب الأغراض الشعرية ومرة حسب الموضوعات والاتجاهات، وأخيراً حسب التيارات، وكان في حديثه عن الشعر كثير من الابتسار والعموم^(٩). ولا يتورع د. بكري شيخ أمين ومن سار على نهجه مثل د. الحامد وعبد الرحيم أبو بكر وغيرهم عن الاستشهاد بأضعف النصوص في سبيل إثبات أن الأدب السعودي تطرق للقضية التي يتحدث عنها، فالدكتور بكري تحدث عن المرأة والزواج وغلاء المهور والفقر والغنى والعمال، وهرع إلى تكديس كثير من النصوص التي تثبت ذلك بل إنه وضعها في الهامش بطريقة وصفية سردية تخلو من النقد والتحليل والدراسة^(١٠).

وهناك ملاحظة مهمة على دراسة د. بكري شيخ أمين سحب فيها بعض من جاء بعده من الدارسين وخاصة د. الحامد، وفي تصوري أنها هفوة منهجية دفع إليها عامل السرعة، وهو أنه يطرح عدداً كبيراً من أسماء الشعراء، ويتحدث عنهم بسطر أو سطرين من باب التصنيف، فمثلاً يقول: «ومن الفئة المحافظة: محمد سرور الصبان وأحمد قنديل وعبد الحق نقشبندي ومحمد سعيد العمودي وعبد الوهاب آشي وعبد القدوس الأنصاري وفؤاد شاكر وحزمة شحاتة ومحمود عارف... إلخ»، ويعد ستة وثلاثين شاعراً^(١١). ويقول: «وشعراء الرومانسية في السعودية كثيرون معظمهم من الشباب تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين وأشهرهم محمد حسن عواد ومحمد حسن فقي وعبد الله الفيصل» وعد أربعة عشر شاعراً^(١٢).

ومن اللافت للنظر أنه عدَّ العواد مرة في الشعراء المحافظين ، ومرة في شعراء الرومانسية^(١٣) . ويشير د . بكري أمين إلى أن الشاعر محمد حسن فقي قد تأثر ببعض المفكرين القدماء مثل : عمر الحيام وابن سينا والغزالي والمعري ، وبعض الشعراء المحدثين مثل : إيليا أبي ماضي ونسيب عريضة وجبران ، ولكنه لم يوضح لنا كيفية هذا التأثير وهل كان في مضامين القصائد أو في أشكالها . وتحقق فاعلية المقارنة باتباع الجانب التطبيقي ، وإيراد النصوص التي تجسد فيها ذلك التأثير ولكنه اكتفى بالوصف فقط^(١٤) . وحدد غرض الغزل عند الشعراء السعوديين بأربع سمات هي :

١ - الشخصية الإسلامية .

٢ - ظهور معالم البيئة .

٣ - غلبة العفة وخلوه من الخلاعة والمجون .

٤ - بعده عن الميوعة والتخنث^(١٥) .

وهذه في الواقع سمات عامة لم ينفرد بها الشعر السعودي عن غيره ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعتها خصوصية مميزة لشعر الغزل عند الشعراء السعوديين ناهيك أنه من الصعب الحديث عن سمات عامة لغرض معين عند مجموعة من الشعراء . وفيما يبدو أن السمة الثالثة تتضمن الرابعة فليس هناك داع لذكرها .

وقد أفرد الباحث الفصل الثالث من الباب الخامس للحديث عن الصورة الفنية في الشعر السعودي خلص فيه إلى أن «عنصر الإبداع في الصورة - وهي من أبرز مقومات الشعر - كان ضئيلاً في القصيدة السعودية حتى الثلاثينيات من هذا القرن» ، وأرجع ذلك إلى عدة أسباب أهمها دوراتها في فلك الصور التقليدية القديمة الذي اختزنه الشعراء في ذاكرتهم مما أدى إلى ذهاب رونق تلك الصور أو جودها في قالب واحد ، ثم عالج تأثر الصورة الشعرية بالبيئة معالجة

فيها شيء من الموضوعية والهدوء مستحضرا عنصر التطبيق والتمثيل مما زاد من قيمة هذه الآراء^(١٦).

وللأستاذ عبد الرحيم أبو بكر دراسة عن «الشعر الحديث في الحجاز» تضمنت اتجاهين رئيسين: تقليديا محافظا وتجديديا متأثرا، ويلاحظ أنه تعامل مع الشعر الحديث بمقاييس قديمة، وأدوات تقليدية عابرة، فقسم النص إلى لفظ ومعنى وموسيقى وخيال وعاطفة^(١٧) وغيرها من تلك التقسيمات التي كانت ماثرا نقاش وجدل بين النقاد القدماء وخاصة بعد ابن قتيبة الذي جعل اللفظ والمعنى طرفي القصيدة^(١٨). وعمد الأستاذ عبد الرحيم أبو بكر إلى استخدام بعض المصطلحات النقدية الشائكة كحديثه عن الصنعة في شعر الغزواني^(١٩) فجعل الصنعة مرادفة للتقليد مما يدل على اضطراب هذا المفهوم في ذهنه لا سيما وأنه خلق إشكالية كبيرة في ميدان النقد الأدبي وخاصة بعد الاختلاف حول شعر أبي تمام والبحري فتذبذب بين العصور كتذبذب عمود الشعر.

ومحسن الأستاذ عبد الرحيم في تشريح بعض الأبيات، وخلق موازنة لافتة بين الشعراء ومدى تأثر الشاعر الحديث بالقصائد التراثية القديمة وذلك في أثناء حديثه عن أغراض الشعر السعودي في عهد النهضة وخاصة الرثاء^(٢٠). إلا أننا نراه يُسقط في بعض الأحيان القيمة الفنية للقصيدة على الرغم من أنه أوردها بوصفها نموذجاً وكان الأولى ألا يأتي بها في هذا الموضع ما دامت لا ترقى إلى مستوى النقد كاستشهاده بقصيدة فؤاد شاعر الدالية للحديث عن شاعريته^(٢١)، وفي تصوري أنها ضعيفة، ولا ترقى إلى مستوى الدراسة والتحليل نظراً لاهتزاز الصور، وضعف اللغة الشعرية، وكثرة الحشو، وقد اعترف الأستاذ عبد الرحيم بذلك فين أن القصيدة لا تحمل معاني جديدة لأنها

تقليدية تنظر إلى النموذج، وينعدم فيها الإبداع والابتكار^(٢٢). وهي قصيدة طويلة أطلق عليها الشاعر «حولية» نورد منها بعض الأبيات لنرى وقعها على نفس الباحث:

أجل هذه نجد فسائل ربى نجد
عن العرب والأجداد من سالف العهد
عن الدين والأخلاق والعزم والحجى
عن الشعر والتاريخ والعزم والمجد
عن الخيل والإصباح والسيف والقنا
عن الرأي والإقصاد والحزم والجد
عن الليل والبيداء والظعن والنوى
عن الدجن والصحراء والغيث والرمد
عن الصافنات الجرد كالريح ضرر

عن النوق والأخلاق والعدو والوخد
«فقليل من اللمحات الشعرية الصادقة القوية كان يقوم مقام هذه العنعنات
النظمية التي لا تضيف شيئاً سوى زيادة عدد الأبيات»^(٢٣).

ونظر الأستاذ عبد الرحيم إلى النقد نظرية جزئية محدودة تمتد إلى بعض
المنظرين من النقاد في العصور المتقدمة فقال عن نقد العواد «لديوان البسمات
الملونة»^(٢٤): إنه «هادف يوضح المحاسن، ويشيد بها، ويشير إلى بعض
المآخذ وينبه إليها»^(٢٥). وفي الواقع أن هذه النظرة تخالف التعريف الدقيق
للنقد - وهو الموقف الشمولي من النص كما أشار إلى ذلك حازم
القرطاجني^(٢٦). وغيره من النقاد - وبذلك تصبح كل قراءة نقدية مهمة إضافة

جديدة إلى عالم النص المتجدد.

ولكن على الرغم من كل ذلك نلمس عند الأستاذ عبد الرحيم إحساساً
بمكونات العمل الشعري المتميز وربطه بالإطار الخارجي للنص كذوق العصر
وروحه وثقافته وغير ذلك مما يدل على تجاوز النظرات الجزئية الضيقة التي تعيق
العملية النقدية، وتؤطر التعامل مع النصوص في نمطية رتيبة. وقد وفق كثيراً في
ربط التمزج النفسي بالتنوع الموسيقي في تغير القافية في قصيدة عمر عرب
«عصر الشباب»، التي يقول فيها:

حدثنيني عن الصبـا والشباب

عن زمان الهناء بين الصحاب

حدثنيني

حدثنيني عن الهوى يا مهـاتي

إن هذا الحديث يجـبي رفـاتي

حدثنيني

حدثنيني عن الهوى والفـرام

وعن الحب واطف حـرأو امي

والشجون

يوم كنا طفلين نمـرح غيـبا

يوم كنا لا نرى الدهـر شيـبا

حدثنيني

بنوم كنا نسـير في السـروض صبحـا

يوم كنـسا نبـني من الحب صـرحـا

حدثنيني

يوم كنا بجانب الزيزفون
نتشاكى الغرام بين الغصون
ذكريني بصفو وقت تولى
فيه كنا من الهنسا نتملى

ذكريني

فعلق الأستاذ عبد الرحيم على موسيقى القصيدة بقوله: «وما يلفت النظر في هذا النص هذه البهجة الغامرة التي تسري إلى نفس القارئ وهو يردد أبيات هذا النص... وهكذا قامت هذه التفعيلة بدور أساسي في إشاعة الجو النفسي في القصيدة، وكأن شاعرنا يجدد في الإطار الموسيقي استجابة لأثر نفسي من ناحية، وانحيازاً لطلائع التجديد من ناحية أخرى» (٢٧). ولكن على الرغم مما قاله الأستاذ عبد الرحيم عن موسيقى هذه القصيدة فإنها في تصوري لا تتجاوز المستوى العادي للشعر بل إنها لا ترقى إلى فنية النص الجيد والصورة الحركية المؤثرة، وذلك لخلوها من التقديم الحسي للشعر الذي يثير المتعة والانفعال في نفس المتلقي.

وللدكتور عبد الله الحامد ثلاث دراسات نشرت بين عام ١٤٠٢ هـ - ١٤٠٥ هـ طاب له أن يجمعها في مجلد واحد أطلق عليه «الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن». وإن كنا لا يمكن أن نتجاهل القيمة العلمية لأي دراسة مهما قل شأنها أو اختلفنا معها في وجهة النظر إلا أن السمة البارزة في دراسة الدكتور الحامد اكتظاظها بفوضى المنهجية إذا صح هذا التعبير؛ ففي تقسيماته للشعر اضطراب واضح، وتآرجح ظاهر بين التيارات والمقاييس فمرة يقسمه حسب الأغراض فيقول: شعر الغزل وشعر المديح وشعر

الهزل والفكاهة وشعر الابتهاال والزهد وشعر الرثاء والهجاء. (٢٨)، ومرة يقسمه حسب الموضوع المطروق مثل: المرأة، التعليم والحجاب والسفور وقضايا الزواج، الدعوة إلى النهضة، الدعوة إلى العلم والعمل والإصلاح (٢٩). ومرة يقسمه حسب الأجناس فيقول: الشعر الملحمي، القصصي، المسرحي (٣٠). ومرة حسب الاتجاهات: المحافظون، المخضرمون، المحدثون (٣١). وأفرد باباً لتقسيم الشعر إلى قضايا عامة ومنها الشعر الرمزي، وبين البداوة والصحراء، الاتجاه الإسلامي، قيمة هذا الشعر (٣٢).

وكما نرى أنه ليس هناك أي رابطة أو صلة بين هذه التقسيمات مما أدى إلى تنازل واضح عن الالتزام بالمنهجية التي تعد روح البحث وكيانه، فمثلاً يقسم الشعراء السعوديين إلى أجيال ثلاثة فيقول: «أما المقاييس التي استعنت بها في تحديد الجيل الأول فهي:

١ - قدم الولادة.

٢ - قدم التأثير والتأثير.

٣ - الأدباء الذين لم يواصلوا إنشاء الشعر (كعبد الله بالخير) أدرجوا في الجيل الأول وإن تأخرت ولادتهم» (٣٣).

ولا أدري ما علاقة المقاييس بما ذكر، وهل في التأثير والتأثير قدم وجده؟ لا أعلم، ولكنه اكتظاظ منهجي يشعر، بالفوضى، كما أن الأستاذ عبد الله بالخير لم يتوقف عن قول الشعر، ولم ينضب بحره إلى هذه اللحظة.

وفي الأحيان يجعل الحامد من نفسه واعظاً أو مرشداً فيفرز أفكاراً وقضايا تشغله على مستوى الإطار العام ليزج بالقارئ في حديث ليس له صلة بالبحث، وهو يذكرنا في نقده هذا ببعض سليات النقد القديم حينما يضع الناقد نفسه بمثابة الأستاذ أو الموجه للمبدع والمتلقي فيقول له: افعل كذا ولا

تفعل كذا على الرغم أن الإبداع ميزته في الانطلاق من القيود والتحرر من الجمود، فمثلاً حينما تناول الدكتور الحامد قضية تأثر الأدب العربي بالمصطلحات الأجنبية حاول أن يعكس مصادماته في الساحة مع بعض الحداثيين مثل الدكتور عبد الله الغذامي وغيره إلى ممارسات فرضية يريد أن ينتصر لنفسه من خلالها للتصدي بقوة لعامل التأثير والتأثير الذي احتضنه الأدب العربي منذ عصور متقدمة فتفاعل مع الآداب العالمية الأخرى أخذاً وعطاءً (٣٤).

وفي آخر الكتاب عقد المؤلف فصلاً أطلق عليه «مختارات من الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية» فتحدث عن سبب هذه المختارات حديثاً تعارضت فيه المقاييس، وتداخلت فيه المعايير ردد فيه كلام ابن قتيبة وابن بسام عن سبب اختيار الشعر، ثم بعد ذلك يقول: «وهذه عناوين القصائد» (٣٥). المختارة طبعاً، ثم يسرد حوالي ثمانية وأربعين ومائة عنوان قصيدة، وكأنه يشير إلى المثل الدارج: الكتاب يقرأ من عنوانه.

وأقف هنا كي أنتقل إلى دارس آخر وهو د. علي علي صبح أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود فرع أبها الذي ألف كتاباً عن «المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية»، وعلى الرغم من أني قرأت هذه الدراسة أكثر من مرة عليّ أجد فيها أسساً نقدية موضوعية تستحق البحث والمناقشة فإني لم أوفق، وإنما وجدته قسّم دراسته إلى ثلاثة أقسام:

١ - «مدرسة المحافظين، ومنهم شعراء آل الحفط» (٣٦)، فكأنه جعل النسب في حد ذاته معياراً لوضع هؤلاء الشعراء في مدرسة بعينها.

٢ - «مدرسة التجديد المحافظ» وهم الذين حافظوا على عمود الشعر العربي، ويبيّن أنّ النقاد القدماء أطلقوا على القصيدة الملتزمة بعمود الشعر

القصيدة العمودية، وقرر أن الشعر الذي لا يلتزم بقافية أو وزن خارج على عمود الشعر^(٣٧)، وفي الواقع أن النقاد لم يقولوا بذلك، وإنما جعلوا عمود الشعر خصوصية ذاتية تتصل ببناء القصيدة من حيث ألفاظها ومعانيها ونهجها، ولو كانت القصيدة العمودية هي التي تلتزم بالوزن والقافية لما خرج أبو تمام على عمود الشعر في مفهوم الأكمدي^(٣٨).

٣- «مدرسة التحرر في التجديد» وفيها «يسر الشاعر أغوار نفسه، ويعشق التأمل حول الجزئيات العميقة، ويجعل من الحبة قبة كما يقولون»^(٣٩). وهذا كلام عام وعائم، وينقصه عنصر التطبيق فليس له مكان في الميادين العلمية. وحينما تحدث المؤلف عن الشاعر عبد الله مهدي ترجم له بأكثر من حديثه عن شعره، ولم يتعرض لخصائصه الشعرية عدا بعض التعليقات على قصائده التي لم يتعامل معها تعاملًا نقديًا موضوعيًا^(٤٠).

ويطلق د. علي صبح الكلام في بعض الأحيان بدون معيار أو منهجية دقيقة، فمثلاً حينما تحدث عن شعر السنوسي قال: «والسنوسي.. ألفاظه جزلة فخمة قوية، وكلماته عذبة سهلة مناسبة كانسياب الماء الصافي الزلال، وأساليبه متينة محكمة، وتراكيبه رصينة ملتحمة، ونظمه دقيق»^(٤١). ولعلنا نلمس هذا التناقض الغريب في هذه المدلولات المبعثرة، فالجزالة والفخامة تغاير العذوبة والسهولة، وهو كلام مستهلك لا يمت إلى المنهجية بأية صلة، ولذلك تضيق به مساحة الدراسات النقدية الجادة.

ولا يختلف كتاب «الرؤية الإبداعية في شعر العواد» للدكتورين محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف عن سابقه، فليس هناك منهجية لا في تناول، ولا في استخدام المراجع حتى إن المؤلفين لم يتكلفا مشقة إثبات فهرس للموضوعات، وكأنه حديث ارتجال أو من الذاكرة. ودخلا في مقارنة بين أفكار

العواد والعقاد بصورة فيها كثير من الوصف وإطلاق الكلام على علاقته^(٤٢). وفي الكتاب كثير من الإشارات فقط دون التعمق أو البحث الدقيق في الظاهرة الشعرية عند العواد فكأنه طبخة لم تنضج، وهي سمة عامة في تضاعيف الكتاب، كذلك لم يتبها إلى الرؤى والإيحاءات التي أرادها العواد في بعض قصائده الشعرية فمثلا في قصيدة «عبود»^(٤٣) تحدثا عنها بتلقائية مسطحة وذلك برواية فقدان أحد الأصدقاء ساعته وأن الشبهة حامت حول الخادم «عبود» فنظم العواد قصيدته. وفي الواقع أن العواد أراد أن يجسد عظم الخيانة واحتقارها من خلال هذه الحادثة، وكأنه يترجم أبعاداً نفسية في عالمه الخاص، وإلا أصبحت القصيدة مناسبة عابرة. وما قيل عن قصيدة «عبود» يقال عن قصيدة «جنون الناقلين»^(٤٤) التي أحدثت صدى في نفوس شعراء آخرين مثل محمود عارف ومحمد باحيدرة وعباس حلواني، وكانت فرصة أمام الدارسين أن يتعمقا في ثنايا هذه القصيدة ورؤاها وما فيها من أبعاد مختلفة.

وللدكتور الشامخ دراسة قيمة عن النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية تعرض من خلالها إلى المقالة النقدية، وكان حديثه متزنا وهادئا يطغى عليه الأسلوب الوصفي التاريخي، ولعل طبيعة بحثه فرضت عليه مثل هذا المنهج فحاول أن يوازن بين العواد والسرطان في حديثهما عن الأدب السعودي وتأثره بالأدب القديم^(٤٥). فقسا على العواد في مهاجمته للمقلدين، وفضل السرطان عليه، ولكن يبدو أن الدكتور الشامخ لم يراع الظروف النفسية التي كان يعيشها العواد ومعاناته من أولئك الذين رحلوا الأدب إلى فترات موعلة في القدم فمسخوا شخصيته المستمدة من الواقع، مما أدى إلى خلق فجوة أو صدى أراد العواد أن يرايه بنفسية محترقة وأعصاب متحفزة.

أما حديث الشامخ عن معركة العواد والأنصاري الكلامية حول بعض القضايا الأدبية فقد كان محقا حينما وصفها بالهجوم الشخصي، وأنها نزعات

ذاتية لأغراض معينة^(٤٦). وهي نوع من الشنائم والمهاترات التي تخرج عن إطار النقد العلمي الجاد كما وضحت سابقا. ولكنه أقحم مقالتي حمزة شحاته وعبد الله عريف اللتين ناقشا فيها فكرة الجمال في المقالة النقدية، وهي ليست منها لأنها نقاش دار حول مفهوم الجمال عند كل منها، ولو أن المقصود جمال النص الأدبي لتلمسنا له العذر في ذلك^(٤٧).

ويبدو لي أن الدكتور الشامخ لو اتجه إلى نقد الشعر بصورة تطبيقية نصوصية لأفدنا من نقده ومنهجه لأنه يحمل أدوات الناقد وموضوعيته، ولكن حتمية الحديث عن النثر الأدبي واتجاهاته فرضت عليه التعرض للمقالة النقدية فقط كجنس من أجناس النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية.

وأخيراً أكتفي بدراسة جادة عن «محمد حسن عواد» للأستاذة آمنة عبد الحميد عقاد^(٤٨) وهي رسالة ماجستير أشرف عليها الدكتور منصور الحازمي، وينقسم البحث إلى قسمين: قسم تحدثت فيه عن آراء العواد النقدية، وقسم تحدثت فيه عن شاعريته، ولا شك أنها بذلت جهداً كبيراً في التعامل مع آراء العواد في مفهومه للشعر ووظيفته وعناصره وموسيقاه، ولكن كان ذلك على حساب الجزء المتبقي من الكتاب وهو مضمون البحث، فحينما جاءت إلى الحديث عن شاعرية العواد كانت منهكة وأعيائها تعب المواءمة بين آراء العواد المتناثرة في الشعر ووحدته والتزامه وعروضه وواقعيته^(٤٩)، فتحدثت عن بعض القصائد حديثاً عابراً كقولها: «ويشيد العواد بالمدارس لأنها نواة التقدم، وحارس الحضارة»^(٥٠). ثم تورد القصيدة دون تعليق أو قراءة نقدية لها، وتنتقل فجأة إلى مجال اهتمام العواد بالمرأة فكأنها - أي: الأستاذة عقاد - تدع النصوص معلقة في الهواء. ولكن على الرغم من ذلك فإن محاولة الأستاذة عقاد القرب من العواد وشاعريته محاولة جادة، ويطنى عليها الجانب الأكاديمي الذي يتلمس لا حب المنهج والموضوعية في بعض صورها.

وفي نهاية هذه الدراسة الموجزة أقف على شاطئ حقيقة مهمة جدا، وهي أن معضلة الناقد في الأدب السعودي تتجسد في سببين :

١ - أنه يريد أن يدرس الفترة عن طريق الرصد التاريخي ، وهذا يجعله يقف مثلا عند شاعر ضعيف فيرى أنه لزاما عليه أن يدرسه على الرغم من أن روعة الشعر وجماله لا ترتبط بزمان معين ، وإلا أعدنا منهج المتعصبين من القدماء .

٢ - حشد أكثر من شاعر في دراسة واحدة يفضي إلى التحكم في المدارس وتختنقه في اختيار المنهج فيستسلم للدراسة الاستعراضية التاريخية التي تتناول السطح العلوي لبنية النص أو تتجافى عنه للاكتفاء بتراجم الأدباء ، وأقول بكل صراحة تامة إننا تشبعنا بمثل هذه الدراسات ، وأن لنا أن نلثفت إلى العمق الذي يجهد الباحث ، ولكنه يبني جسورا معرفية قوية ، وينقش علامات مميزة في دروب الثقافة والفكر .



الهوامش

- (١) الخطيئة والتكفير ص ٢١٧ .
- (٢) النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- (٣) التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .
- (٤) المصدر السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .
- (٥) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
- (٦) انظر المصدا ص ٢٦٥ - ٢٨٤ .
- (٧) شعراء الحجاز المعاصرون : المقدمة .
- (٨) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ص ٢٠٥ .
- (٩) المصدر السابق ص ٢٧٥ .
- (١٠) المصدر السابق ص ٢٨٣ - ٣٠٥ .
- (١١) المصدر السابق ص ٣٨٥ .
- (١٢) المصدر السابق ص ٣٨٧ .
- (١٣) المصدر السابق ص ٣٨٥ ، ص ٣٨٧ .
- (١٤) المصدر السابق ص ٤١٦ .
- (١٥) المصدر السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .
- (١٦) المصدر السابق ص ٤١٧ - ٤٢٦ .
- (١٧) الشعر الحديث في الحجاز ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- (١٨) الشعر والشعراء ١/ ٦٤ - ٦٥ .
- (١٩) الشعر الحديث في الحجاز ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (٢٠) المصدر السابق ص ٢٢٠ - ٢٣١ .
- (٢١) المصدر السابق ص ٢١٤ .
- (٢٢) المصدر السابق ص ٢١٥ .
- (٢٣) المصدر السابق ص ٢١٢ .
- (٢٤) ديوان «البسمات الملوثة» أول ديوان صدر للأستاذ حسن عبد الله القرشي . انظر - الأدب الحجازي الحديث - للدكتور إبراهيم الفوزان ٣/ ١٣٤٥ .
- (٢٥) الشعر الحديث في الحجاز ص ٢٧٦ .

- (٢٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٥٦٩ .
- (٢٧) الشعر الحديث في الحجاز ص ٣٢٤-٣٢٧ .
- (٢٨) انظر الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية ص ٢٢٧ ، ص ٢٥١ ، ص ٢٧٧ ، ص ٢٩٠ ، ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٩ .
- (٢٩) المصدر السابق ص ٢٦٥-٢٧٦ .
- (٣٠) المصدر السابق ص ٣٨٥-٣٩٧ .
- (٣١) المصدر السابق ص ١١٧-٢٢٢ .
- (٣٢) المصدر السابق ص ٤٢٩-٤٧٤ .
- (٣٣) المصدر السابق ص ٩٢-٩٤ .
- (٣٤) المصدر السابق ص ٣٦-٤٧ .
- (٣٥) المصدر السابق ص ٤٧٨-٤٨٣ .
- (٣٦) المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية ص ٤٥ .
- (٣٧) المصدر السابق ص ٧١ .
- (٣٨) الموازنة ٤ / ١ .
- (٣٩) المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية ص ٢٨٤ .
- (٤٠) المصدر السابق ص ٢٦٧ .
- (٤١) المصدر السابق ص ١٣٢ .
- (٤٢) الرؤيا الإبداعية في شعر العواد ص ١٩٣-٢٠٥ .
- (٤٣) المصدر السابق ص ٢٠١ .
- (٤٤) المصدر السابق ص ١٨٠ .
- (٤٥) النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ص ١٠٦ .
- (٤٦) المصدر السابق ص ١٠٨-١٠٩ .
- (٤٧) المصدر السابق ص ١١٥-١١٩ .
- (٤٨) عنوان الكتاب «محمد حسن عواد شاعرا» . وهي دراسة نالت بها الباحثة درجة الماجستير من قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود بالرياض أثناء العام الدراسي ١٤٠١ هـ - ١٤٠٢ هـ .
- (٤٩) المصدر السابق ص ٩٩-١٢١ .
- (٥٠) المصدر السابق ص ١٥٠ .

المصادر والمراجع

- أبو بكر، عبد الرحيم- الشعر الحديث في الحجاز - دار المريخ للنشر، الرياض ١٩٨٠م.
- الأكدي، أبو القاسم الحسن بن بشر - الموازنة - تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف، مصر، ط ٣، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- أمين، د. بكري شيخ- الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، دار العلم للملايين بيروت، ط ٥، ١٩٨٦م.
- الحامد، د. عبد الله - الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية - منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- خفاجي، د. محمد عبد المنعم، ود. عبد العزيز شرف- الرؤية الإبداعية في شعر العواد- ط ١، الناشر والتاريخ بلون.
- ديتشي، ديفد- مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق - ترجمة د. محمد يوسف نجم، مراجعة د. احسان، عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م.
- الساسي، عبد السلام طاهر- شعراء الحجاز المعاصرون- دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٧٠هـ.
- الشامخ، د. محمد عبد الرحمن- النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية- دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط ٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- صبح، د. علي علي مصطفى- المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية- تامة، جدة، ط ١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- عباس، د. إحسان- تاريخ النقد الأدبي عند العرب- دار الثقافة، بيروت، ط ٤، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- عبد الجبار، عبد الله- التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية - معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة. ١٩٥٩م.
- عقاد، أمنة عبد الحميد- محمد حسن عواد شاعرا- دار المدني، جدة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- عواد، محمد حسن- خواطر مصرحة- مطبعة المدني- القاهرة، ط ٢، ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.
- الغنزامي، د. عبد الله محمد- الخطيشة والتكفير - النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الفلالي، إبراهيم هاشم «المرصدا»، ومعه «مرصاد المرصاد» لعبد الله عبد الجبار، و«نقد المرصاد» لحسن عبد القرشي النادي الأدبي بالرياض، ط ٣، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الفوزان، د. إبراهيم فوزان- الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد - مكتبة الخانجي، مصر، ط ١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- ابن تقيّة، عبد الله بن مسلم- الشعر والشعراء - تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة- ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- ٢- الدوريات:
- مجلة فصول - المجلد الرابع - العدد الأول ١٩٨٣م مقال: النقد الأدبي وعلم الاجتماع - لمحمد حافظ دياب.

أسئلة الملك عبد العزيز على الطريق بين مكة وجدة

الدكتور / عادل محمد نور عبد الله غباشي

ملخص البحث:

حاز الطريق بين مكة وجدة عناية المغفور له جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ومن ملامح ذلك إنشاء الأسبلة على الطريق، بما يسهل للحجاج والزوار حصولهم على المياه المبردة في يسر وسهولة، ويحقق لهم أحد مطالب الحياة. ويأتي هذا العمل انطلاقاً من حرصه - رحمه الله - على كسب الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، ومن واجب المسؤولية التي تكفل بها بعد حكمه للحجاز. وقد تم العثور على ثلاثة أسبلة بنيت في مواقع متفرقة على الطريق بين مكة وجدة، صمم كل منها على شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا، ومغطى بقبو موتور، ويعلو واجهته الغربية لوح تأسيسي مؤرخ بعام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م. وجاء تصميم الأسبلة يسيراً في تكوينه، ومتفقاً مع إمكانات البيئة من حيث المناخ والمواد الخام المتوفرة في المنطقة، وهذا يتفق مع أسلوب بناء وتصميم الأسبلة العثمانية على الطريق بين مكة وجدة؛ مما يشير إلى احتمال بنائه على يد معماريين سبق لهم العمل في العصر العثماني.



تاريخ الأعمال:

لم تذكر المصادر التاريخية - على حد علمي - تاريخ أعمال الملك عبد العزيز في إنشاء الأسبلة على الطريق بين مكة وجدة، مما يزيد من أهمية ما حملته الأسبلة من نقوش كتابية أجلت لنا حقيقة هذه الأعمال التي تمت عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م وهي^(١):

١ - سبيل بئر أم القرون.

٢ - سبيل حذاء.

٣ - سبيل بئر المقتلة.

وقبل أن نتعرض لدراسة تصميم الأسبلة سوف نتناول الدوافع التي أدت بالملك عبد العزيز - رحمه الله - إلى إنشائها.

دوافع العمل:

١ - عامل الدين والمسئولية:

بعد أن تمكن الملك عبد العزيز - رحمه الله -، من ضم مكة المكرمة إلى حكمه عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، وجدة عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م^(٢) أصبح أمر العناية بالحجاج والزوار، وتسهيل مهمتهم من أهم أعماله^(٣)؛ ولذا فقد وجه منذ السنوات الأولى من حكمه للحجاز إلى العناية بأمر توفير الماء خاصة في طرق الحج^(٤)؛ بما ييسر على المسلمين أداء فريضتهم في يسر وسهولة، ويوفر لهم سبل الحياة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾^(٥).

قال الملك عبد العزيز - رحمه الله - بعد أن تسلم مدينة جدة في جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م: «إن بلد الله الحرام في إقبال ونخير وأمن وراحة، وإنني إن شاء الله تعالى سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة، ويجلب الراحة والطمأنينة لها»^(٦) ولا شك أن عنايته - رحمه الله - بتوفير المياه

المبردة في الأسبلة على الطريق بين مكة وجدة من أهم ما يجلب الراحة للمسلمين، وطريق من طرق الخير لكسب الأجر والثواب عند الله كما يقول رسولنا محمد - ﷺ -، في حديث عن عائشة - رضي الله عنها - : «أنها قالت : يا رسول الله ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال : الماء والملح والنار. قالت : قلت يا رسول الله هذا الماء قد عرفناه، فما بال الملح والنار؟ قال : يا حميراء من أعطى ناراً فكأنها تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار، ومن أعطى ملحاً، فكأنها تصدق بجميع ما طيب ذلك الملح، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنها أعتق رقبة، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد فكأنها أحياها»^(٧).

كما روى سعد بن عباد أنه قال : يا رسول الله أي الصدقة أفضل ؟ قال : سقي الماء»^(٨).

٢ - عدم كفاية الأسبلة السابقة لعصر الملك عبد العزيز من الوفاء بحاجة المارة من المياه .

ويؤكد هذا الرأي النظر إلى الفترة الزمنية التي أنشئت بها أسبلة الملك عبد العزيز، حيث إن سنة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م تعاصر اشتداد وطأة الحرب العالمية الثانية^(٩) المعروف أثرها الاقتصادي على معظم دول العالم، وعلى هذا فلو كانت الأسبلة السابقة لعصر الملك عبد العزيز في حالة عمارة جيدة وعددها كافٍ لما تطلب الأمر إنشاء أسبلة جديدة لأن في ذلك إهداراً للمال، علاوة على قلة موارده في ذلك الوقت.

٣ - زيادة اتساع عمران مكة وجدة :

إن المتتبع لحركة النمو العمراني في مكة وجدة في عصر الملك عبد العزيز يجد أن اتساع عمران هاتين المدينتين قد ازداد بشكل كبير عن العصور السابقة^(١٠)

وهذا يعني زيادة في عدد السكان، وزيادة في تنقلاتهم إضافة إلى أن جدة كانت في ذلك العصر أهم ميناء حجازي على البحر الأحمر^(١١)؛ مما يجعلنا نرجح أن ذلك أثر على زيادة الحركة المروية بين مكة وجدة؛ فاستدعى بناء أسبلة جديدة لسد احتياجات عابري السبيل المتزايدة.

وصف تحليلي لمواقع الأسبلة وتصميمها:

١ - سبيل بئر أم القرون:

أ - الموقع: يقع ملاصقاً لبئر أم القرون - من الجهة الغربية - على الطريق بين مكة وجدة، وعلى وجه التحديد غرب أعلام حدود حرم مكة الغربية بنحو ١٢,٢ كم، ويبعد عن طريق الأزفلت الحديث بنحو ١ كلم في طريق متعرج متجه جنوباً. شكل رقم (١).

وقد كان هذا الموقع معروفاً ترده الأعراب وعابرو السبيل لوجود بئر به - تعرف ببئر أم القرون - وصفها إبراهيم رفعت عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م بما يلي: «بئر أم القرون . . . على اليسار يقصد يسار المتجه لمكة مبنية بالحجارة وعمقها ١٠ أمتار، لها أربعة أعمدة تدور عليها أقطاب البكر التي ترفع بها الدلاء، وماء هذه البئر عذب فرات»^(١٢). وهذا يشير إلى أن الموقع لم يكن به سبيل ماء إلى عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م مما استدعى بناء سبيل في عصر الملك عبد العزيز يسهل للمارة حصولهم على المياه المبردة في يسر وسهولة، مع ملاحظة أن ما تم عمله في عصر الملك عبد العزيز في هذا الموقع اقتصر على بناء السبيل، أما البئر فإنها تبدو كما وصفها إبراهيم رفعت عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م؛ فأعمدتها الأربعة لا تزال قائمة وعمقها يقدر بنحو ١٠م وهذا يتفق مع ما أشار إليه إبراهيم رفعت، إلا أن الماء قد نضب منها منذ ما يقرب من أربع سنوات^(١٣).

ب - تصميم السبيل :

يأخذ شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا في جهتيه الغربية والجنوبية ، ويغطيه قبو موتور. شكل رقم (٢) ، ولوحة رقم (٥) . ويبلغ طول السبيل من الخارج ٢٠,٦٠ م ، وعرضه ١,٥٥ م ، وارتفاعه غير واضح الآن - ١٤١٣/٩/٢٥ هـ - نظراً لوجود ردم ترابي ، إلا أنه يمكن التعرف على ذلك تقريباً عند مقارنته بسبيل حذاء المعاصر له ، والمنشأ على نمط تخطيطه ، وعليه فمن المحتمل أن يكون ارتفاع فتحات السقيا عن مستوى الأرض الطبيعية ١ م ، وارتفاع السبيل من الأرض إلى بداية القبو حوالي ١,٥٠ م . شكل (٢ ، ٣) ولوحة (٥ ، ٦) . واشتمل السبيل على أربع فتحات للسقيا ، ثلاث منها في الواجهة الغربية ، وواحدة في واجهته الجنوبية ، يأخذ كل منها شكل مستطيل منته في أعلاه بعقد موتور ، أبعاده حوالي ٢٧ × ٣٥ سم ، كما حوى السبيل فتحة مربعة (٥٠ × ٥٠ سم) لتنظيفه في منتصف الواجهة الشمالية . شكل (٢) ، ولوحة رقم (٥) .

ويشاهد في حوالي منتصف ضلع السبيل الشرقي الملاصق للبئر آثار منطقة خالية من الملاط أبعادهما حوالي ٦٠ × ٦٠ سم من المحتمل أن تكون موضع حوض لاستقبال مياه البئر بوساطة الدلاء ، ونقلها إلى السبيل عبر قصاب فخارية لا تزال ظاهرة داخل السبيل . شكل (٢) .

وتتميز واجهة السبيل الغربية من بقية الواجهات باحتوائها على نقش تأسيسي لعمارة السبيل وضع داخل إطار مستطيل فوقه جامة دائرية ، ويحيط بها شكل مستطيل ينتهي في أعلاه بشكل مثلث ، ويتفرع من جانبيه فرع نباتي منتهيا بشكل ملفات حلزونية ، لوحة (٥) . ويلتف بواجهات السبيل الجنوبية والغربية والشمالية إيزار سمكه ٧ سم ، ويبرز عن جدار السبيل بنحو ٥ سم ،

أضفى على السبيل منظراً جمالياً لدوره في ربط نهاية جدار السبيل العلوية بالقبو. لوحة (٥).

٢- سبيل حذاء:

أ- الموقع: يقع ملاصقاً للبئر - من الجهة الغربية - على الطريق بين مكة وجدة، ويبعد عن أعلام حدود حرم مكة الغربية نحو ٩,١ كم غرباً، كما يبعد عن طريق الأسفلت الحديث حوالي ٧٥ م جنوباً. شكل رقم (١). ويُعرف أهل حذاء هذا السبيل بسبيل حذاء، ولعل تسميته جاءت نسبةً لموقعه الذي درج المتأخرون من الرحالة على تسميته (حدة)، وهو تعريف لاسمها (١٤).

وقد كانت حذاء معروفة لعباري الطريق بين مكة وجدة في العصر العثماني؛ فذكرها إبراهيم رفعت عام ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م بإيلي: «هي بلدة صغيرة على اليسار يقصد يسار المتجه لمكة بها حصن ومسجد ذو مثذنة وعين ماء حلوة وبئران على يسار الطريق، وبها نحو ٦٠٠ نخلة يملكها عون الرفيق باشا شريف مكة . . . وكان المحمل يبيت بحدة، ثم عدل عنها إلى بحرة لما أن تعدى أهلها عليه» (١٥). كما عسكر بها جيش الملك عبد العزيز المتجه من مكة إلى جدة في جمادى الآخرة عام ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م، وعقدت بها اتفاقية بين الملك عبد العزيز - رحمه الله - والسير جلبرت كلايتون المتدوب المفوض عن الحكومة البريطانية، عرفت باتفاقية حذاء، مؤرخة في ١٥/٣/١٣٤٤ هـ - ٢ تشرين الثاني / ١٩٢٥ م (١٦).

ويلحظ وجود بئر في الجهة الشمالية الشرقية على بعد ١٠٤ م تقريباً - من سبيل حذاء الملاصق للبئر، مما يجعلنا نرجح أن هذين البئرين هما المقصودان من كلام إبراهيم رفعت عنهما عام ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م.

ب- تصميم السبيل :

يأخذ شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا من جهتيه الشمالية والغربية، ويغطيه قبو موتور، شكل (٣، ٤)، ولوحة (٦، ٧). ويبلغ طول السبيل من الخارج ٢,٥٠ م، وعرضه ١,٥٤ م، وارتفاعه عن مستوى الأرض الآن إلى بداية القبو ١,٥٧ م في الجهة الغربية، و ١,٧٠ م في الجهة الشمالية، وسمك جداره ٣٠ سم، وقد أنشئ في منتصف واجهته الجنوبية، وعلى ارتفاع ٨٠ سم تقريباً عن الأرض فتحة باب مربعة طول ضلعها ٥٠ سم، لدخول السبيل وتنظيفه. شكل (٣، ٤) ولوحة (٦، ٧)، ووزعت فتحات السقيا كما يلي :

- فتحتان في الجهة الشمالية.

- ثلاث فتحات في الجهة الغربية.

وتأخذ كل فتحة من هذه الفتحات شكلاً مستطيلاً منتهياً في أعلاه بعقد موتور، عرض كل منها ٢٧ سم، وارتفاعها ٣٦ سم. شكل (٣)، ولوحة (٧). ومن الطبيعي أن يكون موقع هذه الفتحات في متناول الإنسان العادي، بمعنى أنها لا ترتفع في المنطقة المنحدرة عن ١٥، ١ م عن مستوى الأرض الآن، وترتفع حوالي ١ م عن مستوى الأرض من الجهة الغربية. شكل (٣)، ولوحة (٦).

ويلتف إيزار سمكه ٧ سم حول محيط السبيل من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية ليربط نهاية جدران السبيل ببداية القبو. شكل (٣)، ولوحة (٦). ويرى من جهة ناحية السبيل الجنوبية الشرقية في المنطقة التي يلتصق فيها السبيل بالبئر حوض يلتصق بإحدى دعامتي البئر ليستمد مياهه من البئر عبر الدلاء، وينقلها إلى السبيل عبر قصاب فخارية قطرها حوالي ٧ سم. ويأخذ

هذا الحوض من الخارج شكلاً مكعباً أبعاده $60 \times 50 \times 50$ سم، ومن الداخل شكلاً دائرياً قطره ٣٥ سم. شكل (٤)، ولوحة (٨، ٩). وقد تميزت واجهة السبيل الغربية من بقية الواجهات باحتوائها على نقش تأسيسي لعمارة السبيل، وضع داخل إطار مستطيل فوقه جامة دائرية، ويحيط بهما شكل مستطيل ينتهي في أعلاه بشكل مثلث، ويتفرع من جانبيه فرع نباتي منتهيا بشكل ملفات عملاقية. شكل (٣) ولوحة (٦).

٣- سبيل بئر المقتلة:

أ- الموقع: يقع ملاصقاً للبئر - من الجهة الغربية - على الطريق بين مكة وجدة، شرق أعلام حدود حرم مكة الغربية بنحو ١٠ كلم، ويبعد عن طريق الأسفلت الحديث نحو ٤٠ م جنوباً. شكل رقم (١).

وقد كان هذا الموقع معروفاً لعابري السبيل بين مكة وجدة، أشار إليه إبراهيم رفعت عام ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م بما يلي:

«ومرنا... بقلعة المقتلة وهي على اليمين... وتحتها بئر مطوية بالحجر عمقها حوالي ٢٠ متراً، وعليها دعامتان لوضع محور البكرة عليهما، ولها ثلاث درجات يقف عليها من يخرج الماء منها، وماؤها عذب غزير» (١٧). ونستنتج من هذا عدم وجود سبيل في هذا الموقع إلى عام ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م، مما يتطلب بناء سبيل في عصر الملك عبد العزيز يساعد المارين في الحصول على المياه المبردة مع ملاحظة أن البشر الموصوفة في النص لا تزال قائمة إلى الآن - ١٤١٣/٩/٢٥ هـ - وتشتهر بغزارة مياهها، وهي التي كانت تمد السبيل بالماء.

ب- تصميم السبيل:

يأخذ شكل حوض مستطيل يغطيه قبوٌ موتور، طوله ٦٣ م، وعرضه ١,٥٠ م، وله ثلاث فتحات للسقيا في واجهته الغربية، وفتحة في واجهته

الشمالية، أبعاد كل منها 27×36 سم. شكل رقم (٥)، ولوحة رقم (١٠)، (١١)، واحتوت واجهته الجنوبية على فتحة لتنظيفه أبعادها 50×50 سم، وبني بجواره من الجهة الشرقية في المنطقة التي تصل السبيل بالبئر حوض مكعب أبعاده $60 \times 60 \times 60$ سم لاستقبال مياه البئر عبر الدلاء، ونقلها إلى السبيل عبر قصاب فخارية قطرها ٧ سم. شكل رقم (٥). ولم أتمكن من أخذ ارتفاعات السبيل وتتبع واجهته الغربية، لوجود غرفة حديثة بنيت ملاصقة لواجهة البئر الغربية، وردم المنطقة المحيطة بالسبيل إلا أنه يمكن القول من خلال الأجزاء الباقية إن واجهة السبيل الغربية، وارتفاعاته تتفق مع السيلين الآخرين موضع الدراسة. شكل رقم (٥)، ولوحة رقم (٥، ٦، ١٠، ١١).

مواد البناء وأسلوبه:

لقد استخدم في بناء الأسبلة ما توفر في البيئة المحلية من مواد بناء كأحجار البازلت غير المهذبة التي يمكن الحصول عليها من الجبال المجاورة لموقع الأسبلة، والأجر والنورة والفخار وتراب الفحم وهي من المواد التي تنتشر مصانعها في مكة المكرمة (١٨)، وتم البناء وفق ما يلي:

١ - بنيت أساسات الجدران بأحجار البازلت غير المهذبة. سمك ٤٥ سم تقريباً، ثم بنيت الجدران بالأجر المحروق. سمك ٣٠ سم. شكل (٢، ٤، ٥).

٢ - تم بناء غطاء السبيل على شكل قبو من الأجر المحروق، وهي مادة تتسم بخفة وزنها مقارنة بالحجارة؛ وهذا يفسر لنا أسباب اختيار المعمار لسمك جدران السبيل بـ ٣٠ سم. لوحة رقم (١١).

٣ - تم تخصيص السبيل من الداخل والخارج بطبقة ملاط - من موادها النورة وتراب الفحم والرمل والماء بسمك يتراوح ما بين ٣ - ٥ ملم - لمنع تسرب

الماء من داخل الحوض ، وزيادة تحمله لعوامل التعرية الخارجية ، وإكسابه جمالاً في المنظر. لوحة رقم (٥ ، ٦ ، ٩).

٤ - استخدمت قصاب من الفخار بقطر ٧ سم لربط السبيل بحوضه المغذي له بالماء. لوحة رقم (٩).

النقوش الكتابية على الأسيلة :

(١) نقش سبيل بئر أم القرون لوحة (١).

الموقع : يقع في أعلى واجهة السبيل الغربية.

حالة النقش : متصدع ، وقد سقطت أجزاء من أحرف كلماته في السطرين والتاريخ ، ولكن أمكن قراءتها بتتبع آثار الكلمات.

موضوعه : نقش تأسيسي لإنشاء سبيل.

خطه : ثلث بارز نفذ بطريقة الصب في قالب.

مادته : جص.

عدد أسطوره : سطران وهامش أيسر نفذت داخل إطار مستطيل تعلوه جامة دائرية قطرها ٢٤ سم

أبعاده من الخارج : ٨٢ سم × ٤٨,٥ سم.

نصه :

داخل جامة دائرية : بسم الله الرحمن الرحيم . . . سنبل

السطر الأول : أنشئ هذا السبيل في عهد حضرة صاحب الجلالة

السطر الثاني : الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود

هامش أيسر : (سنة ١٣٦١ هجرية)

٢ - نقش سبيل حذاء : لوحة رقم (٢).

الموقع : في أعلى الواجهة الغربية للسبيل.

حالة النقش : متصدع مع سقوط بضعة أحرف منه ، ولكن يمكن قراءتها
بتتبع آثارها .

موضوعه : نقش تأسيسي لعمارة سبيل .

تاريخه : ١٣٦١ هـ .

خطه : ثلث نفذ بطريقة الصب في قالب .

عدد أسطوره : سطران وهامش أيسر نفذت داخل إطار مستطيل تعلوه جامعة
دائرية قطرها ٢٤ سم .

مادته : الجص .

أبعاده من الخارج : ٨٢ سم × ٤٨ سم .

نصه :

داخل جامعة دائرية : بسم الله الرحمن الرحيم . . . (سنبّل)

السطر الأول : أنشئ هذا السبيل في عهد حضرة صاحب الجلالة

السطر الثاني : الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود .

هامش أيسر : ١٣٦١ هجرية .

٣ - نقش سبيل بئر المقتلة : لوحة رقم (٣ ، ٤) .

الموقع : كان يقع حين قمت بتصويره عام ١٤٠٧ هـ في أعلى واجهة السبيل

الغربية ، وقد بنيت حديثاً غرفة ملاصقة له حجبت رؤيته عن المارة .

حالة النقش عام ١٤٠٧ هـ : سقطت منه بضع كلمات في السطرين ، ولكن

يمكن قراءتها بتتبع آثارها على النقش ، كما سقطت الجامة التي كانت تقع في

أعلى النقش وألصقت في موضع بني حديثاً على بعد ٧٠ و ٨٠ م من النقش .

موضوعه : لوح تأسيسي لإنشاء سبيل .

تاريخه : ١٣٦١ هـ .

خطه : ثلث بارز نفذ بطريقة الصب في قالب .

مادته : جص .

عدد أسطوره : سطران وهامش أيسر نفذت داخل إطار مستطيل تعلوه

جامعة .

أبعاده من الخارج : 82×48 سم .

نصه :

داخل جامعة دائرية : بسم الله الرحمن الرحيم . . . سنبل

السطر الأول : أنشئ هذا السبيل في عهد حضرة صاحب الجلالة

السطر الثاني : الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود

هامش أيسر : سنة ١٣٦١ (هجريه)

ملحوظات على النقوش :

١ - يرجع أنها نفذت بأسلوب الصب في قالب ، ويؤيد ذلك ما يلي :

أ - تتفق جميع النقوش من حيث رسم الكلمات ، ومواضع حركات الإعراب ،

ونقاط الإعجام ، وترتيب الكلمات ، ابتداء من أول كلمة في النص إلى آخر

كلمة .

ب - تتفق أبعاد إطارات النقوش مع بعضها إلى درجة كبيرة جداً ، والفرق

المقدر بحوالي ١ - ٥ سم راجع إلى أسلوب تركيب الإطار ، فمنها ما يأخذ

زاوية قائمة ٩٠° ، ومنها ما يقل عن ذلك مما أوجد الفرق المقدر من ١ -

٥ سم .

ج - تتفق أطوال أحرف الكلمات في كل النقوش ، ومن ذلك على سبيل

المثال حرف الألف لكلمة «أنشئ» في السطر الأول ، فقد بلغ طوله

٥ , ١٧ سم ، كما بلغ طول حرف الألف لكلمة «الملك» في السطر الثاني

٢ - لقد سقطت كلمات من النقوش، ولكن أمكن قراءتها بتتبع أثارها على النقش، مع الاستدلال بالنقش السليم ومقارنته، ومن ذلك على سبيل المثال: الهامش الأيسر في النقش الأول، وكلمة «سنبل» في جملة النقش الثاني، وكلمات من السطرين الأول والثاني في النقش الثالث.

٣ - التزم الكاتب بوضع جميع حركات الإعراب بما يسهل قراءة النقش لمن لا يتقن العربية، خاصة وأن مواضع هذه الكتابات في طريق الحجاج والزوار الذين منهم أعداد كبيرة من غير العرب.

٤ - وفق المعمار إلى حد كبير في اختيار مواقع النقوش على الأسبلة فثبتها في أعلى الواجهة الغربية لكل سبيل؛ وهذه تقع في مواجهة كل زائر لمكة.

٥ - من المحتمل أن أسلوب تنفيذ النقوش بالصب في قالب تم كما يتبع في الوقت الحاضر، والذي يمكن تلخيصه بما يلي: (١٩).

أ - يُعد لوح من الجص أو الخشب وترسم عليه الكتابة.

ب - تحفر الأرضيات حول محيط أحرف الكتابة ونقاط الإعجام وحركات الإعراب، فتظهر بارزة فوق الأرضية.

ج - يستخرج من هذا القالب الإيجابي قالب سلبي من إحدى مادتين:

١ - الجص، ويستخدم مباشرة بعد جفافه في عمل اللوحات.

٢ - الطين، ويلزمه قبل الاستخدام أن يحرق لإكسابه الصلابة اللازمة.

وقد سبق استخدام هذا الأسلوب في الطراز الثالث من طراز الزخارف الجصية في سامراء (٢٠).

٦ - ترجمة صاحب النقش:

إن منشئ هذه الأسبلة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

غني عن التعريف؛ فقد كُتب عن سيرته وأعماله الخيرة عشرات المؤلفات، ونكتفي هنا بذكر نبذة مختصرة عنه منعاً للتكرار. فقد بدأ مسيرته الحضارية لتوحيد أرجاء الجزيرة العربية باسترجاعه للرياض في ١٣١٩هـ - ١٣٥٠م (١٩٠٢م) (٢١)، ثم تابع أعماله العسكرية خارج مدينة الرياض إلى أن استطاع بمشيئة الله لم شمل المملكة العربية السعودية، وتمكن من بسط الأمن والسلام والاستقرار على أرجاء وطنه، واجتهد في الرقي ببلده من خلال تشجيعه للعلم والصناعة والتجارة والبناء، وجلب كل ما فيه خير، وفيه سبب من أسباب التقدم لمواطن المملكة العربية السعودية (٢٢)، وتوفي عام ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م (٢٣).

٧- ألقاب صاحب النقش:

ورد على النقش لقب «صاحب الجلالة» و «الملك» وقد عُرفت في الدولة الإسلامية أسماء وظائف كثيرة مؤلفة من لفظ صاحب مضاف إلى كلمات أخرى (٢٤)، أما لقب الملك فقد كان من الألقاب التي تطلق على الزعيم الأعظم (٢٥)، وقد تلقب به الملك عبد العزيز بعد ضمّه الحجاز عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م (٢٦).

٨ - وردت كلمة «سنبُل» تحت البسملة في النقشين الأول والثالث، ويلحظ سقوطها من النقش الثاني. ولم أستطع التعرف على شخصيته، ويحتمل أن يكون خطاط اللوحات، ونقش اسمه جرياً على عادة الخطاطين في توقيع أسمائهم على النقوش.

طراز الأسبلة:

يظهر بمقارنتها بتصميم وأسلوب بناء سيبلين عثمانين على الطريق بين مكة وجدة، أحدهما عبارة عن حوض مربع مغطى بقبة، وله فتحات للسقيا، وهذا

يرجع إلى عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م (٢٧)، والآخر عبارة عن حوض مستطيل مغطى بمجاديل حجرية، وله فتحات للسقيا، يرجع تاريخه إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري (٢٨). وبمقارنة هذين السيلين بالأسئلة موضوع البحث نصل إلى ما يلي:

١ - استطاع معمار أسئلة الملك عبد العزيز أن يستمد فكرة تصميم السيل من الأسئلة العثمانية المجاورة دون أن يعتمد إلى مطابقتها، فبينما سقف كل من هذين السيلين بقبة أو بمجاديل حجرية (٢٩)، نجد أن التسقيف بقبو هو الطريقة التي نفذها معمار أسئلة الملك عبد العزيز، وميزها بذلك عن الأسئلة العثمانية، مع الاحتفاظ بفكرة تصميم السيل المتمثلة في عمل حوض للماء يفصل بينه وبين حرارة الشمس غطاء يرتفع عن الحوض، ليكون بذلك عازلاً حرارياً، وهو الهواء الذي يفصل سقف السيل عن سطح الماء، كما يمكن للهواء المرور عبر فتحات السقيا؛ مما يسهل عملية التبريد.

ويلحظ أن هذا الأسلوب يتلاءم مع معطيات البيئة وإمكانات ذلك العصر. ٢ - اتفقت مواد وأسلوب بناء أسئلة الملك عبد العزيز مع السيلين العثمانيين موضوع المقارنة (٣٠). ومما ساعد على هذا أن كل مواد البناء المستخدمة في الأسئلة - سواء ما أنشئ منها في عصر الملك عبد العزيز، أو ما أنشئ في العصر العثماني - من معطيات البيئة المحلية، علاوة على أن الفترة بين نهاية حكم العثمانيين لمكة، وبداية حكم الملك عبد العزيز لها فترة قصيرة تقدر بحوالي تسع سنوات (٣١)، مما يعني استمرار التأثير بالأساليب المعمارية السابقة لعصر الملك عبد العزيز.

الخاتمة

- ١ - نظراً لحاجة الطريق بين مكة وجدة إلى وجود أسبلة لإرواء ظمأ المارين؛ فقد تكفل الملك عبد العزيز - رحمه الله - بإنشائها، وأيد ذلك الكشف عن ثلاثة أسبلة، وأرجو من الله أن يوفق في الكشف عن غيرها.
- ٢ - تم بناء الأسبلة من حرص الملك عبد العزيز على كسب الأجر والثواب من الله، ومن واجب المستولية التي تحملها بعد حكمه للحجاز.
- ٣ - أمدتنا اللوحات التأسيسية بتاريخ إنشاء الأسبلة (١٣٦١هـ / ١٩٤٢م) وهذا ما لم نعر عليه في المراجع التاريخية.
- ٤ - صمم بناء الأسبلة على شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا، ويفطيه قبو موتور، وهذا يتفق مع إمكانات البيئة المحلية ومناخها.
- ٥ - جاء تصميم الأسبلة متأثراً بأسبلة العثمانيين على الطريق بين مكة وجدة لقصر الفترة الزمنية بين نهاية حكم العثمانيين للحجاز وبداية حكم الملك عبد العزيز له حيث إن حكم العثمانيين انتهى عام ١٣٣٤هـ / ١٨١٦م، وبدأ حكم الملك عبد العزيز عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م مما يجعلنا نرى احتمال أن بناء الأسبلة تم على يد معماريين سبق لهم العمل في العصر العثماني.
- ٦ - تم بناء الأسبلة بمواد محلية على نمط المنشآت السابقة لعصر الملك عبد العزيز.
- ٧ - نفذت اللوحات التأسيسية بأسلوب الصب في قالب، وهي طريقة تتناسب مع الإمكانيات المادية المتوفرة في فترة الإنشاء.
- ٨ - لحظت من ترددي على مواقع الأسبلة - للدراسة - حاجتها إلى ترميم

ومحافظة ؛ وعليه فأوصي بترميمها وحمايتها لأهميتها التاريخية والأثرية علاوة على أنها وثائق مادية عن أعمال الملك عبد العزيز في سبيل راحة الحجاج وعابري الطريق .

• • •

الهوامش

- (١) انظر النقوش الكتابية من هذا البحث .
- (٢) أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ط٦ (مكة المكرمة ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ص ٦٤٠ ، ٦٥٨ .
- (٣) خير الدين الزركلي ، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ط٣ ، (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٧م) ، ص ٣٥٥ .
- (٤) خير الدين الزركلي ، الوجيز ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٥) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ، آية رقم ٣٠ .
- (٦) خير الدين الزركلي ، الوجيز ، ص ٨٨ ، ٨٩ .
- (٧) ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه ، حقق نصوصه ، ورقم كتبه وأحاديثه ، وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة ، دار الحديث ، د . ت .) ج٢ ، ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ .
- (٨) ابن ماجه ، سنن ، ج٢ ، ص ١٢١٤ .
- (٩) عن أحداث الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م انظر : اللواء كوتشر بلومنتريت ، أسرار الحرب العالمية الثانية في سيرة أبرز قائد ألماني المشير فون رونشتد القائد الإنسان ، ترجمة اللواء الركن محمود شيت خطاب ، ط٢ (بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د . ت .) ص ١٤٦ - ١٨٤ ، رمضان لاوند ، الحرب العالمية الثانية عرض مصور ، ط٧ (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م) ص ١٦٩ - ٢٥٢ .
- (١٠) محمد طاهر الكردي المكي ، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ط١ (مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ج٥ ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ج٦ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٥ .
- (١١) عبد القدوس الأنصاري ، موسوعة تاريخ مدينة جدة ، ط٣ (القاهرة ، دار مصر للطباعة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ص ٢٢ - ٢٣ .
- (١٢) اللواء إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ، (د . م) ج١ ، ص ٢٧ .

• قسيمة اشتراك •

لوفيق خيكاً مقبول الدفع

باسم داراة الملك عبد العزيز بالرياض/ عن قيمة اشتراك لمدة سنة واحدة على أن ترسل

إلى العنوان الآتي:

الاسم:

العنوان:

رقم التلخيص أو الفاكس:

• الاشتراك: ٢٠ ريالاً داخل المملكة العربية السعودية

•• البلاد العربية ما يماثل ٢٠ ريالاً سعودياً

••• دولارات خارج البلاد العربية.



مجلة لصاية محكمة تصدر عن داراة الملك عبد العزيز

١١٤٦١ الرياض، ٢٩٤٥ ✉

٤٤١٣٩٤٤ - ٤٤١٣٣١٨ ☎

رقم الفاكس: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

المملكة العربية السعودية



• Subscription card •

Please enter my subscription for king abdul Aziz Research Centre



address:

King Abdulaziz Research Center

✉ 2945

Riyadh 11461

☎ 4412318-4413944

Facsimile No.: 00/966/1/4417020

Riyadh - Kingdom of Saudi Arabia



Please bill me

check enclosed for \$

Name

Address

City

Country

☎ Fax

Annual Subscriptions

• Saudi Arabia: 20 Riyals

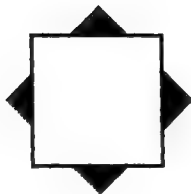
•• Arab Countries: The equivalent of 4 issues Price: SR 20

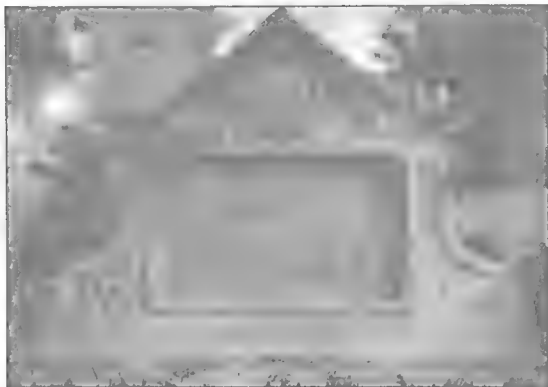
••• Non Arab Countries: US 6\$

- (١٤) عاتق بن غيث البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط ١ (مكة المكرمة، دار مكة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ٨١.
- (١٥) اللواء إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج ١، ص ٢٧.
- (١٦) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، وسيرة عبد العزيز عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، ط ٦ (بيروت، دار الجليل، ١٩٨٨م)، ص ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٤١-٤٤٥.
- (١٧) اللواء إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج ١، ص ٢٨.
- (١٨) دكتور عبد العزيز صقر الغامدي ودكتور محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، مكة المكرمة في شذرات الذهب للغزواني، دراسة وتحقيق ليعض المعالم الجغرافية، (مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٥هـ) ص ٨٢، ٨٣، ١٤٣، ١٥٥، محمد طاهر الكردي المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط ١ (مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٨٥هـ)، ص ١٣٥، ٢٦٥، ٢٦٦.
- (١٩) د. فريد شافعي، زخارف وطرز سامراء، مجلة كلية الآداب، المجلد ١٣، (القاهرة، ديسمبر ١٩٥١م) ص ٧.
- (٢٠) د. فريد شافعي، زخارف وطرز سامراء، ص ٥-٧.
- (٢١) أمين الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٢٦.
- (٢٢) عن هذه الأعمال انظر على سبيل المثال: خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ط ٢ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، أربعة أجزاء.
- (٢٣) سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، ط ٢ (الرياض، مطابع المدينة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج ١ ص ١٨٧.
- (٢٤) د. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية (القاهرة، دار النهضة العربية)، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٦٥٤.
- (٢٥) د. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، ج ٣، ص ١١٣٩.
- (٢٦) خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة، ج ٢ ص ٦٥٠، سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، ج ١ ص ١٥٠.
- (٢٧) عادل محمد نور عبد الله غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني. دراسة حضارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى ١٤١٠هـ، ج ١ ص ٢٦٦، ٤٣٦، ٤٣٧.
- (٢٨) عادل غباشي، المنشآت المائية، ج ١ ص ٢٦٧، ٤٣٨، ٤٣٩.
- (٢٩) عادل غباشي، المنشآت المائية، ج ٢، لوحة رقم (١١٩، ١٢٤)، وشكل رقم (٤١، ٤٥، ٤٨).

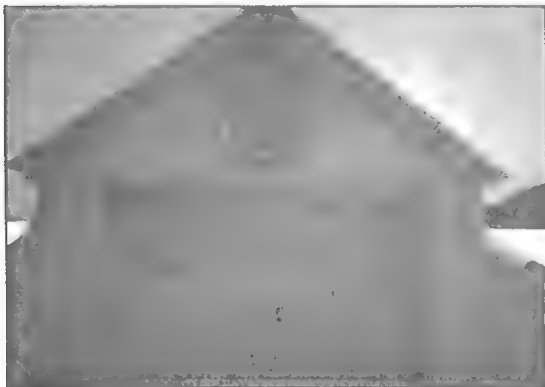
(٣٠) عن أسلوب بناء الأسبلة العثمانية على الطريق بين مكة وجدة : انظر عادل غباشي ، المنشآت المائية ، ج١ ص ٤٣٨ .

(٣١) بدأت ثورة الشريف حسين بن علي أمير مكة على الأتراك العثمانيين عام ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م ، واستمر في حكمه لها إلى عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م ، أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ .





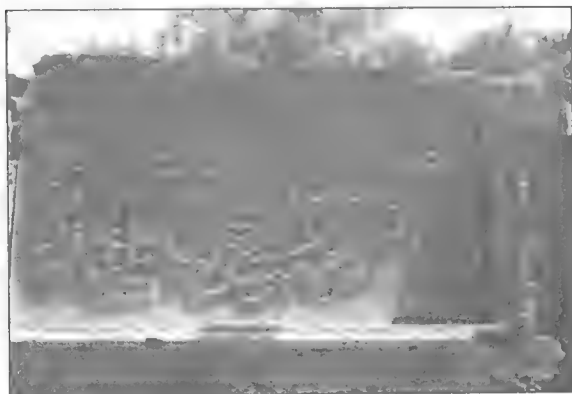
لوحة رقم (١): نقش كتابي لإنشاء سبيل أم القرون عام ١٣٦١ هـ.



لوحة رقم (٢): نقش كتابي لإنشاء سبيل حزام عام ١٣٦١ هـ.



لوحة رقم (٢٣) : جنة باب السلسلة كانت جمع قبور تليقي لاهل سبيل بئر القنطرة.



لوحة رقم (١) : نقش كتابي لإنشاء سبيل بئر القنطرة عام ١٣٦١ هـ.



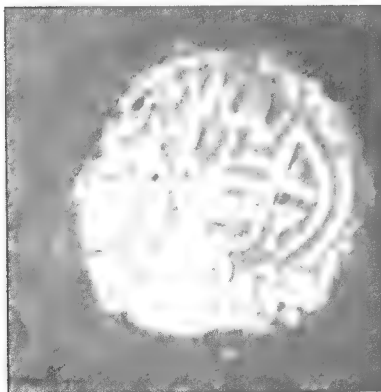
لوحة رقم (٥) : الواجهة الغربية لسبيل أم القرون.



لوحة رقم (٦) : الواجهة الغربية لسبيل حذاء.



لوحة رقم (٧): فتحات السقيا وسمك الجدار في سبيل حذاء .



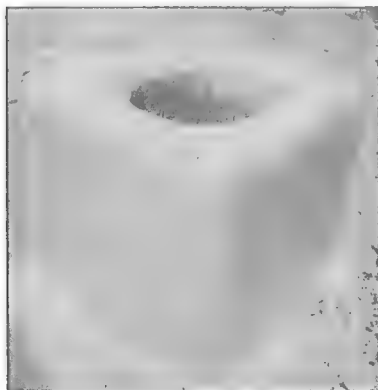
لوحة رقم (٨): حوض نقل المياه إلى
سبيل حذاء .



لوحة رقم (٩): ماسورة فتعارية لنقل المياه من الحوض الخارجي إلى سبيل حذاء.

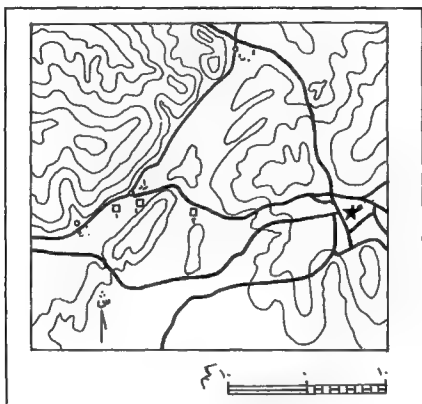


لوحة رقم (١٠) : الواجهة الغربية لسبيل بئر المكتلة .



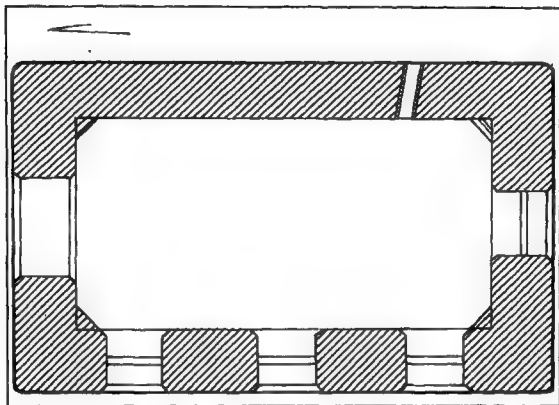
لوحة رقم (١١) : اسلوب تنسيق

سبيل بئر المكتلة .

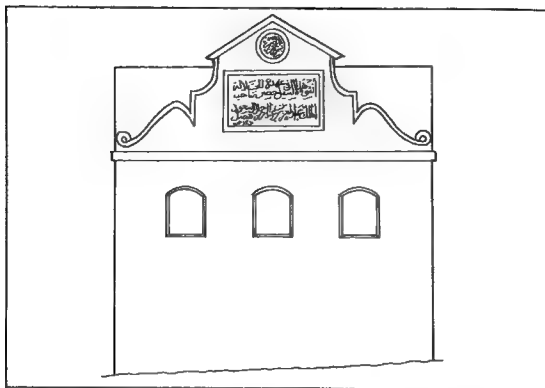


شكل رقم (١): خارطة لمواقع الأسيلة على الطريق بين مكة وجدة:

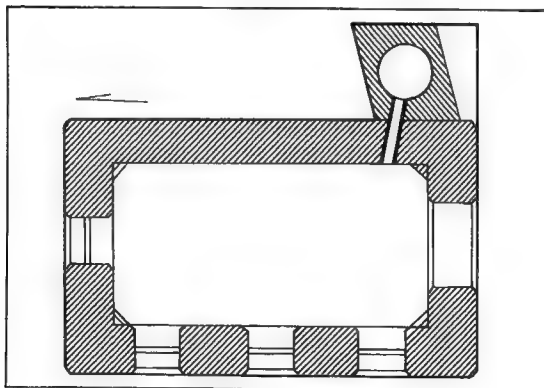
١ - سبيل بئر أم القرون . ٢ - سبيل حذاء . ٣ - سبيل بئر المعلقة .



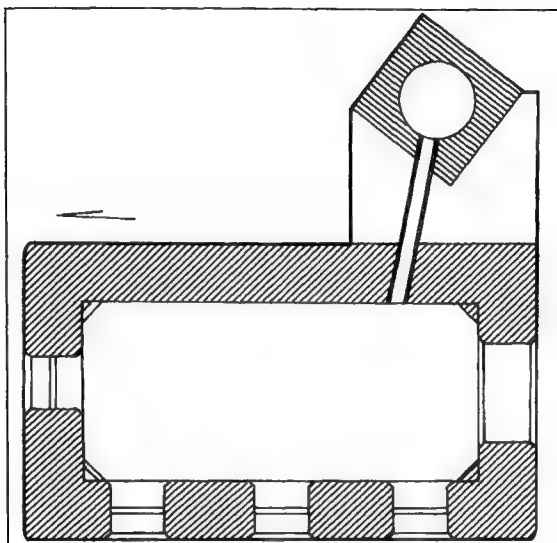
شكل رقم (٧): مقطع أثري لسيل بئر أم القرون.



شكل رقم (٣): الواجهة الغربية لسبيل حذاء.



شكل رقم (٤): مسقط الفتي لسبيل حذاء.



شكل رقم (٥): مخطط انقي لسبيل بئر المفتلة .

قراءة في مكتبة الملك عبد العزيز

بقلم : عبد الله بن حمد الحقييل



ما أكثر الجوانب المضيئة في حياة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه، ويأتي الاهتمام بالكتاب والعناية بالمعرفة ونشر التوعية والثقافة في مقدمة اهتماماته ولقد تجلّى ذلك واضحا في اهتمامه بالتعليم باعتباره أساسا في نشر الدعوة الإسلامية التي قامت على أساسها الدولة السعودية منذ نشأتها، ولقد تجسّد هذا الاهتمام في طباعة ونشر الكتب القيمة على نفقته الخاصة وفي معظم خطابات وأحاديثه كان يحرص على تأكيد هذه الحقيقة.

لقد كان الكتاب يحظى بالمقام الأول من اهتمامه ولقد كان على قدر كبير من المعرفة إلى جانب حنكته السياسية وعبقريته المستنيرة حيث بنى دولة العلم والإيمان المرتبطة بروح الإسلام الحقة وأحيا معالم الدين والحفاظ على تعاليمه ونشر التعليم ووطن البادية وبعث بالعلماء والمرشدين إلى مختلف المدن والقرى وكان - يرحمه الله - يرى أن نشر الثقافة والعلم والمعرفة من الركائز الأساسية لمحاربة الجهل والفقر والمرض فأنشأ العديد من المعاهد والمدارس كدار التوحيد والمعاهد العلمية وكلية الشريعة في كل من الرياض ومكة المكرمة ودعم إصدار الصحف والمجلات والمطابع وكان للعلماء مكانتهم الخاصة والأخذ بنصائحهم المستندة على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

ومن الصحف التي صدرت في عهده رحمه الله جريدة أم القرى وهي الجريدة الرسمية للدولة وصدر العدد الأول منها عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م ، كما أصدر الشيخ عبد القدوس الأنصاري أول مجلة متخصصة في الثقافة والآداب في عهد الملك عبد العزيز وكان ذلك في عام ١٣٥٥هـ حين أصدر مجلة المنهل وما زال صدورها مستمرا .

كما استعان بالكفاءات العربية من ذوي الثقافة والمعرفة كالزركلي ويوسف ياسين والخطيب وغيرهم وتنوعت مصادر الأدب والفكر والثقافة والاهتمام بإحياء وطبع كتب التراث والأدب والفكر الإسلامي وتحقيق المخطوطات وتخصيص مكافآت شهرية للعلماء والأدباء والشعراء وإنشاء المكتبات العامة ولقد وصف «فيلبي» الملك عبد العزيز بأنه حاكم مثقف ولقد قابل عددا كبيرا من المفكرين والرحالة والمستشرقين فكان إعجابهم به كبيرا ووصفوه بأنه صاحب عبقرية وذكاء متميز، ولقد بهرت سيرته وإنجازاته وتاريخه مواهب الشعراء وتباهى الأدباء والشعراء والمؤرخون بتلك السيرة العطرة والمثالية المتألقة والاهتمام والعناية بالعلم والمعرفة والأدب والتعليم والصحافة والمكتبات وطبع كتب التراث وجمع المخطوطات وتحقيقها ونشرها مما كان له أثره وفاعليته في نشاط الحركة الثقافية في البلاد .

إن من يقرأ سيرة الملك عبد العزيز، رحمه الله سيدرك أنه بطل عظيم وعبقري فذ غرس أعظم وحدة في تاريخ هذا الوطن . وإن سيرته لتاريخ ناصع لا ينضب معينه . فقد كان عهده عهد إنشاء وبناء وتأسيس .

ومنذ استرد الملك عبد العزيز مُلك آل سعود، أقام دولته على أسس راسخة ، ونشر الأمن والطمأنينة في أنحاء المملكة، كما أصبح العدل شريعة تطبق في كل شبر من أرضها ولم ينس فضل العلم بل كان حريصا على أن يتزود

به كل فرد من أبناء شعبه .

وإذا كان رحمه الله قد أرسى دعائم دولته الجديدة على العلم والإيمان ، فإن مكتبته لخير شاهد على مدى اهتمامه بالعلم ، وتعكس لنا حبه ومنزلته بالنسبة له . فجهوده المباركة في نشر العلم والمعرفة واضحة ملموسة وإن مكتبته الحافلة تدل على اهتمامه بالعلم وحرصه على نشر المعرفة بإلحاح من أثر إيجابي . ولقد حرص رحمه الله على نشر طباعة أمهات الكتب الإسلامية ونشرها مجاناً في جميع أنحاء المملكة وتوزيعها في العالم الإسلامي على حسابه الخاص .

وإن الجانب الثقافي في حياة الملك عبد العزيز لعظيم جداً . فقد حرص على تنقية العقيدة الإسلامية من الخرافات والبدع كما اتخذ خطوات عديدة نحو نشر العلم وطباعة الكتب الإسلامية النافعة . وكان يكتب التوجيهات والنصائح الدينية التي تحت على العقيدة السلفية الصحيحة . ولقد طبعت في الفترة الأولى من حكمه عدة كتب لابن تيمية وابن القيم وأحمد بن حنبل ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم من علماء الإسلام كما استضاف العديد من علماء الإسلام الذين يدينون بالعقيدة السلفية الصافية كما شجع الأدب والتراث وكان يحفظ الكثير من الأشعار ويتمثل بها وكان مجلسه الخاص والعام لا يبدأ إلا بعد درس في القرآن والحديث والسيرة النبوية كما أنشأ جريدة أم القرى والتي كانت تنشر الفكر السليم والثقافة والأخبار والتراث الجليل وغير ذلك من الأسس الفكرية والبذور الثقافية والمقومات العلمية التي كانت النواة للمستوى الثقافي والعلمي الذي نعيش فيه . حيث وضع لبنات هذا الكيان . ولذا فقد أقام دولته على أسس راسخة من العلم والإيمان ولقد كان من أهم أسباب نجاح جلالته - رحمه الله - هو تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فاتخذ من كتاب الله دستوراً يعمل بموجبه وطبق أحكام الشريعة الإسلامية السمحة .

فنشر الأمن والطمأنينة في أنحاء المملكة . وأصبح العدل شريعة تطبق في كل شبر من أراضيها .

ولم ينس فضل العلم والأدب ، بل كان حريصا على أن يتزود بذلك كل فرد من أبناء شعبه . فأنشأ كثيرا من المدارس الحديثة بمراحلها المختلفة في معظم بلدان المملكة ، وأرسل بعوثا إلى الخارج . واستقدم في عهده المعلمين من الدول العربية الشقيقة . ثم أخذ في طبع الكثير من الكتب العلمية والثقافية . ووجه عناية خاصة إلى كتب العلوم الإسلامية المخطوطة . فأمر بطبع طائفة منها مجانا . وتوزيعها كما طبعت على نفقته كتب كثيرة في الهند ومصر لم يذكر عليها اسمه . إلا ما جاء على بعض مطبوعاته في الهند من أنها طبعت على نفقة من قصده الثواب من رب الأرباب . كما أمر بشراء مجموعات من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب ، القديمة والحديثة لتوزيعها مجانا .

ولقد كان من شدة اهتمامه بجلالته بالعلم والأدب ، أنه كان له مجلس يومي يبدأ بعد صلاة العشاء وينتهي بانقضاء سهرة الملك . يفتح هذا المجلس بالدرس الذي تتلى فيه أنواع مختلفة من الكتب في التفسير والتاريخ والأدب . وكانت العادة أن يبدأ بتفسير القرآن ، ويشي بالتاريخ . ويتناول الحاضرون من أهل المعرفة وسواهم من الجالسين ، ما يشار من تساؤلات ومناقشات بتعليقاتهم .

وكان هذا المجلس يزدان بالمقرئين والعلماء من أمثال الشيخ حمد بن فارس والشيخ عبد الله بن أحمد العجيري ، حيث كان يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكان راوية يحفظ مسند الإمام أحمد عن ظهر قلب وأخبار العرب وأقوال الشعراء والحكماء والأدباء .

وكان لجلالته عناية باختيار القراء ولا بد أن يكون من حفاظ القرآن الكريم

والعارفين باللغة العربية ومن ذوي الأصوات الحسنة والاطلاع الجيد .
وكان رحمه الله يستقبل العلماء ويجتمع بهم في كل يوم خميس من كل أسبوع في
جلسة عامة مفتوحة في قصره .

وفي موسم الحج كان يلتقي بكبار العلماء والزعماء للعالمين العربي
والإسلامي ، ويناقش معهم القضايا الإسلامية ومسائل العقيدة الإسلامية ، كما
بعث الدعاة والمرشدين إلى العالم الإسلامي .

وكان سخيًا في الإنفاق على إحياء كتب التراث الإسلامي . ويذكر خير
الدين الزركلي أن الملك عبد العزيز قد وجه عناية خاصة إلى كتب العلوم
الإسلامية المخطوطة ، فأمر بطبع طائفة منها وتوزيعها مجانًا .

من تلك الكتب :

- | | |
|-----------|--|
| ٩ مجلدات | التفسير : تفسير القرآن الكريم ، للإمامين ابن كثير والبغوي |
| ١ | أوضح البرهان في تفسير أم القرآن للمعصومي |
| ١٤ | التاريخ : البداية والنهاية لابن كثير |
| ١ | طبقات الحنابلة ، لابن أبي يعلى |
| ٢ في مجلد | روضة الأفكار (تاريخ ابن غنام) |
| | الفتاوى : مجموعة الرسائل والمسائل النجدية . لجماعة |
| ٤ | من علماء نجد |
| ٤ | الدرر السنية في الأجوبة النجدية لجماعة من علماء نجد |
| ١ | مجموعة رسائل وفتاوى ، لشيخ الإسلام بن تيمية |
| ١ | مجموعة رسائل وفتاوى . لبعض علماء نجد |
| | الفقه وأصوله : المغني والشرح الكبير ، لموفق الدين وشمس الدين |
| ١٢ | ابني قدامة |

- ١ الثلاثة الأصول والأربعة القواعد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب
- ١ روضة الناظر، لابن قدامة، مع شرح لبدران
- ١ مجموعة المتنون في الفقه والتوحيد، لبعض علماء نجد
- ١ الحديث : كتاب السنة، لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل
- مجموعة الحديث النجدية، لبعض علماء الحديث،
- ١٢ وجامع الأصول لابن الأثير
- ٨ شرح تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم، معالم السنن، للخطابي
- ٣ مختصر السنن، للمنذري
- ٣ الأدب : الآداب الشرعية لشمس الدين ابن مفلح
- ١ روضة المحيين، لابن قيم الجوزية
- ١ ديوان ابن سحمان
- ١ التوحيد : التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لابن خزيمة
- ١ مجموعة التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب وآخرين
- ١ فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن
- ١ الهداية السنية
- ٦ الفقه : كشف القناع، للبهوتي
- ٣ شرح منتهى الإرادات، للبهوتي
- ١ زاد المستقنع، لشرف الدين الحجاوي
- ١ عمدة الفقه، لموفق الدين ابن قدامة
- ١ مناقب : مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي
- ١ العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي
- ١ متفرقات : الفروسية، لابن قيم الجوزية

- ١ عمدة الأخبار في مدينة المختار، لأحمد بن عبد الحميد العباسي
١ يسر الإسلام، للسيد محمد رشيد رضا
١ تاريخ القرآن الكريم وغرائب رسمه وحكمه، لمحمد طاهر الكردي
١ خديجة أم المؤمنين للسيد عبد الحميد الزهراوي

ولقد كانت مكتبة جلالة الخاصة خير شاهد على ما ذكرناه كما أنها تعكس لنا مدى اهتمام جلالة بعلوم الدين الإسلامي ودعوته المستمرة للتمسك بمبادئه والعمل بأحكامه، وتحتوي هذه المكتبة على ١٥٥١ مجلداً في شتى فروع المعرفة الإنسانية. تحتل كتب الدين الإسلامي بعلومه المختلفة من التفسير والحديث والفقه والتوحيد والسيرة النبوية ٣٥٪ منها، أي ما يزيد عن ثلث المكتبة، كما بلغت نسبة الكتب التاريخية والجغرافية وكتب الترجمة أكثر من ٢٥٪ معظمها من التاريخ الإسلامي والعربي في عصوره المختلفة بالإضافة إلى تاريخ الدول الأوروبية والآسيوية والأفريقية، أما اللغة العربية وآدابها فقد لقيت مكاناً رحباً في مكتبة جلالة، إذ بلغت نسبتها ما يقرب ٢٠٪ فيها دواوين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الحديث بالإضافة إلى المعاجم اللغوية وقواميس المصطلحات وكتب النحو وتنوعت النسبة الباقية من المكتبة بين كتب السياسة والقانون الدولي، والعلوم العسكرية والطب، والاقتصاد، والزراعة، بالإضافة إلى الكتب العامة والموسوعات العربية مثل: صبح الأعشى للقلقشندي، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، ودائرة معارف بطرس البستاني.

وتضم المكتبة في داخل الموضوعات العديد من أمهات الكتب، من بينها ما قد مضى على طباعته ما يزيد على مائة عام، مما يضعها في عداد الكتب النادرة.

كما تحتوي على بعض المخطوطات منها (نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب المسماة المقصد الجليل في علم الخليل).

ولقد لقيت مكتبة الملك عبد العزيز - رحمه الله - اهتماما بالغاً، كان لجامعة الملك سعود شرف استلامها، فاهتمت بتجليد مجموعاتها للحفاظ عليها، وجندت لها الخبراء، والفنيين الذين تولوا فهرستها وتصنيفها وإعداد فهرسي المؤلف والعنوان، وعندما أنشئت دارة الملك عبد العزيزو بالمرسوم الملكي الكريم رقم م/ ٤٥ وتاريخ ١٣٩٢/٨/٥ هـ نصت الفقرة (د) من المادة الثالثة من نظامها على إنشاء قاعة تذكارية تضم كل ما يصور حياة الملك عبد العزيز وآثار الدولة السعودية منذ نشأتها.

فكان أن انتقلت المكتبة إلى الدارة في شوال ١٣٩٢ هـ ووضعت في مكان خاص، وهيمء لهذا الغرض داخل القاعة التذكارية، بتصدرة مكتب جلالة الذي أهدها إليه الرئيس الأمريكي ترومان في عام ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥٠ م وهو مصنوع من خشب الأرو الممتاز.

ولقد نشرت قائمة ببيوجرافية لمحتويات هذه المكتبة في العديدين الأول والثاني من السنة الأولى لمجلة (الدارة) - حتى يتبين للقارئ والباحث أهمية هذه المكتبة من استعراض محتوياتها فهي تشمل على الآتي :

الموسوعات العربية، الدوريات العربية العامة، المؤلفات المجموعة، الدراسات النفسية، المنطق والأخلاق، الدين الإسلامي، القرآن وعلومه، التفسير - الحديث وعلومه، أصول الدين، الفقه وأصوله، فقه المذاهب الإسلامية، الأخلاق الإسلامية، السيرة النبوية، العلوم العسكرية، الإدارة العامة، الاقتصاد، اللغة العربية وآدابها، الطب، الأدب، الشعر، التاريخ، أداب اللغات الأخرى، الجغرافيا، التراجم، الفلاسفة، الملوك والرؤساء

والقادة، اللغويون، رجال الأدب، الأنساب، التاريخ القديم، وغير ذلك من العلوم والمعارف والآداب من أمهات الكتب ونوادرها .

وهكذا في مجال الاهتمام بالعلم والعلماء تبدو أعمال الملك عبد العزيز مشرقة في تاريخ هذه البلاد، وأن تاريخه سجل طويل مفعم بالأخلاق والمبادئ والقيم وسيظل التاريخ شاهداً أميناً على ذلك، ما تعاقب الليل والنهار وقصارى القول فتلك نفحات قليلة من تاريخ حافل مجيد، وإلمامة سريعة تبرز العناية والاهتمام بكل نواحي الثقافة والفكر.

ونأمل أن يكون في هذا العرض الموجز الإيضاح عما تضمنته هذه المكتبة الزاخرة، في شتى فروع العلم والمعرفة والثقافة، حيث كان جلالتة يهتم بالكتاب والعلم والعلماء ونشر العقيدة الإسلامية مما حقق نتائج طيبة وجميدة، جعل مؤرخي الأدب يجمعون على تسمية عهد الملك عبد العزيز بعهد النهضة الفكرية نتيجة دعمه السخي في شتى حقول المعرفة والعطاء المتميز للعلم والمعرفة والدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين .



«كشاف» بما نشر عن الملك عبد العزيز «طيب الله ثراه» في مجلة الدارة

إعداد: عبد الله إبراهيم الحقييل

- * الصلة التاريخية بين البحرين والمملكة في عهد الملك عبد العزيز، السنة ١١ - العدد ٤ رجب ١٤٠٦ هـ - علي عبد الرحمن أبا حسين .
- * علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز - يرجمه الله - ١٩٠٢ - ١٩٢٥ م . السنة ١١ عدد ٤ رجب ١٤٠٦ هـ - تركي بن محمد بن سعود الكبير .
- * الإذاعة في عهد الملك عبد العزيز، السنة ١٥ ، العدد ٤ شوال ١٤١٠ هـ ، محمد معوضين إبراهيم .
- * الأصول التاريخية للموقف السعودي من الصراع العربي الإسرائيلي . مرحلة الملك عبد العزيز ١٩١٥ - ١٩٥٣ م . السنة ١٢ العدد ١ ، شوال ١٤٠٦ هـ . عبد الله حسن الأشعل .
- * الملك عبد العزيز ورحلة الكفاح من أجل العروبة والإسلام ، السنة ٩ العدد ١ ، شوال ١٤٠٣ هـ . أحمد حامد .
- * إنهاء الملك عبد العزيز للامتيازات الأجنبية في الحجاز ١٩٢٦ - ١٩٢٧ م . السنة ١٠ العدد ١ ، شوال ١٤٠٤ هـ . جمال محمود حजर .
- * عبد العزيز في مسيرة التاريخ السنة ١١ ، العدد ٣ ، ١٤٠٦ هـ ، محمد حسين زيدان .

- * قالوا عن البطل عبد العزيز. السنة ١٠ العدد ٣، ١٤٠٥هـ، محمد حسين زيدان.
- * المفاوضات التي أدت لعقد معاهدة ١٩١٥م، بين الإمام عبد العزيز آل سعود وبريطانيا السنة ١٥، العدد ٤، شوال ١٤١٠هـ. خالد حمود السعدون.
- * السياسة المالية في عهد الملك عبد العزيز السنة ١١، العدد ٤، رجب ١٤٠٦هـ. صالح محمد الشعيبي.
- * عوامل نجاح الملك عبد العزيز في توحيد البلاد السنة ١٢، العدد ٤، رجب ١٤٠٦هـ. عبد الله الصالح العثيمين.
- * العلاقات السعودية الألمانية في عهد الملك عبد العزيز، السنة ١٢، العدد ٢، ١٤٠٧هـ هلموت مايشر.
- * عبد العزيز بن سعود مؤسس دولة إسلامية حديثة. السنة ١١، العدد ٤، رجب ١٤٠٦هـ. ترجمه بتصرف سعيد عبد العزيز عبد الله.
- * الملك عبد العزيز كما يصفه ابنه فيصل. السنة ١، العدد ١، ١٣٩٥هـ.
- * رسالة من تشارلز كرين إلى الرئيس روزفلت، يصف فيها الملك عبد العزيز. السنة ٣، العدد ١، السنة ١٣٩٧هـ، عبد الفتاح أبو عليّة.
- * الملك عبد العزيز وتنظيم المملكة. السنة ٢، العدد ٢، رجب ١٣٩٦هـ، محمد أحمد حنفي.
- * لوحة توضيحية لآل سعود «شجرة النسب» السنة ٥٣ العدد ٤، صفر ١٣٩٨هـ. الدارة.
- * الملك عبد العزيز وجهاده الطويل في مسيرة البناء وتوحيد الوطن، السنة ١٠، العدد ٢، المحرم ١٤٠٥هـ عبد الله حمد الحقيّل.
- * جوانب مضيئة لمسيرة التعليم في عهد الملك عبد العزيز، السنة ١١، العدد

- ٤ ، رجب ١٤٠٦ هـ ، عبد الله حمد الحقيـل .
- * وميض من سيرة الملك عبد العزيز ، ظاهرة توطين البداية ، السنة ١١ ، العدد ٢ ، المحرم ١٤٠٦ هـ ، عبد الله حمد الحقيـل .
- * الملك عبد العزيز يعلن : إني مسافر إلى مهبط الوحي لبسط أحكام الشريعة : إني استقبلت الطريق إلى مكة غير باغ ولا آثم ، السنة ١٠ ، العدد ٢ . المحرم ١٤٠٥ هـ . عبد الواحد راغب .
- * أسلوب الملك عبد العزيز في الإدارة ، السنة ١١ ، العدد ٤ ، رجب ١٤٠٦ هـ . عبد العزيز الخويطر .
- * الملك عبد العزيز كما صوره الشعراء العرب ، السنة ٢ ، العدد ١ ، ١٣٩٦ هـ . عبد الله بن إدريس .
- * أضواء على أسماء بعض الكتب التي تناولت سيرة الملك عبد العزيز آل سعود السنة ١١ ، العدد ٢ ، ١٤٠٦ هـ ، محمد الحمدان .
- * الملك عبد العزيز في شعر جنوبي الجزيرة العربية خلال الفترة ١٣٣٨ - ١٣٧٣ هـ . السنة ١١ ، العدد ٢ ، المحرم ١٤٠٦ هـ ، عبد الله محمد أبو داهش .
- * كتاب الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز ، تأليف عبد الفتاح أبو عليـة - السنة ٤ ، العدد ١ - ١٣٩٨ هـ ، علي الحاج بكري .
- * وثائق عن تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبد العزيز ١٩٠٢ - ١٩٥٣ م السنة ٤ ، العدد ١ ، ١٣٩٨ هـ ، عبد الفتاح أبو عليـة .
- * الملك عبد العزيز والمؤتمر ، السنة ١١ ، العدد ٤ ، ١٤٠٦ هـ . محمد حسين زيدان .
- * خطابان صادران عن الملك عبد العزيز بشأن الشاعر محمد بن عثيمين ، السنة ٣ ، العدد ١ ، ١٣٩٧ هـ ، من وثائق الدارة .

بيان بالمؤلفات التي تناولت شخصية الملك عبد العزيز (رحمه الله) وقد تم ترتيبها على نهرس العناوين

إعداد - فيحان العتيبي

- (١) ابن السعود، تأليف محمد صبيح، القاهرة، دار الثقافة العامة
١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م.
- (٢) ابن سعود، سياسته، حروبه، مصطفى الحفناوي، عن وليمز وارمسترونج،
القاهرة، المطبعة المصرية، ١٣٥٣هـ.
- (٣) ابن سعود، وقضية فلسطين، التاريخ، المؤامرة، القضية، أحمد عبد الغفور
عطار، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ.
- (٤) أسرار لقاء الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت، أحمد حسين العتيبي،
جدة، ١٤٠٤هـ.
- (٥) أسود آل سعود، وتجربتي في الحياة، إبراهيم بن عبد الرحمن آل خميس،
بيروت دار النجاح ١٩٧٢م.
- (٦) أصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود، عبد الله العلي الزامل، بيروت
المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ١٣٩٢هـ.
- (٧) الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز، عبد الفتاح حسن أبو علي،
الرياض دار الملك عبد العزيز ١٣٩٦هـ.
- (٨) أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه، محمد
إبراهيم رحمو - الرياض - دار الملك عبد العزيز ١٤٠٢هـ.

٩) الأمن في المملكة العربية السعودية، بحبي عبد الله المعلمي، الرياض ١٣٩٨هـ.

١٠) إنسان الجزيرة - إبراهيم عبدة - القاهرة - مكتبة الآداب ١٩٥٤ م.

١١) بناء المملكة العربية السعودية في التاريخ الحديث والمعاصر، عبد العزيز رفاعي وسيد أحمد يونس، القاهرة - المكتبة العالمية ١٣٩٨هـ.

١٢) تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، تأليف مديحة أحمد درويش، جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ١٤٠٠هـ.

١٣) تاريخ الدولة السعودية من محمد بن سعود إلى عبد الرحمن الفيصل، أمين سعيد، الرياض - مطبوعات دار الملك عبد العزيز.

١٤) تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، صلاح الدين مختار - بيروت - دار مكتبة الحياة ١٣٧٦هـ.

١٥) تاريخ نجد وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، أمين الريحاني، الرياض - منشورات الفاخرية، بيروت، دار الكاتب العربي ١٩٨١ م.

١٦) تذكرة أولى النهي والعرفان بأيام الله الواحد الخنان، وذكر حوادث الزمان إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، الرياض - مطابع النور.

١٧) التطور التشريعي في المملكة العربية السعودية، محمد عبد الجواد محمد، الإسكندرية، منشأة المعارف ١٩٧٧ م.

١٨) توحيد المملكة العربية السعودية، تأليف محمد المانع (ترجمة)، عبد الله الصالح العثيمين، الدمام، مطابع المطوع، الدمام، ١٤٠٢هـ.

١٩) حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، تأليف رابع لطفي جمعة - الرياض -

- مطبوعات دار الملك عبد العزيز ١٤٠٢هـ.
- (٢٠) خمسون عامًا في جزيرة العرب، حافظ وهبة - القاهرة - مصطفى الحلبي ١٣٨٠هـ.
- (٢١) الذكرى العربية الذهبية، عبد الله فليبي (ترجمة) مصطفى كمال فايد - القاهرة، مطبعة الاعتماد ١٣٧٢هـ.
- (٢٢) رحلة الربيع، فؤاد شاكر، جدة، دار تهامة، ١٤٠٣هـ.
- (٢٣) الرحلة الملكية عام ١٣٤٣هـ، تدوين يوسف ياسين، جمع وتعليق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ - الرياض - وزارة المعارف، ١٣٨٩هـ.
- (٢٤) السعودية وهموم العرب خلال نصف قرن، محمد عنان، بيروت - المكتب العالمي للطباعة والنشر ١٩٧٨م.
- (٢٥) السعودية والحل الإسلامي، محمد جلال كشك، القاهرة ١٤٠٤هـ.
- (٢٦) شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، خير الدين الزركلي - بيروت - دار القلم ١٣٩٠هـ.
- (٢٧) صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية، عمر أبو النصر - بيروت، مكتب توزيع المطبوعات ١٩٥٣م.
- (٢٨) سقر الجزيرة، أحمد عبد الغفور عطار، مكة المكرمة، ١٣٩٩هـ.
- (٢٩) سقر الصحراء، بيار روفاليل - بيروت، منشورات حمدو محبو ١٩٧٢م.
- (٣٠) صور من حياة عبد العزيز، يرويه طلال بن عبد العزيز آل سعود، إعداد كمال الكيلاني - الرياض - مطابع حنيقة للأوفست ١٤٠٥هـ.
- (٣١) طويل العمر الملك عبد العزيز آل سعود - محي الدين رضا - القاهرة ١٩٥٠م.

- (٣٢) ظاهرة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، عبد العزيز محمد الأحيدب - الرياض - مطابع الاشعاع التجاري .
- (٣٣) عاهل الجزيرة : عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، عبد الرحمن نصر - القاهرة - مطبعة مصر .
- (٣٤) عبد العزيز : تأليف د. فون ميكوستي، ترجمه أمين رويحة - بيروت .
- (٣٥) عبد العزيز آل سعود، سيرة بطل ومولد مملكة، تأليف بنوا ميشان (ترجمة) عبد الفتاح ياسين - بيروت - دار الكاتب العربي ١٣٨٥ هـ .
- (٣٦) عبد العزيز آل سعود وعبقورية الشخصية الإسلامية، عبد العزيز شرف ومحمد إبراهيم شعبان، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٣ م .
- (٣٧) عبد العزيز في التاريخ، حمد إبراهيم الحقييل - بيروت - مؤسسة المعارف ١٣٨٨ هـ .
- (٣٨) العلاقات بين نجد والكويت من ١٣١٩ - ١٣٤١ هـ، خالد حمود السعدون - الرياض - دار الملك عبد العزيز ١٤٠٣ هـ .
- (٣٩) عناية الملك عبد العزيز بنشر الكتب، عبد العزيز الرفاعي - مكتبة الملك فهد ١٤٠٧ هـ .
- (٤٠) لمحة من سيرة الملك عبد العزيز، محي الدين رضا - القاهرة - مطبعة العلوم ١٩٤٦ م .
- (٤١) محمد بن عثيمين، شاعر الملك عبد العزيز، تأليف السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، الرياض - دار الملك عبد العزيز ١٣٩٩ هـ .
- (٤٢) المصحف والسيوف، مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، جمع وإعداد محيي الدين القاسبي .

- (٤٣) مع عاهل الجزيرة العربية، عباس محمود العقاد، بيروت - المكتبة العصرية.
- (٤٤) الملحمة الشعبية في تأسيس المملكة العربية السعودية، عبد الله العلي الزامل - الرياض، ١٣٩٩ هـ.
- (٤٥) ملحمة عيد الرياض، بولس سلامة، بيروت، المؤلف ١٩٦٦ م.
- (٤٦) الملك الراشد، جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، عبد المنعم الفلامي - الرياض، دار اللواء، ١٤٠٠ هـ.
- (٤٧) الملك عبد العزيز في مرآة الشعر، عبد القدوس الأنصاري، الرياض - دار الملك عبد العزيز ١٤٠٣ هـ.
- (٤٨) الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت ١٣٤٣ هـ، ماضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود، جدة - دار تهامة، ١٤٠٢ هـ.
- (٤٩) ملوك العرب، رحلة في البلاد العربية، تأليف أمين الريحاني، بيروت - ١٩٦٠ م.
- (٥٠) من حياة الملك عبد العزيز، عبد العزيز محمد الأحيدب، الرياض - ١٣٩٩ هـ.
- (٥١) من شيم الملك عبد العزيز، فهد المبارك - الرياض - على نفقة الأمير سلطان بن عبد العزيز.
- (٥٢) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، خير الدين الزركلي، بيروت - دار العلم للملايين، ١٩٧٧ م.

Cover Picture:

The writer's views do not necessarily reflect those of the magazine

- Articles are technically regardless of the writer's prestige.
- Articles can not be returned to authors whether published or not.



PRICE PER ISSUE

Saudi Arabia:	3 Riyals	Morocco :	5 Dirhams
U.A.E.:	4 Dirhams	Tunisia:	400 Millimes
Qatar:	4 Riyals	Non - Arab	
Egypt:	40 Piastres	Countries:	1 US.\$

ANNUAL SUBSCRIPTIONS

Saudi Arabia:	20 Riyals
Arab Countries:	The equivalent of 4 issues prices: SR20
Non - Arab Countries:	US.\$ 6.

SUBSCRIPTIONS

Subscriptions should be directed to King Abdullaziz

DISTRIBUTORS

Khazindar: Co For distribution Advertising	✉ 457 Riyadh 11411	☎ 4626590 - 4626616
	Fax: 4626590-4626616	Telex: 401319 K.E.S.J.
Abu Dhabi:	✉ 13778, Abu Dhabi	☎ 323011
Dubai: Dar Al-Hikma Library,	✉ 2007, Dubai	☎ 228552
Qatar: Dar- Al-Thaqafa,	✉ 323, Duha	☎ 413180
Bahrain: A-Hilal Distributing Est.,	✉ 224, Manama	☎ 262026
Egypt: Al-Ahram Distributing Est.	✉ Al Gala'a Street, Cairo	☎ 755500
Tunisia: The Tunisian Distributing Company	✉ 5, Nahg Kartaj	
Morocco: Al-Sharifia Distributing Company	✉ 683, Casablanca 05.	

GENERAL SUPERVISOR

H.E. Prof. Khalid Bin Mohammed Al-Angari
Minister of Higher Education & Head of the Board of
Directors of King Abdul-Aziz Research Centre

EDITORIAL DIRECTOR

Abdullah Hamad Al-Hoqail

EDITORIAL DIRECTOR

Dr. Mansour Ibrahim Al-Hazmi
Abdullah Abdul-Aziz Bin Edris
Dr. Abdul Rahman Al-Tayyeb Al-Ansari
Dr. Abdullah Al-Saleh Al-Uthaymeen
Dr. Mohammed Al-Sulayman Al-Sudais

Editorial & Technical Supervisor

Mustafa Amin Jahin

ARTICLES

Articles should be directed
to the:

Editor-In-Chief



4417020



EDITORIAL BOARD

All Correspondence should
be directed to:



4412318-4413844

Fax:

4412316



IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT.



Addarah No (1) has been issued in
Rabi' I 1395 A.H. - March 1975 A.D.

An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz
Research Centre

No "3" • Year 19" • Oct., Nov., Dec. 1993 A.D.

**King Abdul Aziz
Research Centre**

- Established by a Royal Decree No. M/45 dated
5/8/1392 A.H. as an autonomous body with in-
dependent juristic identity.

- Run by a Board of Directors vested with full
authority to have its objectives materialized.

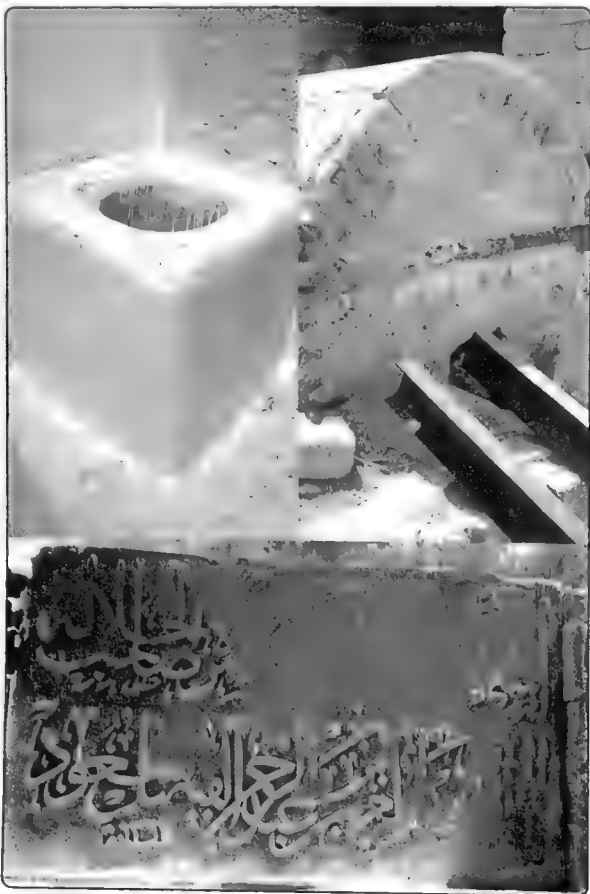
Objectives:

- To further studies pertaining to the history of
the Kingdom, its geography, literature, intellectual
and cultural heritage in particular as well as those
of the Arab and Islamic world in general.

- Issue a cultural magazine carrying its name
ADDARAH.

- In accordance with the Royal approval No.
5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has
become the home of the National Saudi Archives
and Manuscripts.

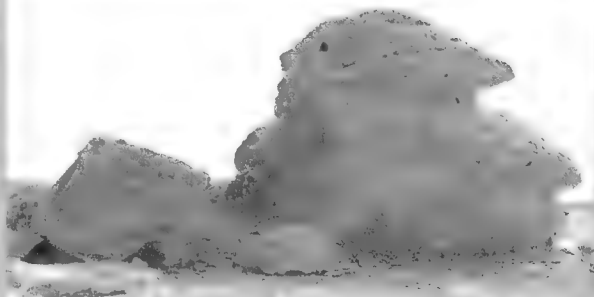
P.O.Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia
Facsimile No.: 00/966/4417020





NOBARAH

Quarterly Journal of the National Library and Archives of the Islamic Republic of Iran



Oct., Nov., Dec. 1993 A.D.

الاجازة



مجلة فطية محكمة تصدر عن دار الملك عبدالعزيز بالرياض





صدر العدد الأول للسنة الأولى في شهر
ربيع الأول ١٣٩٥ هـ / مارس ١٩٧٥ م.

مجلة فصلية محظية
تصدر عن دار الملك عبد العزيز

العدد الرابع • السنة الخامسة عشرة • رجب، شعبان، رمضان ١٤١٤ هـ

دار الملك عبد العزيز :

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/ ٤٥ في
١٢٩٢/٨/٥ هـ كهية مستقلة ذات شخصية اعتبارية يديرها
مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها : خدمة تاريخ المملكة . وجغرافيتها .
وأدبها . وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة . والجزيرة وبلاد العرب
والإسلام بعمامة . وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها . وجلب
الوثائق والمخطوطات وتحقيقتها . وإصدار مجلة تحمل اسمها : كما
أبنا «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات» بمقتضى الموافقة السامية
رقم ١٢٦٠٨/٥ في ١٣٩٦/٥/٢٠ هـ.

٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
رقم الفاكسميلي : ٠٠ / ٩٦٦ / ١ / ٤٤١٧٠٢٠



معالي أ. د. خالد بن محمد العنقري

وزير التعليم العالي، ورئيس مجلس إدارة دار الملك عبد العزيز

المشرف العام

عبد الله بن محمد الحقييل

مدير التحرير

د. منصور إبراهيم الحازمي

عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس

د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري

د. محمد الله الصالح العثيمين

د. محمد الطيمان السديس

هيئة التحرير

مصطفى أمين جاسين

الإشراف الفني والتنفيذ

الإدارة

ترسل البحوث باسم

رئيس التحرير



٤٤١٣١٨

٤٤١٣٩٤٤

الفاكس :

٤٤١٣١٦



التحرير

فاكس

٤٤١٧٠٢٠

• آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة •

- ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة، أو بالكمبيوتر على ألا تزيد على ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعياً، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
- ترسل البحوث سريعاً إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية، لا علاقة لها بمكانة الباحث.
- لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

• قيمة العدد •

السعودية: ثلاثة ريالـات ـ الإمارات العربية المتحدة: أربعة دراهم
قطر: أربعة ريالـات ـ مصر: ٤٠ قرشاً ـ المغرب: خمسة دراهم ـ تونس: ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية: دولار للمعد

• الاشتراكات السنوية •

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.
- وفي البلاد العربية ما يعادلها.
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

ترسل الاشتراكات بشيك

مصدق باسم

دارة الملك عبد العزيز

الرياض

• الموزعون •

- السعودية: شركة الخزندار للتوزيع والإعلان
- أبو ظبي: مكتبة المنهل
- دبي: مكتبة دار الحكمة
- قطر: دار الثقافة
- البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع
- مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع
- تونس: الشركة التونسية للتوزيع
- المغرب: الشركة الشريفة للتوزيع
- ٤٥٧ الرياض ١١٤١١ ☎ ٤٦٢٦٥٩٠
- ٣٧٧٨ أبو ظبي ☎ ٣٢٣٠١
- ٢٠٠٧ دبي ☎ ٣٢٨٥٥٢
- ٣٢٣ الدوحة ☎ ٤١٣٨٠
- ٢٢٤ المنامة ☎ ٢٦٢٠٢٦
- شارع الجلاء - القاهرة ☎ ٧٥٥٥٠١
- ٩ نهج قرطاج ☎
- 383 الدار البيضاء ☎



في هذا العدد في هذا العدد في هذا العدد في هذا العدد في هذا العدد في هذا العدد

● صورة الغلاف ●

في هذا العدد

- الافتتاحية بقلم مدير التحرير ٥
- ولاية المدينة في العصر الأموي «دراسة سياسية» د. سليمان الرجيلي ٣٠
- الحركة العلمية في مكة د. عبد العزيز الهلابي ٥٨
- نظام الأراضي في المجتمعات الإسلامية د. عبد الكريم عبده حتاملة ٧٥
- نمو رؤية إسلامية للأدب د. عبد الرحيم الرحموني ٩١
- اللحن في العربية بين تأريخ النشأة
- ومحاولات الإصلاح أ. علاء الدين رمضان السيد ١٢٢
- الذاتية والموضوعية في مناهج البحث
- في العلوم الاجتماعية د. حكمت العرابي ١٤٧
- التعريب بين التفكير والتعبير د. كمال بشر ١٧٥
- التقرير الأول عن ميناء أكرا د. علي بن حامد غبان ١٩٩
- الأطفال ومحتوى الإعلانات
- في التليفزيون السعودي د. سامي محمد الربيع ٢٠٧

الإفتاح

نظام الجامعات

ثقله تاريخية معينة

يقلم: عبيد الله بن حمد الحقييل

العلم هو أساس الحياة وجوهر الحضارة ، ولقد اهتم الإسلام بالعلم والمعرفة والفكر واتسمت الحضارة الإسلامية بتكريم العلم والعناية به - وإن عظمة الأمم لا تقاس بما تملكه من وسائل الحضارة المادية وإنما تقاس بمواقفها من العلم والفكر والمعرفة والتربية والتعليم - وبفضل الله فقد شهدت بلادنا خلال العقود الماضية نمواً واسعاً في ميادين الحياة المتنوعة ، وكان للتعليم خط مائل صاحب تلك النهضة في نموها إذ هو أشرف الذخائر وذروة الفضائل - وما نظام مجلس التعليم العالي والجامعات الذي صدر أخيراً إلا تأكيد واضح وجلي في تقدير العلم وأهله ، ودفع الهمم في سبيله ، وتحقيق النهضة التعليمية المتكاملة . . ولقد جاء هذا النظام تنويهاً لجهود متواصلة للرفع من مستوى التعليم بصفة عامة والتعليم العالي بصفة خاصة ليتلاءم مع التطورات والتغيرات التي يعيشها المجتمع - والجامعات هي مصانع الرجال والبيئات العلمية التي يتم فيها إعداد الفرد وتربيته للإسهام في حركة التطور والنمو والتقدم في المجتمع - والجامعات هي التي تعد الأجيال وتجري الأبحاث والدراسات التي لها دور وإسهام فعال في تنمية قطاعات المجتمع ، ولا ريب أن هذا النظام قد اشتمل على مواد مفيدة تحقق العمل الأكاديمي وتؤكد على أهمية وظيفة الجامعات كمؤسسات علمية ومراكز أبحاث رائدة .

كما أن إنشاء مجلس للتعليم العالي والجامعات من شأنه أن يعطي دفعة كبرى لهذه الجامعات ، وتحقيق التكامل والتنسيق بين كافة الجامعات ولتزداد عطاءً وفعالية وإبداعاً ودعماً للبحث العلمي والاهتمام بالتقويم الذاتي . . إن مؤسسات التعليم العالي هي مراكز الإشعاع الفكري في المجتمع ، تتأثر به وتؤثر فيه ، فهي تعمل على بناء الإنسان وتطوير معارفه واكتشاف مهاراته وتنميتها ورعايتها وصقلها وتهذيبها .

ولقد أكد النظام الجديد على الأهداف الأساسية للجامعة لتمثل في الأهداف التالية .

● التعليم

● البحث العلمي

● خدمة المجتمع

لقد جاء هذا النظام . . يمسد نقله نوعية حضارية وتاريخية واستجابة للنهضة واحتياجاتها التنموية المتطورة حتى يسير موكب التطور إلى الأمام وتزدهر مسيرة التقدم والرفي والحضارة ، وهكذا يأتي النظام خطوة رائدة وانطلاقة جديدة ونقل تاريخية مباركة في مسيرة علمية رائدة تتيح آفاقاً رحبة للإبداع العلمي والعطاء الفكري ، وتتيح المجال للتطور مما سيلقي آثاره الإيجابية على شباب المستقبل ورجال الغد من خريجي هذه الجامعات نحو مستقبل أفضل وأكثر ازدهاراً إن شاء الله . إن هذا النظام يؤكد على اهتمام الدولة بالجامعات ومسيرة التعليم العالي التي يريها رائد التعليم الأول خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين .

ويسر مجلة الدارة أن تنشر نصوص النظام الجديد للتعليم العالي والجامعات .

صدر يوم الثلاثاء الموافق ١٤١٤/٦/٣ هـ المرسوم الملكي الكريم المقرر
لنظام مجلس التعليم العالي والجامعات وفيما يلي نصوص النظام الجديد
للتعليم العالي والجامعات .

نظام مجلس التعليم العالي والجامعات

أحكام عامة

● المادة الأولى ●

الجامعات مؤسسات علمية وثقافية تعمل على هدى الشريعة الإسلامية
وتقوم بتنفيذ السياسة التعليمية بتوفير التعليم الجامعي والدراسات العليا
والنهوض بالبحث العلمي والقيام بالتأليف والترجمة والنشر وخدمة المجتمع
في نطاق اختصاصها .

● المادة الثانية ●

تتمتع كل جامعة بشخصية معنوية ذات ذمة مالية تعطيها حق التملك
والتصرف والتقاضي .

● المادة الثالثة ●

يكون للجامعات وغيرها من مؤسسات التعليم العالي مجلس يسمى
مجلس التعليم العالي ، ويكون لكل جامعة مجلس يسمى مجلس الجامعة .

● المادة الرابعة ●

يسري هذا النظام على :

- ١ - جامعة أم القرى ومقرها الرئيس مكة المكرمة .
- ٢ - الجامعة الإسلامية ومقرها الرئيس المدينة المنورة .

٣ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومقرها الرئيس مدينة الرياض .

٤ - جامعة الملك سعود ومقرها الرئيس مدينة الرياض .

٥ - جامعة الملك عبد العزيز ومقرها الرئيس مدينة جدة .

٦ - جامعة الملك فهد للبترول والمعادن ومقرها الرئيس مدينة الظهران .

٧ - جامعة الملك فيصل ومقرها الرئيس مدينة الهفوف .

٨ - الجامعات التي تنشأ مستقبلاً، ما لم ينص قرار إنشائها على خلاف ذلك .

● المادة الخامسة ●

تتكون كل جامعة من عدد من الكليات والمعاهد ومراكز البحث والعمادات والمراكز المساندة، وتتكون الجامعات المنصوص عليها في المادة السابقة من الكليات والمعاهد ومراكز البحث والعمادات والمراكز المساندة والمعاهد العلمية والمدارس دون المستوى الجامعي القائمة بها عند صدور هذا النظام، وكذلك العمادات والمراكز المساندة التي يقرها مجلس التعليم العالي . .

● المادة السادسة ●

يجوز تعديل أسماء الكليات والمعاهد ومراكز البحث والعمادات والمراكز المساندة بقرار من مجلس التعليم العالي بناءً على توصية مجلس الجامعة المختص .

● البادة السابعة ●

يجوز أن تكون بعض الكليات والمعاهد أو مراكز البحث في مقر الجامعة التي تتبعها بقرار من مجلس التعليم العالي بناء على اقتراح مجلس الجامعة المختص.

● البادة الثامنة ●

تتكون كل كلية أو معهد من عدد من الأقسام إذا كانت طبيعة الكلية أو المعهد تقتضي ذلك، ويجوز إنشاء أقسام جديدة بقرار من مجلس التعليم العالي بناء على اقتراح مجلس الجامعة المختص، ويراعى ألا تتكرر الأقسام المتماثلة في كليات أو معاهد الجامعة الواحدة الموجودة في مقر واحد.

● البادة التاسعة ●

يكون لكل كلية ومعهد وعمادة مساندة صلاحيات مناسبة في الشؤون العلمية والمالية والإدارية وفقاً لما يصدره مجلس الجامعة المختص في حدود اختصاصه أو صلاحياته لوائح تحدد اختصاصات مجالس الكليات والمعاهد والعمداء ووكلائهم ومجالس الأقسام ورؤسائها.

● البادة العاشرة ●

يجوز عند الاقتضاء بناء على اقتراح مجلس الجامعة المختص وموافقة مجلس التعليم العالي أن تتبع الجامعة وحدات تعليمية دون المستوى الجامعي، وتحدد لائحة خاصة مستوى الدراسة في هذه الوحدات ومناهجها وكيفية إدارتها.

● المادة الحادية عشرة ●

اللغة العربية هي لغة التعليم في الجامعات، ويجوز عند الاقتضاء،
التدريس بلغة أخرى بقرار من مجلس الجامعة المختص.

● المادة الثانية عشرة ●

رئيس مجلس الوزراء / رئيس اللجنة العليا لسياسة التعليم/ هو رئيس
مجلس التعليم العالي.

● المادة الثالثة عشرة ●

يرأس وزير التعليم العالي مجلس كل جامعة وهو المسؤول عن مراقبة
تنفيذ سياسة الدولة التعليمية في مجال التعليم الجامعي ومراقبة تطبيق هذا
النظام ولوائحه في الجامعات الموجودة حالياً أو التي تنشأ فيما بعد وترتبط به
الجامعات التي يسري عليها هذا النظام وتخضع كل جامعة لإشرافه.

مجلس التعليم العالي

● المادة الرابعة عشرة ●

يتألف مجلس التعليم العالي على الوجه التالي .
رئيس مجلس الوزراء رئيس اللجنة العليا لسياسة التعليم رئيساً .
وزير التعليم العالي نائبا للرئيس .
وزير المعارف
وزير المالية والاقتصاد الوطني .
وزير العمل والشؤون الاجتماعية .

وزير التخطيط .

رئيس الديوان العام للخدمة المدنية .

الرئيس العام لتعليم البنات .

مديرو الجامعات .

● المادة الخامسة عشرة ●

مجلس التعليم العالي هو السلطة العليا المسؤولة عن شؤون التعليم فوق المستوى الثانوي والإشراف عليه ، والتنسيق بين مؤسساته عدا التعليم العسكري . وبالنسبة للجامعات له على الخصوص .

١ - توجيه التعليم الجامعي بما يتفق والسياسة المرسومة لذلك .

٢ - الإشراف على تطوير التعليم الجامعي في جميع قطاعاته .

٣ - تحقيق التنسيق بين الجامعات ، وبخاصة في مجال الأقسام العلمية والدرجات الجامعية .

٤ - الموافقة على إنشاء كليات ومعاهد وأقسام علمية ومراكز بحث وعمادات مساندة في الجامعات القائمة . وللمجلس دمج هذه الكليات والمعاهد والأقسام والمراكز والعمادات بعضها ببعض أو إلغائها ما يقتضي الأمر إلغاءه .

٥ - إقرار القواعد الخاصة بإنشاء المتاحف والجمعيات العلمية وإصدار الدوريات .

٦ - إصدار اللوائح المشتركة للجامعات .

٧ - إصدار اللوائح المنظمة لشؤون منسوبي الجامعات الوظيفية من السعوديين والمتعاقدين بمن فيهم أعضاء هيئة التدريس . ويشمل ذلك مرتباتهم ومكافآتهم ويدرلاتهم وذلك بعد إعدادها من قبل كل من وزارة التعليم العالي ووزارة المالية والاقتصاد الوطني والديوان العام للخدمة المدنية .

٨ - إصدار القواعد المنظمة لتعين أعضاء هيئة التدريس من السعوديين وترقياتهم وإعارتهم وندبهم ونقلهم إلى وظائف أخرى داخل الجامعة أو خارجها وعودتهم إلى وظائفهم الأكاديمية ، وذلك بعد إعدادها من قبل كل من وزارة التعليم العالي والديوان العام للخدمة المدنية .

٩- إصدار اللائحة المنظمة للشؤون المالية في الجامعات ، بما في ذلك القواعد المنظمة لمكافآت وإعانات الطلبة وغيرهم وذلك بعد إعدادها من قبل كل من وزارة التعليم العالي ووزارة المالية والاقتصاد الوطني .

١٠- إقرار القواعد اللازمة لتشجيع الكفاءات السعودية المتوافرة خارج الجامعات للقيام بالتدريس في كليات الجامعة ومعاهدها ، أو للقيام بإجراء بحوث محددة بمراكز البحث العلمي وتحديد مكافآتهم .

١١- اقتراح تعديل نظام مجلس التعليم العالي والجامعات .

١٢- مناقشة التقرير السنوي لكل جامعة ورفعها إلى رئيس مجلس الوزراء .

١٣- إقرار القواعد اللازمة لاستحداث البرامج والتخصصات والقواعد المنظمة للتقويم الذاتي والاعتماد الأكاديمي الخارجي لبرامج الدراسات الجامعية والعليا .

١٤- إقرار القواعد المنظمة لإنشاء مؤسسات أهلية للتعليم فوق الثانوي والترخيص لها والإشراف عليها .

١٥ / ما يحيله إليه رئيسه من موضوعات .

وللمجلس تكوين لجان دائمة أو مؤقتة من بين أعضائه أو من غيرهم لدراسة ما يكلفهم به .

● المادة السادسة عشرة ●

يعقد المجلس بناء على دعوة من رئيسه أو من ينييه ثلاث دورات في السنة وللرئيس أو من ينييه دعوته إلى دورة استثنائية أو أكثر إذا دعت الحاجة لذلك ولا يصح انعقاد المجلس إلا إذا حضر الاجتماع ثلثا أعضائه على الأقل . وتصدر قراراته بالأغلبية المطلقة لأصوات الحاضرين وعند التساوي يرجح الجانب الذي فيه الرئيس .

● المادة السابعة عشرة ●

يكون للمجلس أمين عام يعينه رئيس المجلس بناء على توصية من وزير التعليم العالي ليتولى أمانة سر المجلس وتبثية أعماله .

● المادة الثامنة عشرة ●

يتولى إدارة الجامعة . . .

مجلس الجامعة، مدير الجامعة، وكلاء الجامعة .

مجلس الجامعة

● المادة التاسعة عشرة ●

يتألف مجلس الجامعة على الوجه الآتي :

- ١ - وزير التعليم العالي - رئيسا للمجلس .
- ٢ - مدير الجامعة - نائبا للرئيس .
- ٣ - وكلاء الجامعة .
- ٤ - أمين عام مجلس التعليم العالي .
- ٥ - عمداء .
- ٦ - ثلاثة من ذوي الخبرة يعينهم وزير التعليم العالي لمدة ثلاث سنوات .

● المادة العشرون ●

مع التقيد بما يقضي به هذا النظام وغيره من الأنظمة وما تقضي به قرارات مجلس التعليم العالي يتولى مجلس الجامعة تصريف الشئون العلمية والإدارية والمالية وتنفيذ السياسة العامة للجامعة ، وله على الخصوص .

- ١ - اعتماد خطة التدريب والابتعاث .
- اقتراح إنشاء كليات ومعاهد وأقسام ومراكز بحث وعمادات مساندة واقتراح تعديل أسماؤها . . أو دمجها أو إلغاؤها .
- ٣ - إقرار التخصصات العلمية وبرامج الدراسات العليا .
- ٤ - منح الدرجات العلمية لخرمجي الجامعة .

٥ - منح الدكتوراه الفخرية .

٦ - تحديد تفصيلات التقويم الدراسي وفقا للإطار العام لبداية الدراسة ونهايتها وتحديد الإجازات التي تتخللها .

٧ - إعاره أعضاء هيئة التدريس وندبهم وإيفادهم لمهام علمية ومنحهم إجازة التفرغ العلمي وإنهاء خدماتهم وفق القواعد المنظمة لذلك .

٨ - إقرار المناهج وخطط الدراسة والكتب المقررة والمراجع بناء على اقتراح مجالس الكليات والمعاهد المختصة .

٩ - اقتراح المكافآت والإعانات للطلاب على اختلاف أنواعها .

١٠ - الموافقة على مشروع ميزانية الجامعة ورفعها إلى وزير التعليم العالي .

١١ - إقرار اللوائح الداخلية للجامعة بما لا يرتب مزايا مالية أو وظيفية .

١٢ - اقتراح اللوائح الخاصة بالجامعة أو تعديلها .

١٣ - مناقشة التقرير السنوي تمهيدا لعرضه على مجلس التعليم العالي .

١٤ - تحديد المبالغ التي تخصص لكل كلية ومعهد وعمادة مساندة ومركز بحث مستقل للإنفاق منها في حدود اللائحة المالية .

١٥ - مناقشة الحساب الختامي للجامعة تمهيدا لرفعه إلى رئيس مجلس الوزراء .

١٦ - إقرار خطط النشاط اللامنهجي للجامعة .

١٧ - البت في تعيين أعضاء هيئة التدريس بناء على توصية المجلس العلمي .

١٨ قبول التبرعات والهبات والوصايا وغيرها على ألا تتعارض مع الغرض الأساسي الذي أنشئت من أجله الجامعة.

١٩ - وضع القواعد المنظمة للطلاب الزائرين أو المحولين من الجامعة وإليها.

٢٠ - النظر في الموضوعات التي يحيلها إليه وزير التعليم العالي أو مدير الجامعة أو التي يقترح أي عضو من أعضاء المجلس عرضها.

وللمجلس تكوين لجان دائمة أو مؤقتة من بين أعضائه أو من غيرهم لدراسة ما يكلفهم به .

● المادة الحادية والعشرون ●

يجتمع المجلس بناء على دعوة رئيسه مرة كل شهر على الأقل ، وللرئيس أن يدعو المجلس إلى الاجتماع إذا دعت الحاجة لذلك ، وعليه أن يدعوه إذا قدم إليه ثلث الأعضاء طلبا مكتوباً بذلك . ولوزير التعليم العالي أن يطلب إدراج أية مسألة يراها في جدول الأعمال أو تأجيلها قبل انعقاد المجلس . ولا تكون اجتماعاته صحيحة إلا إذا حضرها ثلثا أعضائه على الأقل . ويتولى أمانة المجلس أحد أعضائه بناء على ترشيح من المجلس وموافقة رئيسه .

● المادة الثانية والعشرون ●

تصدر قرارات المجلس بالأغلبية المطلقة لأصوات الأعضاء الحاضرين وإذا تساوت الأصوات يرجح الجانب الذي فيه الرئيس .

مدير الجامعة

● المادة الثالثة والعشرون ●

يعين مدير الجامعة ويعفى من منصبه بأمر ملكي بناء على اقتراح وزير التعليم العالي ويكون تعيينه في المرتبة الممتازة وتطبق عليه أحكام موظفي المرتبة الممتازة.

● المادة الرابعة والعشرون ●

يكون مدير الجامعة مسؤولاً أمام وزير التعليم العالي طبقاً لهذا النظام ويتولى إدارة شؤونها العلمية والإدارية والمالية، ويشرف على تنفيذ هذا النظام ولوائحه وقرارات مجلس التعليم العالي ولوائح الجامعة وقرارات مجالسها، ويمثل الجامعة أمام الهيئات الأخرى، وله أن يفوض بعض صلاحياته.

● المادة الخامسة والعشرون ●

يقدم مدير الجامعة لوزير التعليم العالي تقريراً عن شؤون الجامعة ونواحي نشاطها عن كل سنة دراسية في موعد لا يتجاوز الشهر الرابع من السنة الدراسية التالية لها وذلك طبقاً للعناصر التي يضعها مجلس التعليم العالي، ويتم إقرار التقرير من قبل مجلس الجامعة المختص، وعلى وزير التعليم العالي رفع التقرير إلى مجلس التعليم العالي ومناقش التقرير في أول دورة للمجلس تمهيداً لرفعه إلى رئيس مجلس الوزراء.

وكلاء الجامعة

● المادة السادسة والعشرون ●

١- يكون لكل جامعة وكيل أو أكثر يحدد عددهم مجلس التعليم العالي من بين أعضاء هيئة التدريس بدرجة أستاذ مشارك على الأقل.

٢- يكلف وكيل الجامعة بعمله ويعفى منه بقرار من مجلس التعليم العالي بناء على ترشيح مدير الجامعة وموافقة وزير التعليم العالي ، ويكون التكليف لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرتين .

٣- يمنح الوكيل أول درجة من المرتبة الخامسة عشرة والميزات المقررة لشاغلها ، فإذا كان راتبه حسب كادر أعضاء هيئة التدريس أكثر من راتب الدرجة الأولى فيتقاضى راتبه مع ما يستحقه من علاوات أو ترقيات ، ولو تجاوز ذلك آخر درجة من المرتبة الخامسة عشرة .

٤- عند ترك وكيل الجامعة لمنصبه يصرف له راتبه حسب درجته الأكاديمية ، فإن كان أقل مما يتقاضاه أثناء تكليفه بمنصب وكيل الجامعة يصرف له الفرق حتى يتلاشى بالعلاوة والترقية .

٥- يطبق على الوكيل أثناء فترة تكليفه القواعد المقررة للعلاوات والترقيات الخاصة بأعضاء هيئة التدريس بالجامعات .

● المادة السابعة والعشرون ●

يعاون الوكلاء مدير الجامعة في إدارة شؤونها ، وتحدد اللوائح صلاحياتهم ويقوم أقدمهم عند تعددهم مقام مدير الجامعة عند غيابه أو خلو منصبه .

المجلس العلمي

● المادة الثامنة والعشرون ●

ينشأ في كل جامعة مجلس علمي يتولى الإشراف على الشؤون العلمية لأعضاء هيئة التدريس وشؤون البحوث والدراسات والنشر وله على الخصوص :

- ١ - التوصية بتعيين أعضاء هيئة التدريس بالجامعة .
- ٢ - البت في الترقيات العلمية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة وفق القواعد التي يقرها مجلس التعليم العالي .
- ٣ - تشجيع البحث العلمي والتأليف والترجمة والنشر . وله في سبيل ذلك :
 - أ - وضع قواعد لتشجيع إعداد البحوث العلمية .
 - ب - اقتراح إنشاء مراكز البحث العلمي .
 - ج - التنسيق بين مراكز البحث العلمي ووضع خطة عامة لها .
 - د - تنظيم الصلة مع مراكز البحث خارج الجامعة .
 - هـ - تحديد المكافآت التشجيعية والتقديرية للأعمال العلمية وتحكيمها والأمر بصرفها .
 - و - نشر البحوث والمؤلفات والرسائل العلمية التي يرى نشرها .
 - ز - التوصية بإصدار الدوريات العلمية .
 - ح - التوصية بإنشاء الجمعيات العلمية والمتاحف والتنسيق فيما بينها .
 - ط - إقرار ما يحال إليه من الكتب الدراسية والرسائل الجامعية التي تحتاج إلى مراجعة .
- ٤ - تقويم الشهادات العلمية التي يتقدم بها أعضاء هيئة التدريس السعوديون .
- ٥ - النظر فيما يحيله إليه مجلس الجامعة .

● المادة التاسعة والعشرون ●

يتألف المجلس العلمي على الوجه الآتي :

- ١- وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي - رئيسا .
- ٢- عضو واحد من أعضاء هيئة التدريس عن كل كلية أو معهد بدرجة أستاذ مشارك على الأقل ، ويصدر بتعيينهم قرار من مجلس الجامعة بناء على ترشيح من مجلس الكلية أو المعهد وموافقة مدير الجامعة .
- ويجوز بقرار من مجلس الجامعة أن ينضم إلى عضوية المجلس عدد آخر من الأعضاء من المشتغلين بالبحث والقضايا العلمية لا يتجاوز عددهم نصف مجموع الأعضاء ، ويعين جميع الأعضاء لمدة سنتين قابلة للتجديد مرة واحدة .
- وللمجلس تكوين لجان دائمة أو مؤقتة من بين أعضائه أو من غيرهم لدراسة ما يكلفهم به .

● المادة الثلاثون ●

يجتمع المجلس العلمي بناء على دعوة رئيسه مرة كل شهر على الأقل وللرئيس أن يدعو المجلس إلى الاجتماع إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، أو إذا قدم إليه ثلث الأعضاء طلبا مكتوبا بذلك ، أو بناء على طلب مدير الجامعة الذي له أن يطلب إدراج أية مسألة يراها في جدول الأعمال ، وله رئاسة المجلس إذا حضره ولا تكون اجتماعاته صحيحة إلا إذا حضرها ثلثا أعضائه على الأقل .

● المادة الحادية والثلاثون ●

تصدر قرارات المجلس العلمي بالأغلبية المطلقة لأصوات الحاضرين وإذا تساوت الأصوات يرجح الجانب الذي فيه الرئيس . وتعتبر القرارات نافذة ما لم يرد عليها اعتراض من مدير الجامعة خلال خمسة عشر يوما من تاريخ وصولها إليه ، وإذا اعترض عليها أعادها إلى المجلس العلمي مشفوعة بوجهة نظره لدراستها من جديد ، فإذا بقى المجلس على رأيه تحال القرارات المعارض عليها إلى مجلس الجامعة وتنظر في جلسة عادية أو استثنائية ولمجلس الجامعة تصديق القرارات أو تعديلها أو إلغاؤها ، وقراره في ذلك نهائي .

إدارة الكلية

● المادة الثانية والثلاثون ●

يتولى إدارة الكلية أو المعهد :

مجلس الكلية أو المعهد .

عميد الكلية أو المعهد .

مجالس الكليات والمعاهد

● المادة الثالثة والثلاثون ●

يتألف مجلس الكلية أو المعهد من : العميد رئيسًا ، الوكيل ، رؤساء الأقسام .

ولمجلس الجامعة بناء على اقتراح مجلس الكلية أو المعهد وتأييد مدير الجامعة أن يضم إلى عضويته ثلاثة أعضاء على الأكثر من هيئة التدريس بالكلية أو المعهد أو الكلية المناظرة من فروع الجامعة ويحدد مدة عضويتهم .

● المادة الرابعة والثلاثون ●

مع التقيد بما يقضي به هذا النظام وغيره من الأنظمة وما يقرره مجلس التعليم العالي أو مجلس الجامعة يختص مجلس الكلية أو المعهد بالنظر في الأمور التي تتعلق بالكلية أو المعهد وله على الخصوص :

١ - اقتراح تعيين أعضاء هيئة التدريس والمعيدين والمحاضرين واعازتهم وندبهم وترقياتهم .

٢ - اقتراح خطط الدراسة أو تعديلها مع التنسيق بين الأقسام .

٣ - اقتراح المناهج الدراسية والكتب المقررة والمراجع في أقسام الكلية أو المعهد .

٤ - تشجيع إعداد البحوث العلمية ، وتنسيقها بين أقسام الكلية أو المعهد والعمل على نشرها .

٥ - اقتراح مواعيد الامتحانات ووضع التنظيمات الخاصة بإجرائها .

٦ - اقتراح اللائحة الداخلية للكلية أو المعهد

٧ - اقتراح خطط التدريب والبعثات اللازمة للكلية أو المعهد .

٨ - اقتراح خطة النشاط اللامنهجي للكلية .

٩ - البت في الأمور الطلابية التي تدخل في اختصاصه والتوجيه لمجلس الجامعة فيما عدا ذلك .

١٠ - النظر فيما يحمله إليه مجلس الجامعة أو رئيسه أو نائبه للدراسة وإبداء الرأي .

● المادة الخامسة والثلاثون ●

يجمع مجلس الكلية أو المعهد بدعوة من رئيسه مرة كل شهر على الأقل ، ولا يصح الاجتماع إلا بحضور ثلثي الأعضاء ، وتصدر قراراته بالأغلبية المطلقة لأصوات الأعضاء الحاضرين وعند التساوي يرجح الجانب الذي فيه الرئيس .

وتعد قرارات المجلس نافذة ما لم يرد عليها اعتراض من مدير الجامعة خلال خمسة عشر يوما من تاريخ وصولها إليه ، وإذا اعترض عليها أعادها إلى مجلس الكلية مشفوعة بوجهة نظره لدراستها من جديد ، فإذا بقي المجلس على رأيه يحال القرار المعارض عليه إلى مجلس الجامعة للبت فيه في أول جلسة عادية أو استثنائية . وللمجلس الجامعة تصديق القرار أو تعديله أو إلغاؤه . وقراره في ذلك نهائي .

وللمجلس الكلية أو المعهد تشكيل لجان دائمة أو مؤقتة من بين أعضائه أو غيرهم .

المعهد ووكلائهم

● المادة السادسة والثلاثون ●

يعين عميد الكلية أو المعهد من أعضاء هيئة التدريس السعوديين المتميزين بالكفاءة العلمية والإدارية بقرار من وزير التعليم العالي بناء على ترشيح مدير الجامعة ويكون التعيين لمدة سنتين قابلة للتجديد .

● المادة السابعة والثلاثون ●

يتولى العميد إدارة الشؤون العلمية والإدارية والمالية للكلية أو المعهد في حدود هذا النظام ولوائحه ، ويقدم إلى مدير الجامعة في نهاية كل سنة جامعية تقريراً عن شؤون التعليم وسائر وجوه النشاط في الكلية أو المعهد .

● المادة الثامنة والثلاثون ●

يجوز أن يكون لكل كلية أو معهد وكيل أو أكثر من أعضاء هيئة التدريس السعوديين المتميزين بالكفاءة العلمية والإدارية، يعينهم مدير الجامعة لمدة سنتين قابلة للتجديد بناء على ترشيح العميد، ويعاون الوكيل العميد في أعماله وينوب عنه أقدم الوكلاء عند تعددهم أثناء غيابه أو خلو منصبه ويتولى أحدهم أمانة مجلس الكلية أو المعهد.

● المادة التاسعة والثلاثون ●

يعين عمداء العمدات المساندة من أعضاء هيئة التدريس السعوديين المتميزين بالكفاءة العلمية والإدارية بقرار من وزير التعليم العالي بناء على ترشيح مدير الجامعة ويكون التعيين لمدة سنتين قابلة للتجديد.

● المادة الأربعون ●

يجوز أن يعين من أعضاء هيئة التدريس السعوديين المتميزين بالكفاءة العلمية والإدارية وكلاء لعمادات المساندة، ويتم التعيين بقرار من مدير الجامعة بناء على ترشيح العميد ويكون التعيين لمدة سنتين قابلة للتجديد ويعاون الوكيل العميد في أعماله وينوب عنه أثناء غيابه أو خلو منصبه.

أقسام الكليات والمعاهد

● المادة الحادية والأربعون ●

يكون لكل قسم من أقسام الكليات والمعاهد مجلس قسم يتألف من أعضاء هيئة التدريس فيه، ولكل قسم صلاحيات في الشؤون العلمية والمالية والإدارية في حدود هذا النظام ولوائحه.

● المادة الثانية والأربعون ●

يجتمع مجلس القسم بدعوة من رئيسه مرة كل شهر على الأقل ، ولا يصح الاجتماع إلا بحضور ثلثي أعضائه ، وتصدر قراراته بالأغلبية المطلقة لأصوات الأعضاء الحاضرين ، وعند تساوي يرجح الجانب الذي فيه الرئيس . .

وتعد قرارات المجلس نافذة ما لم يرد عليها اعتراض من عميد الكلية أو المعهد خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ وصولها إليه فإذا بقي المجلس على رأيه ، يحال القرار المعارض عليه إلى مجلس الكلية . وللمجلس صلاحية البت فيه . .

● المادة الثالثة والأربعون ●

يقترح مجلس القسم على مجلس الكلية خطة الدراسة والمناهج الدراسية والكتب المقررة والمراجع ، واقتراح تعيين أعضاء هيئة التدريس والمحاضرين والمعيدین وترقياتهم . كما يقوم بدراسة مشروعات البحوث العلمية ، وتوزيع المحاضرات والتمرينات والأعمال التدريسية على أعضاء هيئة التدريس والمعيدین ، وتنظيم أعمال القسم وتنسيقها .

ويتولى كل قسم تدريس المقررات التي تدخل في اختصاصه بعد إقرارها من مجلس الجامعة . .

ولمجلس القسم تشكيل لجان دائمة أو مؤقتة من بين أعضائه .

● المادة الرابعة والأربعون ●

يعين رئيس القسم من أعضاء هيئة التدريس السعوديين المتميزين بالكفاءة العلمية والإدارية بقرار من مدير الجامعة بناء على ترشيح عميد الكلية أو المعهد ، ويكون التعيين لمدة سنتين قابلة للتجديد وهو المسؤول

عن تسيير الأمور العلمية والإدارية والمالية فيه . . ويقدم للعميد تقريراً عن أعمال القسم في نهاية كل سنة دراسية .

● أعضاء هيئة التدريس

● المادة الخامسة والأربعون ●

أعضاء هيئة التدريس هم :

١ - الأساتذة .

٢ - الأساتذة المشاركون .

٣ - الأساتذة المساعدون .

● المادة السادسة والأربعون ●

يجوز أن يعين في الكليات والمعاهد محاضرون ومعيدون ومساعدو بحث لإعدادهم لعضوية هيئة التدريس ، والقيام بالتمرينات والدروس العملية وغير ذلك من الأعمال بإشراف أعضاء هيئة التدريس كما يجوز أن يعين فيها مدرسو لغات وموظفون وفنيون .

● المادة السابعة والأربعون ●

يجوز تعيين أعضاء في هيئة التدريس من غير السعوديين إذا لم يتوافر سعوديون لشغلها كما يجوز أن يعين منهم محاضرون ومعيدون ومدرسو لغات وموظفون فنيون ومساعدو بحث .

● المادة الثامنة والأربعون ●

يجوز بقرار من مدير الجامعة أن يعهد بالتدريس أو الإشراف على البحوث والرسائل العلمية إلى أشخاص غير متفرغين من ذوي المكانة العلمية البارزة بناء على اقتراح مجلس القسم وتوصية مجلس الكلية أو المعهد ، ويحدد مجلس التعليم العالي شروط اختيارهم ومكافآتهم . .

● المادة التاسعة والأربعون ●

يجوز عند الاقتضاء بقرار من مدير الجامعة الاستعانة بمختصين بصفة زائرين من السعوديين وغيرهم لمدة محددة بناء على اقتراح مجلس القسم وتوصية مجلس الكلية، وذلك وفق قواعد يضعها مجلس التعليم العالي . .

النظام المالي للجامعات

● المادة الخمسون ●

يكون لكل جامعة ميزانية مستقلة خاصة بها . . يصدر بإقرارها مرسوم ملكي يحدد إيراداتها ونفقاتها، وتخضع في مراقبة تنفيذها لديوان المراقبة العامة . والسنة المالية للجامعة هي السنة المالية للدولة . .

● المادة الحادية والخمسون ●

يضع مجلس التعليم العالي أحكام المراقبة المالية السابقة للصرف بعد إعدادها من قبل كل من وزارة التعليم العالي ووزارة المالية والاقتصاد الوطني وديوان المراقبة العامة .

● المادة الثانية والخمسون ●

مع عدم الإخلال بمراقبة ديوان المراقبة العامة يعين مجلس كل جامعة مراقبا أو أكثر للحسابات عن تتوافر فيهم الشروط القانونية وتكون لهم حقوق المراقب في الشركات المساهمة وعليهم واجباته . .

● المادة الثالثة والخمسون ●

تتكون إيرادات الجامعة من :

١ - الاعتمادات التي تخصص لها في ميزانية الدولة .

٢- التبرعات والمنح والوصايا والأوقاف .

٣- ريع أملاكها وما ينتج عن التصرف فيها .

٤ - أية إيرادات تنتج عن القيام بمشاريع البحوث أو الدراسات أو الخدمات العلمية للآخرين .

● المادة الرابعة والخمسون ●

أ - للجامعة القيام بدراسات أو خدمات علمية لجهات سعودية مقابل مبالغ مالية، وتدرج عائدات هذه الدراسات والخدمات في حساب مستقل، تصرف في الأغراض التي يحددها ويضع قواعدها مجلس التعليم العالي .

ب - لمجلس الجامعة قبول التبرعات والمنح والوصايا والأوقاف الخاصة بالجامعة، كما يجوز له قبول التبرعات المقترنة بشروط، أو المخصصة لأغراض معينة إذا كانت الشروط أو الأغراض المخصصة لها وفقا للقواعد التي يضعها مجلس التعليم العالي .

● أحكام ختامية وانتقالية

● المادة الخامسة والخمسون ●

تحدد بقرار من مجلس الوزراء مكافأة مقابل حضور جلسات مجلس التعليم العالي ومجالس الجامعات والمجالس العلمية . .

● المادة السادسة والخمسون ●

يستمر العمل باللوائح الجامعية الحالية والقرارات التنظيمية الأخرى فيما لا يتعارض مع هذا النظام إلى أن تصدر اللوائح الجديدة، على أن يتم ذلك خلال سنتين على الأكثر من تاريخ العمل بهذا النظام .

● المادة السابعة والخمسون ●

تحسب المدة المحددة في هذا النظام لشغل وكلاء الجامعات والعمداء ووكلائهم ورؤساء الأقسام من تاريخ شغلهم لمناصبهم، ويبقى من تجاوز من الوكلاء والعمداء ووكلائهم ورؤساء الأقسام هذه المدة في منصبه إلى أن يعين من يشغل هذا المنصب، على أن يتم ذلك في مدة لا تتجاوز سنة واحدة اعتباراً من تاريخ العمل بهذا النظام . .

● المادة الثامنة والخمسون ●

يتولى وزير التعليم العالي بالتنسيق مع الجامعات والجهات ذات العلاقة إعداد اللوائح التنفيذية لهذا النظام ورفعها لمجلس التعليم العالي للموافقة عليها وإصدارها . .

● المادة التاسعة والخمسون ●

١ - يلغى هذا النظام نظم الجامعات المنصوص عليها في المادة الرابعة منه، ويلغى نظام المجلس الأعلى للجامعات الصادر بالمرسوم الملكي رقم م-١٥ في ١٣٩٣هـ كما يلغى كل ما يتعارض معه .
٢ - يحل مجلس التعليم العالي محل المجلس الأعلى للجامعات الذي صدر نظامه بموجب المرسوم الملكي رقم م-١٥ في ١٣٩٣هـ .

● المادة الستون ●

ينشر هذا النظام في الجريدة الرسمية ويعمل به بعد ستين يوماً من تاريخ نشره .

ولاية المدينة في العصر الأموي

«دراسة سياسية»

إعداد : د. سليمان الرحيلي

● خلاصة البحث ●



كانت المدينة حتى نهاية عهد الخليفة عثمان بن عفان «رضي الله عنه» عاصمة الدولة الإسلامية، ومقر دواوينها ومنطلق جيوشها الفاتحة دون منازع، وعلى الرغم من أن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب اتخذ الكوفة عاصمة للخلافة، ثم جاء الأمويون واتخذوا مدينة دمشق عاصمة لهم إلا أن المدينة لم تفقد مكانتها في الدولة وظلت لها أهمية خاصة تعود إلى مركزها الديني والسياسي وأثرهما في توجيه القرار في الدولة، وقد راعى الخلفاء الأمويون ذلك بعناية ودراية وحكمة لم تخل منها سياستهم إزاء المدينة خاصة وأقليم الحجاز عامة فقد حرصوا على ولاء أهل المدينة لهم بالسلم ما أمكن وبالشدة عندما يتعذر الأول،

فقد أدركوا منذ وقت مبكر خطورة موالة أهلها أو مخالفتهم وأثر كل منهما في أقاليم الدولة الأخرى، ذلك أن عمل أهلها حتى ذلك الوقت أجزى الأخذ والاقتراء به، كما يعيش فيها بعض كبار الصحابة وأبنائهم والتابعين حيث كان لمواقفهم وآرائهم من قضايا عصرهم ومشكلاته أثر كبير بين الناس. ويدرس هذا البحث هذه القضايا وغيرها من المواقف المتبادلة بين أهل المدينة والدولة الأموية، ويركز بشكل خاص على سياسة ولايتها واهتمام الدولة واختيارها لهم بعناية. والمعايير التي كانت تراعيها فيهم ومناسبتهم لهذه الولاية ذات المركز المهم.

أهمية ولاية المدينة:

يقول الخليفة معاوية بن أبي سفيان موصياً ابنه يزيد: «انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب»^(١).

ومن مظاهر هذا الاهتمام وخطورة هذه الولاية أن الأمويين عينوا عليها رجالاً من البيت الأموي نفسه طيلة الربع الأول من مدة حكمهم مثل مروان ابن الحكم وسعيد بن العاص بن سعيد والوليد بن عتبة بن أبي سفيان لأهمية استتباب أمرهم فيها وعدم خلافها وثورتها عليهم واستعادة مركزها الخلافي خاصة في مرحلة تأسيس دولتهم والتمكين لها. بل اتبعوا هذه السياسة على العموم طيلة عهدهم، ليظهروا إمرة البيت الأموي على سائر بيوت قريش الأخرى في الحجاز ولهذا قصرُوا أيضاً وظائف أخرى مهمة على بيتهم دون غيره مثل إمرة الحج في أغلب عهدهم، وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح في عهد معاوية أكثر من غيره^(٢) وقد راعى العباسيون هذه السياسة فيما بعد وخاصة في عهد هارون الرشيد. ولم يخرج الأمويون عن هذه السياسة في الغالب إلا مرتين: أحدهما في فترة اضطراب الحكم الأموي بعد وفاة يزيد بن

معاوية حيث تولى المدينة اثنان من بني الزبير هما عبيد الله بن الزبير سنة ٦٤ هـ ومصعب بن الزبير فضلا عن آخرين كانوا ولاية عليها لابن الزبير في مكة^(٣). وعلى الرغم من أن تبعية المدينة لابن الزبير كانت قصيرة إلا أنها دعمت تطلعه إلى الخلافة والاستعداد للمحاربة في سبيل ذلك خاصة عندما أصبحت المدينتان المقدستان تابعتين له.

أما الأخرى فتعود إلى أواخر عهد الدولة الأموية حيث تعاقب على ولاية المدينة عدد من الولاة من خارج البيت الأموي ممن عرفوا بولائهم له، والملاحظ أن ولاية المدينة خلال هذه الفترة تأثرت بأوضاع الدولة نفسها حيث تعاقب عليها سراعاً عدد من الولاة حتى أن السبع سنوات الأخيرة من عمر الدولة لا تكاد تخلو سنة منها من أمير جديد عليها.

ولعل أوضح مثال على اهتمام الأمويين بالمدينة والتدقيق في إختيار الأكفاء لإمارتها أن بعض ولائها أصبحوا إما خلفاء للدولة نفسها مثل مروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز أو أمراء لأقاليم مهمة في الدولة مثل الحجاج ابن يوسف وكذلك زارها أكثر الخلفاء الأمويين في طريقهم للحج أو العودة منه، وكانوا يظهرون أثناء ذلك الرعاية والاهتمام بشؤونها. ومن وضوح مركزها وقتذاك أيضاً أنه تخرج في مدرستها العلمية أشهر الخلفاء الأمويين مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز. وفي الوقت ذاته ظهرت فيها بدايات أكبر ثورتين ضد الحكم الأموي وهما ثورة الحسين بن علي وحركة عبد الله بن الزبير ولو أن إعلانها وخروجها لقتال الجيوش الأموية تم في العراق ومكة على الترتيب. كما جمع لولايتها أيضاً إمارة مكة فقد جمعها لمروان بن الحكم والوليد بن عتبة في بداية عهد الدولة^(٤). وجمعتها في وسطها للحجاج بن يوسف وإبان بن عثمان وجمعتها في آخرها لعبد الواحد بن عبد الله النضري وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ولهذا لا يعول على ما ذكره أحد الباحثين من أنها لم تجمعاً لأحد في هذا العهد^(٥).

ويعود الجمع إلى ثقة الخلفاء الأمويين في ولى المدينة الذي حرصوا على اختياره بعناية وضمنوا ولاءه، وبالتالي لا خوف من توسيع ولايته وضم مدن مهمة أخرى لها مثل مكة والطائف. وكذلك يعود إلى تشابه مركز المدينتين وتشابه أحوالهما ووقوعهما في إقليم واحد فضلاً عن ضمان الولاء للأمير المعين وهذا قد لا يتأتى عند تعدد الولاة. ومن أهم أوجه التشابه وظيفة المدينتين حيث يؤدي الحج إلى مكة ويتقدم الناس فيه ولى المدينة ومكة نائباً عن الخليفة، ثم يخرج الناس بعد اكتمال أعمال حجهم إلى المدينة لزيارة المسجد النبوي وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد جاء الحجاج إلى المدينتين من كل حذب وصوب مما يجعل الدولة تحرص أن تكون سياستها ماثلة فيها وواقعاً مشاهداً من تفيؤ الأمن وحسن العمارة وسعة الرزق، وهي سياسة مازالت تتبعها الدولة إزاءهما حتى العصر الحديث.

تميزت الفترة الأولى من حكم الدولة الأموية ٤١ - ٦٠ هـ بثبيت دعائم الحكم والاستقرار فلم يتولَّ المدينة خلالها سوى واليين هما مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، كما لم تحدث فيها ثورات أو معارضة ضد الأمويين ويعود هذا بدون شك إلى كفاءة خليفة الدولة معاوية بن أبي سفيان وعقد البيعة له وحسن سياسته وتديره وكذلك إلى كفاءة واليها المذكورين، والأول هو أحد كبار رجال البيت الأموي وله خبرة طويلة بشؤون الحكم والإدارة تعود إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما كانت المدينة عاصمة للدولة. وكان معاوية يناوب بينهما في الولاية فتارة يولي مروان وأخرى يعزله ويولي سعيد بن العاص^(٦). وقد يعود هذا إلى حرص معاوية على عدم تفرد الأول بها وتدريب الثاني على ولاية مثلها ثم لإرضاء طموح الاثنين. وكان من سياسة الأخير فيها أنه استنهض أهل المدينة في الاشتراك في الجهاد ضد الروم ولذا نجد منهم من يشترك في الحملات التي وجهت إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وقتل مثل الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي توفي هناك أثناء الحصار^(٧). وكان مروان يستشير كبار

الصحابة فيما يعضل عليه من أمور المدينة حيث أدرك عدداً من الصحابة والتابعين من أمثال أبي هريرة وأبي أيوب الأنصاري والنعمان بن بشير . الخ رضي الله عنهم ^(٨) . وكان يستعين بالأكفاء في إمارته مثل عبد الملك بن مروان الذي ولاه الديوان فيها وظل عليه إلى آخر أيام يزيد . وقد استشار فيه معاوية قبل توليته ، وهذا مؤداه أن الولاة كانوا يستشيرون الخلفاء في الوظائف المهمة في الولاية ، ولكن يظهر أن هذا تم في عهود الخلفاء الأقوياء ، أما ما عداهم فإن للولاة قدراً أكبر من حرية إدارة أمور ولاياتهم واختيار معاونيهم . ثم ولّى معاوية بعده على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في سنة ٥٧ هـ ، وكان أحد الولاة الأكفاء حتى أنه رشح للخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد فأبى ^(٩) وقد عزله معاوية في أواخر عهده وولى عمرو ابن سعيد الأشدق . ويعزو ابن كثير سبب عزله إلى عجزه عن حمل الحسين وابن الزبير على مبايعة يزيد ومناهضة موقفهما منه ^(١٠) وهما الرجلان اللذان كان يخشاهما معاوية على ابنه يزيد لفضلهما وعلو شأنهما ومحمد نسبهما ومكانتهما عند الناس وإن لم يكونا على اتفاق فيما بينهما منه كما تشير بعض النصوص ^(١١) ، لا سيما أن أهل المدينة - مهاجرين وأنصاراً - قد تعودوا على عهود القدوة وولاية العظماء ، فهم حديثو عهد بولاية الخلفاء الثلاث فيهم وهم - أيضاً - لا يعدلون بمعاوية وعهده ووقته ما لم يكن مثله أو أفضل منه ، فإذا اختلف هذا المعيار فهم يحنون إلى تولية أحدهم عليهم كما سيأتي ، كما أن يزيد في منزلة أبناء الصحابة ومثله أو أرفع منه منزلة في المدينة كثير ، حتى أن أهل المدينة لما بلغهم دعوة معاوية لمبايعة ابنه يزيد هتفوا في طرقاتها :

والله لا ينالها يزيد إن الأمير بعده سعيد ^(١٢)

أي سعيد بن عثمان بن عفان ، ولم ينكر معاوية قول الناس فيه ولكن بدعائه المعهود استلطفه وولاه خراسان استماله له وإبعاداً عن المدينة وولى على المدينة عمرو بن سعيد الأشدق سنة ٦٠ هـ ^(١٣) وهو أحد رجالات

البيت الأموي . وقد كان من مهام الوالي في نظر معاوية مصالحة من يظهرون خلافاً عليه أو معارضته ، ومن ثم محاولة الإحسان إليهم وتآلفهم امتداداً لسياسته وموقفه منهم عند مقابلته لهم في دمشق أو عند مجيئه إليهم في المدينة . لهذا حاول عمرو بن سعيد ثني الحسين عن خروجه إلى العراق وطمأنه بالأمان ووعدّه بالبر والصلة إن هو بقي^(١٥) تبعاً لسياسة معاوية السابقة وتحقيقاً لها وسداً للفتنة المترتبة على خروج الحسين على الخليفة الجديد يزيد . وكذلك كان عمرو بن سعيد على خلاف مع ابن الزبير واستطاع استمالة أخيه عمرو بن الزبير فعينه على شرطته نكاية بأخيه كما دأب على مضايقة آل الزبير ومن هواه معهم ، حتى أنه لما رفض ابن الزبير مبايعة يزيد أرسل الوالي عمرو بن الزبير على رأس جيش لأخذ البيعة منه أو مقاتلته في مكة^(١٦) وكانت إمارة مكة قد جمعت له مثلها جمعت لسلفه^(١٧) .

وقد أسهمت سياسة هذا الوالي في اتساع شقة الخلاف بين الأمويين وابن الزبير ويبدو أنه لم يستطع تلافي هذا الخلاف واستمالة ابن الزبير أو حسمه لصالح الدولة مما كان سبباً في عزله عن المدينة من قبل الخليفة يزيد ، وعندما قابل الوالي خليفته أبلغه أن سياسته إزاء ابن الزبير كانت تقوم على أخذه والتضييق عليه بالتدريج في ظل تمكنه وكثرة أتباعه وميل أهل مكة والمدينة له وقلة جند الوالي^(١٨) وأعاد يزيد واليها السابق الوليد بن عتبة سنة ٦١ هـ ، ويظهر أن إعادته لإمارة المدينة مرة أخرى في هذا الوقت وأسّام قصور الوالي السابق في مواجهة ابن الزبير قصد به حسم الموقف معه ، ويبدو أن ابن الزبير نفسه أدرك هذا الهدف وقدرة الوالي الجديد عليه فعمد إلى بعث كتاب إلى يزيد يبيّن فيه بالوالي ويتهمة بالصلف والبعد عن الحكمة ويحثه إيهاما بتولية من هو أرشد منه على المدينة حتى يتم على يديه التقارب بين الجانبين^(١٩) . فعزل يزيد الوليد بن عتبة وعين مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وتصفه المصادر التاريخية بأنه فتي غر لم يكن مجرباً^(٢٠) . ويظهر أن هذا يحقق بعض ما أراد ابن الزبير من حيث الكفاءة والندية أو الغلبة عليه

عندما تشتد الأمور بعد قليل وهو ما يظهر أنه كان متوقعا آنذاك . فقد جاءت سنة ٦٣ هـ التي حلت بعد تعيين السوالي بأشهر محملة بأخطر الأحداث بين الفريقين مثل مقتل الحسين بن علي وثورة ابن الزبير . ويبدو أن السوالي عثمان بن محمد تعجل في إرسال وفد من أهل المدينة من أكابر المهاجرين والأنصار إلى دمشق لمقابلة يزيد قبل أن يستعد لاستقبالهم والتفكير في قبولهم به كخليفة والقضاء على مظاهر ما يغضبهم في بلاطه . وعلى الرغم من أن المصادر لا تشير إلى مواضيع الحوار بينهم ومدى الاتفاق أو الاختلاف حولها فإنها تكتفي بذكر إكرام يزيد لهم وإحسان جوائزهم^(٢١) ، أما النتيجة الفعلية فلنلمسها عند عودة الوفد للمدينة عندما خلعوا يزيد ودعوا الناس إلى ذلك وشبه بعضهم ذلك بخلعه عماته أو نعله فتبعهم كثير ممن رأى المشهد حتى تجمع كومة في المسجد من العمام المخلوعة كناية عن الموقف من يزيد . وقد تكون هذه النتيجة هي ما يقصده أحد أعضاء الوفد عندما قال : سرنا شهرا ورجعنا من عند يزيد صفرا^(٢٢) .

ولكن لا يعني هذا أن كل أهل المدينة تأثروا بأخبار هذا الوفد عن يزيد وخلعه فقد بقيت فيها بيوتات كبيرة على ولائها ليزيد منهم علي بن الحسين ابن علي من آل طالب وعبد الله بن عباس من آل هاشم وعبد الله بن عمر من آل عدي وأتباع لهم من عامة الناس وخاصتهم . وقد كان هؤلاء منزلتهم بدون شك سواء بين أهل المدينة أم عند يزيد الذي وظف عدم وحدة رأي أهل المدينة بشأنه لصالحه عن طريق السلم والمفاوضة أو الحرب ، وعلى الرغم من أن الخليفة سلك طريق السلم في البداية وبعث النعمان بن بشير مفاوضا عنه فإن الفريق الأول وعلى رأسه أعضاء الوفد الذي قابله في السابق بدأ يصعد الحرب ويسلك مسالكها فطردوا السوالي عثمان بن محمد وأمروا آل أمية بالخروج من المدينة^(٢٣) . وتمثل ولاية عثمان بن محمد نهاية مرحلة من تبعية المدينة للأمويين وبداية أخرى تتبع خلالها عبد الله بن الزبير حيث عين عليها من قبله أخويه عبيد الله ومصعب ويأتي تعيين أخويه على المدينة

إدراكاً منه لأهميتها وتثبيت الولاء له فيها، وهو الاهتمام نفسه الذي أبداه الأمويون وحرصوا عليه في بداية قيام دولتهم إزاءها حيث تعاقب عليها ولاية من البيت الأموي نفسه كما مر من قبل .

ولما خلع ابن الزبير طاعة الأمويين وأقام بمكة وأخذ يستميل أهل المدينة نحوه لم يكن في مقدور الأمويين التصدي له سلماً أو حرباً إلا بواسطة ولاية المدينة وقد وضع ذلك من خلال تبرير الولي عمرو بن سعيد الأنفي الذكر للخليفة يزيد . ولكن أمام فشله وفشل الواليين اللذين جاء من بعده في مواجهة ثورة ابن الزبير وتسارع الأحداث وتمكن ابن الزبير وتكاثر أتباعه من سكان المدينة وقوة مركزه بهم يمكننا أن نفهم سر سرعة يزيد في عزل ولاته على المدينة بغية العشور على وال مناسب بعدما فشل الآخرون في مواجهة الخطر الذي أخذ يهدد الولاء للأمويين في الحجاز ويعلن خلع طاعتهم . وكذلك يمكننا أن نرصد بداية مرحلة جديدة في العلاقة بين الأمويين ومواجهة مشكلات الحجاز إذ أنهم حتى هذا الوقت كانوا يحاولون مواجهة تلك المشكلات بواسطة ولاتهم بالمدينة الذين تميزوا بالحنكة وحسن الإدارة وبالجمع بين إمارة المدينتين المهمتين هناك في أكثر الأحيان ، فلما كانت سنة ٦٣ هـ وخلع أهل المدينة وخروج الحسين وثورة ابن الزبير غيروا سياستهم ، وأخذوا يبعثون قواد لهم على رأس جيوش تتوجه من مركز الدولة في الشام إلى الحجاز لتحقيق سياستهم فيه . وفي سبيل هذا يندرج اهتمام يزيد بأحوال أهل الحجاز الاقتصادية فقد أدرك بثاقب بصره أهمية هذا العامل في حياة الناس هناك بحكم طبيعة بيئة الحجاز الفقيرة ، وأن من أسباب ضعف الولاء له في المدينة وتذمر أهلها هو نقص عطائهم وانقطاعه أحياناً وكساد أحوالهم ، ولهذا كله وعد بتحسين أحوالهم الاقتصادية وتقدير عطائهم لهم في السنة وصرف ما حبس من عطائهم منذ زمن معاوية شريطة إقرارهم له بالطاعة وعدم الخروج عليه^(٢٤) . ومن نتائج هذا الإجراء محاولة شق صف الكارهين له واستئالة بعضهم ، وتخفيف العبء العسكري عن الدولة إذ أن

تكاليف العطاء وما في حكمه أقل وأهون عليها من تكاليف الجيش وآثار ذهابه إلى هناك .

وقد كان من مهام الولي في رأي يزيد إخباره بأمر المعارضين له مثل كتابة واليه عمرو بن سعيد عن معارضة الحسين بن علي له في المدينة . وكذلك قراءة أوامر الخليفة على أهل ولايته مثلما أمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأ رسالته على أهل المدينة التي يحثهم فيها على لزوم الطاعة ويحذرهم فيها من مغبة الفتنة وعنف الرد عليهم إن خالفوه ، فما كان من أهل المدينة إلا الرد بالسب والشتم للوالي والخلع للخليفة^(٢٥) . وهنا تبدأ مظاهر المرحلة الجديدة من سياسة الأمويين تجاه مكة والمدينة منذ أواخر عهد يزيد حتى نهاية النصف الأول من خلافة عبد الملك بن مروان واتسمت هذه المرحلة بتولية أمر المدينتين رجالا اتصفوا بالقيادة قبل الولاية بعد أن ظهر للبيت الأموي عدم ولائهما له ، واستفحل تدمير أهل المدينة وخروج ابن الزبير في مكة . ولما كان لابن الزبير أتباع وولاء بالمدينة أيضا ، كما أن الطريق في القضاء عليه يمر عبرها أيضا بحكم شمالية موقعها بالنسبة لمكة فإن ذلك تطلب من يزيد مناجزة أهلها أولا - خاصة عندما أمر أهلها عليهم في هذا الوقت رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين^(٢٦) - ومن ثم حدثت موقعة الحرة بين أهلها وجيشه ووقعت أخطاء من الجانبين خلالها ليس هذا مجال تفصيلها^(٢٧) إلا أن النتيجة الحاسمة التي ترتبت عليها هي تمكين الولاء في المدينة للدولة الأموية بعد هزيمة أهلها ومن ثم خروج الجيش الأموي منها نحو مكة لمواجهة ابن الزبير ولكن موت قائده في الطريق ثم وفاة يزيد بعده بقليل أجل حسم ثورة ابن الزبير .

وأحداث معركة الحرة وموقف أهل المدينة من ثورة ابن الزبير يفسر أن رسوخ مبدأ الشورى والكفاءة في الحكم عندهم ، والتصميم على محاربة أي مسلك سياسي يخالفه ، ويؤيد هذا موقفهم من عدم مبايعة يزيد وريث أبيه

بالخلافة، ولجوؤهم للمقتال لا يعدو أن يكون - في نظرهم - من باب تغيير المنكر بأفضل أدواته وهي اليد والسلاح، أما بعد هذه المعركة فقد انتقلوا إلى المرحلة الثانية في الإنكار على الدولة وسياسة ولائها فيهم وذلك باللجوء إلى سلاح اللسان والحديث عما ينبغي أن يكون.

ويرى الباحث محمد شراب أنهم كانوا يراوون بين هاتين الأداتين وكان للأخيرة وقع أشد وأقوى - لا سيما في طولها واستمراره - في نظر الخلفاء الأمويين لما لأهلها من منزلة في نفوس المسلمين ورأي معتبر في بلدانهم في أحداث العصر^(٢٨). فلما تولى الخليفة عبد الملك بن مروان عين الحجاج بن يوسف والياً جديداً على مكة ثم ضم إليه المدينة سنة ٧٤ هـ^(٢٩) بعد أن مكث على ولايتها طارق بن عمر الذي جاء إليها في السنة السابقة في جيش للقضاء على أتباع ابن الزبير فيها.

وقد أدرك الخليفة عبد الملك - وهو الذي قضى مرحلة من حياته في المدينة - بوادر نبوغ الحجاج في الولاية خاصة، ولما عرف عنه من طموح وحزم وقد وضع ذلك جلياً منذ أن استهان بولاية قرية تبالة حتى ذهبته مثلاً فقيل أهون على الحجاج من تبالة. وكذلك فهو من قبيلة ثقيف الحجازية فهو خير بمسالك المنطقة وظروفها ومواجهة مشكلاتها، ومن ثم أدرك عبد الملك مناسبة تعيينه في هذا الوقت والياً على المدينة ومكة لعله يقطع دابر فترة تضععت فيها السلطة الأموية في الحجاز عموماً وكان من أهم مظاهرها سيطرة ابن الزبير على المدينة ومكة واتخاذها الأخيرة عاصمة له وتلقب فيها بلقب أمير المؤمنين وإعادة بناء الكعبة وضربه عملة باسمه^(٣١). وهي أعمال فيها كل مظاهر الاستقلال وخلع طاعة الدولة الأموية، وهو ما وعاه الخليفة عبد الملك جيداً واضطر في سبيله أن يوقع معاهدة مع البيزنطيين يدفع الأموال لهم بموجبها كل أسبوع^(٣٢) في سبيل تحييدهم ومواجهة خطر ابن الزبير في مكة والمدينة ومن ثم رماء بأقصى قواده وهو

الحجاج بن يوسف الثقفي الولي والقائد الذي ادخره الأمويون لأوقات الشدائد وإخضاع تلك الأقاليم التي إما أن تكون مهمة كالحجاز أو تكثر فيها الفتن والثورات كالعراق .

وبعد أن قضى الحجاج على ثورة ابن الزبير ووطد الأمر للأمويين في الحجاز نقله عبد الملك ليكون واليا على العراق ، وحرص الخليفة على تدعيم سلطته في المدينة ومكة وضمان ولائها للأمويين - بعد المرحلة السابقة - فأعاد ولايتها لأفراد البيت الأموي فعين على المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص سنة ٧٥ هـ^(٣٣) . وفي السنة التالية عزله بسبب خروجه وتركه المدينة ومقابلته الخليفة بدون إذنه ، وعين نائبه إبان بن عثمان والياً عليها^(٣٤) ، واستمرت ولايته حتى سنة ٨٢ هـ وتقلد أيضاً إمارة الحج بالناس طيلة ولايته^(٣٥) . وعلى الرغم من أنه كان يعد من فقهاء المدينة العشرة^(٣٦) ، إلا أنه فيما يظهر لم يوفق في إدارتها فعزله عبد الملك وعين بعده هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي صهر الخليفة^(٣٧) ، وكان شديداً على أهل المدينة حتى ضرب فقيها سعيد بن المسيب لعدم مبايعته ابني الخليفة بولاية العهد كما أساء للعلويين فيها^(٣٨) . وهو ما يظهر تزلف هذا الولي للخليفة على حساب أهل ولايته ويشبه تصرفه هذا تصرف أحد ولاة ابن الزبير من قبل مع ابن المسيب عندما ضربه ؛ لأنه امتنع عن بيعته ابن الزبير^(٣٩) واستمر هذا الولي حتى عزله الوليد بن عبد الملك غداة توليه الخلافة سنة ٨٦ هـ . والملاحظ أن المدينة عرفت خلال الصدر الأول من خلافة عبد الملك ستة من الولاة من قبل عبد الله بن الزبير أشهرهم أخوه مصعب وجابر بن الأسود بن عوف ، كما عرفت في الصدر الثاني من خلافته أشد الولاة وأقساهم على أهلها من قبله على الرغم من أن نشأته الأولى وتعليمه كان فيها وهو ما كان متوقعا أن يعكس لديه رافة وعطفا نحوها . ولكن تفسير ذلك يعود إلى أن ولاة عبد الملك على المدينة جاءوا بعد قرابة عشر سنوات من خلافها وخلع الطاعة لبيته والتبعية لابن الزبير .

وجاء عزل الوليد فور توليه الخلافة هشام بن إسماعيل المخزومي لكي يستبدل به على المدينة من هو أرق بأهلها منه فعين عليها عمر بن عبد العزيز وأوصاه بالوالي السابق خيراً مراعاة لرحمه وعلو منزلته في قریش وكبر سنه، على الرغم من أن بعض المصادر تشير إلى أن الوليد أمر عمر بإيقافه للناس ليقصصوا منه، وعلى رأسهم ابن المسيب فعفى عنه للاعتبارات السابقة^(٤٠). وتولية عمر المدينة في هذا العهد تمثل مظاهر الهدوء والاستقرار الذي عاشته الدولة في هذا الوقت، فقد كان عهد الوليد بن عبد الملك عهد استقرار وفتوح في الدولة، وقد تم تولية عمر بن عبد العزيز على المدينة في سنة ٨٧ هـ^(٤١) وهو ابن ولي مصر عبد العزيز بن مروان، ونشأ في بداية حياته هناك، ثم عاد إلى المدينة وقضى فيها سوادا من حياته حتى انتقل إلى دمشق وأصبح خليفة للدولة. وقد تباطأ في الذهاب إلى عمله الجديد حتى ألح عليه الخليفة بالإسراع إلى ولايته فاستطاع عمر عليه أمرين هما، عدم أخذه بعجربة من سبقه من الولاة عليها من ظلم ونحوه، ثم أن يجري في سياسته في الأموال بالحق، فوعده الخليفة بقبول ذلك حتى ولو لم يرفع له درهما واحدا^(٤٢). ونلمح سياسة عمر في ولايته من خلال أول خطبة ألهاها في جمع من أهل المدينة دعاهم اليه في دار مقامه هناك فقال:

«إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا ب رأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا ببلغني»^(٤٣).

فكانت سياسته قائمة على الشورى في الرأي والمناصحة في المواقف ودفع الظلم والإخبار عمن يقوم به. واتخذ عشرة من أهل المدينة يعينونه على ذلك ويستشيرهم في الأمر على رأسهم عروة بن الزبير وخارجة بن زيد وعبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسليمان بن يسار وأبو بكر بن أبي خيثمة^(٤٤)، وكان جميعهم ذوي منزلة وفضل في أهل المدينة.

وأصبحت المدينة تنعم بالأمان طيلة ولايته حتى غدت ملجأ لكثير من الناس من جور ولائهم ولاسيما أهل العراق حيث قدم إليها أناس منها فراراً من جور الحجاج وشدته ، ولم يكتف بإلجائهم في المدينة بل كتب إلى الخليفة الوليد بشأن ظلم الحجاج وقسوته على أهل العراق مما دعا الحجاج إلى مكاتبة الوليد بشأنه ويشكو منه إيواء أولئك الهاربين من العراق ويصف ذلك بأنه وهن ويغري الخليفة بعزله^(٤٥) مشيراً بذلك إلى شدة وعنف سلفه هذا في المدينة . فقد كان الحجاج في هذا الوقت في أوج القوة ومكان الثقة في الدولة ، ويعتبر أشهر ولائها وهو حديث عهد بتحقيق فتوحات عظيمة للدولة على يد ولايته في السند وبلاد ما وراء النهر . ومن ثم فقد كانت له دالة عليها في عهد الوليد بن عبد الملك^(٤٦) وقد تم له ذلك بالفعل . ففي سنة ٩٣ هـ عزل الخليفة عمر عن المدينة وولاهها عثمان بن حيان المري ويظهر أن الحجاج أشار على الخليفة به حيث اشتهر بشدته وعنفه^(٤٧) وقد اشتد بالفعل في إخراج الفارين من أهل العراق من المدينة حتى ولو جاءوا إليها تجاراً وتهدد من أوى أحداً منهم بهدم داره ، ونال أهل المدينة قسطاً من شدته بعد عهد الرخاء والأمن الذي تفيأوا ظلاله خلال ولاية عمر فقد خطبهم لما قدم فقال :

«أيها الناس إنا والله مارأينا شعاراً قط مثل الأمن ، ولا رأينا جلساً قط شراً من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فإن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف والله ما أنتم أصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس يبيوتكم ، وعضوا على النواجذ فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، إنكم في فضول كلام غيره ألزم لكم فدعوا عيب الولاية . . . »^(٤٨) .

والولاية المريون لم يكونوا محمودي السيرة في علاقتهم بالمدينة ومنهم مسلم ابن عقبة قائد معركة الحرة وعثمان هذا وقد جاء من عقبه وإل للمدينة في بداية العصر العباسي هو رباح بن عثمان بن رباح المري ، أعاد ذكرى سلفه

في القسوة والبطش بأهل المدينة ووصف الأخير نفسه بأنه الأفعى بن الأفعى^(٤٩) مشيراً بذلك إلى شدة سلفه وعنفه بالمدينة .

وبعد ثلاث سنوات عزل الخليفة سليمان بن عبد الملك عثمان وولى عليها أبا بكر بن محمد بن حزم الذي كان أحد قضاة عمر فيها عندما كان والياً عليها وهو الذي أشار به على الخليفة^(٥٠) وكان أحد الولاة الأكفاء الذين تولوا إمارة المدينة وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز أبقاه في منصبه استمراراً لاهتمامه بالمدينة وتفقد أحوالها وتعهدها بالصالحين من الولاة ، وأثر عن أحد سكانها آنذاك قوله :

« ما قدم علينا بريد لعمر - أي عندما كان خليفة - إلا بإحياء سنة أو قسم مال أو أمر فيه خير »^(٥١) .

ولا يقدح في إدارة أبي بكر بن حزم ما وجهه له الشاعر الأحوص من نقد في شعره ؛ لأن مثله ليس أهلاً للنقد لا سيما أنه جاء بعد أن رفع الوالي أمر فسادة وفسقه للخليفة^(٥٢) .

وهكذا يختار الأكفاء الأكفاء مساعدين وأعواناً لهم في إدارة شؤون الدولة فيريحون الناس ويستريحون ويحمد الجميع السرى وحسن العاقبة .

وظل أبو بكر بن محمد بن حزم والياً على المدينة حتى عزله يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك^(٥٣) . ولم يعزله الخليفة عن عجز أو ظلم وإنما يأتي هذا الإجراء في إطار سياسة الخليفة الجديد تغيير عمال الخليفة السابق ومغايرته في أعماله . ويذكر الجهمشاري عنه أنه أمر بتقص ما أبرم عمر وعزل ولاته ولم يخف شناعة عاجلة^(٥٤) .

وقد اشتد الوالي الجديد في معاملة أهل المدينة ولقوا منه عتاً حتى أنه ضرب الوالي السابق ، وتعرض لفاطمة بنت الحسين بن علي بغية إكراهها على الزواج منه فشكت أمره للخليفة فغضب من تصرفه وتوعده بالضرب حتى يسمع صوت فيه وهو بالشام وأمر بعزله في سنة ١٠٤ هـ ، فسأت حاله

وهجاء الشعراء وأصبح يتكفف الناس . وجاء بعده عبد الواحد بن بشير النضري سنة ١٠٤ هـ وقد أثنى عليه المؤرخون وذكروا عنه أنه كان يذهب في ولايته مذاهب الخير، وكان يستشير بعض أهل المدينة في أمور ولايتها وأحبه أهلها وأثنوا عليه بالخير^(٥٦) إلا أنه لم يستمر طويلا فقد عزله هشام سنة ١٠٦ هـ وولى خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وعلى الرغم من أن ولايته كانت طويلة مقارنة بعهد أسلافه حيث استغرق ثمان سنوات إلا أن أهل المدينة لم يرضوا عنه وشكاه الناس إلى الخليفة مرارا وكنى أحدهم عن سعة أملاكه أنها امتدت من بلاد الشام حيث منابت الزيتون حتى منابت القرظ باليمن، وهجاء بعض الشعراء . ويندرج في هذا بناؤه له دارا كبيرة في سوق المدينة الذي سبق أن أوقفه الرسول عليه الصلاة والسلام على المسلمين للبيع والشراء فيه . وفي وقت من الأوقات نسبت إلى الخليفة نفسه . وعلى أية حال فقد قام أهل المدينة بهدمها بعد وفاة الخليفة كردة فعل توضح غضبهم على تصرف الوالي وإقرار الخليفة له . وتحقيقا لحزمة البناء في هذا المكان العام أصلا^(٥٧) . وعزله الخليفة وولى خالد بن عبد الملك بن الحارث سنة ١١٤ هـ واستمرت ولايته أربع سنين وكانت سنوات قحط وجوع بالمدينة . وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد الشام وعرفت هذه الفترة بسنوات خالد^(٥٨) فجمع هشام ولايتها إلى خاله محمد بن هشام المخزومي واليه على مكة والطائف وبقي كذلك حتى سنة ١٢٥ هـ^(٥٩) .

ومن خلال استقرار سياسة ولاية المدينة حتى أواخر عهد هشام بن عبد الملك يمكن ملاحظة ثلاثة أمور:

الأول : أن الأمويين اتبعوا سياسة اللين والشدة بالتناوب إزاء أهل المدينة وتمثل ذلك واضحا عند دراسة شخصية كل وإل لها خلال هذه الفترة ويتضح ذلك جليا عند المقارنة بين إبان بن عثمان وهشام المخزومي ، وعمر بن عبد العزيز وعثمان المري ، وأبي بكر بن حزم وعبد الرحمن بن الضحاك .

ومرد ذلك أن الأمويين كانوا يخشون من إطالة فترات اللين والخلود إلى الأمن في المدينة، أو فترات الشدة مخافة الغفلة عنها وظهور الطامحين فيها في الأولى والثورة وخلع الطاعة في الثانية حتى أن هذه السياسة كان يتبعها الخليفة الواحد أحيانا .

الثاني : أن الخلفاء الأمويين لم يسمحوا ببقاء ولاتهم فترة طويلة في المدينة فإذا ما رغبوا في وال عزلوه أولا ثم جاءوا بآخر ثم يعيدونه مرة أخرى . ولعل هذا يعود إلى خشيتهم من تفرد الولاة في المدينة لأهمية مركزها ولأن أكثر أولئك الولاة من البيت الأموي نفسه وقد يقوى البقاء طويلا في إمارة المدينة الطموح لديهم في المركز خاصة إذا دعمه من يقيم فيها من أفراد البيت الأموي،^(٦٠) وفي وقت من الأوقات بلغ عدد هؤلاء الألف^(٦١) .

الثالث : أن الأمويين استعملوا على المدينة في أوقات الرخاء والأمن أو محاولة السعي إلى توطيدها ولاة من البيت الأموي ، أما في أوقات الشدة وضعف الولاة فيه عينوا عليها ولاة من خارج البيت الأموي يجمعهم بالسابقين الولاة له ؛ لأنه كثيرا ما يرافق الأوقات الأولى الخير والثناء وإعلاء مركز الدولة في نفوس الناس ، والبيت الأموي يحرص أن تنسب له مثل هذه الأعمال ويذكر بها ، بينما ترتبط أوقات الشدة والخلاف بكثير من القسوة والعنف والتجاوز ونسبتها لأدوات الدولة وولاة القاصين أهون على البيت الحاكم وفي الوقت نفسه تحقق له الولاة المطلوب .

أما الفترة المتبقية من عهد الدولة الأموية وهي حوالي سبع سنوات فقد تعاقب على ولاية المدينة خلالها خمسة ولاة ، وقد غلب عليها مظهران أحدهما ضعف نفوذ الدولة وانشغالها بمشكلات مركزها في دمشق حيث ظهر الصراع على السلطة واضحا في هذا الوقت بين أفراد البيت الأموي نفسه .

الثاني هو تعرض المدينة لخطر الخوارج حيث هاجم أبو حمزة الخارجي حج سنة ١٢٩ هـ وفي الطريق إلى المدينة وقعت معركة قديد^(٦٢) بينه وبين أهل المدينة حيث هزم هؤلاء وواصل أبو حمزة الخارجي زحفه حتى دخلوا المدينة على الرغم من جهود واليها في التصدي له^(٦٣).

أما الإجراء الفوري والذي تطلبه الموقف وعمد له والي المدينة عبد الواحد بن سليمان في وجه حركة أبي حمزة الخارجي فهو بذل الإنفاق سخيا وزيادة عطاء الجند وتجهيزهم للخروج^(٦٤)، ولكن الإجراء الأصوب هو القيام بهذه الأعمال وغيرها من حسن الإدارة ونحوه حتى تصبح سياسة ثابتة في هذه الولاية المهمة أي منذ وقت طويل حتى لا تصبح مرهونة بالحدث ورد الفعل عليه وهو إتجاه ثبت عدم جدواه من قبل الحكام والقواد والولاة عند وقوع الحوادث الجسيمة التي تؤثر في مصائر الدولة أو الأمة . وعندما خطب أبو حمزة في أهل المدينة بعد دخولها ذكر جملة من أخطاء ولائها وذمهم وفساد إدارتهم وأقره أهل المدينة عليها^(٦٥)، ومع أن المقام جاء في سرد عدد من الأخطاء التي وقع فيها الولاة لاستئالة أهل المدينة إلى جانبه وتبرير هزيمته لجيش المدينة في وقعة قديد السابقة ودخوله المدينة إلا أن إقرارهم لمقولته في ولائهم بعيدا عن الإكراه يجعلنا نطمئن بوصف أولئك الولاة وبالذات المتأخرين منهم بالسوء وعدم حسن الإدارة ولعل هذا المسلك منهم هو الذي أثر وانعكس على موقف أهل المدينة في معركة قديد والهزيمة التي حاقت بهم فيها . كما في ظل تلك الإدارة يمكن تحليل هذه النتيجة فضلا عن أن مظاهر الاضطراب والفتن في هذا الوقت ليست في ولاية المدينة وحدها وإنما في أكثر أقاليم الدولة وهي أوضاع ينعدم معها الترف في المدينة الذي يعزو له الطبري سبب هزيمة أهلها أمام أبي حمزة الخارجي^(٦٦).

وختاما فقد وقع الأمويون في خطأ في مفهوم الحكم الصحيح عندما اعتمدوا سياسة البر بالمناصب للأقرباء والأصهار والصنائع ، فكان أغلب ولائهم على المدينة ، وبعض البلدان الأخرى أحد هؤلاء . وكان في هذا

تغيب لبدأ الولاية على أساس الكفاءة، وقوائم ولاية الدولة الأموية على البلدان ومنها المدينة تشهد بهذا حتى غدت ظاهرة لا مثيل لها عند من سبقهم من الخلفاء^(٦٧). وقد انعكس هذا المفهوم على ولاية الدولة وتأثروا به في أقاليمهم فاستعانوا بأقاربهم في الإمارة والإدارة والقيادة مما يخرج عن مجال هذا البحث^(٦٨).

ومثله عندما واجه خلفاؤهم مشكلات المدينة السياسية بمقياس ومفاهيم مشكلات الأقاليم الأخرى دون أن يراعوا مركز المدينة الديني والسياسي ومكانة أهلها ورأيهم - آنذاك - وأثره في الناس وكان كل موقف سياسي منهم إزاءها سيكون أهون من قتل أهلها ورمي الكعبة بالمنجنيق للقضاء على ابن الزبير في مكة وهو ما أثم الدولة الأموية في نظر المعاصرين وأساء إلى تاريخها.

وقريب من هذا عندما اعتمد بعض ولائهم في المدينة على موظفين وشرط من خارجها مثلما فعل مروان بن الحكم عندما جعل شرطه من أهل أيله^(٦٩). بحجة مما لالة أهلها لذويهم ولكن المؤدي المترتب على مثل هذه السياسة هو فقدان الثقة بين الولي وأهل ولايته.

ولا شك أن سياسة هؤلاء الولاة في العموم انعكست سلبا وإيجابا على جوانب الحياة الأخرى في المدينة وأثرت فيها إذ لا ينكر توجيه السياسة منذ القديم وأثرها في انتظام أحوال الدولة وأقاليمها أو اضطرابها في المجالات الأخرى.

وبالتالي فإن مراعاة الكفاءة في ولاية الأقاليم والبلدان دون أي إعتبار آخر، وكذلك مراعاة الذاتية والفوارق المحلية بينها، ومنح الثقة لأهلها في تولي المناصب المهمة فيها أو في وظائف الدولة الأخرى أمور تبدو في غاية الأهمية لنجاح الإدارة فيها وثبات عوامل التبعية ودواعي الاستقرار وانتظام العلاقة وانسجامها بينها وبين مركز الدولة.

قائمة ولاية المدينة في العصر الأموي

٤٩-٤١ هـ	مروان بن الحكم
ربيع الأول ٤٩-٥٦ هـ	سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص
٥٧-٥٦ هـ	مروان بن الحكم (للمرة الثانية)
ذو القعدة ٥٧-٦٠ هـ	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
٦١-٦٠ هـ	عمرو بن سعيد بن العاص، الأشدق، ومعه مكة.
٦١ هـ	الوليد بن عتبة، (للمرة الثانية)
٦٤-٦٢ هـ	عثمان بن محمد بن أبي سفيان، من قبل يزيد
٦٤ هـ	عبيد الله بن الزبير
٦٥ هـ	جابر بن الأسود بن عوف
٦٥ هـ	العباس بن سهل
٦٥ هـ	مصعب بن الزبير
٦٨-٧٢ هـ	جابر بن الأسود، (للمرة الثانية)
٧٢ هـ	طلحة بن عبيد الله بن عوف
٧٤-٧٢ هـ	طارق بن عمرو، مولى عثمان، من قبل عبد الملك
٧٤-٧٥ هـ	الحجاج بن يوسف الثقفي
٨٢-٧٥ هـ	إبان بن عثمان
٨٦-٨٢ هـ	هشام بن إسماعيل المخزومي
٨٦-٩٣ هـ	عمر بن عبد العزيز

من قبيل:

عبد الله بن الزبير

٩٦-٩٣ هـ	عثمان بن حيان
١٠١-٩٦ هـ	أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، من قبل سليمان
١٠٤-١٠١ هـ	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري ضم إليها مكة سنة ١٠٣ هـ
١٠٦-١٠٤ هـ	عبد الواحد بن عبد الله النضري
١١٤-١٠٦ هـ	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي
	خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم (المدينة وحدها)
١١٧-١١٤ هـ	محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي (المدينة ومكة)
١٢٥ هـ	يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي
١٢٦ هـ	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
١٢٧-١٢٠ هـ	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك
١٣٠ هـ	محمد بن عبد الملك بن مروان

(انظر: شاکر مصطفى: الدليل في التاريخ العربي ج ١ ص ١٢٨ - ١٣٠)

- (١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٣٢٣.
- (٢) محمد بطاينة: دراسات وبحوث من التاريخ الإسلامي ص ١٣٤.
- (٣) ابن وكيع: أخبار القضاة ج ١ ص ١٢٣.
- (٤) الطبري: ج ٥ ص ٣٩٩.
- (٥) صالح العلي: إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية، العدد ١١ عام ١٩٦٨ م ص ٢٦.
- (٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٨.
- (٧) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٨٥.
- (٨) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٨.
- (٩) البلاذري: أنساب الأشراف. القسم الرابع ص ١٦٠.
- (١٠) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٥٣٤.
- (١١) ابن كثير: ج ٨ ص ١٤٨. استشار الحسين بن علي ابن الزبير في أن أهل الكوفة راسلوه في المجيء إليهم، فقال أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها، فقال الحسين بعد خروجه من عنده: قد علم ابن الزبير أنه ليست له معي عن الأمر شيء وأن الناس لم يعدلوا بي غيري فود أني خرجت لتخلو له: ابن كثير ج ٨ ص ١٦٠.
- (١٢) المصدر السابق ج ٨ ص ١٤٨، ١٦٠.
- (١٣) البلاذري: أنساب الأشراف. القسم الرابع ص ٦١٥-٦١٦.
- (١٤) الطبري: ج ٥ ص ٣٢٣.
- (١٥) المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٦.

- (١٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٨٥ .
- (١٧) الطبري ج ٥ ص ٣٩٩ .
- (١٨) ابن كثير ج ٨ ص ٢١٥ .
- (١٩) الطبري ج ٥ ص ٤٧٩ .
- (٢٠) البلاذري: أنساب الأشراف . القسم الرابع ص ٣١٨؛ الطبري ج ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
- (٢١) الطبري ج ٥ ص ٤٨٠ ، ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢١٩ .
- (٢٢) البلاذري: أنساب الأشراف القسم الثالث ص ٣٢٩ .
- (٢٣) البلاذري: أنساب الأشراف . القسم الرابع ص ٣٢١ ، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٨ .
- (٢٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٨ .
- (٢٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٨ ، ابن كثير ج ٨ ص ٢١٨ .
- ونص رسالته إليهم هو:
- «بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ، وإني قد لبستكم فأخلفتكم ورفعتكم على رأسي ثم على عيني ثم على فمي ثم على بطني والله إن وضعتمكم تحت قدمي لأوطأتكم وطأة أقل بها عددكم وأترككم بها أحاديث تتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود» .
- ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٨ .
- (٢٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، الطبري ج ٥ ص ٤٨٠ - ٤٨٧ والرجلان هما عبد الله بن حنظلة ، وعبد الله بن مطيع .

- (٢٧) تعتبر معركة الحسرة - أي حرة واقسم (الحرة الشرقية) بالمدينة - التي حدثت سنة ٦٣ هـ أحد ثلاثة أحداث خطيرة واجهت الدولة الأموية هي موقعة الحرة وثورة الحسين وثورة عبد الله بن الزبير، وقد تعددت الروايات حول أسباب هذه المعركة وأحداثها وتعددت آراء المؤرخين حولها.
- انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٣٦ - ٢٤٥، الطبري ج ٥ ص ٤٨١ - ٤٩٥، ابن كثير ج ٨ ص ٢١٧ - ٢٢٤.
- (٢٨) محمد شراب: المدينة في العصر الأموي، ص ١٧٦.
- (٢٩) ابن سعد ج ٥ ص ١٠٩.
- (٣٠) تبالة قرية تقع في تهامة عسير وهي أول عمل وليه الحجاج، فلما قرب منها سأل دليله عنها فأجابته بأنها فقط وراء هذه الأكمة، فقال لا أراي أميراً على موضع تستره عني هذه الأكمة، أهون بها من ولاية. وكر راجعاً لم يدخلها فذهب موقفه منها مثلاً فقليل أهون على الحجاج من تبالة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٩.
- (٣١) المقرئ: النقود الإسلامية ص ٩.
- (٣٢) الطبري ج ٦ ص ١٥٠؛ الباز العريني: الدولة البيزنطية ص ١٥٧.
- وقد وقع الخليفة عبد الملك بن مروان المعاهدة المذكورة مع الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني في فترة حكمه الأولى.
- (٣٣) الطبري ج ٦ ص ٢٠٢.
- (٣٤) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٨٦.
- (٣٥) المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٨، ص ٣٥٥.
- (٣٦) ابن كثير ج ٩ ص ٢٣٤.

- (٢٧) البلاذري : أنساب الأشراف . القسم الرابع ص ٦١٨ .
- (٢٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٧ .
- (٢٩) ابن كثير ج ٨ ص ٢٩٣ .
- (٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٧ .
- (٤١) الطبري ج ٦ ص ٤٢٧ .
- (٤٢) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٢ - ٣٣ .
- (٤٣) الطبري ج ٦ ص ٤٢٧ .
- (٤٤) نفسه .
- (٤٥) الطبري ج ٦ ص ٤٨١ - ٤٨٢ .
- (٤٦) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٤٣ .
- (٤٧) الطبري ج ٦ ص ٤٨٥ .
- (٤٨) الطبري ج ٦ ص ٤٨٦ .
- (٤٩) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ص ٤٢١ ، المصدر السابق ج ٧ ص ٥١٧ .
- (٥٠) خليفة بن خياط : تاريخه ص ٣٢٣ .
- (٥١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٥ .
- (٥٢) أبو فرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ج ٤ ص ٢٣٩ .
- (٥٣) مصعب الزبيري : كتاب نسب قريش ص ٤٤٧ .
- (٥٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٦٨ .
- (٥٥) ابن سعد ج ٨ ص ٤٧٤ .
- (٥٦) الطبري ج ٧ ص ٢٠ .
- (٥٧) ابن شبة : كتاب تاريخ المدينة ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
- (٥٨) مصعب الزبيري : كتاب نسب قريش ص ١٧٠ .

- (٥٩) ابن كثير جـ ١٠ ص ٤ .
- (٦٠) محمد شراب : المدينة في العصر الأموي ص ٢٢٠ .
- (٦١) البلاذري : أنساب الأشراف . القسم الرابع ص ٣٢١ .
- (٦٢) قديد قرية قديمة تقع على الطريق بين مكة والمدينة تبعد عن الأولى بحوالي مائة كيلو وتنسب لها المعركة المشهورة بين أهل المدينة وبين الخوارج في أوائل سنة ١٣٠ هـ ، وهذه القرية مازالت معروفة باسمها إلى اليوم وعامرة ببعض المزروعات ، وتقع على الطريق المعبد بين مكة والمدينة .
- انظر: الطبري جـ ٧ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣١٣ - ٣١٤ .
- (٦٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .
- (٦٤) المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٧٦ .
- (٦٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .
- (٦٦) الطبري جـ ٧ ص ١٨٠ .
- (٦٧) محمد بطاينة : دراسات وبحوث من جوانب التاريخ الاسلامي ، ص ١٤٠ .
- (٦٨) والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن الحجاج استعان بعدد من رجال قبيلته ثقيف ، وكذلك استعان يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بعدد من أهل بيته ، وفعل مثله خالد بن عبد الله القسري ، وكذلك يوسف بن عمر الثقفي ، والأمثلة كثيرة على استعانة الولاة في هذا العهد بأقاربهم .
- (٦٩) أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني جـ ٥ ص ٧٤ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد:
أسد الغابة في معرفة الصحابة. دار الشعب. القاهرة ١٩٧٠ م.
- الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد:
كتاب الأغاني. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٣٢ م.
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر:
أنساب الأشراف. القسم الثالث. تحقيق محمد محمودي. بيروت ١٩٧٤ م
القسم الرابع. تحقيق إحسان عباس. بيروت ١٩٧٩ م.
- الجهشياري: محمد بن عبدوس:
كتاب الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. نشر البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨ م.
- ابن الجوزي: جمال الدين الحافظ عبد الرحمن:
سيرة عمر بن عبد العزيز. شرح وتعليق محب الدين الخطيب. القاهرة ١٣٣١ هـ.
- ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد:
وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ م.
- خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق د. أكرم ضياء العمري. ط ٢ مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٧٧ م.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ م.

- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع:
الطبقات الكبرى. دار صادر. بيروت ١٩٦٨ م.
- ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري:
كتاب تاريخ المدينة المنورة. تحقيق فهم شلتوت. نشر السيد حبيب محمود. جدة ١٤٠٢ هـ.
- صالح العلي: إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى. مجلة الأبحاث. الجامعة الأمريكية، المجلد ٢١، بيروت ١٩٦٨ م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير:
تاريخ الرسل والملوكة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤ دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩ م.
- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد:
العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان. دار الفكر (د. م) ١٩٤٠ م.
- فلهاوزن: بوليوس:
تاريخ الدولة العربية. ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة وزميله. لجنة التأليف والنشر بوزارة التربية والتعليم المصرية. القاهرة ١٩٦٨ م.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم:
الإمامة والسياسة. تحقيق طه الزيني. مؤسسة الحلبي. القاهرة. (د. ت.).
- ابن كثير: الحافظ الدمشقي:
البداية والنهاية. ط ٢. مكتبة المعارف. بيروت ١٩٧٤ م.

محمد محمد شراب :

المدينة في العصر الأموي . مكتبة دار التراث ، مؤسسة علوم القرآن .
المدينة - دمشق ١٩٨٤ م .

محمد ضيف الله بطاينة :

دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي . مكتبة المنار .
الزرقاء . الأردن ١٩٨٦ م .

المقريري :

تقي الدين أحمد بن علي :

النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود . تحقيق محمد
بحر العلوم . ط ٥ ، المكتبة الحيدرية . النجف ١٩٦٧ م .

ابن وكيع :

محمد بن خلف :

أخبار القضاة . بيروت (د . م) .

ياقوت الحموي : معجم البلدان . دار صادر . دار بيروت . بيروت ١٩٧٩ م .

« الحركة العلمية بمكة في العصر الأموي »

(٢)

وهناك عدد من النتائج التي يمكن أن نضيفها منها ما أشير إليه أثناء الدراسة، ومنها ما لم تسبق الإشارة إليه :

١ - لم نعرف شيئاً عن المرحلة التعليمية الأولية سوى ما أشير إليه في الدراسة من أن عطاء كان معلم كتاب . وقد نقل الفاكهي : أن أول من علم بمكة في الكتاب من الغرباء أبو صالح^(٢٧٦) . وهذا يدل أن هناك من أهل مكة من كانت مهنته التعليم في الكتاتيب . ولدينا إشارات إلى كتاتيب مثل كُتَّاب أبي عثمان^(٢٧٧) ، وكُتَّاب في زقاق مهر، مهر معلم كُتَّاب فيما يزعمون^(٢٧٨) .

وهناك دار بأسفل مكة لصفوان بن أمية بن جهم تسمى دار الوراقين^(٢٧٩) ، لكن مثل هذه الإشارات لم تربط بزمن ، ولذا فنحن لسنا على يقين إن كان وجودها في العهد الأموي أو بعد ذلك .

٢ - كان التفاعل العلمي بين مكة والأمصار الإسلامية نشيطاً ، فكان طلاب العلم يأتون إلى مكة يأخذون عن علمائها مثل عمرو بن العلاء البصري (ت ١٤٠هـ) وأيوب السخيتاني البصري (ت ١٣٠هـ) وعمرو بن ذر الكوفي (ت ١٥٦هـ) وميمون بن مهران الكوفي (ت ١١٧هـ) . كما كان علماء الأمصار يحرصون على حضور الموسم لأداء فريضة الحج والإلتقاء بزملائهم من علماء مكة وعلماء الأمصار الأخرى مثل طاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠١هـ) والحسن البصري (ت ١١٤هـ) وجابر بن زيد البصري (ت ٩٣هـ) وسلمة بن كهيل الكوفي (ت ١٢١هـ) ووهب بن منبه اليماني (ت ١١٤هـ) مثلاً حدث في سنة مائة للهجرة فقد حج عامة فقهاء الأمصار وكانوا يعقدون المناظرات فيما بينهم ومنها مناظرة مع وهب بن منبه في القدر .

وكان بعض العلماء لما يقدم مكة يحرص على إفادة طلاب العلم مثل عروة ابن الزبير (ت ٩٩هـ) فكان يقول لهم: «أتتوني فتلقوا مني» (٢٨١). أما تلميذه محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) فلما علم طلاب العلم بمكة أنه قدم من المدينة جاءوا إليه، ويقول أحدهم وهو سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ): «أتينا الزهري وهو في دار ابن الحوَّار، فخيرنا بين عشرين حديثاً وبين حديث السقيفة. فقال القوم: حدثنا بحديث السقيفة. فحدثنا به» (٢٨٢). ويذكر سفيان بن عيينة أيضاً أن شيخهم عمرو بن دينار أمرهم أن يذهبوا إلى صالح بن كيسان المدني (ت بعد ١٤٠هـ) وزميل الزهري ليسألوه عن حديث يذكره في المحَصَّب. وكان جاء إلى مكة معتمراً فسأله سفيان عنه (٢٨٣).

٣ - وما خلاص إليه البحث أن مواضيع الحركة العلمية كانت تركز على القرآن والتفسير والحديث والفقه، وحتى مفهوم الفقه في ذلك الزمن لم يتبلور بعد وكان يعبر عنه بعدة صيغ تعبر عن جوانب من الفقه مثل الفريضة والحساب والحلال والحرام وما إلى ذلك.

وقد ذكر أن ابن عباس في مجالسه كان يخصص أياماً أو محاضرات للشعر والنسب وأيام العرب واللغة والغريب، ولكن لم يظهر لهذه المواضيع - إن صح إن ابن عباس درسها فعلاً - أي أثر لدى الدارسين. بل إن السيرة النبوية والتاريخ لم تلق اهتماماً من علماء مكة، وحتى الأحداث التي حدثت بمكة وعاصروها وشارك بعضهم فيها مثل حركة ابن الزبير لم يرووا شيئاً من أخبارها ولا غيرها من الأخبار المتعلقة بمكة.

٤ - وتخلص الدراسة إلى أن معظم المشاركين في الحركة العلمية كانوا من الموالى من أصول مختلفة فعطاء نوبى الأصل ، وعمرو بن دينار فارسى الأصل ، وابن جريج رومى الأصل ، وعكرمة بربرى الأصل وهكذا . ونعتقد أن دوافعهم كانت الرغبة فى تحسين أوضاعهم المعيشية والرفع من منزلتهم الاجتماعية . وقد كان بعض أسيادهم يشاركون هذه الرغبة إما احتساباً وهو الأكثر أو طلباً للمنفعة ، يجسد ذلك قول مجاهد : طلبنا العلم وما لنا فيه ورزق الله النية بعد . وفى حلقات الدراسة كانت تفضل قرش على الموالى ، حيث كان القرشيون يجلسون على يمين عطاء والموالى على يساره . وقد برز بعض العلماء القرشيين مثل ابن أبى مليكة (تيم) ولكنهم لم يكونوا بكثرة الموالى ولم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من مستوى علمى .

وقد شرف الموالى بالعلم وأصبحوا من أعيان المجتمع ومحل فخر واعتزاز أسيادهم ، ومن أمثلة ذلك : إختصاص بني نوفل وبني أمية فى ولاء ابن جريج ، فقيل له : افرق بين هؤلاء بقولك فقد بلغوا ما لا يحسن . فقال ابن جريج : أنا العزيز لى أيها شئت واليته (٢٨٤) .

٥ - وهناك من وجوه قرش وأسيادها فى العصر الأموى من كان أمياً ، ولم يؤثر ذلك - على ما يظهر - كثيراً على منزلته الاجتماعية وإن كانت تعد نقیصة يعير بها . فقد جرت ملاومة بين عبد الله بن صفوان الجمحي وكان أمياً وبين عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . قال ابن صفوان : يا أبا جعفر ، لقد صرت حجة لفتياننا علينا إذا لناهم عن الملاحى قالوا : هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها . قال له : وأنت يا أبا صفوان ، صرت حجة لصبياننا علينا إذا لناهم فى ترك المكتب قالوا : هذا أبو صفوان سيد بني جمع لا يقرأ آية ولا يحفظها (٢٨٥) .

٦- وكان في مكة في العصر الأموي ما يشبه النوادي الثقافية والاجتماعية ، منها المجالس مثل مجلس عبد الله بن خالد بن أسيد ، وكان بجانب دارهم على ردم آل عبد الله ، وهو ربيع لهم قديم جاهلي . وكان يجلس إليه فيه عبد الله بن عمر عندما يكون بمكة (٢٨٦) .

وكان عبد الحكم بن عمرو الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترأ فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب مع بعضهم وكان ممن جاء إلى هذا النادي الأصوص الشاعر (٢٨٧) .

أما سديف الشاعر فكان له في الحساب نظر ، وفي الأدب حظ وافر ، وكان يجلس مع لمة من أهل مكة وأهل الطائف يسمرون في المسجد الحرام إلى نصف الليل أو نحوه فيتحدثون ويخبرهم أن دولة بني هاشم قريبة (٢٨٨) .

الإحالات على المصادر والمراجع والتعليقات

- ١ - البخاري: الصحيح ١٧٦/٢.
- ٢م - ابن سعد، محمد منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٨٤م) : الطبقات الكبرى، (٩ أجزاء) بيروت، دار صادر (د.ت)، ٤٣٣/٥.
- ٢ - الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) : كتاب المغازي، (٣ أجزاء)، بيروت، عالم الكتب، (د.ت.)، ٨٨٩/٣، وأورد الواقدي رواية (٣/ ٩٥٩) نصها: «وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلنان الناس القرآن والفقه في الدين».
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) : السيرة النبوية، (٤ أجزاء في مجلدين)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ٥٠٠/٢، ابن سعد: المصدر السابق، ٢/ ٢٤٨، الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٩٢م) تاريخ الرسل والملوك، (١٠ أجزاء)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط ٤، (د.ت.)، ٩٤/٣ (يشار إليه بعد ذلك: تاريخ).
- ٣ - الطبري: تاريخ، ١٢١/٣.
- ٤ - تبعه عسفان عن مكة المكرمة حوالي ٥٥ كيلو. انظر البلادي، عاتق بن غيث: حل طريق الهجرة، ص ١٥.
- ٥ - الفاكهي، محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، (٦ أجزاء)، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، ط ١٤٠٧/١٩٨٨م، ٣/ ١٦٥، الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) : سير أعلام النبلاء، (٣٦ جزءاً)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، بيروت - مؤسسة الرسالة، ط ١٤٠١/١٩٨١م، ٣/ ٢٠١ (يشار إليه بعد ذلك: سير).
- ٦ - انظر الطبري: تاريخ ١٧٣/٤ (سنة ٢٢هـ) «ووجع في هذه السنة عمر بن الخطاب وكان عماله على الأمصار فيها عماله الذين كانوا عليها في سنة واحد وعشرين غير الكوفة والبصرة...»، ٤/ ٢٤١ «وكان عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة التي قتل فيها وهي سنة ثلاث وعشرين على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي».
- ٧ - الذهبي: سير، ٢٠١/٣.
- ٨ - ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) : المسند، (٦ أجزاء في ٣ مجلدات) استانبول، ١٩٨٢م، ٣/ ٤٠٧-٤٠٨.
- ٩ - ابن سعد، ٤٤٥/٥.
- ١٠ - الذهبي: سير ٨٨/٣-٣٨٩، الجزري، محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩هـ) غاية النهاية في طبقات القراء، (جزءان)، نشر ج. برجستراسر، بيروت دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ١/ ٤١٩-٤٢٠.

- ١١ - الذهبي : سير، ٣/ ٣٩٠.
- ١٢ - الأزرقي، محمد بن عبد الله (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) : أخبار مكة وما جاء فيه من الآثار، (جزءان)، تحقيق رشدي ملحس، بيروت، دار الأندلس (د.ت) ٢/ ٣٥.
- ١٣ - الأزرقي : المصدر السابق ٢/ ٣٦.
- ١٤ - ابن حنبل : المسند ٣/ ٤١٠.
- ١٥ - ابن حنبل : المسند ٣/ ٤١٠ - ٤١١.
- ١٦ - ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م) : كتاب الإشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار السيرة، ط ٢، ١٣٩٩/ ١٩٨٩م، ص ٨٩، ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) : جهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١١٦، ابن الأثير، علي بن محمد (ت ١٣٠هـ/ ١٢٣٢م) : أسد الغابة في معرفة الصحابة، (٧ أجزاء)، تحقيق محمد إبراهيم البناء وآخرين، القاهرة، دار الشعب ٣/ ٥٢٦.
- ١٧ - السدوسي، مروج بن عمرو (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م) : كتاب حلف من نسب قريش، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ٢، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ٤٢، ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) : الإصابة في تمييز الصحابة (٧ أجزاء)، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ٣/ ٢٥٧.
- ١٨ - أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (١٠ أجزاء)، بيروت دار الكتاب العربي، ط ٥، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م، ٣/ ٢٧٥، الذهبي : سير ٤/ ١٥٦.
- ١٩ - ابن سعد ٥/ ٤٦٣.
- ٢٠ - ابن سعد ٥/ ٤٦٣، الفاكهي ٢/ ٣٣٨، ٣/ ٢١٥.
- ٢١ - ابن سعد ٥/ ٤٤٥، الفاكهي ٢/ ٣٣٩.
- ٢٢ - الفاكهي ٢/ ٣٣٨.
- ٢٣ - ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) : كتاب القصاص والمذكرين، تحقيق : قاسم السامرائي، الرياض، دار أمية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٧٤.
- ٢٤ - الطبراني، سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) : المعجم الكبير، (٢٥ جزءاً) تحقيق : هدي السلفي، ط ٢، ١٩٨٣م، ١٢/ ٢٦٤.
- ٢٥ - ابن سعد ٤/ ١٦٢، الفاكهي ٢/ ٣٣٨، أبو نعيم : الحلية ١/ ٣٠٥.
- ٢٦ - الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م) : المصنف، ١١ جزءاً)، تحقيق حبيب الأعظمي، بيروت، دار العلم، ط ١ - ١٩٨٦م، ٣/ ٢١٧.

- ٢٧- الفاكهي ٢٠/١ .
- ٢٨- الفاكهي ١٢٧/١ .
- ٢٩- الصنعاني ٤٧٣/٨ ، سورة البقرة، آية ٢٢٥ ، سورة المائدة، آية ٨٩ .
- ٣٠- الفاكهي ٣٣٨/٢ .
- ٣١- ابن سعد ٤٦٤/٥ .
- ٣٢- الأزرقي ٥٠/٢ .
- ٣٣- أبو نعيم : الحلية ٢٦٧/٣ - ٢٧٥ .
- ٣٤- الأزرقي ٢٠٤/١ .
- ٣٥- الطبري : تاريخ ٢٦١/١ .
- ٣٦- الفاكهي ٧٨/٤ ، الطبري : تاريخ ٣٠٠/٢ .
- ٣٧- ابن سعد ١٤٧/٥ .
- ٣٨- الفاكهي ٣٦٧/٢ .
- ٣٩- سورة مريم، آية ٤١ .
- ٤٠- أبو نعيم، الحلية ٣٦٧/٣ .
- ٤١- الطبري : تاريخ ١٨٢/١ ، ٢٦١ ، ٢٧٧ ، الفاكهي ٢٥/٣ .
- ٤٢- الطبري : تاريخ ٣٠٠/٢ ، الفاكهي ٢٤٨/٢ ، ٨٧/٤ .
- ٤٣- الطبري : تاريخ ٢٦٨/٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
- ٤٤- الفاكهي ٣٥٦/٣ ، ٢٦٤ .
- ٤٥- الذهبي : سير ٥٠٨/٣ .
- ٤٦- الذهبي : سير ٥٠٨/٣ ، ابن الأثير : أمد ١٧٢/٧ ، ابن حجر : الإصابة ٣٤٨/٤ .
- ٤٧- الأزرقي ١٥٩/١ .
- ٤٨- الأزرقي ٢٤/٢ .
- ٤٩- الطبري ٦٩/٤ .
- ٥٠- الفاكهي ٢٧٥/٢ .
- ٥١- ابن الأثير : أمد ١٢٥/٥ .
- ٥٢- الأزرقي ١٧٢/١ .
- ٥٣- الفاكهي ٣٤٠/٢ .
- ٥٤- الطبري : تاريخ ١٤١/٥ ويضيف : «وقد أنكر بعضهم وزعم أنه لم يزل بالبصرة . . . حتى صالح الحسن معاوية ثم خرج حيث ذكره» .

- ٥٥ - الطبري : تاريخ ٥/ ٣٤٣.
- ٥٦ - الطبري : تاريخ ٥/ ٣٨٣.
- ٥٧ - ابن سعد ٢/ ٣٦٥، الذهبي : سير ٣/ ٣٣٧.
- ٥٨ - ابن سعد ٢/ ٣٧١.
- ٥٩ - ابن سعد ٢/ ٣٦٨، الذهبي : سير ٣/ ٣٤٤.
- ٦٠ - ابن سعد ٣/ ٣٧١.
- ٦١ - الذهبي : سير ٣/ ٣٤٥.
- ٦٢ - ابن سعد ٢/ ٣٦٦.
- ٦٣ - ابن سعد ٢/ ٣٧٠.
- ٦٤ - ابن سعد ٢/ ٣٦٩، الذهبي : سير ٣/ ٣٤٧.
- ٦٥ - ابن سعد ٢/ ٢٦٧، أبو نعيم : الحلية ١/ ٣١٨، الذهبي : سير ٣/ ٣٤٤.
- ٦٦ - ابن سعد ٢/ ٣٦٨.
- ٦٧ - الفاكهي ٢/ ٣٤٠، البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) : أنساب الأشراف، القسم الثالث. العباس وولده) تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، فرانس شتايز بفسبادن، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣١.
- ٦٨ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) : البداية والنهاية، (١٤ جزءاً)، بيروت مكتبة المعارف، ط ٣، ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، ٨/ ٣٠٢.
- ٦٩ - الصفيدي، خليل بن أبيك (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٦٣م) : المهيمان في نكت العميان، القاهرة، المطبعة الجاللية، ١٣٢٩هـ، ١٩١١، ص ٨١.
- ٧٠ - السدوسي، ص ٨.
- ٧١ - الطبري : تهذيب الآثار، مسند عبد الله بن عباس، تحقيق محمود شاكر، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١/ ١٧٧.
- ٧٢ - أبو نعيم : الحلية ١/ ٢٣٠، ابن كثير ٨/ ٣٠٢.
- ٧٣ - الذهبي : سير ٣/ ٣٥١.
- ٧٤ - ابن سعد ٢/ ٣٦٩، ابن كثير ٨/ ٣٠١.
- ٧٥ - ابن سعد ٢/ ٣٦٩.
- ٧٦ - الأزرقي ٢/ ٦٠، الفاكهي ٢/ ٧٠.
- ٧٧ - البلاذري : أنساب، القسم الثالث، العباس وولده ص ٣٦.
- ٧٨ - الفاكهي ٢/ ٧٠.

٧٩- الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (١٠ أجزاء)، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٩٨٦م، ٣٠٦/٦، وانظر أيضاً مسألة نافع بن الأزرق الحروري لابن عباس عن القرآن عند : أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي «جمهرة أشعار العرب» (٣ أجزاء)، ت : محمد علي الهاشمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ١/١١١.

٨٠- ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) : النهاية في غريب الحديث والأثر، (٥ أجزاء)، تحقيق طاهر الزواوي وعمود الطناحي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ٤/٢٤٢.

٨١- ابن سعد ٥/٤٨١، الفاكهي ٢/٣٤٤، أبو نعيم : الحلية ٩/٤.

٨١م- البلاذري : أنساب، ق ٣ ص ٣١.

٨٢- الأزرق ١/٣٣٧.

٨٣- الأزرق ١/٣٤٤.

٨٤- أبو نعيم : الحلية ١/٣٠٤.

٨٥- الصنعاني ٣/٢١٨.

٨٦- الصنعاني ٣/٢١٨.

٨٧- الصنعاني ١/٣٣٦.

٨٨- الألباني، محمد ناصر الدين : صحيح سنن ابن ماجه، (جزءان)، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ١/٣٦.

٨٩-

٩٠- الأزرق ٢/١٧.

٩١- الفاكهي ٢/٢٨٧.

٩٢- ابن سعد ٥/٤٨١، البسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ / ٨٩٠م) : كتاب المعرفة والتاريخ، (٣ أجزاء)، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ٢/٢٢.

٩٣- الفاكهي ٣/٦٨.

٩٤- الذهبي : سير ٥/٨٢.

٩٥- ابن سعد ٥/٤٦٨، الذهبي : تاريخ الإسلام (١٠١هـ / ١٢٠هـ)، تحقيق عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٤٢٢ (يشار إليه بعد ذلك : تاريخ).

٩٦- الفاكهي ٢/٣٤٤، أبو نعيم : حلية ٣/٣١١.

٩٧- الذهبي : تاريخ (١٠١هـ / ١٢٠هـ)، ص ٤٢٢.

- ٩٨ - أبو نعيم : ٢١٣/٣ .
- ٩٩ - ابن سعد ٥/٤٧٠ .
- ١٠٠ - أبو نعيم : حلية ٣/٣١١ .
- ١٠١ - الذهبي : سير ٥/٨٢ .
- ١٠٢ - ابن سعد ٥/٤٦٩ .
- ١٠٣ - ابن سعد ٥/٤٦٨ .
- ١٠٤ - سعد ٥/٤٦٨ .
- ١٠٥ - الفاكهي ٢/٣٤٧ ، الذهبي : سير ٥/٨٢ .
- ١٠٦ - ابن سعد ٥/٤٦٨ .
- ١٠٧ - ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) : وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٨ أجزاء) ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٨م ، ٣/٢٦١ .
- ١٠٨ - ابن الجوزي : كتاب القصاص والمذكرين ، ص ٩٠ .
- ١٠٩ - ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ٣/٤٤٢ .
- ١١٠ - ابن سعد ٥/٤٦٧ .
- ١١١ - الفاكهي ٢/٣٤٢ .
- ١١٢ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٤٢٣ ، والمكتل والمكتلة : الزيل الذي يحمل فيه التمر والعنب ويسع خمسة عشر صاعاً . انظر لسان العرب ١١/٥٨٣ (كتل) .
- ١١٣ - ابن سعد ٥/٤٧٠ .
- ١١٤ - الفاكهي ٢/٣٤٢ .
- ١١٥ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ص ٤٢٢ .
- ١١٦ - الفاكهي ٢/٣٤٢ .
- ١١٧ - الفاكهي ٣/١٦٨ .
- ١١٨ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٤٢٢ .
- ١١٩ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٤٢٣ ، سير ٥/٨٤ .
- ١٢٠ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٢٣٥ سير ٤/٤٤٩ .
- ١٢١ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٢٣٥ ، ابن كثير : البداية ، ٩/٢٢٤ .
- ١٢٢ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٢٣٥ سير ٤/٤٤٩ .
- ١٢٣ - ابن سعد ٥/٤٦٦ ، الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ) ، ص ٢٣٦ ، سير ٤/٤٥٠ ، الجزري ٢/٤١ .

١٢٤ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٢٧٩، الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٢٣٦، سير
٤٥٠/ ٢، الجزري ٤١/ ٢.

١٢٥ - الجزري ٤١/ ٢.

١٢٦ - البسوي ١/ ٧١٢، الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٢٣٧، أما الجزري ٤١/ ٢
فيروي : «استفرخ علمي التفسير».

١٢٧ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٢٣٦، سير ٤٥١/ ٤.

١٢٨ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٢٣٦، سير ٤٥١/ ٤.

١٢٩ - الفاكهي ٣/ ٣٥، ابن حزم : رسالة القراء المشهورة في الأمصار، ص ٢٦٩، الذهبي : تاريخ
(١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٤٠٥، الجزري ٤٤٣/ ١.

١٣٠ - ابن سعد ٥/ ٤٨٦، الجزري ١/ ٢٦٥.

١٣١ - الجزري ١/ ٥١٥.

١٣٢ - الجزري ١/ ٢٩٥.

١٣٣ - الجزري ٢/ ٣٨٥.

١٣٤ - ابن حزم : رسالة القراء المشهورة في الأمصار، ص ٢٧٠.

١٣٥ - ابن خلكان : وفيات الأعيان، ٣/ ٤٤٢.

١٣٦ - ابن حبان : مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٦.

١٣٧ - ابن سعد ٥/ ٤٦٧.

١٣٨ - ابن سعد ٥/ ٤٦٧.

١٣٩ - سورة الماعج، آية ١.

١٤٠ - أبو نعيم : حلية، ٣/ ٢٩٦.

١٤١ - سورة المدثر، آية ١٢، ١٣.

١٤٢ - أبو نعيم : حلية، ٣/ ٢٩٦.

١٤٣ - سورة النساء، آية ٧٨.

١٤٤ - الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه محمود محمد شاكر، القاهرة، دار
المعارف، ٨/ ٥٥٢، أبو نعيم : حلية ٣/ ٢٨٨.

١٤٥ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٢٨٨، الذهبي : سير ٤/ ٤٥٦.

١٤٦ - ابن سعد ٧/ ٤٥٢، البسوي ٣/ ٣٢٣، البلاذري، أحمد بن يحيى (٢٧٩هـ /) فتوح
البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨/ ١٩٧٨م،
ص ٢٣٧، ابن عساكر علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) تهذيب تاريخ دمشق،
(٧ أجزاء) تهذيب عبدالقادر بدران، بيروت، دار المسيرة، ط ٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م،

- ٣/ ٣٤٢، الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٣٦.
- ١٤٧ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٢٨٥.
- ١٤٨ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٢٨٥، الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص ٢٣٧، سير ٤٥٢/ ٤.
- ١٤٩ - ابن كثير ٩/ ٢٢٤.
- ١٥٠ - ابن سعد ٥/ ٤٧٠.
- ١٥١ - مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ / ٧٩٤م) : كتاب الموطأ، بيروت، دار الأفاق، ط ٢، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٢٤٧.
- ١٥٢ - الذهبي : تاريخ (١٠١هـ - ١٢٠هـ)، ص سير ١٣/ ٥.
- ١٥٣ - ابن سعد ٥/ ٢٨٧.
- ١٥٤ - الذهبي : سير ٥/ ١٤.
- ١٥٥ - أبو نعيم : ٣/ ٣٢٦، الذهبي : سير ٥/ ١٧.
- ١٥٦ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٣٢٦، الذهبي ٥/ ١٧.
- ١٥٧ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٣٢٧.
- ١٥٨ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٣٢٦.
- ١٥٩ - أبو نعيم : حلية ٣/ ٣٢٦، الذهبي : سير ٥/ ١٦.
- ١٦٠ - البسوي ١٦/ ٢، الذهبي : سير ٥/ ١٧.
- ١٦١ - ابن سعد ٥/ ٢٩٣.
- ١٦٢ - الذهبي : سير ٥/ ١٥.
- ١٦٣ - الذهبي : سير ٥/ ١٥.
- ١٦٤ - الذهبي : سير ٥/ ١٥.
- ١٦٥ - الذهبي : سير ٥/ ٢٧.
- ١٦٦ - ابن سعد ٥/ ٢٨٩.
- ١٦٧ - الذهبي : سير ٥/ ٢٠، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٧.
- ١٦٨ - الذهبي : سير ٥/ ٢٠، ٣٠، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٧.
- ١٦٩ - الذهبي : سير ٥/ ٢٠.
- ١٧٠ - الذهبي : سير ٥/ ٣١، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٠.
- ١٧١ - الذهبي : سير ٥/ ١٩، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦.
- ١٧٢ - الذهبي : سير ٥/ ١٩.

- ١٧٣ - ابن حاتم، محمد بن ادريس الرازي (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) : كتاب الجرح والتعديل، ٩ أجزاء، بيروت دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ٧/٧ - ٨.
- ١٧٤ - ابن سعد ٦/٢٥٦.
- ١٧٥ - ابن كثير ٩/٩٧.
- ١٧٦ - ابن سعد ٦/٢٥٧.
- ١٧٧ - ابن سعد ٦/٢٥٧، الذهبي : سير ٤/٣٣٥.
- ١٧٨ - الطبري : تهذيب الآثار. مسند ابن عباس ١/١٧٧.
- ١٧٩ - الذهبي : سير ٤/٣٣٤.
- ١٨٠ - ابن سعد ٦/٢٥٧.
- ١٨١ - ابن سعد ٦/٢٥٦.
- ١٨٢ - ابن سعد ٦/٢٥٨، الذهبي : سير ٤/٣٣٥.
- ١٨٣ - ابن كثير ٩/٩٦.
- ١٨٤ - الطبري : تاريخ ٦/٤٨٧، ابن كثير ٩/٩٦.
- ١٨٥ - ابن سعد ٦/٢٥٨.
- ١٨٦ -
- ١٨٧ - أبو نعيم : حلية ٤/٢٥٧، الذهبي : سير ٤/٣٢٥، ٣٣٧.
- ١٨٨ - ابن سعد ٦/٢٥٨.
- ١٨٩ - ابن سعد ٦/٢٥٨، الذهبي : سير ٤/٣٢٦.
- ١٩٠ - أبو نعيم : حلية ٤/٢٨٣، الذهبي : سير ٤/٣٢٧.
- ١٩١ - ابن أبي شيبه : المصنف ٣/١٣٧.
- ١٩٢ - ابن سعد ٦/٢٦٤.
- ١٩٣ - الذهبي : سير ٤/٤٤٣.
- ١٩٤ - ابن سعد ٦/٢٦٦، أبو نعيم : حلية ٤/٢٧٣.
- ١٩٥ - ابن سعد ٦/٢٦٦.
- ١٩٦ - انظر على سبيل المثال : أبو نعيم : حلية ٤/٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٨٦، الذهبي : سير ٤/٣٣٣، ٣٣٤.
- ١٩٧ - البسوي ١/٧١٢، الذهبي : سير ٤/٤٥٢.
- ١٩٨ - الذهبي : سير ٥/٤٥٢.
- ١٩٩ - الفاسي، محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م) : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين،

(٨ أجزاء) تحقيق فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ٢٠٤/٥.

٢٠٠ - الذهبي : سير ٨٩/٥.

٢٠١ - ابن سعد ٥/٤٧٣.

٢٠٢ - الذهبي : سير ٨٩/٥.

٢٠٣ - ابن سعد ٥/٤٧٢، وكيع، محمد بن خلف بن حبان (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م) : أخبار القضاة، (٣ أجزاء)، بيروت - عالم الكتب، ١/٢٦١.

٢٠٤ - وكيع ١/٢٦٢.

٢٠٥ - سورة آل عمران، آية ٧٧.

٢٠٦ - وكيع ١/٢٦٢ والنص - كما هو واضح فيه سقط واضطراب، وانظر الخبر أيضاً عند ابن حزم : المحلى ٩/٨١ ونصه : «عن ابن أبي مليكة قال : كتب إلى ابن عباس في امرأتين كانتا تحمزان حريزاً في بيت، وفي الحجرة حدث، فأخرجت إحداها يدها تشخب دماً فقالت : أصابتنى هذه. وأنكرت الأخرى . قال : فكتب إلى ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قضى أن اليمين على المدعي عليه، وقال : لو أن الناس أعطوا بدعواهم لادعى ناس دماء قوم وأسوأهم. أدعها فاقراً عليها (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) قال ابن أبي مليكة فقرأت عليها فاعترفت. وهذا صحيح عن ابن عباس، ولم يفت إلا بإيجاب اليمين».

٢٠٧ - الصنعاني ١٠/٢٣٧ ولم أجد للخيار معنى غير ما تغطي المرأة به رأسها. انظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ٢/٧٨. والنص فيه نقص، ولعل المقصود : حمار؟ وقد أورد الصنعاني ٨/١٨٠، ٩/٣٤٦ مسائل قضائية مشابهة أشكلت على ابن أبي مليكة.

٢٠٨ - وكيع ١/٢٦٢.

٢٠٩ - الذهبي : سير ٤/٣٨٢.

٢١٠ - الذهبي : سير ٤/٣٨٢ - ٣٨٣.

٢١١ - ابن سعد ٥/٤٨١.

٢١٢ - الذهبي : تاريخ (١٠١ - ١٢٠هـ)، ص ٤٠٣، سير ٥/٣١٨، ابن خلكان ٣/٤١، الجزري ١/٣٤٣.

٢١٣ - الذهبي : سير ٥/٣١٨.

٢١٤ - ابن حزم : القراءات المشهورة في الأمصار، ص ٢٦٩.

٢١٥ - الذهبي : تاريخ (١٠١ - ١٢٠هـ) ص ٤٠٥، سير ٥/٣١٨، الجزري ١/٤٤٣.

٢١٦ - الجزري ١/٤٤٥.

٢١٧ - الجزري ١/٢٩٥، ٤٤٢.

٢١٨ - الجزري ١/٣٣٣.

- ٢١٩- الذهبي : تاريخ (١٠١- ١٢٠هـ) ص ٤٠٥، سير ٣١٩/٥.
- ٢٢٠- الجزري ٤٤٥/١.
- ٢٢١- الفاكهي ٣٥/٣.
- ٢٢٢- ابن الأثير : النهاية ٤٣٠/١.
- ٢٢٣- الذهبي : تاريخ (١٢١- ١٤٠هـ) ص ٤٠٣، الجزري ٢٦٥/١.
- ٢٢٤- ابن سعد ٤٨٦/٥.
- ٢٢٥- ابن سعد ٤٨٦/٥.
- ٢٢٦- ابن سعد ٤٨٦/٥.
- ٢٢٧- الجزري ٢٦٥/١.
- ٢٢٨- الذهبي : تاريخ (١٢١- ١٤٠هـ) ص ٤٠٣.
- ٢٢٩- الذهبي : تاريخ (١٢١- ١٤٠هـ) ص ٢٢٠، الجزري ١٦٧/٢.
- ٢٣٠- الجزري ١٦٧/٢.
- ٢٣١- الجزري ١٦٧/٢.
- ٢٣٢- الذهبي : سير ٣٠٢/٥.
- ٢٣٣- الذهبي ك سير ٣٠١/٥، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢٩/٨.
- ٢٣٤- أبو نعيم : حلية ٣٤٨/٣، الذهبي : سير ٣٠٢/٥.
- ٢٣٥- ابن سعد ٤٨٠/٥، الذهبي : سير ٣٠٢/٥.
- ٢٣٦- الذهبي : سير ٣٠٧/٥.
- ٢٣٧- الذهبي : سير ٣٠٤/٥.
- ٢٣٨- أبو نعيم : حلية ٣٤٨/٣، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٠/٨، الذهبي : سير ٣٠٣/٥.
- ٢٣٩- ابن سعد ٤٨٠/٥.
- ٢٤٠- الذهبي : سير ٣٠١- ٣٠٠/٥.
- ٢٤١- ابن سعد ٤٨٠/٥، أبو نعيم : حلية ٣٤٨/٣ ونصه فقال هشام لعمر بن دينار : اجلس وأفت الناس واجري عليك رزقاً. قال : لست أريد أن أفتي الناس ولا أن تجري علي رزقاً. ويظهر أن المصادر التيس عليها اسم الولي، فمحمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي تولى إمرة مكة من سنة ١١٤هـ إلى سنة ١٢٥هـ، بعد إمرة أخيه إبراهيم التي بدأت سنة ١٠٧هـ.
- ٢٤٢- ابن سعد ٤٨٠/٥، أبو نعيم : الفاكهي ٣٤٧/٢، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٨/٣٠.
- ٢٤٣- البري، محمد بن أبي بكر (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) : الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه

العشرة، (جزءان)، تحقيق محمد التونسي، الرياض، دار الرفاعي، ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ٧٣/١.

٢٤٤ - الذهبي : سير ٣٠٤/٥.

٢٤٥ - الذهبي : سير ٣٠٣/٥.

٢٤٦ - أبو نعيم : حلية ٣٤٨/٣، الذهبي : سير ٣٠٢/٥، ابن حجر : تهذيب ٢٩/٨.

٢٤٧ - الذهبي : سير ٣٠٣/٥.

٢٤٨ - الطبري : تاريخ ٢٩١/٢ (٢١٦/٣)، ٣٨٤/٢، ٣٨٩ (= ٣٩٠/٤)، ٣٢٩/٣، ابن خلكان ١٦٣/٣.

٢٤٩ - الطبري : تاريخ ٣٤٥/٥.

٢٥٠ - ابن سعد ٤٩١/٥، الفاكهي ١٨٧/٣، الذهبي : سير ٣٢٧/٦.

٢٥١ - الذهبي : سير ٣٣١/٦.

٢٥٢ - الذهبي : سير ٣٢٧/٦ وقال ابن جريج مرة أخرى (الذهبي : سير ٣٢٧/٦) : اختلفت إلى عطاء ثماني عشرة سنة. وقال مرة ثالثة (الذهبي : سير ٣٣٢/٦) : قد لزم عطاء عشرين سنة فربما حدثني عنه الرجل بالشيء لم أسمعه منه. وقال مرة رابعة (الذهبي : سير ٦/٣٣٤) : لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد. وقال مرة خامسة (الذهبي : سير ٦/٣٣٦) : أقمت على عطاء إحدى وعشرين حجة، يخرج أبوأي إلى الطائف وأقيم أنا مخوفاً أن يفجعني عطاء بنفسه.

٢٥٣ - الذهبي سير ٣٢٦/٦، الجزري ٤٦٩/١.

٢٥٤ - الذهبي : سير ٣٣٤/٦.

٢٥٥ - الذهبي : سير ٣٣١/٦.

٢٥٦ - الذهبي : سير ٣٣٤/٦، وفي رواية أخرى (الذهبي : سير ٣٢٧/٦) : تسع سنين. وسبع وتسع كثيراً ما تحرف إحداهما إلى الأخرى لتقاربهما في الرسم.

٢٥٧ - الذهبي : سير ٣٢٨/٦.

٢٥٨ - الذهبي : سير ٣٢٨/٦.

٢٥٩ - الذهبي : سير ٣٢٨/٦.

٢٦٠ - ابن سعد ٤٩٢/٥.

٢٦١ - الذهبي : سير ٣٢٧/٦، وانظر الفاكهي ٣١٦/٣ وأول من صنف العلم بمكة ودونه ابن جريج.

٢٦٢ - البسوي ٢/٢٥.

٢٦٣ - البسوي ٢/٢٥.

- ٢٦٤ - الذهبي : سير ٦/٣٢٥ .
- ٢٦٥ - ابن سعد ٥/٢٩٣ .
- ٢٦٦ - الذهبي : سير ٦/٣٢٨ .
- ٢٦٧ - الذهبي : سير ٦/٣٢٩ .
- ٢٦٨ - الذهبي : تاريخ (١٠١-١٢٠هـ) ص ٤٣٣-٤٣٤ ، سير ٥/١٦٨-١٦٩ .
- ٢٦٩ - الذهبي : تاريخ (١٠١-١٢٠هـ) ص ٤٩٩ ، سير ٤/٥٤٥ ، ٥٤٨ .
- ٢٧٠ - الذهبي : سير ٦/٣٣١ .
- ٢٧١ - الذهبي : سير ٦/٣٣٣ .
- ٢٧٢ - ابن حبان : مشاهير علماء الأمصار ، ص ١٤٦ .
- ٢٧٣ - الذهبي : سير ٦/٣٣٦ .
- ٢٧٤ - ابن سعد ٥/٤٩٢ ، الذهبي : سير ٦/٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
- ٢٧٥ - الذهبي : سير ٦/٣٣٢ .
- ٢٧٦ - الفاكهي ٣/٢٢٢ ، ٢٢٣ .
- ٢٧٧ - الفاكهي ٣/٣٧٩ .
- ٢٧٨ - الفاكهي ٤/٢١١ .
- ٢٧٩ - الفاكهي ٣/٣٤٢ ، ٤/٢١٠ .
- ٢٨٠ - الذهبي : سير ٤/٥٤٨ .
- ٢٨١ - أبو خيثمة : كتاب العلم ، ص ١٠ .
- ٢٨٢ - الفاكهي ٣/٣٥١ .
- ٢٨٣ - الفاكهي ٤/٦٧ .
- ٢٨٤ - الفاكهي ٣/١٨٧ .
- ٢٨٥ - الفاسي : العقد الثمين ٥/١٢٣ .
- ٢٨٦ - الفاكهي ٣/٣٧٨ .
- ٢٨٧ - الأصبهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م) : كتاب الأغاني ، (٢٥ جزءاً) بيروت ، دار الثقافة ، ط ٥ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ٤/٢٢٥ ، ابن حزم — جبهة أنساب العرب ، ص ١٦٠ .
- ٢٨٨ - الفاكهي ٣/١٤٧ .

نظام الأراضي في المجتمعات الإسلامية

د. عبد الكريم عبده حاتم

المقدمة

كان للفتوحات العربية أثرها في البلاد الجديدة وكانت السياسة تقتضي ترك الفلاحين والزراع على الأرض، وهناك إشارات قليلة وخاصة في العراق توضح أن فكرة اعتبار الأرض غنيمة كانت مألوفة، وربما وزعت بعض الأراضي بهذا المفهوم، ولكن لاعتبارات عملية، وتوجيه الأمة للجهاد، منعت الأخذ بهذه الفكرة، فاعتبرت الأراضي ملك الأمة وتركت بيد أصحابها لقاء دفع الخراج^(١) فقد كتب الوزير علي بن عيسى إلى عامله على منطقة الصلح والمبارك ليخبره أن السواد أخذ عنوة «وجميع نواحي واسط من السواد المفتوح عنوة، وليس يملكه السلطان - أعزه الله - فيباع لأنه فيء للمسلمين، يقوم مقام الوقف على جميعهم، وإنما تباع أهليه فيه يجري مجرى السكنى لأجل ما أدوه ويُؤدونه من الخراج أو الكراء»^(٢).

وكانت الأراضي حول البصرة عشيرة؛ لأنها أراضٍ موات تم إحيائها بعد الفتح الإسلامي^(٣). وكانت الدولة العباسية تجبي من عشور البصرة ستة ملايين درهم سنوياً^(٤).

وكان منح الأراضي من الصوافي أو الموات أساس نشوء الملكيات الكبيرة خلال القرنين الأولين للهجرة^(٥)، كما وجدت في العراق أنواع مختلفة من الملكية، كما كان يوجد كثير من التنوع في شروط الملكية في كل نوع، إذ كانت شروط استغلال الأراضي تعتمد عادة على أشخاص أصحابها ومراكزهم وكانت الأراضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في بغداد، كما كانت مسجلة في الدواوين المحلية كل في منطقتها^(٦).

أما الأراضي بصورة عامة فيمكن أن تُصنّف إلى ما يلي:

أولاً: الضياع السلطانية:

يقصد بالضياع عند أهل الحضرة هي مال الرجل من النخل والكرم والأرض، والضيعة أيضاً الأرض المغلّة^(٧). وهي تعد عماد الثروة الشخصية للملكية. وقد ورث العباسيون الضياع العديدة التي خلفها بنو أمية واتباعهم سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م)^(٨) وأضافوا إليها وسعوها بطرق مختلفة منها: الشراء أو الهبات والمصادرة^(٩). ولهذا فقد اتسعت إلى حد بعيد أملاك الأسرة العباسية، وعلى رأسها الخلفاء وأصبحت ضياعهم السلطانية منتشرة في مناطق عديدة من العراق، مثل السواد والكوفة والبصرة وواسط ونواحي بغداد وحول الموصل^(١٠) وفي الأهواز والري وأصبهان في إيران^(١١) وفي أرمينية، ولم يكن الخلفاء العباسيون في أول الأمر يقتصرون الضياع والأموال، لكنّ بعضاً ممن كانوا في خدمتهم تسلطوا ومدوا أيديهم إلى ضياع الناس وكان بعض الخلفاء ينصفون المتظلمين من أصحاب الضياع، فإن لم

يتمكنوا من منع الوزراء الموالين لهم من ضياع الناس وأموالهم كانوا يتخذون طريق المصادرة. والضياع التي تصدر بهذه الطريقة تعود إلى الخليفة أو الدولة، وهكذا كثرت الضياع عند الأسرة العباسية الحاكمة.

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى ازدياد عدد الضياع عند الخلفاء وذوهم نظام الإلجاء^(١٢)، فقد كان الأهالي الضعفاء يقومون بإلجاء ضياعهم إلى الأقوياء من أقارب الخليفة أو العمال، تخلصاً من جباة الخراج الذين كانوا يغضون النظر عن هذه الأراضي المملوكة ويصفحون عن جباية بعض الضرائب المستحقة عليها، وبهذا يخف الخراج عن أصحاب الضياع الأصليين، وبمرور الزمن تصبح هذه الضياع مُلكاً للملجأ إليه، بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض.

وتعود هذه الطريقة بالأصل إلى العصر الأموي حيث أُلجأ الكثير من الفلاحين في السواد أراضيهم إلى مسلمة بن عبد الملك بن مروان أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق^(١٣). وفي العصر العباسي الأول وبالذات عهد المنصور، أُلجأ رجل من الأهواز ضيعته إلى الوزير سليمان بن مخلد المعروف بابي أبيوب المورياني، فخفف عنها الخراج فحمل مقابل ذلك مئة ألف درهم في السنة إلى الوزير^(١٤). كذلك أصبحت مصادرة الأموال شيئاً مألوفاً في العصر العباسي الثاني (٢١٨-٣٣٤هـ / ٨٣٣-٩٤٥م). لذلك صار امتلاك الناس للضياع والأراضي وسيلة مربحة لتشغيل الأموال خاصة وأن الخراج كان عليها قليلاً وكانت هذه الضياع تزداد في أيام الرخاء، وذلك بشراء أراضٍ جديدة، أما في أيام الشدة وأزمات الميزانية فكانوا يبيعونها لتلافي شغب الجند وتسديد رواتبهم وكانت هذه الضياع السلطانية تتعرض دائماً للخطر، خاصة عندما تضعف الحكومة، حيث يقتطع كبار الملاك الأقوياء والوزراء بعضها، ويضيفون ذلك إلى ممتلكاتهم^(١٥).

وكانت هذه الضياع التي يمتلكها رجال الدولة وأصحاب الثروة من الأهالي وغيرهم تسمى بالضياع العامة . أما الضياع السلطانية فكانت مقسمة إلى مايلي :

- الضياع المستحدثة^(١٦) : وهي التي أُضيفت حديثاً .
 - الضياع المرتجعة^(١٧) : وهي ضياع أُقطعت من قبل ، ثم ألغى الخليفة إقطاعها وأرجعها إلى حوزته .
 - الضياع العباسية^(١٨) : وهي في الغالب لبني العباس أهل الخليفة^(١٩) .
 - الضياع الخاصة : ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه أحد .
 - الضياع الفراتية : وسميت بذلك ؛ لأنها واقعة على ضفاف الفرات .
- كذلك اضطرت الدولة العباسية إلى إنشاء عدة دواوين لإدارة الضياع السلطانية^(٢٠) لوجود عدد كبير منها عند الخلفاء وذويهم وأتباعهم . فمن هذه الدواوين مثلاً : ديوان الضياع الخاصة^(٢١) وديوان المرتجعة الذي أنشأه الخليفة المقتدر^(٢٢) ليشرف على الضياع والمستغلات والأموال التي استرجعها من الناس نتيجة لافلاس الخزينة^(٢٣) ، وديوان الضياع المقبوضة الذي يضم الضياع المضافة نتيجة المصادرة^(٢٤) .
- وكان للسيدة شغب أم المقتدر ديواناً خاصاً لإدارة ضياعها^(٢٥) ، وكذلك ديوان الضياع الفراتية والذي تقلده الأخ الثاني لابن مقله العباسي بن علي^(٢٦) وكانت كل ضيعة أو أكثر تعهد إلى عامل يضمن خراجها ، أو يعطيها بدوره بالضمان إلى شخص آخر^(٢٧) .

ثانياً الإقطاع : يرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، فكانت أراضي الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرازية ، وهم كبار أصحاب الأراضي مُلكاً للدولة تقطعها من تشاء^(٢٨) ومعظم الأراضي الزراعية تقع في

هذا الصنف . أما كلمة الإقطاع فتعني «أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقيبتها»^(٢٩) وتسعى تلك الأراضي قطائع واحدتها قطيعة ومعنى ذلك أن الأرض تُصبح مُلكاً لصاحب الإقطاع ، ولكن حق الملكية لم يبرأ دائماً^(٣٠) . والإقطاع نوعان :

إقطاع استغلال : ويبدو أنه تطور لإعطاء الأرض بالايجار أو بالضمان أو بالمزارعة^(٣١) . وكان يعطي عادة من الصوافي مقابل نسبة من الحاصل أو دفع مبلغ نقدي محدود^(٣٢) .

إقطاع التملك : وتكون لصاحبه ملكية تامة ، وقد تكون وراثية أيضاً ، وعلى صاحب هذا الإقطاع دفع العشر^(٣٣) . ويعطي إقطاع التملك عادة من الأرض الموات لحياتها أو من أرض توفي صاحبها دون وارث^(٣٤) . أما نوع الإقطاع فكان يعتمد على مركز صاحبه لا على ما يصحبه من حقوق نظرية . وعلى هذا الأساس يمكننا تمييز الأنواع التالية^(٣٥) :

* إقطاعات مدنية : وكانت تمنح للموظفين بدل الرواتب ، وكانت أكثر أنواع الإقطاع شيوعاً في بداية القرن الرابع الهجري ، فعندما يتسلم الوزير مقاليد الوزارة ، يعطي الإقطاعات ، فإذا ما عزل ، أخذت منه وسُلمت إلى خلفه في الوزارة^(٣٦) .

* إقطاعات خاصة : وهي التي تمنح إلى أفراد لهم خدمات خاصة دون أن يكونوا موظفين كالشعراء والمحدثين والمغنيين ، ويكون لصاحبها الملكية التامة وحق تورثها من بعده^(٣٧) . ويدخل في هذا الصنف إقطاع الأرض المتروكة والموات لغرض إحيائها ، وكانت الطريقة المتبعة هي أن يجلب صاحب الإقطاع الفلاحين لاستغلال الأرض ويجهزهم بالبذور والمال ، كما أنه يقوم بكري القنوات ، ويدفع للخزينة مقداراً معيناً من المال كل سنة ،

ويتمتع صاحب الإقطاع، مقابل ذلك بملكية رقبة الأرض ويحق توريثها، ويُعفى من كل ضريبة أخرى ومن أي تدخل حكومي ابتداءً ولعدة سنين لغرض النماء ثم يدفع العشر (٣٨).

ويكون تقدير الإقطاعات والضياح حسب معدل للوارد من الضرائب يعرف بالعبرة (٣٩).

وقد تبدل أحوال الزراعة والأسعار، وتختلف العبرة عن الواقع، وقد يعاد النظر عندئذ في العبرة في منطقة أو ولاية، بإعادة المسح والتقدير وهذا هو التعديل (٤٠).

*** إقطاعات عسكرية: بمجيء البويهيين(*)، مرّ الإقطاع بمرحلة عسكرية ويرى الدوري: «أن خط البويهيين هو بداية مرحلة الإقطاع العسكري وأن السلاجقة أتموا ما بدأه البويهيون» (٤١). وقد وزعت الأراضي على الجند بنطاق واسع بسبب أزمة الخزينة التي بدأت في أوائل القرن الرابع نتيجة إسراف القصر في النفقات، وانقسام الجهاز الإداري في المركز وجشعه، وتقلص أراضي الخلافة، ثم نظرة البويهيين بخلفيتهم الإقطاعية ونظرتهم القبلية إلى الأرض كخنيمة، وإهمالهم المفهوم الإسلامي بالنسبة للأرض (٤٢) وهذه هي نقطة التحول المهمة في الإقطاع.**

ويلاحظ أن الخلفاء وخاصة بعد إدخال المماليك الأتراك في الجيش من قبل الخليفة المعتصم، وصاروا يقطعون القادة أحياناً، ولدينا إشارات أخرى إلى إقطاعات لقادة وأمراء مثل بعا ووصيف ومحمد بن عبد الله بن طاهر سنة (٣٥٠هـ/ ٨٦١م) من صوافي طبرستان (٤٣). وهذه الإقطاعات لم تكن بدل الرواتب بل كانت إمتيازات ومنحاً إضافية، وكانت الحاجة العاجلة إلى المال لدفع رواتب الجند والموظفين سبباً في انتشار الضمان في الربع الأخير للقرن

الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فكانت المناطق حتى في السواد تعطى بالضمان. وقد حصل هذا بعد فترة الاضطراب التي راقت تحكم الجند التركي في محاولة لتهينة الأموال في وقت مناسب لبيت المال، ويتولى الضامن جباية الضرائب بمساعدة السلطة أو بدون ذلك، ولكن حساباته كانت تخضع لتدقيق الحكومة^(٤٤).

ويمكن أن يكون الضامن تاجرًا أو موظفًا وحتى أحد القواد^(٤٥)، وكان الضمان عادة وقتيًا ومحددًا، ولا يعطي صاحبه حقوقًا خاصة على الناس، ولكنه ساهم في التدهور الاقتصادي^(٤٦). ولم تكن الإقطاعات العسكرية وراثية، كما أنها لا تدوم مدى الحياة وهي إذ تمنح للجند، إنما ليعوض واردها عن الراتب الذي لا تستطيع الخزينة البوذية المرتبكة دفعه. وكان يصحب المنح اتفاق يفرض على صاحب الإقطاع. دفع كمية من النقود أو ما يعادلها من الغلة، دفعة واحدة أو بأقساط متعددة^(٤٧) كما كان ينتظر منه العناية بالقنوات المارة بأرضه، أما السلطة داخل إقطاعه فيفترض أن تبقى بيد الإدارة المركزية^(٤٨).

ثالثًا: أراضي الملك: كانت الملكيات الأولى من إقطاع الخلفاء لبعض الأفراد والجماعات وهو ما يسمى بإقطاع التملك^(٤٩) وهذا الإقطاع يُعتبر أرض عشر ويجوز وراثته^(٥٠). ومن المعروف أن أرض الصوافي والأرض المهمله وأرض الموات والمستنقعات كانت تمنح للعرب من قديم الزمان^(٥١). وإن إحياء الأرض الموات^(٥٢) واستخلاص الأرض من المستنقعات لآقي تشجيع الحكومة وتأييدها.

وقد حصلت عدة محاولات من الحكومات والأفراد لتجفيف أجزاء من البطيحة لاستخلاص الأرض الخصبة من الماء وكانت الأراضي المستخلصة تُسمى الجوامد^(٥٣). وكانت على الملاكين واجبات مهمة بالإضافة إلى دفع

الضرائب . فكان عليهم أن يساهموا في نفقات إصلاح القنوات المارة بأراضيهم^(٥٤) .

أما أهم الملاكين فهم الخليفة وكبار الموظفين . وكان ذلك يعود إلى عادة الإلجاء التي كان صغار الملاكين يسرون عليها^(٥٥) . وكان يحدث أن يرغب صغار أرباب الضياع في الإفلات من عبء الخراج العادي فاعتادوا أن يلجئوا ضياعهم إلى الكبراء الأقوياء ، فكانت تجري بأسمائهم ويخفف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الإقطاعات ، ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها وهذه العادة (الألجاء) نظام قديم ، وقد أوجدها في مصر - على عهد الرومان - البيزنطيون^(٥٦) وكبار أصحاب الضياع ، ويحكى أنها كانت موجودة في عهد الأمويين^(٥٧) ، وقد ألجأ الكثيرون أراضيهم أو قراهم إلى مسلمة بن عبد الملك بن مروان . وتكثر الإشارات إلى ضغط العمال وتجاوزهم على الزراع في العصر العباسي مما زاد الإلجاء وساعد الإلجاء بدوره على توسع الملكيات الكبيرة ، وعلى ظهور سادة ملاكين شبه إقطاعيين^(٥٨) ، فقد ألجأ أهل زنجان ضياعهم إلى القاسم بن الرشيد تقرباً إليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم فكتبوا له الأثرية^(٥٩) وصاروا مزارعين له ، ثم صارت تلك الأرض من الضياع السلطانية ، كذلك حدث نحو ذلك في فارس ، فقد كانت فيها ضياع ألجأها أربابها إلى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق^(٦٠) ويبدو أن الألجاء للقادة الأتراك كثر في أواسط القرن الثالث الهجري لدرجة قللت الوارد مما دفع الأجناد الأتراك إلى المطالبة سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) بالغاء التلاجيء^(٦١) .

مما تقدم نرى أن نظام الإلجاء كان وسيلة للتخلص من عبث الجبابة والعمال ، ومن إرهابهم ، كما أن نفوذ الحامي قد يجعل الجبابة والعمال يتغاضون عن جباية جزء من الضرائب المستحقة^(٦٢) ويمرور الزمن كان

الحامي يصبح المالك الحقيقي للأرض، بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض^(٦٣).

وهناك نوع آخر من الملكية يُسمى الإيغار وهو الحماية وذلك أن تحمي الضيعة أو القرية فلا يدخلها عامل^(٦٤) ويعطي الخوارزمي مفهومًا مماثلاً للإيغار وهو الحماية «وذلك بأن يضمن صاحب ضيعة أو رجل أو قرية خراجها برضاها، فيدفع مبلغ الضمان إلى الحكومة على أن لا يدخلها عامل أو جاب»^(٦٥).

ومن الإيغارات المشهورة في الدولة العباسية «إيغاريقطين»^(٦٦) وأصلها أن رجلاً اسمه يقطين - أوغرت له ضياع من عدة طساسيج ثم صار ذلك إلى السلطان فنسب إلى إيغار يقطين. وهذا يدل على أن الإيغار كان معروفاً قبل العباسيين، وبهذا المعنى يكون الإيغار بمن يهب الخليفة أرضاً يعني متسلمها من الضريبة، وبذلك يكون في وضع ممتاز ثم صار المألوف أن يطلق الإيغار على ضياع يتمتع صاحبها بتخفيف كبير في الضرائب وهنا يداخل الإيغار بالتسويق^(٦٧).

ويذكر مسكويه أن سيف الدولة أعطى منطقة المذار إلى ججنج والجامدة إلى توزون بالتسويق^(٦٨). ويذكر الصابي مما مده الوزير الجديد حامد بن العباس لابن الفرات بعد تنحيته قال حامد: «نريد أن نحاسبك على ما أغللت في ثمانية عشر شهراً من ارتفاعك وما انضاف إلى ذلك من رزقك وحق بيت المال التي قد رفعت عن نفسك لنفسك بإنك أوغرت . . .» فقال ابن الفرات: «أما استغلال ضيعتي فلا مطالبة لمتوجه عليّ به وقد ردها أمير المؤمنين عليّ، وأما حق بين المال الذي أوغرتيه فالحال واحدة فيه»^(٦٩).

من هذا يتضح أن الخليفة تجاوز عن جل الضرائب على ضياع ابن الفرات واقتصر على مبلغ محدد، ويبدو أن هذا الأسلوب استمر عبر القرن الرابع وأن الإيغارات كانت تدفع مبلغًا محددًا.

رابعًا: أراضي الوقف: ويقصد بالوقف الأراضي التي يخضعها المسلمون لأغراض دينية، فيكون واردها للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) وللمجاهدين والفقراء والمحتاجين واليتامى ولفك رقاب العبيد ولبناء المساجد والحصون وللمنافع العامة الأخرى^(٧٠). ويكون الوقف خاصًا أو رسميًا.

فالأوقاف الخاصة يوقفها بعض الأتقياء من الأمة^(٧١)، وكان الوقف عادة يوضع لفائدة الأقرباء والذرية.

أما الموقف الرسمي: فقد بدأ به الخليفة بصفته حامي الحرمين الشريفين وحارس الحدود^(٧٢). وقد أوقف المقتدر بناء على مشورة الوزير علي بن عيسى ضياعًا حول بغداد، وكان واردها السنوي ثلاثة عشر ألف دينار وضياعًا في السواد بلغ واردها ثمانين ألف دينار^(٧٣).

ولا يكون الوقف إلا في الأملاك الخاصة، ومتى ما تم وقف الأرض لم يعد بالإمكان بيعها أو مصادرتها^(٧٤). وكان يُسند إدارة الأوقاف الخاصة إلى القاضي، ويتظر منه أن يُصلح الأوقاف وينميها، وأن يتأكد من أن واردها يجمع كاملاً وبصورة صحيحة وإنه يصرف في أوجهه المخصص لها. كذلك كانت الأوقاف الخاصة تدار بواسطة ديوان خاص يُدعى ديوان البر^(٧٥).

• • •

مصادر ومراجع البحث

- ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م): جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. ١٥ مجلدًا ط. بيروت (لات).
- أبو يوسف (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م): يعقوب بن إبراهيم. كتاب الخراج، القاهرة ١٣٨٢هـ.
- الأصطخري (ت ٣٤١هـ / ٩٥٩م): أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي. المسالك والممالك تحقيق محمد جابر بن عبد العالي الحسيني القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.
- البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م): أبو العباس أحمد بن يحيى. فتوح البلدان. ط. ليدن ١٨٨٦م.
- الثعالبي (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م): أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري خاص الخاص ط. تونس ١٢٩٣هـ.
- الجهشيارى (ت ٣٨١هـ / ٩٤٢م): أبو عبد الله محمد بن عبدوس. الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى الحنبلي، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.
- الحنبلي (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م): أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الاستخراج لأحكام الخراج. الطبعة الأولى، صححه وعلق عليه الأستاذ السيد عبد الله الصديق، القاهرة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م.
- الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف. مفاتيح العلوم، القاهرة ١٤٣٢هـ.
- الصابي (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م): أبو الحسن الهلال بن عبد المحسن بن إبراهيم. الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٥٨م.
- الصولي (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م): أبو بكر بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس. أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢-٣٣٣هـ من كتاب الأوراق، نشر: هيوت دن. القاهرة ١٩٣٥م.

- الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م): أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك ١٣ جزءاً. الطبعة الحسينية المصرية، مكتبة خياط، بيروت (لا.ت).
- عريب القرطبي (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٣م): عريب بن سعد القرطبي. صلة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٧م.
- قدامة (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م): أبو الفرج قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي. نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة باعثناء دي خويه بريل – لندن ١٨٨٩م.
- الماوردي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م.
- مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، جزآن باعثناء ه. ف. أمدروز، القاهرة ١٩١٤-١٩١٥م.

المراجع

- أحمد، صالح: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ط. بيروت ١٩٦٩م.
- الدوري، عبد العزيز عبد الكريم:
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد، ١٩٤٨م.
- نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية (مستل من المجلد العشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠م.
- الرئيس، محمد ضياء الدين: الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٧م.
- زيدان جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، جزآن، القاهرة ١٩٠٣م.
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة، القاهرة ١٩٥٧م.
- جامعة عين شمس، حويلات كلية الآداب، مجلد ٤ سنة ١٩٥٧م.

الهوامش

- (١) الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، (مستل من المجلد العشرين من مجلة المجتمع العلمي العراقي) ط. بغداد ١٣٩٠هـ. ص ٨.
- (٢) الصابي. الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ص ٣٦٤-٣٦٥.
- (٣) الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال ط. ١٣٨١هـ، ص ٥٧.
- (٤) صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص ١٤٤.
- (٥) الحنبلي، الاستخراج لأحكام الخراج، صححه وعلق عليه السيد عبد الله الصديق، الطبعة الأولى، القاهرة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م) ص ٥٨، ٥٩.
- (٦) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط. بيروت، ١٩٧٤م، ص ٣٧.
- (٧) ابن منظور، لسان العرب، مادة ضيع. بيروت (لا.ت)، م ٢، ص ٥٥٩.
- (٨) قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٤١. الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٩٠.
- (٩) الصولي، أخبار الرازي بالله والمتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢-٣٣٣هـ. من كتاب الأوراق، نشر: هيوز دن، القاهرة ١٩٣٥م، ص ٨٣.
- (١٠) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٤١، الصولي، أخبار الرازي، ص ١٤٥.
- (١١) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الأمم، باعثناء هـ. ف. آمدرز، القاهرة ١٩١٤-١٩١٥م، ج ١، ص ٦٠.
- (١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها، الجهشيارى، الوزراء، ص ٩٠.
- (١٣) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٤١. مسكويه، تجارب الأمم ج ١، ص ٦٠-٦١، جرجي زيدان، التمدن، ج ٢، ص ١٣٠.
- (١٤) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ١١٨.
- (١٥) مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٨٧. آدم متز، الحضارة، ج ١، ص ٢١٤.
- (١٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٤.

- (١٧) عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبري، نشر دي غوية، ليدن، ١٨٩٧م، ص ١٤٥.
- (١٨) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١٤٥. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢٦.
- (١٩) وقد بلغ عددهم في أيام المأمون (٣٣,٠٠٠) نفس.
- (٢٠) مسكويه، تجارب، ج ١، ص ١٥٢.
- (٢١) الصابي، الوزراء، ص ٣٠٠.
- (٢٢) الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م).
- (٢٣) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري، ص ١٤٥.
- (٢٤) الصابي، الوزراء، ص ٤٨.
- (٢٥) مسكويه، تجارب الامم، ج ١، ص ١٤٣.
- (٢٦) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري، ص ١٣٥.
- (٢٧) مسكويه، تجارب، ج ١، ص ٥٩-٦٠. محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٨٥.
- (٢٨) آدم منز، الحضارة، ج ١، ص ٢١٢.
- (٢٩) الصابي، الوزراء، ص ٤٥٣، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٣٩.
- (٣٠) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٣٩.
- (٣١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٣.
- (٣٢) أبو يوسف، الخراج، القاهرة ١٣٨٢هـ، ص ٥٨.
- (٣٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٦٠. الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، العربي بيروت ١٩٨٠م، ص ٨٩.
- (٣٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٧.
- (٣٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤١-٤٠.
- (٣٦) مسكويه، تجارب الامم، ج ١، ص ١٥٥.
- (٣٧) الصابي، الوزراء، ص ٢٥٧.
- (٣٨) ضريبة تفرض على الأراضي التي يزرعها المسلمون. قدامة، الخراج، ص ٢٣٩.

(٣٩) العبرة ثبت الصدقات لكورة كورة، وعبرة سائر الإرتفاعات أن يعتبر مثلاً ارتفاع السنة التي هي أقل ريفاً، والسنة التي هي أكثر ريفاً ويجمعان ويؤخذ نصفهما فتلك العبرة (متوسط)، بعد أن تعتبر الأسعار وسائر العوارض الواقعة. انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٤٠.

(*) (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م).

(٤٠) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٢.

(٤١) الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية (مستل من المجلد العشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٩٠هـ) ص ١٥.

(٤٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٢.

(٤٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٩١.

(٤٤) الصابي، الوزراء، ص ١٤-١٥.

(٤٥) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٢٥. الصابي، الوزراء، ص ٣٧-٣٨.

(٤٦) الدوري، نشأة الإقطاع، ص ١٧، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٣.

(٤٧) مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٩٨.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٤٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٦.

(٥٠) جامعة عين شمس، حوليات كلية الآداب، مجلد ٤ سنة ١٩٥٧م، ص ١٢٦.

(٥١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٥٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٨٨.

(٥٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٧٣.

(٥٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٦.

(٥٥) آدم متز، الحضارة، ج ١، ص ٢١٥. زيدان، التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١٢٧.

(٥٦) آدم متز، الحضارة، ج ١، ص ٢١٥.

(٥٧) قدامة، كتاب الحراج، ص ٦٢. البلاذري، فتوح البلدان. ط. لندن ١٨٨٦م، ص ١٥١.

(٥٨) الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص ٤٨.

(٥٩) أي كتبوا له صكوكاً يبيعها له.

- (٦٠) زيدان، التمدن، ج ٢، ص ١٢٧. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٧.
- (٦١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٧.
- (٦٢) الثعالبي، خاص الخاص، ط. تونس ١٢٩٣هـ، ص ١٦٨ حيث يذكر إنذارًا للملاكين الصغار بالآ يتشاركوا مع الملاكين الكبار «لأنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها».
- (٦٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٨، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص ٨٨، نشأة الإقطاع، ص ١٢.
- (٦٤) الصابي، الوزراء، ص ٤٥٤.
- (٦٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٦٠.
- (٦٦) قدامة، كتاب الخراج، ص ٢٤١. زيدان، التمدن، ج ٢، ص ١٢٩.
- (٦٧) التسويغ: هو أن يسوغ الإنسان من خواجه شيئاً في السنة. انظر الصابي، الوزراء، ص ٤٥٣.
- (٦٨) مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٣٩.
- (٦٩) الصابي، الوزراء، ص ٩١.
- (٧٠) الصابي، الوزراء، ص ٢٨٦.
- (٧١) الحنبلي، الاستخراج لأحكام الخراج، طبعة الأزهر (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م) ص ١١١-١١٢.
- (٧٢) الصابي، الوزراء، ص ٢٨٦.
- (٧٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (٧٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٠.
- (٧٥) الصابي، الوزراء، ص ٢٨٦. مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٢٩٥.



رؤية إسلامية للأدب

بقلم د. عبد الرحيم الرحيموني



سنحاول الانطلاق في هذا البحث من مقولتين:

- الأولى قرآنية: وهي أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض وأن الله تعالى مكّنه من خيراتها، ظاهرها، وباطنها، وأنه عز وجل رَسَمَ لَهُ حُدُودًا وَمَعَالِمَ لَيْقَفٍ عِنْدَهَا وَتَدَبَّرَهَا بِإِمْعَانٍ .
- ومن الأكيد أن الجيل الأول من الصحابة والمسلمين عامة، قد وقفوا عند تلك الحدود، وتدبروا تلك المعالم، وتمثل فيهم قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ . وعلى هديهم سارت الأجيال الإسلامية على مختلف العصور، حتى العصر الحاضر.

● والثانية نقدية أدبية: وتتعلق بالتساؤلات التي تطرح عادة حَوْل الكتابة الأدبية في علاقتها بالكتاب، إذ غَالِبًا ما نجد مثل هذه التساؤلات: لماذا يَكْتُبُ الكاتب؟ وكيف يكتب الكاتب؟ وكيف ينبغي أن يكتب الكاتب؟. وفي سبيل الإجابة عن هذه التساؤلات تدور كل المحاور النقدية أو معظمها على الأقل، قديمها وحديثها، عربيها وأعجميها. بل إن بعض الاتجاهات النقدية الحديثة التي تعتمد التحليل الأسلوبي ترى أن المؤلف الأدبي ينبغي أن يستمد وجوده من خِلَالِ حق الصلة المباشرة الشخصية بينه وبين كل قارئ، دون أي تعليقات ولا توضيحات ولا تحضيرات، وأن القيم الأدبية لا تبدو في شكلها الصحيح، بَلْ لا يمكن أن تُنقل وأن تُفهم إلا إذا اخْتُرِمَت الحساسية الشخصية للقارئ وأخذت بعين الاعتبار. ومن ثم فإن دراسة ما يحدث إِبَّانِ الاتصال المباشر والشخصي بَيْنَ المؤلف والقارئ، هي المادة في حد ذاتها أو الموضوع الواقعي لكل علم يهدف إلى تحديد نوعية النص الأدبي. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنه يمثل منهج الأغلبية الصامتة، ويقودُ مقاومة صامتة ومستمرة ضد كل الاتجاهات الأخرى. ومن يَبَيِّن مظاهر ذلك أنه يمثل نقطة انطلاق لكل قراءة نقدية لأي نص أدبي، كيفما كانت هذه القراءة، وكيفما كان هذا النص.

والآن يمكن أن نطرح السؤال التالي:

ما علاقة هاتين المقولتين بالرؤية الإسلامية للأدب ونقده؟ وما دورهما في بناء هذه الرؤية؟. الجواب هو أن القارئ المسلم المتشبع بالروح الإسلامية، على امتداد التاريخ، كانت له رؤية إسلامية لما يقرأه، فيستحسن ما هو مستحسن من الوجهة الإسلامية، ويستقبح ما هو مستقبح من الوجهة الإسلامية، وذلك إسوة بالرسول ﷺ الذي كان يستنشد الشعر فيستحسن ما هو حسن، ويرفض ما هو قبيح. ومن المؤكد أن درجات هذا

الاستحسان والاستقباح قد تفاوت من قارئ إلى قارئ تبعاً للتكوين الثقافي الذي تلقاه، ولكن مع ذلك تبقى رؤيته متمثلة للروح الإسلامية بشكل عام؛ لأن المعالم الدينية المرسومة منذ عهد النبوة لم تنطمس آثارها على مرّ العصور والأجيال. وإذا كانت القراءة - أي قراءة - تُعَدّ في الغالب، العتبة الأولى التي تمكّن من الدخول إلى كل مجال نقدي، باعتبار أن النقاد قُرَاء من طبقة خاصة من جهة، ويمتلكون بدورهم أيضاً رؤية إسلامية من جهة ثانية، فإن الإنتاج النقدي الذي وصلنا عن أسلافنا العرب المسلمين كان يعتمد رؤية إسلامية. ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن الأديب، أو المبدع، فلقد كان بدوره ذا رؤية إسلامية يُخَضِّعُ لها ما يقوله.

ويبدو ذلك واضحاً سواء عند الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن قضية من قضايا الإسلام من دعوة وجهاد وفتوحات، أم عند أولئك الذين تحدثوا في موضوعات عامة ترتبط بالطبيعة أو الحيوان أو غير ذلك، أم عند أولئك الذين غلبت عليهم أنفسهم، فخاضوا فيما يخوض فيه الخائضون من موضوعات قد تكون منبوذة من قبل المجتمع المسلم. بل حتى الذين كانوا لا يدينون بالإسلام، كانت الروح الإسلامية مهيمنة على إنتاجهم، وحسبنا أن نعود إلى شعر الأخطل النصراني، وإلى كتابات ثابت بن قرة الصابي، ليتبين لنا التأثير الإسلامي بوضوح في إبداعاتهم. وهذا يعود دون شك إلى النبع الذي كانوا يستقون منه، نبع الثقافة الإسلامية وحضارتها، وإلى المجتمع المسلم الذي كان يتبع كتاباتهم فينتقد ويصوب، ويقبل ويرفض، ومن ثم لم يكن الأدباء يملكون إلا الاستجابة للأذواق، والسير مع التيار. هذه هي القاعدة العامة، ولا عثرة بالاستثناء.

ولقائل أن يقول: وما علاقة هذا بالأدب الإسلامي المعاصر؟

الجواب هو أن الأدب الإسلامي المعاصر، ينبغي أن يكون امتداداً لأدبنا الإسلامي الذي ظهر منذ فجر الدعوة الإسلامية، واستمر في النمو والتطور على مرّ العصور. ولتحقيق ذلك ينبغي أن تزال الأشواك من طريق هذه الاستمرارية وفي مقدمة الأشواك التي توضع في العادة ما يروجه المفرضون من أن الأدب العربي القديم لم يكن في يوم من الأيام أدباً إسلامياً، ويتحدثون عن أن شعر حسان وأبي تمام، وأبي العتاهية وأشباههم لم يكن شعراً إسلامياً، وأن النقد الأدبي العربي القديم، كان نقداً غير إسلامي أيضاً، ويشيرون إلى مقولة: «الدين بمعزل عن الشعر». وهم بذلك يريدون أن يسحبوا البساط من تحت أرجل الذين ينادون بالأدب الإسلامي في العصر الحاضر ويسعون إلى بلورته إبداعاً ونقداً وواقعاً، ليقولوا لهم: لا داعي إلى وجود أدب إسلامي في هذا العصر؛ لأن التاريخ لم يشهد أيّ أدب من هذا النوع، فكيف يمكن بعث شيء لم يرَ النور على الإطلاق. وفي المقابل يريدون أن يُبرِّروا وجود أدب خليع في العصر الحاضر، لا يرتبط بأي جانب من جوانب الإسلام، إن لم نقل: وجود أدب يحارب الإسلام، مستشهدين بشعر أبي نواس وأشباهه. ولذلك فإنه يبدو، في اعتقادي، أن بناء أدب إسلامي معاصر، يقتضي من جملة ما يقتضي إخضاع ما أنتجه أبناء الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها من أدب ونقد إلى رؤية إسلامية، ليتسنى هنا تمحيص الحق من الباطل، ورفع بنيان أدب إسلامي معاصر، إبداعاً ونقداً، على ما وصَّعه أسلافنا من أسس سليمة قائمة على تقوى من الله ورضوان، وإبعاد كل ما كان أسس على شفا جُرْفِ هَارٍ. «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى قَوَائِيهِ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا مِنَ الْخَالِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ» فالانطلاق من نقطة الصفر غير مُجْدٍ، والتسليم بكل ما جاء في التراث الأدبي غير نافع أيضاً، ودراسة ذلك التراث دراسة علمية إسلامية

هي اللبنة الكبرى والأساس لبناء أدب إسلامي معاصر، وبدونها سيكون البناء ناقصاً أو على الأقل غير مستقيم.

ولاشك أن تكوين مثل هذه الرؤية يحتاج إلى بحوث مطولة ودراسات معمقة في مختلف مجالات التراث الأدبي للأمة الإسلامية، ولذلك سنكتفي في هذا البحث المتواضع بتقديم نماذج من هذه الرؤية، انطلاقاً من شخصيات معروفة، ونصوص محددة، وقضايا معينة. آملي أن تكون بداية سليمة لطريق لا نعتقد أنه قصير. بل طويل طول التاريخ الإسلامي والعربي، متشعب تشعب شرائح المجتمع الإسلامي. ولنا اليقين أنه إذا اكتملت لنا جميعاً هذه الرؤية، واستخلصناها وقتناها انطلاقاً من القرآن والسنة، ثم من تراثنا في صورته الكلية، فإن البناء سيكون بإذن الله سهلاً دون شك؛ لأن الرافد الأساس الذي يمد أدياء الأمة الإسلامية في العصر الحاضر، هو ما خلفته هذه الأمة في مسيرتها التاريخية الطويلة، ثم ما خلفته الأمم الأخرى في المجال الأدبي على الخصوص. وإذا امتلكننا رؤية إسلامية لهذا، وذلك، فإننا نكون قد خطونا الخطوة العملاقة لتأسيس أدب إسلامي معاصر، متّصل الجذور بأدينا القديم غير متقوقع في دائرة ضيقة؛ لأن عالمية الإسلام تستوجب أن يكون الأدب الإسلامي عالمياً أيضاً.

وأول شخصية نبدأ بالحديث عنها، شخصية حسان بن ثابت. ورُبّ قائل يقول: ولماذا حسان بن ثابت؟ إنه شاعر إسلامي لا غبار عليه! أقول نعم، ولكن هناك من يجعله إسلامياً من الناحية التاريخية فحسب، أي أنه إسلامي نسبة إلى عصر صدر الإسلام الذي يوصف بأنه إسلامي، حينما يقسم تاريخ الأدب العربي إلى عصور وحقب، فيقال هذا جاهلي، وهذا إسلامي، وهذا أموي، وهذا عباسي إلخ... (١) بل إن الأمر أبعد من هذا

بكثير. خاصة ونحن نعلم أن عددًا من الدارسين، يأخذون بمقولة ضعف الشعر في صدر الإسلام، ويُسلمون بذلك، ويرون - انطلاقًا من رأيهم هذا - أن الشعر يضعف إذا ما أخضعت موضوعاته إلى القيم الإسلامية ومعانيها وتصوراتها، ليستخلصوا بعد ذلك ألاَّ وجودَ لأدبٍ إسلامي في تاريخ الأدب العربي، وأن ما وُجد منه ضعيف لا تتمثل فيه الأدبية المطلوبة، ومن ثم يذهبون إلى القول بأنه لا جدوى من المناذاة بالأدب الإسلامي، والدعوة إليه في العصر الحاضر ما دام الأمر كذلك. ولهذا السبب لا بد من توضيح الرؤية نحو حسان، بأخذ القضية من جانبها الإسلامي أولاً، ثم من جانبها الأدبي والاجتماعي ثانيًا، لنصل إلى تقويم عام لأدب ذلك العصر الذي طالما ظلمه الدارسون، واستخلاص ما يُمكن استخلاصه ليكون اللبنة الأولى لبناء أدب إسلامي معاصر، باعتبار أن عصر حسان في الإسلام هو العصر المؤسس للأدب الإسلامي.

ولكن هذا مجال واسع وعريض، ويَضِيقُ المجال عَنِ الإحاطة به كله، ولذلك سنكتفي بوضع السؤال التالي: هل تتمثل حسان التصور الإسلامي في شعره؟

ولعل الجواب عن أيِّ سؤال يتعلق بحسان وشعره، يَبْدُو أيضًا صعبًا ومتشعبًا، نظرًا لاختلاط شعره بشعر غيره من ناحية، ولتضارب الأخبار والروايات حول بعض المواقف الخاصة به وشعره. ولكن مع ذلك فإنه يمكن القول إنَّ الذي وصلنا من شعر حسان الإسلامي يترجم بشكل واضح فقهه لمتطلبات الأدب الإسلامي. ويمكن أن نبين ذلك من خلال نُقْطَتَيْنِ أَساسيتين هما: أ - مصدر الشعر. ب - موضوعات الشعر وعلاقتها بالمتلقي.

أ - مصدر الشعر عند حسان :

لقد تغيرت رؤية حسان لمصدر الشعر بتغير معتقده من الجاهلية إلى الإسلام؛ فلقد كان وهو جاهلي يظن ظن باقي الشعراء الجاهليين الذين كانوا يقولون بشيطان الشعر، وأنه هو الذي ينفث الشعر على ألسنتهم. روى ابن الكلبي أن السعلاة^(٢) لقيت حسان بن ثابت في بعض أزقة المدينة، فصرعته وقعدت على صدره، وقالت له: أنت الذي يأمل قومك أن تكون شاعرهم؟ فقال: نعم! قالت والله لا ينجيك مني إلا أن تقول، ثلاثة أبيات على روى واحد، فقال حسان:

إِذَا مَا تَرَعَرَجَ فِينَا الْغُلَامُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مِنْ هُوَةٍ
إِذَا لَمْ يُسْذَقْ قَبْلَ شَدْ الْإِزَارِ فَذَلِكَ فِينَا الَّذِي هُوَةٍ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَانِ فَطَوْرًا أَقُولُ وَطَوْرًا هُوَةٍ^(٣)
وَنَظِيرَ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

وَأَخِي مِنَ الْجَنِّ الْبَصِيرِ إِذَا حَالَ الْكَلَامَ بِأَحْسَنِ الْخَبْرِ^(٤)

وإذا كانت الرواية التي رواها ابن الكلبي تدخل في إطار الخرافات التي كانت شائعة عند الجاهليين، فإن نص حسان بصريح العبارة على أن له صاحباً من الجن من قبيلة بني الشيصبان، وأنه يقول الشعر على لسانه، كافٍ للدلالة على اعتقاد حسان، قبل إسلامه، بشيطان الشعر.

ولما جاء الإسلام، وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، برز حسان بشعره على واجهة الأحداث، خاصة بعد أن تناولت قريش الرسول ﷺ بالهجاء، وانتدب حسان نفسه للدفاع عن الرسول الكريم وأصحابه. ولما كان دفاعه عنهم يقتضي منه الالتزام بمبادئ الإسلام وتشريعاته، فإن رؤية حسان لمصدر الشعر قد تغيرت، إذ ليس من المعقول ولامن المقبول، إسلامياً أن

تُذَكَّرُ شياطينُ الشعرِ بحَضرةِ الرسول ﷺ، سيما وأنه عليه السلام قد قال له: «قُلْ وَمَعَكُمْ رُوحُ الْقُدُسِ»^(٥). فَضْلاً عن الآية الكريمة التي أنبأت عَنِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ ﴿هَلْ أُتِيتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَنْزِيلٌ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ أُشِيرَ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ﴾^(٦). وبذلك أعلن حسان عن مصدر جَدِيدٍ للشعر، لا يمت إلى الجاهلية بِصِلَةٍ، وَلَا يَبْدُو أَنَّهُ شَيْطَانٌ. قال (٧):

وَقَا فِيهِ عَجَتْ بِلِيلِ زَيْنَةٍ تَلَقَيْتُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ نَزْوَهَا
بَرَاهَا الَّذِي لَا يَنْطِقُ الشَّعْرُ عِنْدَهُ وَيَعْجِزُ عَنْ أَشْهَالِهَا أَنْ يَقُولَهَا

ويبدو أَنَّ حسان أَرَادَ من قوله هَذَا تَفْخِيمَ أَمْرِ شَعْرِهِ، وأنه مؤيَّدٌ من قبل قوة غيبية تفوق القوة التي يدَّعيها خصومه، وإلا فإن حسان قد عَبَّرَ بِصَرِيحِ العبارة عن أَنَّ الشعر هو عصارة فكر الشاعر، ونتيجة تمخض ذَهْنِهِ وَقُورَانِ عاطفته، وَهَذَا ما يبدو في قوله:

وإِنَّمَا الشَّعْرُ لَبُّ الْمَرْءِ يَغْرُضُهُ عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ مُمَقَّا
وَمَنْ نَمَّ لَا جَبَالَ لِتَغْلِيلِ غَيْبِي لِقَضِيَةِ الْإِبْدَاعِ، أو مصدر الشعر، سوى ما يمكن أن يكون من تأييد إلهي عن طريق التوفيق والسداد، أَمَّا مَا عَدَا ذلك فهو جُهْدُ إِنْسَانِي خَالِصٌ.

وبذلك يكون حسان في رؤيته هذه، مترجماً للتصور الإسلامي لإبداع الشعر. ذلك التصور الذي يمكن أن يُسْتَبْطَنَ من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبَغِي لَهُ﴾^(٨)؛ فلفظ «علمناه» يمكن أن يفيد بأن الشعر في التصور القرآني عِلْمٌ وصناعة يمكن أن يتعلمه الإنسان، وليس هناك أي مجال للسوحي أو تدخّل للغيب، ومن ثم فلا يمكن للإنسان أن يزعم بأن هُنَاكَ مُصَدَّرًا غَيْبِيًّا يُعِينُهُ عَلَى قول الشعر أو تعلمه، وإن فعل ذلك فهو متقول كاذب.

ب - موضوعات شعره وعلاقتها بالملتقي :

تضمن شعر حسان موضوعات جديدة لا عهد للعرب بها . وتبدو أساساً فيها تأثير به من موضوعات إسلامية ، حتّى أصبح شعره مُترجماً لرؤية إسلامية واضحة ، وهذا موضوع قد تناولناه في بحث آخر مستقل^(٩) . لكن الذي نريد أن نلفت الانتباه إليه هو علاقة هذه الموضوعات بالملتقي في ذلك الوقت ، وبعبارة أخرى ، هل كان شعر حسان يؤدي دوره على الوجه الأكمل ، أم أنه كان مجرد لغو لا فائدة منه ؟

إن الموضوعات التي تحدث عنها حسان في شعره تمثل النموذج الأمثل الذي يبين كيف تتم إخضاع الموضوعات المتداولة في المجتمع الجاهلي للرؤية الإسلامية ، فتكون مقبولة مستحسنة من الوجهة الإسلامية ، وذات تأثير ومكانة من الوجهة الاجتماعية . يدل على ذلك استحسان الرسول ﷺ لشعره ولشعر صاحبيه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة في مواقف كثيرة ؛ من ذلك ما روي عن جويرية بن أسماء ، قال : «بلغني أن رسول ﷺ قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى»^(١٠) . ومن ذلك ما روي أنه ﷺ لما بلغه هجاء أبي سفيان بن الحارث شق ذلك عليه ﷺ ، فدعا عبدالله بن رواحة فاستنشده ، فأنشده ، فقال له : أنت شاعر كريم ، ثم دعا كعب بن مالك فاستنشده فأنشده فقال له : أنت شاعر تحسن صفة الحرب ، ثم دعا بحسان فقال له : أجب عني^(١١) . ومن ذلك أيضاً ما روي عنه ﷺ أنه لما سمع قول حسان :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعنــد الله في ذاك الجزاء

قال له عليه السلام : «جزاؤك عند الله الجنة يا حسان» فلما قال :
 فإنَّ أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً
 قال له السيد الأمين عليه السلام : «وقاك الله حرَّ النار» . قال ابن رشيقي القيرواني
 معقبًا على هذا الخبر : «ففضي له بالجنة مرتين في ساعة واحدة ، وسبب ذلك
 شعره» (١٢) .

كما يدل على ذلك أيضا ما أحدثه هذا الشعر الذي رضي عنه رسول الله
ﷺ من أثر في المجتمعات المشركة آنذاك ؛ كالمجتمع القرشي الذي تأثر
 بهجاء حسان تأثراً كبيراً ، وقال زعماءه حينما بلغهم هجاء حسان ، وأكبروه
 واستعظموه : «والله ما غاب هذا الهجاء عن ابن أبي قحافة» (١٣) ، إدراكاً
 منهم أنَّ ما تضمنه هجاء حسان للمشركين لا يمكن أن يأتي به حسان
 وحده ، إلا بإعانة من هو أعلم منه بأنساب العرب . وهو أبو بكر الصديق
 رضي الله عنه .

ونظير ذلك ما حدث لو قد تميم حينما وفد على الرسول ﷺ ؛ فلقد خطب
 خطيبهم عطارد بن حاجب ، ورد عليه خطيب المسلمين ثابت بن قيس ،
 وافتخر بتميم شاعرهم الزبرقان بن بدر ، فأجابه حسان بن ثابت . «فلما فرغ
 حسان بن ثابت من قوله ، قال الا قرعُ بن حابس - وهو من أشرف بني
 تميم : وأبي أن هذا الرجل لمؤتي له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره
 أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أخلق من أصواتنا . . .» (١٤) .

وبذلك شهد بنو تميم على لسان زعيمهم الأقرع بن حابس على جودة
 حسان الشعرية ، مع العلم أن ردَّ حسان على الزبرقان كان قد ارتجله ارتجالاً
 ولم يكن قد أعدَّ ذلك ، كما هو الشأن بالنسبة للزبرقان ، مما يعني أن شعره
 المُرْتَجَل كان ذا أثر في كل المجتمعات التي جابهها به ، الأمر الذي يدل على

أن شعره المنقح والمعد سلفاً، كان أكثر تأثيراً في هذه المجتمعات، ويبدو أن أكبر شاهد على ذلك ما ذكره الأصفهاني حينما قال: «فكان يهجوهم - أي المشركين - ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر. قال: فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة» (١٥).

وإذا كان شعر حسان على هذا القدر من الأهمية الدينية والأدبية والاجتماعية، فهل يطلب منه أكثر من هذا؟ وهل يُرْجى من شخص عاش في الجاهلية ستين عاماً، تشرب خلالها ثقافة مجتمعه ومعتقداته وعاداته وتقاليد الغنية والموضوعية في الشعر، أن يأتي بشعر أكثر إسلامية وفنية مما وجدناه عند حسان؟ ثم لماذا يتهم شعره بالضعف وهو أشعر الناس في الجاهلية والإسلام، وذو مكانة اجتماعية خاصة اكتسبها بشعره؟ الآن شعره ضعيف حقاً، وهو ما يصعب التسليم به، لأنه حتى الآن لم يدرس شعره دراسة نقدية نصية تبين الصحيح من المنحول، وتبين جوانب القوة فيه إن وجدت، ومكامن الضعف فيه إن كانت؟ أم لأن هذه التهمة تقليد لمن وصفه من القدماء بالضعف كما تدل على ذلك ظاهر أقوالهم، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق - على خلاف ما يتوهم الكثيرون -؛ فرأي الأصمعي على سبيل المثال، الذي يستشهد به عند كل حديث عن ضعف الشعر في صدر الإسلام، أو ضعفه عند حسان بن ثابت، ينبغي أن يؤخذ بكثير من الاحتياط، وأن يُدرس في سياقه الخاص (١٦).

ثُمَّ إِنَّهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْظَرَ إِلَى حَسَانٍ مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِيهِ، ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ شَعْرُهُ يَتَكَامَلُ مَعَ شَعْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ. فَإِذَا مَا أَخَذْنَا بَعَيْنَ الْاِعْتِبَارِ أَقْوَالَ الرَّسُولِ ﷺ الْمَشَارِ إِلَيْهَا سَابِقًا، وَأَضَفْنَا إِلَيْهَا قَوْلَ ابْنِ سِيرِينَ: «أَمَّا كَعْبٌ فَكَانَ يَذْكُرُ الْحَرْبَ، يَقُولُ فَعَلْنَا وَنَفَعَلُ وَيَتَهَدَّدُهُمْ، وَأَمَّا حَسَانٌ فَكَانَ يَذْكُرُ عِيُوبَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ، وَأَمَّا ابْنُ رَوَاحَةَ فَكَانَ يُعِيرُهُم بِالْكَفْرِ»^(١٧)، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ كُلَّ شَاعِرٍ كَانَ يَقُومُ بِدَوْرِهِ الْخَاصِّ؛ فَحَسَّانُ كَانَ يَقُومُ بِدَوْرِ الدَّعَايَةِ ضَدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَتَتَجَلَّى فِي تَحْطِيمِ مَعْنَوِيَّاتِ الْمُشْرِكِينَ وَإِثَارَةِ الْبَلْبَلَةِ فِي صَفُوفِهِمْ، بَيْنَمَا كَانَ كَعْبٌ يَقُومُ بِالْتَهْدِيدِ وَالْإِنْذَارِ وَإِظْهَارِ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَكْمُلُ مَا كَانَ يَقُومُ بِهِ حَسَانٌ، وَخَاصَّةً مِنْ حَيْثُ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يَأْتِي عَبْدِ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِيُطْرَحَ الْبَدِيلُ الْإِسْلَامِي، وَيُنْبَهَ بِشَعْرِهِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ لَا فَلَاحَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا بِالْاِعْتَصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ وَاتِّبَاعِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ.

وَمِنْ ثَمَّ يَبْدُو فِي نَظَرِنَا، أَنَّ أَيَّ إِبْدَاعٍ أَدْبِي فِي الْعَصْرِ الرَّاهِنِ، أَوْ أَيَّ حُكْمٍ عَلَيْهِ، يَنْبَغِي أَنْ يَنْطَلِقَ مِنْ هَذَا التَّصَوُّرِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَحَاكِمَ أُدْيِيًا مَا لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي مَوْضُوعٍ مَا يَشْغُلُ بَالَنَا، أَوْ نَحَاكِمَ آخَرَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَهُ أَدِيبٌ آخَرُ. فَأُدْبَاءُ الْإِسْلَامِ - فِي أَيِّ عَصْرِ كَانُوا - مُرَابِطُونَ فِي الثُّغُورِ، وَالثُّغُورُ مُتَفَاوِتَةٌ الْخَطُورَةُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَسْتَعْمَلُ السِّلَاحَ الْمُنَاسِبَ، فَإِذَا كَفَّى الْأُمَّةَ الشَّرَّ الْآتِي مِنْ ذَلِكَ الثُّغْرِ كَانَ قَدْ أَدَّى دَوْرَهُ بِصُورَةٍ تَامَةٍ.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْجَوْلَةِ مَعَ حَسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَتَنَقَّلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى، حَدِيثًا يَعْتمَدُ التَّصَوُّرَ نَفْسَهُ. إِنَّهَا شَخْصِيَّةُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ. وَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ أَيْضًا: وَلِمَاذَا أَبُو الْعَتَاهِيَةِ وَهُوَ شَاعِرٌ زَاهِدٌ، وَمَا جَذْوَى دِرَاسَةِ شَعْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ وَهُوَ شَعْرٌ إِسْلَامِي لَا يَرْقَى إِلَيْهِ شُكٌّ. الْجَوَابُ أَنَّ

ما قيل عن حسان ينطبق - تقريباً - على أبي العتاهية . ذلك أن بعض الدارسين يجعلون الأدب الإسلامي محصوراً في أدب الزهد أو أدب المدائح النبوية ، أي أنهم يجعلون الأدب الإسلامي أدب دروشة . بل وقد يذهب البعض إلى إرجاع الزهد بوصفه تياراً أدبياً في الأدب الإسلامي إلى عناصر أجنبية وغريبة عن البيئة الإسلامية^(١٨) وحينما يستقيم هذا الحصار - أو هذه التهمة - يقومون بسحب البساط من تحت هذا الأدب ، عن طريق اتهام أصحابه بأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ليخلصوا في الأخير إلى أن الإسلامية في الأدب العربي هي إسلامية التقول والنفاق ؛ لأن أبا العتاهية الذي يقال عنه أنه شاعر زاهد لا يُعَدُّو في نظرهم أن يَكُونُ مُنَافِقاً يقول ما لا يفعل . ولهذا فإن الرؤية الإسلامية للأدب تتطلب منا أن ننظر إلى أولئك الأدباء الذين نظموا في موضوعات إسلامية خاصة ، نظرة تُثَبِّتُ إسلامية أدبهم أو عَدَمُ إسلاميته ؛ لأن هذه النظرة ستمكننا من توضيح عددٍ من التصورات والمفاهيم ، كما ستمكننا في الوقت ذاته من إخضاع كافة الموضوعات والأغراض والأنواع الأدبية لهذه الرؤية ، ووزنها بميزانها . وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى أبي العتاهية من خلال النقاط التالية :

١ - أنَّ حياة أبي العتاهية ذات شقين اثنين :

● حياة لاهية عابثة ما جنة ، وهي التي سادت في الشطر الأول من حياته ، إذ كَانَ يُعَدُّ في عصابة المجان .

● وحياة زاهدة عابدة تائبة ، وهي التي تبدو في الشطر الثاني من حياته ، بعدَ أَنْ صَحَا من إثمِهِ وضلاله ومجونه ، ومن ثمَّ فإنَّ مَا يُنسَبُ إليه من أخبار عن زندقته وبخله وما إلى ذلك قد يكون مرتبطاً بحياته الأولى لا بالثانية . ولا شك أن هذا التحول عِبْرَةٌ لمن أعتبر .

٢- أن الأخبار التي رويت حول نزاهده - أو نفاقه - غير موثوق فيها، وفي نظرنا أن تلك الأخبار من إبداع الزنادقة والمجان أنفسهم وأن لا علاقة لها بحياة أبي العتاهية الزاهدة، إذ أن المجان، بل والزنادقة أيضا لن يرتاح لهم بال بعد أن ابتعد عنهم أبو العتاهية وأصبح يرى واقعهم الذي يعيشون فيه خراباً ودماراً للمجتمع، وقبل ذلك وبعده، لعزى الدين ومبادئه الخلقية، ولذلك روجوا تلك الأخبار^(١٩) للتشويش على التأثير الذي كان يحدثه شاعرنا في أوساط عامة الناس وخاصتهم، الذين كانوا يقبلون على شعره، نظراً لشعبيته وسهولة إنشاده.

٣- أن النص الشعري هو الحكم الفصل في هذه الأمور، فالشعر كما عرفه الشعراء أنفسهم لب المرء وعصارة فكره^(٢٠). وترجمة لعقل الإنسان ونفسه وحقيقته، وزبدة للمعاناة الفكرية، والإجهاد النفسي. وإذا كان أبو العتاهية قد شهد له بالشاعرية الفذة، وأنه كان باستطاعته تأليف الشعر متى أراد^(٢١)، فإنه لا بد أن يكون هذا الشعر ترجمة لما في عقله وقلبه. ولا شك أن دراسة شعر أبي العتاهية تؤدي بشكل طبيعي إلى الكشف عن رؤيته الإسلامية للحياة، تلك الرؤية التي انبثقت عنها كل المعاني الزهدية عنده. ويكفي للاستشهاد على ذلك أن نشير إلى بعض الأبيات من قصيدة له مشهورة. تعد من أروع ما أبدعته شاعرية أبي العتاهية في مجال الزهد. إذ شهد له القدماء بالتفوق فيها. ولعل مما دفعهم إلى هذا الحكم هو أن هذه القصيدة قد جمعت أغلب مميزات شعر الزهد، وخاصة من حيث المعاني التي نظمها الشاعر فيها، حيث عبّر عن خلالها عن موقفه الرافض للعالم، وعن نظراته إليها وإلى مصيرها المحتوم، وإلى الحياة الأخروية وما يصاحبها من نعيم أو جحيم.

يقول أبو العتاهية في مستهل هذه القصيدة (٢٢):

- ١ - قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
 - ٢ - وَبَشِشْتُ أَنْ أَبْقَى لِسْنِي نَلْت مِمَّا فِيكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
 - ٣ - وَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي وَأَرْخْتُ مِنْ حَلِي وَمِنْ تَرْحَالِي . . .
- إذا كان الدارسون قد أوضحوا أنَّ مطلع القصيدة هو أول ما يطرق أذن السامع ، وأن على الشاعر أن يحسن نظم افتتاحيات قصائده ، وقدّموا نماذج عديدة من المطالع التي أجاد فيها أصحابها ، فإن الذي يلاحظ بصفة عامة هو أن الشعراء الخذاق كانوا يعتنون بمقدمات قصائدهم غاية العناية . ولعل أبا العتاهية أحد هؤلاء الشعراء حيث إنه أفلح في تقديم شحنة مركزة عن مضمون النص بأكمله من خلال الأبيات السابقة التي استهل بها قصيدته ، والتي حاول أن يجعلها عبارة عن خلاصة آرائه وأفكاره في الحياة الدنيا وموقفه منها ، وكأنه أراد أن يقدم للمتلقي (السامع القارئ) زبدة تجاربه وعُصارة كفاحه . ويمكن بيان ذلك من خلال وقفة سريعة عند بعض المكونات اللغوية والأسلوبية المكونة لهذه الأبيات :

- ١ - الشطر الأول من البيت الأول : « قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ » فهذا القول تعبير واضح عن موقف الشاعر من الدنيا ، حيث إنه انفصم عنها وابتعد ، ولم يَبْقَ على وسيلة لكي يتصل بها أو تتصل به . ويبدو ذلك من خلال العناصر اللغوية المكوّنة للشطر وهي كما يلي :

أ - قَطَعْتُ : وهو كما يلاحظ فعل مضعف ، والتضعيف يفيد التكثير كما هو معروف ، مما يدل على عمق الانفصام والابتعاد عن الحياة اللاهية المأجنة . ولعل مما يعزز هذا الانفصام ، تكرار مفهوم القطع مرتين أُخْرَيْنِ في

القصيدة : مرة بصيغة مباشرة في قوله في البيت السادس والثلاثين : «الموت يقطع حيلة المحتال» ، ومرة ثانية ورد بالمعنى فقط ، في قوله في البيت الثالث والعشرين «حذف المنى عنه المشمر في الهدى» ؛ فالحذف والقطع يتيمان إلى حقل دلالي واحد . والإشارات الثلاث مرتبطة كلها بآمال الدنيا وأمانيه . ويمكن توضيح ذلك كما يلي :

قَطَّعْتُ	(أنا الشاعر)	منك (أي الدنيا)	حبائل الآمال
حَذَفَ	المشمر في الهدى	(في الدنيا)	المنى
يَقْطَعُ	الموت	(في الدنيا)	حيلة المحتال

وهكذا يتضح أن القطع والحذف من قبيل دلالي واحد ، كما أن الآمال والمنى والحيل ، ألفاظ تشترك في كثير من الجوانب الدلالية ، إذ إن المحتال في الدنيا يحتمل لتحقيق آماله وأمانيه ، ويزداد هذا المفهوم عمقا إذا ما قارنا الضمائر والفواعل في هذه المستويات الثلاثة السابقة في إطار السياق الذي وردت فيه ؛ ففي البيت الأول تحدث الشاعر عن نفسه وموقفه من الدنيا ، بينما تحدث في البيت ٢٣ عن «المشمر في الهدى» مع مقارنته بـ «المشمر في ابتغاء الأمانى» ، وفي البيت ٣٥ تحدث عن حيل الإنسان بصفة عامة ، غير أن تلك الحيل يقطعها الموت بمجيئه ، ومن ثم تبدو أهمية فعل «قَطَّعْتُ» الذي تحدثنا عنه ، حيث يبدو وكأن الشاعر يُريدُ القول : «إِذَا أَنْ تَقْطَعُ آمالك وأمانيك من الدنيا بالاقتناع (كما فعل الشاعر) . أو بالاقتداء بالمشمر في الهدى ، وإِذَا أَنْ يقطعها الموت بمجيئه» . وَيَذَلِّكَ يكتسب البيت ٣٦ قيمته الحكيمة والمثالية .

ب - مِنْكَ : حيث إن مَرْجِع الضمير في كاف الخطاب يعود على «الدنيا» التي لم يذكرها الشاعر باللفظ إلا في الشطر الثاني من البيت الثاني . وهذا له

دلالتة أيضاً. إذ إن المتلقي سيتطلع لمن يتوجه الشاعر إليه بالخطاب. وحينما يدرك أن المخاطَب هو الدنيا، حينذاك يسارع أبو العتاهية إلى تقديم بعض الأوصاف لها في قوله في البيتين ٦، ٣٨:

الآن يا دُنْيا عرفتُكَ فاذْهبي يا دار كُـلَّ تَشْتَتِ وزوال
مالي أراك لَحْرٌ وجْهَكَ خلَقنا أخْلَقْتَ يا دنيا وجوه رجال

فالدنيا في نظر الشاعر ووفق معرفته بها دارٌ تَشْتَتِ وزوال، ومُخْلَقَةٌ لوجوه الرجال. وهذا التشّت والزوال والإخلاق هو الذي دفع الشاعر إلى الابتعاد عن الدنيا. ومن ثم تبدو أهمية حرف النداء «يا» الذي ارتبط بلفظ «الدنيا» ثلاث مرات، ولفظ «دار» مرة واحدة. مما يوحي بابتعاد الشاعر عنها حتى أصبح يناديهما من بعيد. بل يمكن القول: إن الشاعر قد حاول تغيب الدنيا لفظاً في قوله «مِنْكَ»، حتى يُوجي بتغييبها من حياته الواقعية وابتعاده عنها.

جـ- حَبَائِلُ الْأَمَالِ: لعل مما يجب تأكيده أولاً هو أن لفظ «الحبل» ذو دلالة إيجابية في حياة العربي وذلك من حيث دوره في الحياة اليومية؛ فبالحبل يمتح الماء من البئر، وبالحبل يقود فرسه أو ناقته، وبالحبل يشد السفينة على الشاطئ، ومن ثم كان لقولهم: أَلْقَيْتَ حَبْلَكَ على غاربك يفيد معنى العُزُوف والطلاق والابتعاد^(٢٣). فكيف وقد ورد لفظ «الحبل» في قول الشاعر بصيغة الجمع. وصيغة «حبال» في هذا المقام بصورة خاصة تبيّن متانة الصلة التي كانت تربط الشاعر بالدنيا، وتُوجي بفَرَاثَتِها في الوقت ذاته. الأمر الذي يُعزِّز أهمية التضعيف في «قَطَعْتَ» الذي أشرنا إليه سابقاً.

٢- الشطر الثاني من البيت الأول: «حَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمُطِيِّ رَحَالِي»، والشطر الثاني مِنَ البيت الثالث: «أَرَحْتُ مِنْ حَلِي وَتَرَحَالِي». فَحَطَّ الرحال

عَنْ ظَهَرِ الْمُطَيِّ، والراحة من الحل والترحال؛ عبارتان أخريان تدلان على هجر الشاعر للدنيا، وعزمه الأكيد على الابتعاد عن شهواتها. ولا حاجة إلى التذكير بما لِلرَّحَلَةِ من دَوْرٍ في حياة العربي بِصُورَةٍ عامة، والشاعر بصورة خاصة، وبصفة خاصة الشاعر المادح. ومن الأكيد أَنَّ الشاعر هنا يَقْصِدُ أنه قَطَعَ الصلة بتلك الرحلة التي تكون بهدف طلب الشهوات والملذات، لا تلك التي تكون في سبيل ابتغاء مرضات الله، أو في سبيل الهروب من واقع ردي خبيث: إذ أن مثل هذه الرحلة مرغوب فيها، ويشجع الشاعر عليها، بل ويأمر بها كما في قوله في البيت السادس والأربعين من القصيدة:

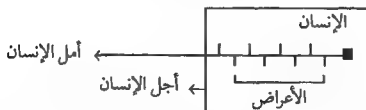
وإذا خشيت تعذراً في بلدة فاشدد يديك بعاجل الترحال(٢٤)

٣- لفظ «الْيَأْس» الذي وَرَدَ مرتين في البيتين الثاني والثالث، وهو لفظ يعزز من جهته مفهوم انفصام الشاعر عن الدنيا، خاصة وأن هذا اليأس قد خالط جوانح الشاعر وقلبه، ف شعر برده، كما يشعر الشاك ببرد اليقين إذا وجده(٢٥).

هذه البنيات اللغوية الثلاث تعبر عن انفصام الشاعر عن الدنيا وتعزز مفهوم الموت وتخدمه، إذ أَنَّ الابتعادَ عن شهوات الدنيا وملذاتها، والتزام جادة الصواب والتقوى والزهد، هو استعدادٌ للموت وعملٌ لما بعده. ومن هنا يُدْفَعُ في نظرنا كُلُّ تعليل يمكن أن يُقَدَّم لتفسير ظاهرة إلحاح أبي العتاهية عَلَى الموت بشكل لافت للنظر سواء في النص الذي وردت فيه هذه الأبيات الثلاثة أو في أشعار الزهد الأخرى، فلقد رأينا عدداً من الدارسين المحدثين من يجعل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية سبباً في التجاء الشاعر نحو موضوع الزهد في شعره بصفة عامة، وفي تركيزه على ذكر الموت بصفة خاصة. غير أن الواقع في نظرنا شيء آخر؛ لَأَنَّ هَذِهِ الظروف حتى وإن فعلت فعلها فإنَّها لا ترقى إلى أن تكون تَغْلِيلاً للظاهرة،

ومن ثم يبقى عاملُ العقيدة هو السبب الموجّه والمؤثر، حيث يبدو أن أبا العتاهية قد استفاد من القصص القرآني الذي قصّ أحوال الأمم الغابرة التي لم تمثل لأوامر الله تعالى. فكان جزاؤها العذاب في الدنيا بعد أن سلط الله عليها الهلاك والموت بمختلف صوره. فكان ذلك عبرة لمن اعتبر، بل وقد استفاد من آيات أخرى تتحدث عن الموت بشكل عام. كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أو قوله عز وجل ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُمْ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ (٢٦)، فالمثل دال على زوال الدنيا وانقضائها (٢٧). ويتلاءم هذا التفسير للظاهرة بصورة أكثر إذا ما رجعنا إلى الأحاديث النبوية، فلقد ورد في صحيح البخاري مانصه: «باب في الأمل وطوله وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ دُخِيَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ مُبْتَرِدٌ...﴾ وقوله ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾... عن عبد الله رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطا مربعا، وخط خطأ في الوسط خارجا منه، وخط خططا صغيرا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا تهشّه هذا، وإن أخطأه هذا تهشّه هذا» (٢٨).

وإذا أجزئ لنا أن نرسم تلك الخطوط التي رسمها رسول الله ﷺ، - ونستغفر الله إن أخطانا - فإنها ستكون على الشكل التالي:



ويمكن أن نضيف إلى ما سبق ، ما ورد في القصيدة من اقتباسات قرآنية وتوظيفات لمعاني الذكر الحكيم ، وخاصة في الآيات التالية ؛ مرتبة حسب ورودها في القصيدة :

- ٢٧ - لَلَّهِ يَوْمٌ تَقْشَعِرْ جُلُودَهُمْ وَتَشِيبُ مِنْهُ ذَوَائِبُ الْأَطْفَالِ
 ٢٨ - يَوْمٌ النُّوْازِلُ وَالزَّلَازِلُ وَالْحَوَا مِلْ إِذْ يَقْدُفْنَ بِالْأَهْمَالِ
 ٢٩ - يَوْمٌ التَّغَابِنِ وَالتَّبَايُنِ وَالتَّوَا زِ نِ وَالْأُمُورِ عَظِيمَةِ الْأَهْوَالِ
 ٣٠ - يَوْمٌ يُنَادَى فِيهِ كُلُّ مُضَلَّلٍ بِمَقْطَعَاتِ النَّارِ وَالْأَغْلَالِ

حيث تكرر لفظ «يوم» أربع مرات بشكل صريح ، وأكثر من هذا العدد إذا أخذنا بعين الاعتبار التكرار المتضمن في الألفاظ المعطوفة التي اقتبسها الشاعر من القرآن الكريم . ويمكن بيان ذلك كما يلي :

بيت ٢٧ : يوم تقشعر جلودهم :

[يوم] تشيب منه ذوائب الأطفال : وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَقْوَنَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (٢٩) .

بيت ٢٨ : يوم النوازل :

[يوم] الزلازل : وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . . . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . . .﴾ (٣٠) .

[يوم] الحوامل . . . ؛ وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . .﴾ (٣١) .

بيت ٢٩ : يوم التغابن ؛ وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (٣٢) .

[يوم] التباين،

[يوم] التوازن،

[يوم] الأمور عظيمة الأحوال؛ فيه توظيف لأكثر من آية، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣).

بيت ٣٠: يوم يُنَادَى فيه كل مضلل، مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدْبِرِينَ...﴾ (٣٤).

بمقطعات النار، مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ (٣٥).

وهكذا تبدو أهمية تكرار لفظ «يوم» بالطريقة التي وردت بها في القصيدة، حيث شكّل التكرار اللفظي والمعنوي (الإضافة والعطف) صورة معمار هندسي يتناوب فيه اللفظ المباشر والإضافة والعطف للدلالة على هول هذا اليوم، ذلك المعمار الذي تكررت فيه الإضافة بشكل تصاعدي منظم: مرة واحدة ← مرتان اثنتان ← ثلاث مرات ← مرة واحدة. كما يُلاحظ أن لفظ «يوم» لم يرد في النص إلا في الأبيات التي تحدث فيها الشاعر عن العذاب. أما في الأبيات التي تحدث فيها عن النعيم، فلم تقتزن بهذا اللفظ، وذلك راجع بالطبع إلى ما اقتبسه من آيات الذكر الحكيم: الأمر الذي يكسب هذا اللفظ قوة دلالية وإيحائية خاصة.

وفي مقابل ما سبق نجد أن الشاعر قد اقتبس آيات أخرى من خلال البيتين التاليين:

٣١ - لِلْمُتَّقِينَ هُنَاكَ نُزُلٌ كَرَامَةٌ عَلَّتِ الْوُجُوهُ بَنْصُرَةً وَجَاهًا
٣٢ - زُمُرٌ أَضَاءَتْ لِلْحَسَابِ وَجُوهَهَا فَلَهَا بِرَيْقٍ عِنْدَهُ وَتَلَايَا

ففي هذين البيتين يتحدث الشاعر عن نعيم المتقين في اليوم الآخر، وقد ضمنهما الشاعر عددًا من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۖ (٣٦)﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ ۚ (٣٧)﴾، وقوله عز من قائل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ (٣٨)﴾، وقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ۖ (٣٩)﴾... الخ.

ومن الطريف أن نشير إلى أن تكرار لفظ «يوم» المشار إليه سالفا، نموذج لعدد من التكرارات الأخرى التي وردت في القصيدة، حيث تكررت عدد من الألفاظ في أوائل الأبيات. الأمر الذي يدفعنا إلى ملاحظة التوازي الموجود بين الظواهر الصوتية الدلالية الداخلية، وبين الظواهر الصوتية النحوية. ومن المعلوم أن التكرار له أهمية دلالية^(٤٠)، فضلا عن الدور الإيقاعي، ويقوم كل منها بتعزيز الآخر^(٤١). ثم إن القافية التي تختتم كل بيت يتضاعف مفعولها الصوتي، ويظهر أثرها النغمي عن طريق تكرار هذه الألفاظ في أوائل الأبيات. مما يجعل القصيدة تتشكل - من خلال الأبيات التي تضمنت هذا النوع من التكرار - من وحدات ملتحمة صوتية ودلالية.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الإشارات السريعة عن القصيدة، أن أبا العتاهية، كان صادقاً في زهده، نظراً لما تمثله من جودة على مختلف المستويات: مستوى المعاني، ومستوى الألفاظ، ومستوى النظم ومستوى الإيقاع. ولا شك أن هذه الظواهر تبين أن إسلامية شعر أبي العتاهية أمر لا جدال فيه، كما أن شاعريته أمر لا غبار عليه كذلك.

وأهم ما يستخلص من حديثنا عن أبي العتاهية ما يلي:

١ - أن موضوع الزهد في الشعر موضوع إسلامي كباقي الموضوعات

الإسلامية الأخرى . وأنه ذو هدف تربوي توجيهي ، ويمكن أن يؤدي دوراً فعالاً في هذا الباب . والدليل على ذلك ما حدث للشاعر الإسلامي عبد الله بن كرز حينما استمع إلى الرسول ﷺ ، وهو يقول يوماً لأصحابه : «أتدرون ما مثل أحدكم ومثل أهله وماله وعمله؟» فقالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : إنها مثل أحدكم ومثل ماله وأهله وولده وعمله ، كمثل رجل له ثلاثة إخوة ، فلما حضرته الوفاة ، دعا بعض إخوته ، فقال : إنه قد نزل بي من الأمر ما ترى ، فما لي عندك وما لي لديك؟ فقال : لك عندي أن أمرضك وأن أقوم بشأنك ، فإذا متَّ غسلتك ، وكفنتك وحملتك مع الحاملين ، أحملك طوراً وأميط عنك طوراً ، فإذا رجعت أثنت عليك بخير عند من يسألني عنك : هذا أخوه الذي هو أهله ، فما ترونه؟ قالوا : لا نسمع طائلاً يا رسول الله ! ثم يقول لأخيه الآخر : أترى ما قد نزل بي فما لي لديك وما لي عندك؟ فيقول : ليس لك عندي غناء إلا وأنت في الأحياء . فإذا متَّ ذهب بك في مذهب ، وذهب بي في مذهب . هذا أخوه الذي هو ماله كيف ترونه؟ قالوا : لا نسمع طائلاً يا رسول الله ! ثم يقول لأخيه الآخر : أترى ما قد نزل بي وما رَدَّ علي أهلي ومالي ، فما لي عندك ومالي لديك؟ فيقول : أنا صاحبك في لحدك وأنيسك في وحشتك وأقعد يوم الوزن في ميزانك ، هذا أخوه الذي هو عمله . كيف ترونه؟ قالوا : خَيْرُ أَخٍ وخير صاحب يا رسول الله . قال فإن الأمر هكذا . قالت عائشة : فقام إليه عبد الله بن كرز فقال : يا رسول الله ! أتأذن لي أن أقول على هذا أبياتاً؟ قال نعم ، فذهب فما بات إلا ليلة حتى عادَ إلى رسول الله ﷺ ، فوقف بين يديه ، واجتمع الناس وأنشأ يقول :

فإني وأهلي والذي قدَّمَتْ يدي كَدَّاعٍ إِلَيْهِ صَخْبَهُ ثُمَّ قَائِلُ
لِإِخْوَتِهِ إِذْ هُمْ ثَلَاثَةُ إِخْوَةٍ أَعِينُوا عَلَى أَمْرِ بِي الْيَوْمَ نَازِلُ
الآبيات . . .

فبكى رسول الله ﷺ وبكى المسلمون من قوله . وكان عبد الله بن كُرْز لا يمر بطائفة من المسلمين إلا دعوه، واستنشدوه، فإذا أنشداهم بكوا» (٤٢) .
ويمكن أن نضيف قائلين، إِنَّ هَذَا الدَّورَ يَتَكَامَلُ مَعَ الْأَدْوَارِ الْأُخْرَى الَّتِي
كَانَ يَقُومُ بِهَا الشُّعْرَاءُ الثَّلَاثَةُ : حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَكَعْبُ
بْنِ مَالِكٍ .

٢ - أن زهد أبي العتاهية عبرة لمن اعتبر؛ لأنه يُعَبِّرُ عَنْ حَيَاةٍ كَانَتْ قَدْ
ارْتَوَتْ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَانْغَمَسَتْ فِي الْمُلَذَّاتِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، وَأَدْرَكَتْ بَعْدَ
ذَلِكَ أَنَّ السَّكِينَةَ وَالْإِثْمَانَةَ لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

٣ - إن الشاعر الإسلامي بشر كسائر البشر، يمكن أن يُخْطِئَ وَيُصِيبَ ،
ويمكن أن يحسن ويسيء ، والنقد البناء هو الكفيل بإرساء الأسس وتثبيت
القواعد على تقوى من الله ورضوان .

٤ - أنَّ القول، أياً كان - والشعر جزء منه - لا يحسن إلا إذا سبقه، أَوْ
صَاحَبَهُ الْعَمَلُ، وَيُدُونُ ذَلِكَ سَيَقِي مَجْرَدَ لُغَوِيَّةٍ وَنِفَاقٍ، وَسَيَدْخُلُ صَاحِبُهُ فِي
دَائِرَةِ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَبْهَمُونَ وَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

وننتقل الآن إلى قضية من القضايا الأدبية العامة، التي تبدو في ظاهرها
وكان لا علاقة لها بالأدب الإسلامي : إنها قضية شعر المجون في الأدب
العربي، ذلك المجون الذي يتخذُه البعض مطية لارتقاء أدب الخلاعة في
العصر الحاضر وَدَرِيْعَةً لِلْقَوْلِ ؛ إِنَّ أَدَبَ الْخِلَاعَةِ مُتَجَذِّرٌ فِي النَّفْسِ
الْإِنْسَانِيَةِ وَمُرْتَبِطٌ بِهَا، وَذُو عِلَاقَةٍ وَطِيدَةٍ بِالطَّبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ، وَمَنْ ثَمَ فَإِنَّ
أَدَبَ الْخِلَاعَةِ - فِي نَظَرِهِمْ - يَكْتَسِبُ شَرْعِيَّةً مِنَ التَّارِيخِ وَمِنَ الْوَاقِعِ الْإِنْسَانِيِّ
وَالْاجْتِمَاعِيِّ . غَيْرَ أَنَّ إِخْضَاعَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِلرُّؤْيَا الْإِسْلَامِيَّةِ يَقُودُنَا إِلَى الْقَوْلِ

بأن لا علاقة بين أدب المجنون في الأدب العربي القديم وخاصة في العصر العباسي وبين أدب الخلاعة في العصر الحاضر، فأدب المجنون في العصر القديم كان يعبر عن ذات فردية، هي ذات الشاعر. أو من أنتهج نهجه، تلك الذات التي لا علاقة لها بواقع المجتمع؛ لأن الشاعر يرحل بنفسه وبجسده عن عالم الناس الواقعي إلى عالم منعزل، وضمن هذه الرحلة، رحلة معنوية من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور مع ما يلف هذه الرحلة بنوعها من تعبير عن الخوف والفرع من الآخرين، مما يعني أن الشاعر كان يدرك تمام الإدراك أن ما يقوم به من أفعال مآجنة، هي أفعال غير مشروعة، ولو أخذنا أبا نواس مثلاً. الذي يشار إليه عادة في هذا المجال، كنموذج لشعراء المجنون، لوجدنا أن ما قلناه ينطبق عليه تمام الانطباق، هذا بالإضافة إلى أن زمن هذا الشاعر الخاص يخالف زمن الآخرين، حيث إن وجوده بشخصه وشعره المآجنين ينحصر في دائرة الظلام، وينعدم في النهار مع الآخرين^(٤٣). أما أدب الخلاعة في العصر الحاضر، فهو أدب دَعَاة بشكل صريح؛ لأنه يدعو إلى الرذيلة ويشجع عليها في كل وسائل الإعلام؛ وأصحابها غير منعزلين عن المجتمع بل هم منغمسون فيه، ثم إنهم لا يشعرون بأن ما يقومون به منافٍ للدين؛ لأنهم لا يعترفون به، ولذلك تجدهم كلهم - دون استثناء - لا يستحضرون مراقبة الله تعالى مهما كان الأمر. على خلاف ما كان عند الشعراء المجان في العصر القديم الذين كَانَتْ يَدَاخِلُهُمْ قُلُوبٌ تَبْضُ بِسُورِ إِيْمَانِي. ذلك السور الذي يتحول بعد حين من الدهر إلى نبع فياض يدفعهم إلى التوبة والعودة إلى الله. نادمين على ما فعلوا، وداعين غيرهم إلى عَدَمِ الاغترار بالحياة الدنيا، ولقد عبّر أبو نواس أحسن تعبير عن تَوْبَتِهِ، في الأبيات الأربعة التالية التي تقطر نَدَمًا وحسرة حيث قال:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَفْوُكَ أَكْثَرُ
 إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا عَحْسُنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
 أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمْسَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
 مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَتَحْمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ

يقال إِنَّ نَفْسَ خاتمه كان يحمل عبارة: «الحسن بن هاني يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً». وهي شهادة نجد صداها في شعره الماخن في أكثر من مكان، وأقرأ إن شئت قوله في قصيدة خمرية:

فَقَزَعَ مِنْ إِذَا لَجْنَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَلَيْسَ سِوَى ذِي الْكِبْرِيَاءِ رَقِيبُ
 أَوْ حَتَّى قَوْلِهِ:

عَادِ الْمُدَامَ وَإِنْ كَانَتْ تَحَرَّسَةً فَلِلْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ عُفْرَانٌ (٤٤)
 وما أصدق الشاعر يوسف العظم حيث قال:

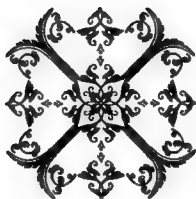
وَأَبُو نَوَاسٍ لَوْ أَطَّلَ مِنَ الْبَلَى لَعَسَاهُ مِنْ فَرَطِ الْحَيَاءِ حِجَابُ
 ثم إنه بالإضافة إلى هذا كله، فإن مجتمعا يقف بكل فئاته ضد تيار المجون، ويشكل سدا منيعا أمام أصحابه، ويأخذ على أيديهم، ويوجه كل شيء وجهة إسلامية، فيقبل ما هو حسن، وينذ ما هو قبيح؛ لأنه بصفة عامة كان يفهم ما يقوله الشعراء، وكان باستطاعة أفرادهم أن يردوا على هؤلاء الشعراء في الأندية والمجالس العامة والخاصة؛ لأنه لم تكن هناك صحافة حزبية تغربل ما يوجه إلى الشعراء من انتقادات. إن مجتمعا مثل هذا لا يمكن أن يقارن بمجتمع لا يقرأ لشعرائه، وإن قرأ لهم لا يفهم ماذا يريدون قوله؛ لأن كل شيء عندهم رمزي وغامض، سبيا وأن بعض هؤلاء الشعراء يريدون أن يقولوا في كل شيء، وأن يجحدوا كل شيء، وأن يتنكروا لكل

شيء إلا هواهم، وهم بعد ذلك يريدون ألا يُقرأ إلا لهم، ولا تقام
المهرجانات والملتقيات إلا بأسمائهم، وأن يعدوا من النوايع وما هم بذلك.
فكيف أن نقارن هؤلاء هؤلاء.

وفي ختام هذا البحث المتواضع نقف وقفة قصيرة عند قوله لأبي بكر
الصُّولي، التي يستشهد بها بعضهم للدلالة على الأعلالة بين الدِّين
والشعر، فلقد قال الصولي وهو يرد على من طعن في شعر أبي تمام، بدعوى
أنه كافر: «وما ظننت أن كفرًا ينقص من شعر ولا أن إيمانًا يزيد فيه».
وواضح أن الصولي يقصد الزيادة أو النقصان من الناحية الفنية. ولذلك
ذهب بعض المتأولين إلى القول بأن مضمون الشعر حتى وإن كان مخالفًا
لتعاليم الإسلام، فإنه مقبول في نظر الصولي، والأحرج في ذلك من الناحية
الإسلامية، لكن الذي يذهب إلى ذلك يحرف الكلم عن مواضعه ويتر قول
الصولي عن سياقه السليم. فالصولي يدافع عن أبي تمام؛ لأن شعره - كما
قال - كله يشهد بضد ما اتهموه به من الكفر، أي أن شعره إسلامي، وهذا
أمر يدركه القارئ لشعر أبي تمام بسهولة. ولو كان الأمر على خلاف ذلك،
لكان للصولي موقف آخر من أبي تمام؛ لأنه أكد بصريح العبارة أنه لا ينبغي
لجاذ ولا مازح أن يلفظ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل
ويتاب من مثله. وأن الناس على ظاهريهم حتى يأتوا بما يوجب الكفر
عليهم بفعل أو قول، فيزى ذلك أو يسمع منهم أو تقوم به بيته عليهم^(٤٦).
وبما أن أبا تمام لم يظهر في شعره ما يدل على الكفر أو الجحود لرؤية
الخالق، بل يدل على عكس ذلك، فإن ما يدعيه الناس، من أنه كافر لن
يزيد بالطبع في جودة شعره ولا ينقص منها. وهذا شيء طبيعي ومقبول
إسلامياً؛ لأن الرسول ﷺ استمع إلى أشعار لم يكن أصحابها مسلمين، بل
كانوا وثنيين يدينون بدين الجاهلية، فلقد روي أنه قال في أمية بن أبي

الصلت الذي كان شعره مطبوعًا بطابع أخلاقي «ذلك رجل آمن شعره وكفر قلبه». كما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الناقد الحافظ لأشعار العرب، الذي كان لا يمر به أمر إلا أنشد فيه بيت شعر، كان يقف موقف المستحسن المستجيد المتعجب لشعر زهير بن أبي سلمى، ولقد قال فيه قوله الشهير الذي يجمع معايير فنية وموضوعية «كان لا يعاظم بين القول، ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»^(٤٧).

• • •



المواش

(١) ومعلوم أن هذا التقسيم غير سليم من الناحية الأدبية، وليس له ما يبرره في تراثنا الأدبي والنقدي.

(٢) السعلاة: الغول، وقيل هي ساحرة الجن، وانظر الحيوان للجاحظ ١٥٨/٦ وما بعدها.

(٣) شرح ديوان حسان للبرقوقي ص ٤٧٥.

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٧.

(٥) لقد وجه الجاحظ هذا القول توجيهاً لطيفاً حينما قال بأن معنى قوله ﷺ هذا هو العصمة والتوفيق. انظر الحيوان ١/٣٤٠.

(٦) سورة الشعراء ٢٢٠-٢٢٢.

(٧) شرح ديوان حسان ص ٣٨٨.

(٨) سورة يس ٦٨.

(٩) وهو بعنوان: «الرؤية الإسلامية في شعر حسان بن ثابت» المنشور بمجلة «الدارة» العدد الثالث، السنة الثالثة عشرة، ربيع الآخر ١٤٠٨ هـ. نوفمبر ١٩٨٧ م.

(١٠) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٤٧/٤.

(١١) زهر الآداب للحصري ١/٢٥.

(١٢) العملة لابن رشيق ١/٥٣.

(١٣) روى صاحب الأغاني أنه لما انبرى حسان لهجاء المشركين، قال له الرسول ﷺ: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال حسان: «إني أنسل منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين» فقال له الرسول ﷺ: «أذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجوهم وجبريل معك» (الأغاني ٤/١٤٠). وواضح أن هذا لا يقدح في مكانة حسان الشعرية؛ لأن الإساءة وقعت في المعاني الخام لا في النظم والتأليف.

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٥٧.

(١٥) الأغاني ٤/١٤١.

(١٦) لعل أوضح رواية لرأي الأصمعي في الموضوع هي التي جاء فيها: «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لأن، ألا تُسرى أن حسان بن ثابت كان عالا في الجاهلية والإسلام: فلما دخل شعره في باب الخير من مرثي رسول الله ﷺ وحمزة وجعفر وغيرهم لأنَّ شِعْرُهُ...» وواضح من هذا النص

أن الأصمعي لم يحكم بالضعف على شعر حسان الإسلامي كله . بل اعترف بعلو شعر حسان في الإسلام كما علا في الجاهلية . ولم يخص بالحكم إلا شعر المرائي . ومعلوم أن جانباً كبيراً من المرائي المنسوبة إلى حسان مشكوك فيها ، ويبدو ضعفها بجلال ، فلعل حكم الأصمعي يخص هذه الأشعار المنحولة . ثم أنه بالإضافة إلى هذا عُرِف الأصمعي بحبه للغريب ، كما تشهد على ذلك آراؤه ومختاراته الشعرية . ومن ثم فلا يتظر منه أن ينظر إلى شعر حسان (وهو من شعراء المدن) بعين الرضى . فهذه قضايا ثلاث ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار عند كل حديث عن رأي الأصمعي في شعر حسان بن ثابت الأنصاري .

(١٧) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٧٦/٢ .

(١٨) هذا ما ذهب المستشرق جولد زير في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» ص ١٣١ . حيث قال إن أبا العتاهية قد تأثر في زهدياته بعناصر يهودية ومسيحية .

(١٩) تكفي بالإشارة إلى مثال واحد في هذا الباب ، وهو ما ذكره الجهازي في هجائه لأبي العتاهية حينما قال :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى يتسه المسجد
وفضلاً عن أن رؤية هذا الشاعر لحقيقة الزهد لا تتفق والتصور الإسلامي ؛ إذ ليس الزهد مكروثاً وميئتاً في المسجد ، ولكنه معاملة ومخالطة للناس ، وصبر على أذاهم . فلئنا لا نتظر من الجهازي وعصابته الملاجئة شيئاً أقل من هذا ، خاصة وأنه ابن أخت الشاعر سلم الحاسر الذي باع مصحفاً واشترى بشمنه محرراً .

(٢٠) هذا ما عبر عنه الشاعر معمر بن حمار البارقى في قوله : (الحيوان ٦١/٣-٦٢)

الشعر لب المرء يعرضه والقول مثل مـواقـع النبل
منهـا المـقـصر عن رميته ونوافذ يـذهـبن بالـخـطل
والشاعر حسان بن ثابت الأنصاري في قوله المشهور (شرح ديوان حسان للبرقوقي ص ٣٤٥) .

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كسبا وإن حمقا
وإن الشعر بيت أنت فائله بيت يقال إذا انشدته صدقا
ومثل هذه التعريفات التي تجعل الشعر لب المرء ، ترددت كثيراً على ألسنة الشعراء .

(٢١) انظر الحيوان ٥/١٣٧ .

(٢٢) أبو العتاهية أشعاره وأخباره . تحقيق د . شكري فيصل ، القصيدة رقم ٢٩٥ .

(٢٣) انظر كتاب العشائية للجاحظ ص ٢٣٠ .

(٢٤) تجرد الإشارة إلى أن مفهوم هذه الهجرة عبثاً ومحجوب ، تحدث عنه الحكماء والشعراء . بل إن القرآن الكريم قد نص على ذلك في قوله تعالى : ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . .﴾ (النساء ٩٦) .

(٢٥) انظر تحليليا وإفيا لهذه القصيدة ضمن كتاب «تحليل لغوي أسلوبى لنصوص من الشعر القديم» د. عبد الرحيم الرهوني ود. محمد بوهدي.

(٢٦) الحديد ١٩.

(٢٧) مختصر تفسير ابن كثير ٤٥٣/٣.

(٢٨) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق.

(٢٩) المزمّل ١٦.

(٣٠) الزلزلة ٦-١.

(٣١) الحج ٢.

(٣٢) التغابن ٩.

(٣٣) المطففين ٦.

(٣٤) غافر ٣٢.

(٣٥) الحج ١٩.

(٣٦) القيامة ٢١-٢٢.

(٣٧) عبس ٣٨-٣٩.

(٣٨) الزمر ٧٠.

(٣٩) الحديد ١٢.

(٤٠) انظر تحرير التحبير لابن أبي الاصبع المصري ص ٣٧٥.

(٤١) انظر كتاب المرشد للدكتور عبد الله الطيب ٦٦٢/٢.

(٤٢) نقلا عن حياة الصحابة ٣/٤٩٩-٥٠١.

(٤٣) انظر دراسة قصيدة أبي نواس. ضمن كتاب «تحليل لغوي أسلوبى لنصوص من الشعر

القديم» د. عبد الرحيم الرهوني، د. محمد بوهدي.

(٤٤) مها كان مقام هذا القول والدافع إليه، فإنه يتضمن اعترافا بالوهية الخالق، وأنه تعالى يمكن

أن يغفر لمن يشاء، ما دام العبد لم يشرك به شيئا. كما يتضمن إقرارا بالذنوب، والتفريق بين

الكبائر والصغائر منها.

(٤٥) أوراق من الحرب السابعة لعبده يوزيع ص ٥٦.

(٤٦) أخبار أبي تمام للصولي ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٨.

الفن في العربية بين تأريخ النشأة ومحاولات الإصلاح

أ. علاء الدين رمضان السيد

في القرن



السابع الميلادي، نشأت في العالم دولة عظيمة، انطلقت من شبه الجزيرة العربية، فانضوت تحت رايتها شعوب كثيرة، ذات حضارات مزدهرة ومتنوعة، بعد أن صار الإسلام ديناً رغبت فيه أكثر الشعوب، تلك التي اتخذت اللغة العربية - فيها بعد - لغة لها^(١).

وقد ظهرت اللهجات غير الفصحى في العربية، من جراء هذا الاتساع، وانتشار اللغة خارج حدود شبه الجزيرة العربية محمولة بالإسلام وحاملة لقرآنه، وعلومه، وثقافته، واختلاط العرب بغيرهم من أبناء الأمم التي أسلمت وسعت لتتعلم اللغة العربية، ومخالطة العرب في شبه جزيرتهم، كما سعى العرب للعيش بين أبناء الأمم التي فتحت أبوابها للسدين الجديد في بلادهم شرقاً وغرباً^(٢).

ومع تقدم الزمن ازداد هذا الاتصال بالأعاجم بعد الإسلام في سائر الأمصار، وخالطوا أهلها، فنشأ أولادهم من السبايا يسمعون عجمة أمهاتهم وحواضنهم، بعد أن كان العرب، منذ جاهليتهم وحتى الدولة الأموية، يتكلمون العربية الصحيحة على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم، كما كانوا قليلي الاتصال بمن حولهم من الأعاجم، فقد كان بين الفرس وعرب الجزيرة، والروم وعرب الشام، شيء من الاتصال دعا إلى أن يدخل بعض هؤلاء الجزيرة العربية، وتعلموا شيئاً من اللُّغة ونطقوها تقليدًا ومحاكاة لمن هم في ديارهم، إلى جانب هذا نجد أن اللُّغة العربيّة كما انتقلت إليها تلك اللغات، انتقلت هي إلى لغات مجاورة مثل القبطية، التي كانت من اللغات المؤثرة تأثيراً مبكراً في اللغة العربيّة؛ لأن القبط (بمصر) من المجتمعات التي جاورت العرب، حيث إن «المدن القبطية، في مصر العليا، نصف عربية، منذ زمن (استرابون)، وحتى القرن الأول الميلادي»^(٣).

وقد نشأ عن هذا الجوار تسرب الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، فنشأ الفساد في اللغة، وظهر اللحن بين بعض العرب^(٤)، بل إنني أستطيع - متكئاً على نص صريح لابن خلدون - أن أقّر أن الفساد كان مستشرياً في بعض اللهجات العربية الفصحى بمقارنتها بلغة قريش التي هي أفصح لهجات العربية وأقومها، والتي اختارها الله لهذا السبب حتى تكون هي اللغة المشتركة للعرب والمسلمين، ولغة قرآنه الحكيم... يقول ابن خلدون: «كانت لغة (لهجة) قريش أفصح اللغات (اللهجات) العربية وأصرحها (أفصحها وأوضحها) لبُعْدِها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، فصانها بُعْدُها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم، حتى إن سائر العرب، على نسبة بُعْدِهم من قريش، كان الاحتجاج بلغتهم، في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية»^(٥).

ولقد اتَّفَقَ الرسولُ الحكيمُ (ﷺ) إلى اللحن وأخطاره، واسترَّ صحابَتُهُ، وخلفاؤه الراشدون - رضوان الله عليهم - سُنَّتَهُ في استهجان اللحن، ومقت اللحانين، ومن ذلك ما يروى عن النبي - ﷺ - أنه قال - حين لحن رجل في حضرته - (أرشدوا صاحبكم، فقد ضل).

ومن ناحية أخرى أقام النبي الأُمِّيُّ المعلمُ اتزانًا حصيفًا حينما قال: «لَعَنَ الله البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة» فهو يجارب التشديق، والتحذلق، والتنطع في القول، وفي هذين الأثرين يكمن السر الذي به حياة اللغة وازدهارها، فلا هي ملحونة، ولا هي مُتَفَعَّرَةٌ متحذقة جوفاء.. متكلفة.

وحين فشا اللحن مع بداية العصر العباسي جعل العلماء منه نهاية لعصر الاحتجاج، وهذا يدلنا على أن اللهجة المملحونة بدأت تشكل معالمها، وتأخذ لها بعض الملامح الملموسة مع هذا العصر^(٦).

وللدكتور شوقي ضيف، تصريح - ضمني - بأن العرب كان لهم في الجاهلية مستويان للغة:

الأول: المستوى الجمعي، أو اللغة الأدبية الموحدة، وهي لغة قريش، والتي نزل بها القرآن الكريم.

الثاني: تُمَثِّلُهُ لغات القبائل المختلفة في اليمامة والبحرين، وحمير، واليمن^(٧).

حتى إن المستوى الجمعي (اللغة المشتركة) كان داخل إطاره الإنتاجي، يتشعب إلى مستويين للأداء اللغوي، فشعراء البدو، كان شعرهم قاسي اللفظ، صعب المخرج، يبتدثونه من الشاعر - من حيث كونه مَنسُوبًا إلى بيئته التي يعايشها، وصروفها وظروفها، قلما يلجؤون إلى وصف دواخلهم

بانفعال وجداني حساس، وإن فعلوا.. فعلى عجل دون اهتمام، أو إدراك لما تخلقه الطاقة النفسية من حيوية للعمل الإبداعي، إذ تحول غلظة مجتمعهم دون تحقيق نوع من الرقة واليسر في ألفاظهم، وهناك شعراء الحضر، وشعرهم أرق لفظاً، وأيسر نخرجاً، وأقرب معنى ودلالة من شعر البدو، فلكل بيئة أثرها على اللغة من حيث مناخها، وجغرافيتها، ومن حيث طبيعة المتكلمين ومستواهم الثقافي والبيئي^(٨).

وإننا نرى أن أهم أسباب ظهور اللحن في اللغة العربية، وتَفْسِيهِ، أن العرب كانوا منعزلين في جزيرتهم عن الأمم ذات الحضارة - زمنشذ - كالفرس والروم (يَغْضُ النَّظَرُ عن صِلَات المناذرة والغساسنة)، ولذلك ظلَّ اللحن محاصراً، ومقصوراً على أولئك الذين تمكنوا من عقد صلات ثقافية فردية مع الحضارات المجاورة، فطغت عليهم لغتهم، وتراكبهم، وحدث اللحن في مثل هذه الحالات إنما يكون عن عدم إدراك، بحيث يسبق اللسان، وسرعان ما يوارى تسرعه، ويتدارك خطؤه، ويستعيد توازنه؛ مثل هذه الحالات تكون قليلة جداً، تكاد تنعدم النسبة بينها وبين أولئك الذين خرجوا إلى ثقافات الحضارات الأخرى، وأخذوا عنها، وظلَّت لهم لغتهم وفصاحتهم مثل (النضر بن الحارث).

فإن أول ما ظهر من اللحن كان عند قوم طارئین على العرب من الموالى والمتعربين، من الفرس والترك وغيرهم، في الأطراف البعيدة للدولة الإسلامية، كان الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م)، والذي كانت أمه تركية تسمى «ماردة»^(٩)، هو أول من اتخذ من الترك جنداً له، ليتخلص بواسطتهم من سيطرة العنصرين العربي والفرسي على أمور الدولة، وقد اعتزَّ المعتصم كثيراً بحماية الترك، وَيَدُلُّ على ذلك بيتان له قال فيهما:

قَرَّبَ النِّحَامَ وَاعْجَلَ يَا غُلَامَ
وَاطْرَحِ السَّجَّاحَ عَلَيْهِ وَاللَّجَامَ
اعْلَمْ الْآتِرَاكَ أَنِّي خَائِضٌ
بُحَّةَ الْمَوْتِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ (١٠)
ومنذ ذلك الحين بدأ عصر السيطرة التركية على أمور الدولة العباسية، مما
كان له أثره البالغ على اللغة التركية والاهتمام بها، وقد برزت أسماء قُوَّاد الترك
من أمثال: أشناس، ووصيف، وابن طولون، وباغر (١١)، وبُعَا، وتُوزُون،
وسيم الشرايبي، وغيرهم كثير (١٢).

وقد كان خطر الترك على اللغة العربية أشد من خطر الفرس وغيرهم
عليها، وذلك لأسباب عديدة منها سيطرتهم على الحكم ومقاليد الأمور في
الدولة الإسلامية، ولاعتزازهم بلغتهم وأصولهم، واعتزاز الحكام العرب
المتسبين إلى الترك من ناحية أمهاتهم بهذه الأصول، وكانت لهم عجمة
يخاطبون بها الناس في كل يوم حتى تأثَّرَ بهم المجتمع، وصَدَّقَ أبو الطيب
المتنبي حينما قال:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهَمِّ
أَخَذْتُ شَيْءَ عَهْدَا بِهَا الْقِدَمِ
وَأَنَّا النَّاسُ بِالْمَلُوكِ، وَمَا
تُفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبَ عَنْهُمْ وَلَا حَسَبُ
وَلَا عَنْهُمْ وَدَهُمْ وَلَا ذِمُّهُمْ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهُ أُمَمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ، كَأَنَّمَا غَنَمٌ (١٣)

ولقد تعرّض «الحبائز البلدي»، أبو بكر بن أحمد بن حمدان (من أهل القرن الرابع الهجري) لعجمة الترك في وصفه لساقية، حيث يقول:

مَزْمَزْمٌ مَا يَبِينُ مَنْطِقُهُ

كَفَّائِدِ التُّرْكِ غُدُوَّةُ الشَّغَبِ (١٤)

ومنذ القرن الخامس الهجري، أو منذ عصر الدويلات، بدأ في المشرق الإسلامي استعمال الفارسية، كما دخل كثير من الألفاظ التركية، من قبل، وحفلت بها اللغة العربية، وبلغ الأمر أن انقسمت لغة التخاطب، ولأول مرة في تاريخ اللغة العربية، فكانت لغة تخاطب الخاصة من الخلفاء والرؤساء والعلماء في المشرق وسطاً بين الفصيحة واللّهجية المعاصرة لِقَلَّة أخذهم باللغة الفصيحة من صغرهم، إذ كان القِيَم على الخليفة، وأهل بيته، من الترك، أو السديلم، أو النساء: وأكثرهن من السبايا الأعاجم من حواري القصر، ولأن أكثر الرؤساء كانوا من الأعاجم الذين لم يغلبوا على السلطان إلا بالقوة والاختصاب، لا بعلم، ولا حسن تربية ودين (١٥).

أما لغة تخاطب العامة، فكانت هي اللغات الأعجمية الوطنية في تلك الأجزاء، وأهمها الفارسية الحديثة، وذلك لانقراض العناصر العربية من العامة السامانية باندماجها في غيرها، وفشو الجهل بينها، وامتدت هذه العجمة حتى قاربت من حدود بغداد، ولأبي الطيب المتنبي قصيدة في شعب «بوان» بشيراز، ذُكر فيها ذلك، حينما قصد عضد الدولة البويهبي بفارس، فما إن زایل بغداد حتى وقع في عجمة لا إفصاح معها، ومن هذه القصيدة قوله:

مَعْنَايِ الشُّعْبِ طَيِّبَا فِي الْمَعْنَايِ

يَمْنَزِلَةُ الرَّبِّيعِ مِنَ السَّرْمَانِ

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا
 غَرِيبَ الْوَجْهِ، وَالْيَدِ، وَاللِّسَانِ
 مَلَاعِبَ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا
 سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجَمَانٍ (١٦)

بل إن عياء الألسن انتشر في الحواضر العربية حتى مُدِح من ظلّ منهم
 على فصاحته، وقد مُدِح ابن العميد لفصاحته، في وقتٍ لم تُعدّ الفصاحة
 أمراً عادياً فيه، كما كانت بالماضي:

بِأَبِي وَأُمِّي نَاطِقٌ، فِي لَفْظِهِ
 ثَمَنٌ يُبَاعُ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَى
 قَطَفَ الرَّجَالِ الْقَوْلُ وَقَتَ نَبَاتِهِ
 وَقَطَفْتُ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا
 فَهُوَ الْمُشَيِّعُ بِالمَسَامِعِ إِنْ مَضَى
 وَهُوَ الْمُضَاعَفُ حُسْنُهُ إِنْ كُرِّرَا (١٧)

وما بقي من ولايات العرب سوى منطقة (ثُمامة) التي ظلت حتى أوائل
 القرن السادس الهجري تستخدم الفصحى في لغتها اليومية، حتى أن (شبه
 الجزيرة العربية) نفسها، ظلت السيادة للغة الفصيحة فيها إلى أواخر القرن
 الرابع وبداية الخامس الهجريين، هذا بالنسبة للبدو، أما الحواضر في
 الجزيرة مثل مكة والمدينة، فقد سَرَبَ إليها فساد اللسان من جرّاء الاختلاط
 بالأعاجم، وخاصة في موسم الحج، وأيضاً إقليم «صَحَار» من البادية صار
 تُخَاطَبُ أهله بالفارسية، وذلك على الرغم من أنه كان مقصداً لأدباء
 العربية، حيث يعقد فيه سوقٌ على غرارِ سوق عُكاظ، في الجاهلية وكان
 لهذا السوق أهمية أدبية كبيرة عند العرب، وإن أكثر أهل جدة وعدن - زمئذٍ -
 فرسٌ إلا أن اللسان عربيٌّ عيبيٌّ.

ولقد شاعت أيضًا منذ العصر العباسي الثاني اللهجات في ممالك المغرب، وكان لهذه اللهجات آدابها التي تشيع في تلك المنطقة، غير أن هذه اللهجة كانت قريبة من الفصحى قريبًا شديدًا.

ونحن نؤكد ههنا أنه على الرغم من اختلاط العرب بالأمم المجاورة لهم أيام الفتوحات الإسلامية، من الفرس والروم والأحباش...، إلا أن اللحن بقي قليلًا، وخاصة أيام الدولة الأموية المتعصبة للعربية، ولكنه انتشر كثيرًا في عهد الدولة العباسية التي أشركت الفرس والترك في الحكومة - كما سبق لنا القول - وقد يكون لهذه المشاركة أثرها في انتشار اللهجات - (العامية) - الجغرافية، وظهور «الشعر اللهجي»، وقد وصلتنا من هذا الشعر نصوص ترجع إلى العصر العباسي، وبالتحديد في خلافة المعتصم بن الرشيد، الذي قال شعرًا لفظه ملحون:

الْكَلْبُ كَانَ يُعْرَجُ يَوْمَ الَّذِي بِهِ بَعُثْتُ
لَوْ كَانَ جَاءَ مُجْبِزٌ اجْبِزَ رَجُلٌ كُلِّبَ أَنْتَ

وكان هذا ردّه على (أشناس) عندما بعث إليه بكلبٍ أعرج، عندما طلب منه كلبًا للصيد، فبعثه إليه، وبعد أن أعاد المعتصم الكلب، نظرًا لمرجه، قال أشناس:

الْكَلْبُ اخَذْتُ جَيْدٌ مَكْسُوزٌ رَجُلٌ جِئْتُ
رَدَّ جَيْدٌ كَلْبٌ كَمَا كُنْتُ اخَذْتُ

هنا نَظْهَرُ محاولة المعتصم تقليد قائده (أشناس التركي)، ولا غرو في ذلك، حيث إن المعتصم ورث عن أمّه كثيرًا من طِباع التُّركِ بما جَعَلَ في نفسه ميلًا إليهم، وقد دعتَه العَصِيَّةُ التُّركِيَّةُ إلى التَّشَبُّهِ بِقَوَائِدِهِ وَأَصُولِهِ

منهم، بعد ذلك انتشر اللحن انتشاراً كبيراً، لا في الأطراف البعيدة للدولة العربية فحسب، بل حتّى في شبه الجزيرة العربية نفسها - كما سبق - (١٨).

لقد كانت حياة المجتمع الإسلامي في عصر الديوليات مُعَقَّدة الملامح، مُتَشَابِكَة الانجُمَاهَات، مُتَخَلِّفَة الأَجْنَاس واللَّهَجَات، فقد كان المجتمع خليطاً من الفرس والآتراك والزنوج والروم والبربر والهنود... إلخ. وقد بدأت اللهجية - بواسطة هؤلاء - كظاهرة لحنية في اللغة العربية من خلال إسقاط العلامات النحوية مع عدم الاهتمام بالتركيب الأدائي للجملة، مما أحدث نوعاً من الاختلال في منهج الترتيب اللفظي، تَطَوَّرَ فيها بعد إلى جَعْل الجُمْلَة عبارة عن مجموعة من الألفاظ المنفصلة تماماً عن بعضها البعض، في شكل تركيب بدائي للعبارة.

وإن كانت هذه اللهجات (أو اللحن، إذ لم تكن هناك لهجة ملحونة بالمعنى المكتمل) بدأت مع التحام العرب بعناصر غير عربية، في ظل حكومات ذات تَسَاهُل انتمائي كما حدث في عهد المعتصم بن الرشيد - وأشرنا إليه - إلا أنني أَعْتَبِر أن التَّأْرِخَ الحَقِيقِي، والضوء الأخضر الذي لَوَّحَ به إلى هذه اللهجات لِتَنْطَلِقَ نحو الاكتمال والتَّخْصُّص، وخلق ملامحها المميزة، كان زمن تقسيم الدولة الإسلامية إلى ديوليات، أي منذ القرن الرابع الهجري، حيث تَقَلَّصَتْ حُدُودُ حُكْم الخُلَفَاء العَبَّاسِيِّين، وبدأ عهد اضطراب في إيران وبغداد اللتين كانتا تحت حُكْم الأُسَر الإيرانية أولاً، ثم صارتا إلى الأُسَر التركية (١٩)، حيث كانت أول الأمر فارس بيد عماد الدولة أبي الحسن ابن بويه (٣٢٠-٣٣٨هـ)، والرس وأصبهان وبلاد الجبل بيد ركن الدولة الحسين بن بويه (٣٢٠-٣٥٨هـ) والعراق والأهواز بيد معز الدولة أحمد بن بويه (٣٢٠-٣٥٦هـ)، وقد أقام نصر بن أحمد الساماني في

خراسان، الدولة السامانية، وقد عمل السامانيون (٢٦٣-٣٦٨هـ = ٨٧٥-٩٩٦م) على انتشار الأدب الفارسي، وقد انتقل الحكم في خراسان وفي تركستان التي كان قسم منها بيد المسلمين من حكم الطاهريين (٢٠٥-٢٦٠هـ = ٨٢١-٨٧٣م) إلى حكمهم، وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في أيام هؤلاء الحكام أيضاً^(٢٠).

وبينما اتجهت بعض هذه المناطق للحديث بلغاتها القديمة التي كانت قبل دخولها الإسلام مثل فارس وخراسان، بقيت هناك بعض المناطق تتحدث العربية بلكينات لسانهم، على أن هناك مناطق ثالثة احتفظت بالعربية الفصيحة قوية لمدة من الزمن - على النحو الذي يبيّناه -.

بعدئذٍ ظهرت مشكلة ازدواج اللغة العربية واختلاف الناطقين بها، بين اللغة الفصيحة السليمة، وتلك التي دخلها التحريف واللحن، وكثير من ألفاظ لغات الأمم الإسلامية غير العربية، لكن... المشكلة لم تكن محتدمة جداً للحد الذي يمكن أن نتصوره؛ لأن الفصحى ظلت لغة العلم، والتدوين، والأدب، وسائر ألوان الثقافة، وقد استعانت الأجناس غير العربية بقواعد النحو لتضمن للغتها العربية الرسمية سلامتها، على الأقل عندما يكتبون ويُدوّنون، ممّا حدّ من خطورة اللكنة والإفساد اللغوي عن طريقهم، واقتصر العامية بين هؤلاء - غير العرب - على كونها لغة مخاطب وحديث يومي في أمور العيش والحياة، غير الأدب والعلم، ولم يظهر لها شأن يُذكر حتى في عهود ضعف اللغة، وفي العصرين المملوكي والعثماني؛ لأن الفصحى ظلت اللغة الرسمية للعلوم والفنون والآداب، وما دُوّنَ باللغة غير الفصيحة (اللهجية) لم يعترف به الكثيرون من المثقفين والعلماء، وكل ما لوحظ على اللغة في هذين العصرين ضعف عام في التأليف والأسلوب،

وإذا كانت بعض الألفاظ اللهجية قد تخللت بعض المؤلفات كما نجد في «خُطَطُ المقرئزي»، إلا أن السمة العربية السليمة كانت هي الغالبة^(٢١).

ومثمة القول أن اللهجة المملحونة في العربية نشأت تدريجيًا مع تغيُّر الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تعاقبت على الأمة العربية بعد ظهور الإسلام، ودخول غير العرب تحت رايته واعتناق شرائعه وعقيدته، وهذه اللهجة المملحونة ما هي في حقيقتها إلا انحراف في لسان العرب، أصابه من جراء عوامل شتى :

أهم هذه العوامل وأولها: اختلاط العرب اختلاطًا مباشرًا، وقوي التأثير، بسواهم من الأمم التي بسط الإسلام ظله على ممالكها فدانوا لقائدها، وانتهجوا شريعته، فاختلطوا - بعد إسلامهم - بإخوانهم العرب بالمساكنة والمشاركة والتزاوج . . وغير ذلك من ميادين الامتزاج ومن العوامل المهمة أيضًا، ضعف العرب سياسيًا واجتماعيًا، وملك الأعاجم نواصي شؤون الحياة فيهم، وهذا العامل ظهر بقوة مع أخريات الدولة العباسية^(٢٢).

وعلى أية حال فإننا نوضح أنَّ اللهجة من العوامل الصحيَّة في اللغات الإنسانية، وقد كانت موجودة في اللغة العربية قبل مطلع التأريخ لها - واستمرت فيما بعد - غير أنَّ جامعي اللغة كانوا يُطلِّقون على هذه اللهجات اسم (لغات)، وإن مباحث علم مثل (فقه اللغة) - الفيلولوجيا - يوضح لنا أثر هذه اللهجات في التعقيد التركيبي للغة، فظهرت المشتراك اللفظية والمترادفات . . وغيرها، وكانت لهذه اللهجات آدابها التي تعبر عن خصائصها وتبرز أهم ملامحها، بل إن الأمر قد يذهب موعلا لحد أبعد من هذا، فابن سلام نقل عن «أبي عمرو بن العلاء» قوله: «وما لسان حمير وأفاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»، وقد جعل بعض المحدثين

من هذه الرواية مُتَكَاً ليفصلوا بين القحطانيين والعدنانيين في اللغة، منكرين على أهل الجنوب (القحطانيين) العربية، كلغة لهم، لكنهم لم يَنْبَهُوا إلى قول ابن العلاء، ولا عَرَّبَتَهُم، أي أنهم يتكلمون العربية غير أن الاختلاف بينهم في الحديث بها من حيث مخارج الألفاظ ودلالات بعض المعاني، وأصوات هذه الكلمات، وجملة هذه الاختلافات إنما هي اختلافات شكلية تتحكم في معظمها جغرافية المكان وطبيعته، وطبيعة الحياة التي تعيشها هذه النماذج اللغوية المتحدثة بتلك اللغة، ويدلنا على ذلك ما قيل من أن «أبا الهميح» الشاعر كان من (أغراب) مَدَّين - شديد الغربة في اللفظ -، وكُنَّا لا نكاد نفهم كلامه، ومن شعر أبي الهميح قوله:

مِنْ طَمَحَةٍ صَبِيرَتَهَا جُحْلُنْجُجٌ
لَمْ يُحِطْهَا الْجَدُولُ بِالسَّتَرِ (٢٣)

فقد انْقَصَمَتْ عُرَى اللهجة لأول مرة عن اللغة الأم في (تأليف الكلام على معاني النحو) - كما يقول الجرجاني - وفي طريقة نطق الأصوات، وعندما اختلط اللسان العربي بجمهرة متنوعة ومتباينة من اللغات التي تنتمي إلى الأسرة السامية، وأخرى إلى الهندو - أوروبية . . وغيرها، واستمرت سُنَّة المجتمع في إفساح جانب من إبداع الأدباء والشعراء للتعبير عن هذه المجتمعات بلهجاتها، وكل مالنا أن نطمح إليه ونطمع فيه هو الرقي بهذه اللهجات المعاصرة، حتى نصل مرة أخرى لعصر يُشَبِّه في رُقِيَّة الفكري عصر اللهجة السليمة التي لا يشوبها فساد اللحن، والدكتور «طه حسين» من أولئك الذين لا يشكون - بحال من الأحوال - في أن «يوما من الأيام غير بعيد . . سيأتي، وقد عادت الحياة القومية إلى هذه اللغة، وأصبحت ليست لغة المثقفين فحسب، ولا لغة الأدب فحسب، لكنها لغة المثقفين، ولغة الأدب التي يفهمها الشعب كله» (٢٤).

وما علينا إلا أن نتعامل مع هذه اللهجات على أساس واحد، وهو قيمتها الأدبية والوجدانية لقربها من العامة، ورغبة في تقويمها وتقوية الصالح منها والارتقاء بها، فإن اللهجة الحية لديها «قدرة على التعبير - في بعض الأحيان - عن ظلال من المعاني والأحاسيس التي قد لا تستطيع الفصحى التعبير عنها بنفس الدقة والإيجاز» (٢٥).

لذلك اهتم النقاد الأولون بالتأكيد على رواية آداب اللهجة ومُلَحِّها بها هي عليه صوتيًا ونحويًا وعدم التدخل فيها بالإصلاح وَرَدَّهَا إِلَى اللغة الفصحى؛ لأن الإعراب فيها يسلب الحديث حسنه الذي يُبْنَى على أساس، منه الإعراب في غيبة؛ فنرى الجاحظ يحذّرنا من ذلك قائلًا: «إِذَا سَمِعْتَ بِنَادِرَةٍ مِنْ نَوَادِرِ الْعَوَامِ، وَمُلْحَةٍ مِنْ مُلَحِّ الْحَشَوَةِ وَالطَّغَامِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ فِيهَا الْإِعْرَابَ أَوْ تَتَخَيَّرَ لَهَا لَفْظًا حَسَنًا، أَوْ تَجْعَلَ لَهَا مِنْ فَيْكِ مَخْرَجًا سَرِيًّا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَفْسِدُ الْإِمْتَاعَ بِهَا، وَيَخْرِجُهَا مِنْ صُورَتِهَا، وَمَنْ الَّذِي أَرِيدَتْ لَهُ وَيُذْهِبُ اسْتِطَابَتَهُمْ إِيَّاهَا وَاسْتِمْلَاحَهُمْ لَهَا» (٢٦).

لكن الأمر يجب ألا يبقى على إطلاقه مِنْ حَيْثُ التسليم الكامل لهذه اللهجات، بل يجب أن نشرع في تنفيذ مشروعنا القومي الكبير الذي يُعَبَّر عنه على أحمد باكثر حيث يرى أن نأخذ من الفصحى مُفْرَدَاتِهَا وإِعْرَابِهَا وسائر خصائصها الحية، ومن اللهجة أسلوبها وبلغتها الخاصة من حيث التقدم والتأخر، ومرونتها. ، وبذلك تكون لدينا لغة حية متطورة تحفل بالألوان والظلال الخاصة بكل بلد عربي على حدة، ولكنها مفهومة لجميع الشعوب العربية، ولقراء العربية في كل مكان.

ولعل أصدق مثال لذلك في القديم ما نَجَدُه في شعر (البهاء زهير) من روح اللغة الدارجة المصرية في عصره، ومع ذلك فهو فصيح جار على قواعد

الأدب^(٢٧)، وجمهرة من كُتّاب العربية لا يشكّون بحال من الأحوال في أن يوماً من الأيام سنعود إلى سلامة اللغة، هذه العودة الماجدة يجب أن تمر بمرحلة من التأهب لها من خلال دفع الفصحى نحو اليسر والسهولة، واللهجة نحو اللغة الفصحى ورفيها، في سبيل هذه المرحلة قدم (فَرَح أنطون) تصوّراً لِللُّغَةِ الاجتماعية التي تُعبّر عن طبقات المجتمع في رواياته، هذا التّصوّر يقدم الصورة النموذجية لما نطمح إليه، فقد قسم اللغة داخل المجتمع إلى ثلاثة أقسام^(٢٨):

أولاً: جعل الفصحى للطبقات العليا من المجتمع؛ لأنها هي التي وافقت خطّاً من العلم والتأديب والتربية والمعارف الواسعة.

ثانياً: جعل العامية المطلقة للطبقات الدُّنيا - (ثقافياً) -.

ثالثاً: دعا إلى لغةٍ ثالثة، عَوَان بين ذلك، وأطلق عليها وصف (الفصحى المُحقَّقة، والعامية المُشرَّقة)^(٢٩).

فهذا طرف من آراء حركة الإصلاح اللغوي العربية، والتي وَاكَبَتْ الحركات الإصلاحية اللُّغوية التي اتَّسَمَ بِهَا هذا العصر قاصدة العربية، من أهلها وغير أهلها، لكن هذه الحركات لم تكن تعمل في اتجاه واحد، مقصده الإصلاح الفعلي للغة العربية^(٣٠)، أو أن هؤلاء المصلحين لا يدركون أبعاد المشكلة التي تَصَدَّوْا حلها، فحينما انطلقت الحركات الإصلاحية اللغوية كانت معتمدة على نظرات قاصرة ورؤى شوهاء مبعثرة، فمنهم من قال: نعيد لإصلاح النحو تيسيره، وهذا هو الاتجاه الوحيد الذي كانت نظرتة صائبة إلى حد ما، إذ أصابت بعض التوفيق - القليل -^(٣١).

وهناك من قال نكتب العربية بالحروف اللاتينية، وهذا إضلال وبغي استعماري، ومنهم من اتَّجَه نحو تيسير الكتابة والهجاء العربي، وغيرهم ..

ممن صَلَّوْا عن اللفظ والمندلول باعتبارهما الأقرب، من الطرق الواصلة ما بين اللغة واللهجة، والأعْتَى ببذل الجهد والدراسة، فاختطبت كل الخطب لا يكمن في الجانب النحوي أو الهجائي، وإنما هناك ما هو أَجَلُّ من ذلك وأخطر، فإدانة اللغة وألفاظها ودلالاتها، وما قد حدث من تفاوت كبير بينها وبين العامية، هو أجدر شيء بالبحث والنظر، وإلى جانب دراسة أخرى تهتم بما عليه آداب وفنون هذه اللهجات وتوجيهها نحو الفصحى ومحاولة الارتقاء بالألفاظ الفنية التي من شأنها أن تشيع في اللسان الشعبي (٣٢).

وإننا نشير هنا بشيء من الاهتمام إلى خطر آخر يضرب اللهجة من داخلها كبنية، ومن ثَمَّ اللغة، هذا الخطر هو تطور اللهجات العربية في معزل عن بعضها البعض، فإن ذلك يباعد الشقة بينها وبين اللهجات الأخرى من ناحية، وبينها وبين اللغة الأم من ناحية أخرى، والمثال على ذلك ما ذكره السيد (سَلْمَانُ الزَّمُورِي) - مغربي - مِنْ أَنَّ أَهْلَ الجنوب في المغرب يتكلمون لغة (لهجة) يستحيل على أهل الشمال في تطوان وطنجة والدار البيضاء فهمها (٣٣)، الأمر نفسه يتحقق معنا عند لقاء ناهج لهجية من جنوب السودان مثلاً، فنحن بذلك - بتنمية اللهجات في معزل عن بعضها البعض - إنما نؤكد على الفواصل المصطنعة بين الحدود الإقليمية للعالم العربي من جانب، والحدود الإدارية داخل الإقليم الواحد من جانب آخر، الأمر الذي ينتهي بها إلى الضعف والتدهور بعد أن انقسم الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة معظمها يُعاني من الوهن والاختناق، وهذا ما يهرع خلفه، ويعمل عليه، بل ويرجوه الاستعمار في صورته الحالية (الاستعمار الثقافي)، ويساعد على تحقيقه بشتى الوسائل، وأرجو ألاَّ يُجَانِبَنِي الصواب إذا قُلْتُ أن من بين الوسائل الاستعمارية لهدم اللغة العربية هي الدعوة المباشرة إلى العودة الكاملة إلى اللغة العربية الفصحى في الاستخدامات

اليومية والديوانية^(٣٤)؛ لأن هذا إذا حدث، فمن شأنه أن يحدث هوة كبيرة وريذة خائفة ستقضي على اللغة وتعيدنا بشكل كامل وقاطع إلى اللهجة لنستخدمها كلغة غير متممة إلى أية تنظييات لغوية أخرى تسبقها، وتعود اللغة إلى مراحلها الأولى ثم تتفوق لتصير - فقط - لغة للنصوص الدينية، وساعتها . لا يبقى من الدين إلا اسمه، ومن العلم إلا درسه، ومن القرآن إلا رسمه - والعباد بالله، فحاشاهم ما هم إليه يقطعون -، وذلك لأن هذا الموضوع، لا يقبل الفصل دفعة واحدة - وهكذا - بل إنه قد يمضي من الزمن ما شاء أن يمضي، ثم يتركه بغير حل حاسم^(٣٥).

وطبيعي أن نتجه نحو اللغة الأم من خلال إيجاد لهجات بسيطة يفهمها الإقليميون العرب جميعاً، ويتضاءل عددها حتى تصل إلى اللغة الأم، فيما بعد، لتكون هي لغة الحوار والمخاطبة، فاللغة العربية الفصحى يجب أن تكون بالنسبة لنا «حركة تقدّمية»؛ لأن اللهجية انحصار وتضييق وانطواء على الذات لا يُناسب العصر الحديث الذي ينزع للتوسّع والتكثّل والانتشار الإنساني^(٣٦)، فعامل التوزيع والاختلاف في تكوين اللهجات يقابله عامل آخر يساويه أو يفوقه في بعض المراحل، وهو عامل الضم والتسوية . إن (مرونة) الفصحى يُقابلها عامل آخر هو ارتفاع العامية إلى الفصحى^(٣٧)، كلما توحّدت القراءة، وتوحّد الاستماع إلى مصدر واحد، أو أن يكون مصدر التثقيف والقراءة هو نبع واحد، فجنوح اللهجات إلى التفرق يكون عند انقسام الأمم، فيما مضى، يتبعه جنوحها نحو التوافق والتقارب عند تلاقيها واتلافها في نطاق الجامعات وما يشبهها من الهيئات القومية^(٣٨).

ونحن هنا ندعو إلى الاتجاه باللهاجات العربية المعاصرة نحو الفصحى ، لكن . . مع رفضنا القاطع أن تتدنَّى الفصحى نحو العامية ، غير أننا نوافق على تنقيتها وسلاستها ، هذا الاتجاه سيمر بمرحلة مُنطَى هي التقريب بينهما ، هذا التقريب — وهو ما ندعو إليه الآن — «يتمثل في أن يترك كُتَّاب الفصحى التَّقَرُّع مع الامتناع عن استعمال أي لفظ يجري على ألسنة العامة إلا إذا كان عربياً أصيلاً ، وفي الوقت نفسه ، يُجْري أصحاب اللهجة ترقية للهجتهم حتى يرتفعون بها إلى مستوى قريب من الفصحى ، تُختار فيه الألفاظ بِدَقَّة ، فلا يستعمل فيها لفظ غير فصيح ما دام الفصحى موجوداً — وبكثرة ، كما هو الحال — ويسهل نطقه على العامة ، وعند الضرورة لا مانع من إدخال لفظ غير عربي وتطويعه للنطق السليم ، وإخضاعه لنظم التأليف والأسلوب الفصيح» (٣٩) .

وعلى هذا . . فإن مسؤولية إعادة إحياء اللغة تقع على عاتق الأدباء قبل غيرهم . . حتى قبل المعجميين أنفسهم (٤٠) ، ونجد ثَمَّة قانوناً أرساه سَيِّدنا الفاروقُ عمر بن الخطَّاب — رضي الله عنه — يُحدِّد من خلاله علاقة الأديب باللغة وشكل هذه العلاقة ؛ حينما ذَكَرَ له زهير بن أبي سُلمي ، قال — وهو الناقد الحصيف — «كان لا يُعَاطِل بين القول ، ولا يَسْتَعْمِلُ وَخِشِيَّ الألفاظ في شعر ، ولا يمدحُ الرَّجُلَ إلَّا بِمَا فِيهِ» — أي كان موضوعياً (٤١) .

فنحن الآن — حتى ولو جاءنا تاريخُ العربية خلوا من المظاهر اللهجية — قد تَمَكَّنَت اللهجاتُ من المجتمعات العربية ، ليس هذا فقط ، بل إن هذه اللهجات ملحونة في كثير منها ، فيجب أن نشغل بالنا بها ، وأن ندخل إلى دهاليزها ، وأن نَهْتَمَّ بتطوير الفصحى ، والملاءمة بينها وبين ظروف الحياة الراهنة في الوطن العربي ، حتى نكتسب مرونة وجِدَّة وانطلاقاً ، فلقد أَصْبَحَ البُعْدُ شَاسِعاً والهَوَّةُ سحيقة ما بين الفصحى وبين اللهجات العربية

الحديثة، التي قد تَطَوَّرَتْ مَعَ الزَّمنِ في بيئاتها، وأثَّرت فيها مؤثرات كثيرة باعدت بينها وبين أصلها العربي^(٤٢). فمن واجبنا الآن الإسهام في تصحيح هذا الوضع، والذي يَتَطَلَّبُ مِنَّا قَبْلَ كل شيء أن نَتَوَافَرَ على دراسة اللهجات دراسة فاحصة، وأن نتضافر جهودنا في سبيل هذه الدراسات (بما في ذلك دراسة أدب تلك اللهجات وفنونها) قبل أن نطمع في شيء من الإصلاح المنشود، وعلينا أن نرفع الستار الموهوم بين الكثير من كلماتها، وألا نتجافى عن استخدام الكلمات الفصيحة لورودها على السنة العامة، بل علينا أن نقصده - دون إسراف - إلى استخدام الكلمات الفصيحة التي تستخدمها الدَّارِجَةُ في تعبيراتها حتى تسيل بها دون حرج، أقلام الكُتَّاب والأدباء والمؤلفين والدارسين، فنَقْتَحِمِ الألف في الاستعمال الفصيح، ونزول شيئاً فشيئاً هذه الأزودواجية اللُّغَوِيَّة في وطننا العربي، وبهذا تستطيع الفصحى أن تُقال من عثاراها، وأن تحافظ على حَيَوِيَّتِها ونشاطها ووفائها بحاجات هذا العصر في مختلف شؤون الحياة اليومية^(٤٣).

إن اللغة العربية هي أقوى لغات العالم قاطبة وأقدمها على الإطلاق - ولا أقول هذا تعصباً، ولكني أنقل حقيقة بَدْهِيَّة ناصعة، وللأخذ بها ما يُبَرِّره من أدلة هي مِنَ القُوَّةِ بِمَكَانٍ، حيث لا تُنَال، ولا يكفرها جاحدٌ، إذ إن اللغات التي تزامنت حضاراتها مع حضارة العربية، كلها جارت عليها الأيام، فالفارسية قد طُمِرت كاملة ثم أعاد المسلمون الفرس في دولة البويهيين تسجيل آدابها وابتعائها، ورسومها بالخط العربي، وترجموا الكتب الفارسية عن العربية المترجمة إليها هذه الأعمال من قبل، أما التركية فقد تفرعت إلى مجموعة من اللهجات المتباينة واللغات المختلفة، فلأتراك الشمال اللهجة التركية القازانية، ولأُزْبِكِسْتَان اللهجة التركية الأوزبكية، وهناك اللهجة الغرية العثمانية. . وغيرها.

أما الهندية فقد تشعبت إلى لغات عديدة من الكثرة بمكان، ومآل اللاتينية معروف، والقبطية والعبرية. . لم تبق لغة شائعة من المجموعة اللغوية الأصولية، التي كانت متسيدة للنشاط الحضاري للعالم في فترة مبكرة جدًا من فترات التاريخ، إلا العربية، متجددة، ومزدهرة، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد يَسَّرَ كتابه الكريم للذكر بلسان عربي مبين، وَيَسَّرَهُ، أي اختار له لغة سهلة مرنة جمالية الأداء، والعمق التعبيري فيها بالغ الجلاء.



الإحالات والتعليقات

- ١ - بارتولد؛ فلاديميرويج: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر (عن التركية)، ط ٥، دار المعارف (١٩٨٣)، ص ٦٢. (الكتاب وضع بالروسية، ونقله إلى الانجليزية «شاهد السهرودي»، "Mussulman Culture (1934) University of Calcutta"، ثم نُقل إلى التركية بواسطة «أخذ أورال»، ونشره معهد الدراسات التركية، وأخيراً نقل إلى العربية).
- ٢ - عبد العزيز، عبد الحميد هلال (دكتور): النقد الأدبي الحديث... مذاهب وقضايا، مطبعة الأمانة (القاهرة ١٤٠٢هـ) ص ٦٩.
- ٣ - بارتولد؛ تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٢.
- ٤ - هذه المخالطة كانت مع الفرس في ريف العراق، ومع الروم في مشارق الشام، ومع الهند في البحرين، ومع القبط على حدود مصر، وفي بعض مدنها التي كان يقطنها العرب (بارتولد؛ ص ٦٢) وقد نقل لنا القرآن الكريم صورة حية متكاملة للمعاملة المتبادلة بين العرب ومصر من خلال «سورة يوسف» المجيدة، وربما كان (بارتولد) يقصد بمصر العليا الجزء الأعلى من ناحية «المتوسط» وهنا يكون المراد فترة حكم يوسف عزيز مصر عليه السلام، ورفعه أبويه، ومن ثم رفعه لشأن العرب في مصر، زمتند...
- ٥ - ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، ط المطبعة البهية، (القاهرة) ص ٤٨٨ (وكان أفصح العرب إلى جانب قریش - الذين حافظوا على لغتهم، سليمة، لم يطرأ عليها لحن ولا فساد، وتُهم: هذيل، وكنانة، وثقيف، وغطفان، وأسد، وقيم)، ص ٣٧٩.
- ٦ - الحسين، محمد بن سعد (دكتور): اللحن في لغة العرب، مجلة الحرس الوطني (السعودية)، شوال ١٤١١هـ، أبريل ١٩٩١م، ص ٩٧-٩٨.
- ٧ - لغات قبائل اليمن كلها، خاصة: الأزدي، ويني الحارث بن كعب، وهمدان؛ وخضع في نجران. - انظر: ضيف، شوقي (دكتور): العصر الجاهلي، دار المعارف (القاهرة) ص ١٣٣.
- ٨ - رمضان، علاء الدين: مجلة اقرأ، العدد ٨٥١، (٢٦/٧/١٤١٢هـ = ٣٠/١/١٩٩٢م)، ص ٦٩.
- ٩ - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٦٤م)، ج ٤، ص ٤٦.
- ١٠ - المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران: معجم الشعراء، تحقيق: عبد الستار فرّاج، (القاهرة ١٩٦٠م)، ص ٣٦٤.

١١ - باغر التركي: هو الذي طغى على (المتوكل على الله) ابن المعتصم بالله، من زوجه التركية (شجاع)، وقتله مع وزيره الفتح ابن خاقان، عام ٢٤٧هـ، وقد استعان «المستعين بالله» على قتل باغر هذا، ثأراً، بقاتله «بغياً التركي» عام ٢٥١هـ.

١٢ - الشامان، مسعد بن سويلم (دكتور): الترك في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، مجلة الدارة، العدد الأول/س ١٧، ذو الحجة ١٤١١هـ- (الرياض ١٩٩١م)، ص ١٠٣.

١٣ - المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان المتنبي، طبعة أمين هندية (القاهرة ١٩٢٣م)، ص ٦٦.

١٤ - الشمشاطي، أبو الحسن علي بن محمد العدوي: الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق: السيد محمد يوسف، (الكويت ١٩٧٨م)، ج ٢، ص ٧ (عن: الشامان).

١٥ - نفاذي، أحمد منصور (دكتور): تاريخ الأدب العربي ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر (٣٣٤هـ- ١٢١٣هـ)، د. ت. - (جامعة الملك فيصل الأزهرية بأسبوط، مصر)، ص ٣٨.

١٦ - ديوان المتنبي، ص ٤٠٥.

١٧ - ديوان المتنبي، ص ٣٩٢.

١٨ - المرزوقي، محمد: عن محاضرة للمرحوم المرزوقي ألقاها بإدارة الأدب الشعبي في تونس (١٩٧٤م).

١٩ - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٨.

٢٠ - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٨.

٢١ - النقد الأدبي الحديث، ص ٧٠.

٢٢ - اللحن في لغة العرب، ص ٩٦.

٢٣ - وأعتقد أن خطر مثل هذه اللهجة أشد - وهي المَعْرِتة - على اللغة من اللهجات الملحونة نفسها.

- (انظر: جواهر البلاغة، ص ١١ - عن: الدكتور العادلي محمد سليمان: مباحث بلاغية، أسبوط ١٩٩١م) ط جامعة الملك فيصل الأزهرية - أسبوط، ص (٣٧).

٢٤ - حسين، طه (دكتور)، مجلة مجمع اللغة العربية، (القاهرة ١٩٥٥م)، ج ١، ص ٩٩.

- والدكتور شوقي ضيف، يرى «أن النعرات الإقليمية مجرّد فقايع وَفَتِيّة، تبرز حيناً ثُمَّ تختفي، ويرجع الناس بعدها إلى التيار القومي العام، ومنذ الجاهلية ظَلَّت الأقاليم تتحدث لهجاتها المتعددة، لكنها ظلت جميعاً تتخذ اللغة العربية الفصحى وعاء لفكرها وثقافتها الدينية والأدبية، فالعربية الفصحى ظلت وستظل دائماً اللغة القومية للعرب، ومستودع أفكارهم ومشاعرهم

- ورؤاهم وأخيلتهم ومعارفهم، فاللغة العربية الفصحى تملك كل مقومات البقاء، والجهود مبذولة في كل اتجاه، وهذا كله ما يدعو إلى التفاؤل». عن ندوة «اللغة العربية في مواجهة التحديات» إدارة الحرم الوطني (الرياض ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م).
- ٢٥ - مندور، محمد (دكتور): مجلة الكاتب، العدد ٩، (القاهرة ١٩٦١م)، ص ٦١.
- ٢٦ - الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ١، ص ١٤٥.
- ٢٧ - باكثير، علي أحمد (دكتور): محاضرات في فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، (القاهرة ١٩٥٨م)، ص ٧٦.
- ٢٨ - Wilkins, D.A.; Second - Language Learning and Teaching (1975) Edward Arnold, London. ...; Look: (Language acquisition, p. 25 - 30) & (The Educational Context, p. 43) & (The Social Context, p. 47 - In; Environmental Factors).
- ٢٩ - أنطون، فرح: مصر الجديدة ومصر القديمة، طبعة مكتبة التأليف (القاهرة ١٩١٤م) - الصفحتان: الثالثة والرابعة من المقدمة ...
- ٣٠ - جرّهم إلى ذلك واقع الازدواج اللغوي في البلاد العربية، (انظر: الزبيدي، علي (دكتور): محاضرة أقيمت مساء يوم [٢٨ مارس ١٩٧٤م] في مقر اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين - نشرتها فيما بعد مجلة «الكتاب»، ع ٦، س ٨، يونيو ١٩٧٤م = جمادى الأولى / الثانية ١٣٩٤هـ، ص ٨.
- ٣١ - انظر: كراملي، محمد صالح قاسم (دكتور): نحو رؤية جديدة في تبسيط النحو العربي، المجلة العربية، ع ١٠٧ - س ١٠، ذو الحجة ١٤٠٦هـ = سبتمبر ١٩٨٦م (الرياض)، ص ١٠٠. ولقد لعبت المنظمة العربية للترية والثقافة والعلوم (الاييسكو) دورا كبيرا في تنسيق الجهود المخلصة المتصلة بتبسيط النحو وتطوير اللغة.
- ٣٢ - الطيب، عبد الجواد محمد (دكتور): اللهجات العربية ودورها في الإصلاح اللغوي، مجلة الثقافة العربية، ع ١٠ - س ٣، أكتوبر ١٩٧٦م (بنغازي)، ص ٥٠.
- ٣٣ - هذا ما ذكره لي السيد زهوري، في (القاهرة: ٢٧/٩/١٩٩٢م)، وأقن في أنه الأقرب إلى الواقع، بينما قرأت ما يخالف ذلك، وأثبتُ نصّ ما قرأت مع ميلي إلى ما ورد في متن الدراسة لموافقته الواقع مماثل في مناطق أخرى من الوطن العربي، ولأننا نلسمها كثيرا في مجتمعاتنا الإقليمية، يقول الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال (مصري): «الدَّارِجَةُ المغربية في غير المناطق الجبلية متقاربة بصفة عامة، وإن وجد اختلاف بينها، فهو كالاختلاف بين لهجات مناطق الصعيد، ومناطق الوجه البحري في الجمهورية العربية (المتحدة)، إلا أن هذا لا يشكل اختلافا

كبيراً يسمح بإقامة لهجات مستقلة، وقد ساعد على ذلك أن المدن الكبرى في المغرب عامرة بمن يأتي إليها من كل فج، حيث نرى في مدن الشمال سكاناً قادمين من الجنوب، وقد عملوا جميعاً على تقارب لغة الحديث فيما بينهم» (أ. هـ) بينما نجده اعترف قبل ذلك بما يُعانيه من وراء جمع المادة، قائلاً: «وكثيراً ما كُنْتُ أجدُ صعوبةً في ذلك لغموض هذه الألفاظ [البربرية] وعدم تداولها في كل مكان، إذ ما يستخدم من الألفاظ عند قبيلة لا نجده بمرته مستخدماً عند قبيلة أخرى، وما يستخدم في منطقة جبلية لا يستخدم في غيرها من المناطق!».

- انظر: عبد العال، عبد المنعم سيد (دكتور) لهجة شمال المغرب... تطوان وما حولها، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة ١٩٦٨م)، ص ٤.

٣٤- لقد كان هناك من يدعو إلى العودة الكاملة للفصحى مع مداخل الستينيات، وقبلها، في مصر، ما بين متشددين، متعصبين، وبين منسدين مستغلين، هدفهم المكيدة للغة العربية، وقد ساهم هؤلاء المندسون في رعاية غرسهم، فدعوا إلى العودة الإنشائية إلى اللغة الأم (انظر: العيديوسي: نظرات في النزاع بين الفصحى والعامية، ص ٦٤ - ملحق، ثرياً (دكتور): العربية لغة الحضارة، (مجلة الكتاب، ع ٧ - س ٨، تموز ١٩٧٤م - جمادى الآخرة - رجب ١٣٩٤هـ - بغداد) ص ٨٢-٨٥) وأظن أن خطر هؤلاء - وقتئذ - كان أشد من خطر أولئك الذين انكشف عنهم القناع واقتضح زيفهم، وانتبهنا لهم مبكراً، وتصدينا للرد عليهم والدفاع عن لغتنا العربية الخالدة، بدءاً من أوائل سنة ١٨٨٣م حينما دعا اللورد دوفرين البريطاني إلى محاربة العربية والاهتمام باللغات العامية، ثم سار على نفس المنهج المهندس وليم ولكوكس سنة ١٨٩٣م، ثم المستشرق ولهم سبيتا ١٩٠٢م، ثم وليام جردنر ١٩١٧...، وانتهاء يعقوب صنوع، واسكندر معلوف، وسلامة موسى، وعمود طاهر لاشين، وأنيس فريحة، وعثمان جلال...، وغيرهم، وانتهى الأمر بتصميم مركز اللغويات بجامعة «ميتشجان» صيغة للغة جديدة عربية حديثة جاهزة للاستعمال، (الأخبار - القاهرة - في ١٢/٨/١٩٨٣م).

٣٥- العقاد، عباس محمود: مجلة «الكاتب» (مصر) مايو ١٩٥٢م، ص ٥٣٦-٥٣٨.

٣٦- محفوظ، نجيب: مجلة «صباح الخير» (مصر)، العدد السادس، دار روز اليوسف (القاهرة ١٩٥٦م)، ص ٥٠.

٣٧- أجرينا تعديلات جوهرية على ما نقلناه عن الأستاذ العقاد هنا، فيما يتعلق بالجزء الأول، حيث إن معناه لا يتفق مع توجهاتنا ومبادئنا الفكرية، فقد جاء النص على النحو التالي: (إن هبوط الفصحى إلى العامية يقابله عامل آخر، هو ارتفاع العامية إلى الفصحى)، وإن كنا نقرُّ الجزء الأخير من هذا الرأي، إلا أننا نرفض جُزءه الأول، ووجدنا أنَّ التعديل فيه، خير من إهماله، وهذا ما دفعنا إلى إجراء هذا التغيير.

٣٨- العقاد؛ مرجع سابق، ص ٥٣٨.

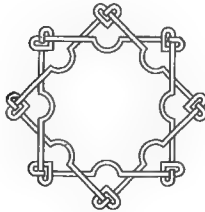
٣٩ - هناك من يرى أن نبتعد عن الألفاظ الفصيحة التي استعملت في الدارجة، في الفصحى الحديثة (انظر، د. عبد الحميد هلال، مرجع سابق، ص ٩٩) وهناك من يرى أنه من الواجب علينا أن نعد إلى مثل هذه الألفاظ (ونقصد إليها قصدًا) حتى نقيم ألفة بين المتكلم واللغة (انظر، د. عبد الجواد الطيب، مرجع سابق، ص ٥٠)، وإنني أذهب مذهبًا وسطًا، فالرأي الأول ميعود بنا إلى التّعصّب، واللغة الجافة، غير المألوفة. أما الثاني؛ فإنه سينزل بالفصحى إلى مستوى اللهجة، لا العكس، وهذا ما نخشاه، نحن نستخدم الألفاظ الفصحى بطبيعية شديدة، حتى لو كانت مستخدمة في الدارجة، ولكن دون إصراف في استخدام هذا النوع.

٤٠ - أبو بكر، أسماء (دكتورة): الأدب. . وإحياء اللغة، مجلة الحرس الوطني (الرياض)، ع ٩٩ - س ١١، جمادى الأولى ١٤١١هـ - ديسمبر ١٩٩٠م، ص ١٠٦-١٠٧. ومن عمل الأدباء أسوق تجربتين معكوستي الاتجاه. . (الأولى): ترجمة الشعر الشعبي الفيتنامي إلى العامية المصرية (انظر؛ حداد، فؤاد: قال التاريخ أنا شعري أسود، وزارة الثقافة، سلسلة في المعركة، a-القاهرة ١٩٦٨م)، و(الثانية): ترجمة الشعر الأثولوي السواحلي إلى الإنجليزية (انظر؛ al-hadmy, Ali Ahmed, Anthology of Swahili Poetry [Kisanyiko La Mashairi], African writers Series - 192, H.E.B - London, 1977).

٤١ - الجاحظ، البيان والتهيين: ج ١، ص ٢٤٠-٢٤١.

٤٢ - انظر؛ العيدرومي، عمر عباس: نظرات في النزاع بين الفصحى والعامية، مجلة «الكتاب» (بغداد)، ع ٨، ص ٨، (أغسطس ١٩٧٤م = رجب شعبان ١٣٩٤هـ)، ص ٦٣-٦٧.

٤٣ - انظر؛ د. عبد الجواد الطيب، مرجع سابق، ص ٤٩-٥١.



The beginning of the Colloquial Arabic Language and an endeavour to desist it

The Colloquial Language in Arabic has appeared gradually owing to the political, the cultural and the social changes that have occurred in the Arab nation since the advent of Islam. It is also due to the non-Arabs who converted to Islam. This language is considered a deviation from the classical Arabic because of the following factors:

* First: The Arabs have mingled with the other nationalities that embraced Islam and lived, worked, and intermarried with them.

* Second: The political and social deterioration of the Arabs has led the other countries to overrule them especially at the end of the Abbasid Empire.

Scholars of modern linguistic studies often face this phenomenon of the colloquial language. But they are certain that they can return to the classical language of the Koran. They are also certain that "the original Arabic will be the Language of all the Arab nations" as Dr. Taha Hussien Said. But there shouldn't be a revolution for this return. Time will give the chance for this change.

We just leave things as they go naturally.

Here in our research we are trying to explain the dimensions of our national call for setting up the Colloquial Language to return to its origin. Poets, critics and men of literature will shoulder this responsibility since this bilingualism that befell our Arabic Language has its. Serious danger on our usage of Arabic sciences and concepts. It also has its effects on Romantic Linguistics.

There fore we must share in the restoration of our mother tongue; the Classical Arabic.

الذاتية والموضوعية

في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية

الدكتورة / حكمت العرابي

ملخص :

ما يزال



الكثيرون يعتقدون أن العلوم الاجتماعية لا تتسم بالموضوعية ، وأن منهجية البحث في هذه العلوم تتأثر بقيم الباحث وأفكاره واتجاهاته والعقائد السائدة في مجتمعه . إلا أن هذه النظرة لا تأخذ في الاعتبار التطورات الهائلة التي حدثت في أسلوب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية خلال القرنين السابقين .

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح أن تطور العلوم الاجتماعية قد أدى إلى أخذها من قواعد العلم ومنهج في البحث ما حولها إلى علوم واضحة ذات حدود وقوانين . كما تستعرض الدراسة أهم سمات الموضوعية في البحث العلمي ، وتقدم الدراسة عدة مقترحات يؤمل منها أن تخطو بالعلوم الاجتماعية خطوة في الاتجاه الصحيح نحو التخلص من الذاتية في مناهج دراساتها .

مقدمة

تختلف النظرة إلى العلوم الاجتماعية في الوقت الحاضر عنها فيما مضى . فقد بدا كان ينظر إلى تلك المواد على أنها منفصلة انفصالا تاما لا ارتباط بينها ، وقد أدت تلك النظرة التقليدية إلى وضع البرامج دون مراعاة للقواعد الأساسية التي ينبغي أن تراعى عند بناء المناهج ودون إعطاء الاهتمام الكافي لمبدأ الموضوعية في القيام بالبحوث الاجتماعية^(١) . ورغم ظهور بعض الأفكار والمحاولات لربط العلوم الاجتماعية وبيان أنها متكاملة ومنها الربط العرضي *Incidental Correlation* والربط المنظم *Systematic correlation* والدمج *Fusion* والتكامل *Integration* إلا أن السؤال ما يزال قائماً بخصوص ذاتية وموضوعية مناهج البحث في العلوم الاجتماعية . وتهدف هذه الدراسة إلى مناقشة الجوانب المختلفة لهذا السؤال وتوضح أن أسلوب البحث العلمي في هذه العلوم تقارب كثيراً من نظيره في العلوم الطبيعية . وتنقسم الدراسة إلى أربعة أجزاء : يتناول الجزء الأول طبيعة العلوم الاجتماعية ، بينما يناقش الجزء الثاني أهم مميزات منهج البحث العلمي في هذه العلوم ، ويستعرض الجزء الثالث أهمية الموضوعية في البحوث الاجتماعية ، بينما يلخص الجزء الرابع أهم نتائج البحث .

١ - طبيعة العلوم الاجتماعية :

العلوم الاجتماعية هي علوم تهتم بدراسة التفاعل بين الإنسان وبيئته وبينه وبين غيره من الأفراد فتتناول دراسة الإنسان ودراسة المجتمع وتعنى بالمعلومات والحقائق بوصفها غاية في ذاتها وبصورة معقدة مهما بلغت من التعقيد والتشابك . والمواد الاجتماعية تهتم بدراسة الإنسان وسلوكه وتفاعله ولها جانبان : جانب يختص بدراسة الإنسان وتفاعلاته مع غيره من الأفراد وآخر يختص بدراسة الإنسان وتفاعله مع البيئة . وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن غيره من الأفراد ويؤثر في بيئته ويتأثر بها فإنه يتعدى الفصل بين الجانبين^(٢) .

فالعلاقات الإنسانية محور الدراسة في المواد الاجتماعية، وكل علم يختص بدراسة مجال من مجالات النشاط الإنساني، وتحتوي هذه العلوم على التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاقتصاد والانثروبولوجيا .

أما علم التاريخ فيهتم بدراسة العلاقات الإنسانية تبعاً لنشأتها وتطورها والنتائج المترتبة على هذا التطور . وتعتبر دراسة الماضي لأي بلد من قبل الكثيرين ولأسباب جوهرية من أحسن الطرق لتأكيد الوحدة الوطنية وزيادة الانتماء وتكريس الولاء له^(٣) .

فدراسة التاريخ عندما نتناول ماضي شعب ما فإنها تقدم للأجيال المتعاقبة سجلاً حافلاً لمراحل كفاحه من أجل الحرية والتقدم، وتفيد في إلقاء الضوء على ما هو موجود من مشكلات في الحاضر باعتبار أن هذه المشكلات لها جذورها الضاربة في أطناب الماضي القريب والبعيد .

وتهتم الجغرافيا بدراسة أقاليم الأرض مع التأكيد بصفة خاصة على العلاقات البشرية ^(٤). فيركز هذا العلم على العلاقة بين الإنسان وبيئته وأساليب تفاعله معها وأثر هذا التفاعل في الفرد كفرد وكعضو في جماعة، وفي الجماعة ككل لها أسلوب حياتها وعلاقاتها. وعلى هذا فالجغرافيا ليست دراسة الإنسان وحده أو دراسة الأرض وحدها ^(٥).

أما التربية الوطنية فتعنى بدراسة العلاقات التي تترتب على نظم الحكم وما تضعه الدولة من نظم لتحسين أحوال المحكومين والارتقاء بهم وإعداد المواطن الصالح المتفهم للمؤسسات الاجتماعية والمدرّك للمشكلات التي تواجهها بلده والمتكيف مع بيئته وتتضمن التربية الوطنية التحليل للنظام بمستواه المحلي ومستوى الأمة وتؤكد مسؤوليات المواطن، لذلك يحتويها علم السياسة الذي يتناول دراسة الحكومة ودراسة الشعب والقضايا السياسية.

أما علم الاجتماع فيختص بدراسة أنظمة الأفعال الاجتماعية وعلاقاتها المتداخلة ويهتم بدراسة الجماعات والمؤسسات التي توجد في المجتمع ويحاول التعرف على العوامل التي تؤدي إلى الثبات والعوامل التي تؤدي إلى التغير فديناميكية المؤسسات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية وعملية التنشئة الاجتماعية هي محور اهتمام هذا العلم ^(٦).

وتهتم الفلسفة بدراسة العديد من المفاهيم التي ترتبط بشؤون حياة البشر وتسود الحياة اليومية كالحقيقة والخير والشر والعقل والمادة والمعرفة وغيرها، وينتظم فيها علم المنطق والأخلاق والجمال وما وراء الطبيعة ونظرية المعرفة وغيرها. ولتنمية الاتجاه العقلي المتفتح الذي ينتهج في التفكير منهجا قوامه البحث في علل الأشياء وتفسير الفلسفة الظواهر التي تعترض الإنسان وأسلوب تفاعله معها والتفكير في مسبباتها. ويبحث المنطق في صور الفكر

ومادته وعوامل الوقوع في الخطأ وذبوع الباطل ويستقى أمثلته وتوضيحاته من العلاقات الإنسانية وما ينتج عنها من مشكلات وسلوك .

ويتعلق علم الانثروبولوجيا بجذور الإنسان وحضارته وأسلوب حياته ، أما علم النفس بفروعه المختلفة فيهتم بدراسة سلوك الإنسان (٧) .

ويختص علم الاقتصاد بدراسة استخدام الإنسان للمصادر الطبيعية بما يتصل بإنتاجها واستهلاك المواد التجارية واستخدام الخامات بجميع أنواعها (٨) .

وهكذا يتضح أن المواد الاجتماعية علوم تعنى بدراسة المجتمع الإنساني ومظاهره والعلاقات الاجتماعية وتدور حول الإنسان وعلاقاته ومشكلاته وميادين سلوكه . وهذه العلوم متطورة وليست ثابتة لاتصالها بالمجتمع الذي من أهم سماته التطور دائما للحياة .

٢ - مميزات البحث العلمي في العلوم الاجتماعية :

ولقد أدى تطور العلوم الاجتماعية إلى أخذها من قواعد العلم ومناهجه في البحث ما حوّلها إلى علوم واضحة ذات حدود وقوانين . فتحول علم النفس من المفاهيم الغيبية إلى علم تضبطه تجارب علمية وقوانين واضحة على أسس المنهج التجريبي ، وتحول علم الاجتماع من مجرد رصد خصائص الجماعات القائمة ومقومات كل منها بغية وضع إطار ثابت للعلاقات يكون بمثابة طبيعة لهذه الجماعات لا ينبغي أن تخرج عنها إلى بحث ظاهرة التفاعلات الاجتماعية ورصد اتجاهات التغير الناتجة عن هذه التفاعلات وتوضيح العوامل المؤثرة فيها . وتحول الاقتصاد من مجرد رصد مصادر الثروة والمحافظة عليها وإخضاع الحياة الاقتصادية لمجموعة من القوانين والقواعد الطبيعية

الثابتة ومن أداة لتبرير الأوضاع الاقتصادية القائمة وأسس توزيع الثروة الموروثة إلى علم يركز على تغير ما هو قائم إلى ما ينبغي أن يقوم وفق احتياجات الإنسان ومطالبه المتغيرة فعني ببرامج التنمية ومضاعفة الدخل وشرع نظريات لتحريك الإنتاج وإخراج الثروة وتوسيع قاعدتها وعدالة توزيعها بين طبقات الشعب^(٩).

ونتيجة لهذا التطور أصبحت المواد الاجتماعية علوماً مستقلة بذاتها لها قوانينها الخاصة وحدودها مثل الكيمياء والطبيعة وغيرها من العلوم وصارت نتائج البحث فيها تتحدد باستخدام مناهج صارمة. إلا أنها ما زالت تتعلق بالسلوك الإنساني مما جعل البعض يعتقد أن أسلوب البحث فيها يعتمد على الذاتية أكثر من الموضوعية. ويرجع هذا الاعتقاد الخاطئ إلى اقتصار مفهوم العلم على تلك المبادئ التي تلتزم بالمنهج الرياضي. وإذا كانت الطريقة العلمية قد بدأت في ميدان العلوم الطبيعية فإنها سرعان ما دخلت في ميدان البحث في الإنسان مما أدى إلى ظهور هذه العلوم الاجتماعية، والتزمت هذه العلوم بالطريقة العلمية على الرغم مما عليها من تعقيد متداخل، الأمر الذي يختلف فيه عن ميدان العلوم الطبيعية. ولقد أصبح واضحاً أن العلم لا يقتصر على النشاطات التي تستخدم فيها المختبرات والأجهزة والادوات بل يشمل أي نشاط يهدف إلى دراسة العلاقات بين الظواهر^(١٠).

وهناك من كان يعتقد بأن العلم مرتبط بالعلوم الطبيعية وأن أسلوب البحث أو منهج البحث العلمي منهج مفيد لدراسة الظواهر الطبيعية المادية: الفيزيائية والبيولوجية والكيميائية والفلكية، أما العلوم الاجتماعية فلا يمكن استخدام المنهج العلمي في دراستها. إن مثل هذه الأفكار كانت شائعة في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر حيث انفصلت العلوم الطبيعية عن الفلسفية نتيجة لاستخدامها المنهج العلمي بينما بقيت

العلوم الإنسانية مرتبطة بالفلسفة حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومع ذلك يوضح تاريخ العلم أن التحول الحاسم قد ظهر حين أعلن وليم فونت سنة ١٨٧٩م، عن إنشاء أول مختبر علمي لدراسة الظواهر السيكلولوجية وبذلك دخل علم النفس إلى المختبر ودخلت الظاهرة النفسية إلى المختبر. وبعد ذلك انتشر التجريب كأسلوب بحث لدراسة مختلف الظواهر الإنسانية ومن هنا يمكن أن نفسر تخلف ظهور العلوم الاجتماعية مثل علم النفس والاجتماع والاقتصاد نتيجة لإقبالها المتأخر على استخدام المنهج العلمي الذي كان شائعا في العلوم الطبيعية^(١١). ولكن هل يمكن الاستمرار في تطبيق المنهج العلمي على العلوم الاجتماعية؟ الجواب طبعاً بالإيجاب مع الاعتراف بصعوبة البحث العلمي في ميدان الظاهرة الإنسانية التي تختلف عن الظاهرة الطبيعية وذلك في المجالات التالية :

١ - الظواهر الطبيعية ثابتة نسبياً مما يمكن الباحث من تحديدها وحصرها وإخضاعها للدراسة. بينما نرى أن الظواهر الاجتماعية أكثر عرضة للتغير السريع من الظواهر الطبيعية. فالعادات والتقاليد والقيم كلها ظواهر متغيرة تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

٢ - إن الظاهرة الطبيعية ظاهرة واضحة السمات يمكن ملاحظتها وقياسها مادياً باستخدام الأجهزة كما أن علاقات الظاهرة الطبيعية بغيرها علاقات يسيرة ومحدودة ويمكن حصرها وتثبيت العوامل المؤثرة عليها. فظاهرة نزول المطر يمكن فهمها من خلال دراسة علاقاتها بالرياح والتبخر وهي عوامل محددة بينما نرى أن الظاهرة الاجتماعية أكثر تعقيداً وتتأثر بمجموعة كبيرة من العوامل المعنوية التي يصعب حصرها؛ فظاهرة ما مثل تعاطي المخدرات يمكن ربطها بعشرات العوامل المادية والمعنوية التي تجعل من دراستها أمراً بالغ الصعوبة^(١٢).

٣- إن موقف الباحث العلمي أمام الظاهرة الطبيعية موقف موضوعي؛ لأنه يتعامل مع ظواهر جامدة ليس بينه وبينها علاقات عاطفية أو انفعالية. فالباحث الذي يراقب حركة الأجرام لا يتحيز لنجم دون آخر. والباحث الذي يتعامل مع المعادن لا يحتاج لأن يضع خصائص جيدة في معدن ما دون أن تكون هذه الخصائص موجودة فعلاً. أما الباحث في الظواهر الاجتماعية فهو - بحكم كونه إنساناً - طرف مشترك في هذه الظاهرة مما يعطي الفرصة أمام أهوائه وميوله وقدراته وعواطفه وقيمه وأفكاره في التدخل، فمن الصعب أن يكون الباحث في المجال الإنساني موضوعياً محايداً تماماً (١٣).

ويمكن أن نوجز هذه الصعاب في مستويات ثلاثة رئيسة: الذاتية والقيمة والأيولوجية، ففي الذاتية يتخذ الباحث لنفسه منهجاً فكرياً مستقلاً يكون فيه العقل مصدراً للحقائق وحكماً عليها في الوقت نفسه، وبهذا يقيم كل باحث منهجه العلمي ونسقه الفكري بوصفه فرداً وشخصاً معيناً، ويتولى في الوقت نفسه ما تتطلبه عملية البحث من فحص وتحليل وثبت وتدقيق، وعن طريق هذه العملية البحثية تتحدد مسؤولية كل باحث فيما يتعلق بتأثير قيمه على دقة النتائج التي يصل إليها. بينما يعتمد موقفه في القيمة بوصفه ملتزماً بمعايير جماعته ومجتمعته، على حين يتعين موقفه في الأيولوجية بوصفه منتبهاً إلى طائفة عنصرية أو سياسية أو أقلية دينية (١٤).

٤- يستطيع الباحث في مجال الظواهر الطبيعية أن يخضع الظواهر للتجريب ويكرر التجريب حيث يستطيع الفيزيائي مثلاً أن يقيس تمدد الحديد ثم يكرر التجربة ليتأكد من نتائجه، أما الباحث في مجال الظواهر الاجتماعية فإنه لا يستطيع أن يخضع هذه الظواهر للتجربة فلا يستطيع

حرمان طفل من الطعام يرى تأثير ذلك عليه ولا يستطيع إخضاع الطفل إلى التجريب لعوامل إنسانية وأخلاقية مهمة لا يجوز التفريط فيها^(١٥).

إن وجود هذه الصعوبات لا تعيق البحث العلمي في مجال الظواهر والعلوم السلوكية؛ لأن هذه الصعوبات تشير إلى أن الباحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية يحتاج إلى وعي أكثر، وتنظيم أكثر، ودقة أكثر، وتجرد أكثر، وأن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد لدراسة الظواهر الإنسانية مع مراعاة أن أسلوب التجريب لا يمكن تطبيقه في بعض الحالات التي تحدث ضرراً على الإنسان الذي يخضع للتجربة.

وقد شهد علم الاجتماع مغامرة شبيهة بالمغامرة التي قلبت الفيزياء المعاصرة رأساً على عقب. فلم يعد من الممكن لإنسان وحده أن يتحكم في مجموع الخطوات التي تدرس الواقع دراسة ملموسة، فلا بد إذن من توزيع الاتجاهات المتعددة للبحث وفقاً لفريق بحثي متخصص في فروع العلم المختلفة، يلتزم بالبحث كمشروع جمعي، يعي الأثر الذي تفرضه الحدود الإنسانية على عملية البحث العلمي وهذا هو الذي يتسق مع روح العلم الحديث^(١٦).

ولقد تميزت بحوث العلوم الاجتماعية بأربع طرق هي:

١ - طريقة التغير النسبي: وهي إحدى الطرق الاستقرائية ويكتفي الباحث فيها بالمقارنة بين المتغيرات التي تطرأ على ظاهرتين بصورة مطردة ليحكم بوجود علاقة بينهما. مثال: استخدمت هذه الطريقة في دراسة الصلة الضرورية بين الميل إلى الانتحار والابتعاد عن القيم والعقائد الدينية وكذلك مع زيادة تقسيم العمل وزيادة عدد السكان في بقعة ما.

٢ - طريقة الفروق : والتي تبحث في الفروق المميزة للمجتمعات والبيئات المختلفة . ويمكن الاهتداء بهذه الفروق إلى معرفة القوانين . وهذه الطريقة تختلف عن سابقتها في أنها تفصل عن طريق التحليل إلى أن تصل إلى بعض الحقائق الجزئية التي يمكن استخدامها كنقطة بدء لبحوث اجتماعية جادة (١٧) .

٣ - طريقة الوثائق الشخصية وتسمى طريقة الميكروسكوب الاجتماعي : وترمي هذه الطريقة إلى معرفة جميع التفاصيل التي تنطوي عليها الظواهر الاجتماعية وذلك بدراسة الصور التي تشكل بها في شعور الأفراد وذلك بالاعتماد على الوثائق والملاحظات المتصلة بحياة الأفراد وعلى دراستهم من جميع نواحيهم الاجتماعية : مهنية وخلقية وتربوية ودينية واقتصادية ، والصلات الموجودة بين أفراد المجتمع وضروب السلوك القائمة ، بالإضافة إلى الأدوات وطرق البحث المتداولة وهذه كلها مهدت السبيل لمرحلة وضع الفروض ومرحلة التحقق من صدقها .

٤ - طريقة الإحصاء : ويمكن استخدام هذه الطريقة في تحديد عدد الأفراد الذين يتزوجون في عمر معينة ، وقد رأى علماء الحياة أن هناك صلات وثيقة بين الظواهر الاجتماعية وبين طبيعة الأفراد البيولوجية ، ومن هنا فقد استخدموا طريقة الإحصاء في عدد المواليد والوفيات ورسموا الخطوط البيانية التي تمثل زيادة عدد السكان أو نقص هذا العدد ، كذلك درس بعض علماء النفس والتربية ميول واستعداد كل منهم معبرين عن هذا بالأرقام والخطوط البيانية واقتدى علماء الاجتماع بهذين الفريقين في استخدام الإحصاء في دراسة الظواهر الاقتصادية والاجتماعية . وبالجمع بين طريقة الوثائق وطريقة الإحصاء تمكن علم الاجتماع من السير في طريق العلوم

التجريبية. ومن هنا فإن علم الاجتماع ما يزال يخطو أول الطريق أي في مرحلة البحث وجمع الظواهر دون الكشف عن القوانين وذلك لتعدد الظواهر ولكن الآمال معلقة على تطوره^(١٨).

وإذا نظرنا إلى مناهج البحث من حيث نوع العمليات العقلية التي توجهها أو تسير على أساسها أمكننا القول أن هناك ثلاثة أنواع من المناهج: المنهج الاستدلالي أو الاستنباطي وفيه يربط العقل بين المقدمات والنتائج أو بين الأشياء وعللها على أساس المنطق والتأمل الذهني فهو يبدأ بالعمليات ليصل منها إلى الجزئيات^(١٩). والمنهج الاستقرائي وهو على عكس سابقه يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة ويعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة الخاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة^(٢٠). أما المنهج الاستردادي فيعتمد على عملية استرداد ما كان في الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث وتحليل القوى والمشكلات التي صاغت الحاضر^(٢١). وإذا أردنا تصنيف مناهج البحث استنادا إلى أسلوب الإجراء وأهم الوسائل التي يستخدمها الباحث نجد أن هناك المنهج التجريبي وهو الذي يعتمد على إجراء التجارب تحت شروط معينة ومنهج المسح الذي يعتمد على جمع البيانات ميدانيا بوسائل متعددة ويتضمن الدراسة الكشفية والوصفية والتحليلية ومنهج دراسة الحالة وينصب على دراسة وحدة معينة فردا كان أو وحدة اجتماعية ويرتبط باختبارات ومقاييس خاصة والمنهج التاريخي ويعتمد على الوثائق والمخلفات الحضارية المختلفة^(٢٢).

وما يجدر الإشارة إليه أن العلوم الاجتماعية لم تتوقف عند حد وصف الظواهر وصفا نوعيا (كيف) بل تعدته إلى الوصف الكمي والتعبير عن الحقيقة بالأرقام أي أنها قد طورت قدراتها على اكتشاف القوانين والتنبؤ

بالظواهر ووضع هذه القوانين في صيغة نظريات تماثل نظريات العلوم الطبيعية وبذلك تستطيع العلوم الاجتماعية أن تواجه متطلبات العلم^(٢٣). إلا أن الطريق ما يزال طويلا أمام تطور هذه العلوم.

٣. الموضوعية في البحوث الاجتماعية :

تعني الموضوعية في البحوث الاجتماعية الالتزام والابتعاد عن الأحكام القيمة والانفعالية والذاتية ، والالتزام بالحياد الأخلاقي ومراعاة الظروف المحيطة بالوقائع الاجتماعي . وهذا يعني أنه على الباحث في العلوم الاجتماعية أن يتجه وجهة تكاملية يدرس من خلالها الظواهر الاجتماعية بطريقة موضوعية تعكس نتائجه صورة حقيقية عن الواقع الاجتماعي بعيدا عن التأثير بقيمه وعواطفه وميوله وأفكاره واتجاهاته .

ولما كانت المعرفة العلمية تتميز بأنها موضوعية ، إذ يدرس الباحث الظواهر في حالتها الراهنة موجهاً عنايته إلى واقعها الفعلي دون التأثير بأفكاره الذاتية أو تصوراتيه التي يكون قد كونها في وقت سابق لدراسة الظاهرة Proconcieved notion . . فلا يزال الكثيرون يعتقدون أن البحوث الاجتماعية تنقصها الموضوعية التي تتمثل في إعطاء الفكرة المدعمة بالأدلة والبراهين والابتعاد عن التحيز والأحكام الذاتية . وتتجلى الموضوعية عند استخلاص النتائج الصحيحة أو إصدار القرارات المناسبة .

وبطبيعة الحال يصعب أن تكون الموضوعية تامة ومطلقة لأن ملاحظات الفرد تتأثر إلى حد بعيد بقيمه واتجاهاته ، كما تتأثر بخبراته السابقة وتوقعاته التي يراها في ضوء هذه الخبرات ، وكلما ابتعد الباحث عن الأحكام الذاتية وتحرر من التحيزات الفردية زادت درجة الموضوعية ، وذلك لكون حقائق

العلم يجب أن تكون مستقلة عن رغبات الباحث وذاتيته، فالمعادن تتمدد بالحرارة، والغازات تتأثر بالحرارة والضغط، والعلاقة بين هذه المواد والمؤثرات علاقة حتمية بعيدة عن أهواء الإنسان ونزعاته، ومعرفة الباحث بهذه الحتمية يزيد من درجة موضوعيته^(٢٤).

ويتصل بخاصية الموضوعية التفكير العلمي، ذلك؛ لأن العلوم لم يعد ينظر إليها على أنها مجموعة من الحقائق التي سبق اختبار صحتها بل هي أهم من ذلك طريقة للتفكير والبحث عن الحقائق. وليست أهمية العلوم وعظمتها في الحقائق التي كشفت عنها بقدر ما هي كامنة في طريقتها وفي الروح العلمية التي تبحث عنها^(٢٥).

وترتبط الموضوعية ارتباطاً وثيقاً بالوضعية Positivism من جهة، والامبريقية Empiricism من جهة أخرى. ويقصد بالوضعية التخلص من المرحلتين الثيولوجية Theological Stage والميتافيزيقية Metaphysical Stage، والتي كانتا تنتهج منهجاً فكرياً يتسع المجال فيه لاستيعاب القيمة بمعانيها وتوجهاتها ومؤثراتها بشكل لا تسمح به المرحلة الوضعية، وحتى أصبحت العلاقة بين العلم والقيم تشكل قضية جدلية شغلت ولا تزال أذهان الباحثين والعلماء.

فالوضعية تتميز بالمعرفة العلمية المنبثقة عن حقائق ووقائع يضمها نسق علمي موحد يقوم على أسلوب علمي وإجراءات منهجية مقننة يلتزم به جميع الباحثين في محاولاتهم الوصول إلى الحقيقة^(٢٦).

أما الامبريقية فهي مجموعة من القواعد أهمها ما يدور حول مصدر المعرفة في علم الاجتماع و«المعيار» الذي يستند إليه الباحث الاجتماعي في حكمه على تلك المعرفة.

ويكمن مصدر المعرفة في المشاهدة الحسية للظواهر الاجتماعية عن طريق نزول الباحث للواقع الاجتماعي لي شاهد ظواهر مشاهدة واقعية لا تستند إلى مجرد التأمل أو التصور. وأما المعيار الذي يحكم الباحث بمقتضاه على أي من الأفكار والفروض التي تشير إلى الواقع الاجتماعي فهي أيضا المشاهدة الحسية، فالامبيريقية ترى ضرورة أن تخضع الافتراضات التي تشير إلى الواقع الاجتماعي إلى المشاهدة الواقعية لما تشير إليه من ظواهر للتحقق من مدى صدق هذه الافتراضات في ضوء مطابقتها للواقع الاجتماعي الذي تشير إليه (٢٧).

ومن هنا فإن الموضوعية تتطلب عدم وجود المعوقات التي تمنع الباحث من أن يعمل على إرساء أحكامه وقضاياه، وهي مستندة إلى الشواهد الواقعية، مشتقة ومتماشية معها، ويؤدي بنا ذلك إلى فكرة وجدة منطق المنهج العلمي، تلك القاعدة المنهجية التي تشير إلى أنه رغم تفاوت العلوم فيما بينها في الموضوع، غير أن هذا الأمر لا يؤدي إلى تفاوت بينها في القواعد المنطقية التي تحدد كيفية سير الباحث في إجراءاته العلمية. وهنا لا تصبح المسألة تفرقة بين العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية، بل يصبح الأمر تفاوتاً بين ما هو علم وما ليس بعلم، فما هو علم يستند إلى منطق المنهج العلمي، وما دون ذلك يخرج عن نطاق العلم. وهنا يصبح المنهج العلمي في جوهره طريقة للتفكير، وهو بهذا المعنى يقيس الحدود ويسر الإمكانيات لمن شاء من الباحثين أن يسير على هديه (٢٨).

ومعنى هذا أنه على الباحث أن يتجه في عمله العلمي وجهة تكاملية يدرس من خلالها الظواهر الاجتماعية بطريقة موضوعية بحيث تعكس نتائجه صورة حقيقية عن الواقع الاجتماعي بعيداً عن اتجاهاته وميوله، وقيمه

التي يكون لها تأثير تراكمي على توجيه سلوك الفرد وعلى عملية البحث الاجتماعي. ومن الأبعاد المهمة لمشكلة تأثير المعرفة العلمية بالقيم، أن هذا التأثير له طبيعة تراكمية، شأنه في ذلك شأن المعرفة العلمية، ويرتكز هذا البعد على نوعين من التراكمية، تراكمية تاريخية تقوم على الإضافات العلمية والإسهامات الفكرية التي تتم عبر العصور نتيجة الدراسات والبحوث في ميادين العلم المختلفة، وتراكمية وإجرائية تتم داخل خطوات البحث العلمي نتيجة تداخل وترابط هذه الخطوات. وهنا يبرز مدى خطورة المشكلة وضرورة الالتفات لهذا الجانب منها حتى يمكن التغلب عليها.

ولعل التحديد الدقيق لمفهوم القيم يساعد كثيراً في تبيان طبيعة تأثيرها على نتائج الدراسات والبحوث العلمية، ويمكن تعريف القيم بأنها أمر مرغوب فيه وله أفضلية عن غيره من الأمور وأهمية خاصة تجعله موجهاً للأفعال والأعمال وغيرها من مظاهر السلوك المختلفة، كما أن القيمة تكون ملزمة، والالتزام هنا يعنى الارتباط الشديد بمعناها ومضمونها ووزنها في نظر حاملها أو معتقها، ولهذا فإن القيمة تؤثر بشكل كبير على توجيه سلوك الفرد، وللقيم أنواع كثيرة، فهناك قيم اقتصادية وأخلاقية وقانونية وثقافية وتاريخية وسياسية، ومن القيم ما هو مقبول أو غير مقبول من الناحية الاجتماعية، وقيم الأفراد والمجتمعات نسبية تتأثر بالزمان والمكان ونوعية الفرد والجماعة والمجتمع.

ولكل قيمة معنيان: أحدهما موضوعي Objective ووفق هذا المعنى تكون القيمة كل ما من شأنه أن يجعله جديراً بالرغبة أو الاحترام، أما المعنى الآخر فذاتي: Subjective وهو ما يرغب فيه شخص معين أو يحترمه وفي هذا المعنى تختلف القيمة من شخص إلى آخر بحسب الموقف الذي يحيط بكل منها وحاجاتها وأذواقها. ومهما كان من شأن القيم فلكل مجتمع مفاهيمه

ومبادئه الأخلاقية التي تشكل في مجملها جهازه القيمي Value System الذي هو لب ثقافته .

وهنا تجدر الإشارة أيضا إلى أن سوسيولوجية القيم الاجتماعية لا يمكن أن يتناولها الباحث في معزل عن قضايا التغير الاجتماعي ، إذ هي وثيقة الصلة وشديدة الارتباط بمتغيراته ، وعلى ذلك فالقيم الاجتماعية هي في حقيقتها دائمة التطور والتغير ، وتزداد أهمية هذا الجانب عندما ندرك أن الظواهر الاجتماعية في العصر الحديث تتميز بالتشابك والتعقيد ، وذلك نتيجة سرعة التغير الاجتماعي ، وتطور مظاهر السلوك البشري مما يصعب معه التنبؤ باتجاهات هذا السلوك .

وفي هذا الصدد نجد أن مصادر تأثير نتائج البحث الاجتماعي عديدة ومتنوعة ، وتتراوح هذه ما بين خبرات الباحث التي يمر بها والقيم التي يعتنقها ، والاتجاهات السائدة في تفكيره أو في زمانه ، وتفضيل الشخص لمنهج بحثي أو إطار فكري معين ، كما أن انتهاءه الاجتماعي يشكل أيضا مصدرا مهما في هذا المجال لا يؤثر فقط على اختياره لمشكلة بعينها ، بل أيضا على طبيعة النتائج التي يتوصل إليها ، فإذا كان الباحث متميلا إلى طائفة عنصرية أو سياسية أو أقلية دينية ، فإنه قد يفكر دائما في إجراء البحوث والدراسات التي تهتم بأحوال ومشكلات أعضاء تلك الجماعات ، وفي مثل هذه الحالة يجب عليه أن يكون موضوعيا في دراسته وأن يتحرر من نزعاته ورغباته الشخصية ، حتى لا تؤثر اتجاهاته الفردية في نتائج دراسته .

ويترتب على ما تقدم ضرورة الالتزام بالمنهج العلمي في البحث للتوصل إلى حقيقة الوقائع الاجتماعية . غير أنه قد تزيد صرامة الالتزام بمناهج البحث الاجتماعي وتطبيقها الحرفي إلى درجة تجاهل الطبيعة الإنسانية لأعضاء مجتمع البحث ، بحيث يتم التعامل معهم على أنهم أشياء جامدة ،

ولهذا فقد دعا بعض العلماء إلى انتهاج الطريقة الذاتية عند دراسة بعض الحالات التي تتطلب من الباحث أن يسبر أغوار مجموعة التجارب الخاصة بالمبحوث في مجال معين من مجالات الحياة .

وليس معنى هذا أن اتباع الطريقة الذاتية في مثل هذا النوع من الدراسات السوسولوجية يكون سببا في بعد الباحث عن الموضوعية، إذ أن الطريقة الذاتية تتطلب منه درجة كبيرة من التعاطف والحدس والحساسية حتى يفهم حقيقة المشكلة موضوع الدراسة .

وهناك بعد آخر يكمن في العلاقة بين القيم والبحوث الاجتماعية لا بد لنا من توضيح طبيعته ومدى حساسيته عند محاولة التوصل إلى المعرفة العلمية من أجل الاهتمام بقضايا المجتمع ومشكلاته، فالبحث الاجتماعي هو دراسة المجتمع أو بعض جماعاته أو مشكلاته أو ظواهره باتباع المنهج العلمي من أجل تفهم طبيعة هذه المشكلات وتشخيصها لعلاجها أو الوقاية منها .

وهناك نوع من البحوث هو البحث الأساسي Basic Research وهو بحث يهتم باكتشاف الحقائق أو الإضافة إليها أو تطوير نظريات علمية أكثر من اهتمامه بحل المشكلات حلا فوريا، أي أنه يهتم بإرساء قواعد المعرفة العلمية بوضعها في أنساق فكرية تمهد السبيل لرفع الأسس الضرورية للبحث التطبيقي Applied Research وهو نوع من البحوث يستخدم المعرفة العلمية المنبثقة من البحث الأساسي في حل بعض المشكلات .

ولهذا تتوجه البحوث التطبيقية إلى محاولة النهوض بالمجتمع عن طريق تطبيق المبادئ العلمية في قطاعات عديدة منها قطاع الصناعة والهيئات الحكومية والنقابات والشركات والمؤسسات التعليمية . . . الخ .

ولا شك هنا أن علاقة القيم بنتائج البحث تشكل مصدراً كبيراً من مصادر التحيز وعدم الدقة إذا وضعنا في الاعتبار مدى اعتماد البحوث التطبيقية على نتائج البحوث الأساسية التي تجعل نتائج الكشف عن المعرفة في متناول واضعي السياسة للاستفادة منها في التطبيق على الواقع الاجتماعي من أجل النهوض بالمجتمع .

وبناء على ما تقدم نجد أن محاولة تطبيق المعرفة السوسولوجية في مجال رسم السياسة الاجتماعية دائماً ما تثير الجدل القائم حول قضية القيم، ومدى تأثيرها على تلك السياسة، وفي هذا الصدد نجد أن هذا الجدل ينعكس في معظم الأحيان على اتجاهات فكرية محددة .

فهناك فريق يؤكد على ضرورة الاهتمام بحقيقة الواقع الاجتماعي وتقريره كما هو، بعيد كل البعد عن قيم الباحث واتجاهاته وفي هذه يكون انتهاء الباحث وولاؤه منحصرًا في الرغبة في الوصول إلى الحقيقة فقط، ولا شيء غير الحقيقة . وهناك فريق آخر ينادي بعكس ذلك ويدعو إلى الاهتمام بالمنهج العلمي مع الاستفادة بالقيم وتوجيهاتها لبحثه حتى لا يكون عمله في معزل عن صالح المجتمع وتقدمه (٢٩) .

وفي هذه الحالة يكون انتهاء الباحث وعضويته لجهتين يقوم بخدمة أهدافهما في آن واحد : فهو عضو في مجتمع العلم الذي يؤكد على ضرورة التوصل إلى الحقيقة المطلقة Value Free وهو أيضاً عضو في المجتمع الإنساني الذي يتكون من قيم وثقافة وبنية اجتماعية وهذان النوعان من العضوية يلتقيان ويكتملان ويتفاعلان بشكل متوازن لخدمة العلم والمجتمع .

ولا يعتقد مليز C. Right Mills " في التحرر الايديولوجي للباحث أو في موقفه المحايد من القيم، ذلك لأن الالتزام الاخلاقي والسياسي من جانب هذا الباحث يعد ضرورة؛ ولأن جهده في الدراسة يسلم إلى شكلين من أشكال المعرفة، أحدهما: المعرفة الفنية المتخصصة، وتحوي البيانات المليئة بالمفهرومات Concepts والتعبيرات العلمية وهذه يمكن استخدامها واستغلالها في تحقيق أغراض مختلفة، أما الشكل الثاني من أشكال المعرفة فهو ما يقدمه الباحث للمواطن العادي حتى يهيء لمثل هذا المواطن أن يكون لديه طابعا عقليا خاصا يسميه ميلز بالعقلية السيسولوجية النافذة The Sociological Imagination. وبواسطة هذه العقلية السيسولوجية النافذة يدرك الفرد أن وجوده في الحياة يسهم بقدر في تشكيل مجتمعه وفي تحديد مجرى تاريخه، ويترتب على هذا قيام الفرد بسلوكه الاجتماعي بحيث يتشكل هذا السلوك في ضوء هذا الوعي الاجتماعي. وبهذه الوسيلة تتحول المشكلات الشخصية التي يعاني منها الافراد إلى شكل ظاهر صريح يطفو على سطح المجتمع مشكلا هموما جماعية يواجهها المجتمع، وتتحوّل اللامبالاة السلبية من جانب الأفراد إلى نوع من الالتزام بالقضايا العامة التي تشغل المجتمع^(٣٠).

وهكذا تقع على الباحث الاجتماعي العديد من المسؤوليات الاجتماعية والالتزامات الاخلاقية، فعليه أن يختار الموضوعات البحثية ذات الأهمية المجتمعية. وعليه أن يطور المناهج والإجراءات المستخدمة في البحوث الأساسية لكي تكون نتائجها ذات فائدة معرفية وتطبيقية.

ومهما كان من أمر اختيار مشكلة البحث أو موضوع الدراسة وتأثره بالقيم فإن الباحث لا يجب أن يسمح للقيم أن تؤثر في نتائج بحثه بشكل يشوه الحقيقة. وطبيعي أن بعض الباحثين قد يرغبون في أن تخرج نتائج

بحثهم بطريقة لا تتنافى مع أسلوب تفكيرهم أو رؤيتهم النظرية للواقع الاجتماعي ، أو مع نتائج سبق لهم التوصل إليها . ولهذا فإن طبيعة العلم أن يقبل الحقائق المعاشة حتى ولو جاءت على التقيض مما هو متوقع أو مرغوب فيه .

وأخيراً فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو: ما هي الضمانات أو الإجراءات التي يمكن توظيفها لتقف في سبيل تأثير نتائج البحث العلمي بقيم الباحث واتجاهاته؟

يعتقد البعض أنه من الممكن أن يكون لاعتراف الباحث وإعلانه عن قيمه واتجاهاته أثر كبير في حماية نتائج البحث من تلك السلبيات المشار إليها آنفاً ، كما أن اليقظة الدائمة من جانب الباحث نفسه تجاه هذه المشكلة قد تفيد في حماية النتائج من سلبيات التحيز بأشكاله المختلفة .

٤ - نتائج البحث :

يمكن تلخيص أهم نتائج البحث فيما يلي :

- ١ - تعد العلاقات الإنسانية محور الدراسة في العلوم الاجتماعية ، ولقد ظهرت أنكار ومحاولات عديدة لربط هذه العلوم ببعضها البعض وبيان أنها متكاملة ، منها الربط العرضي والربط المنظم والدمج والتكامل .
- ٢ - لقد أدى تطور العلوم الاجتماعية إلى أخذها من قواعد العلم ومناهجه في البحث ما حوّلها إلى علوم واضحة ذات حدود وقوانين .
- ٣ - رغم صعوبة البحث العلمي في ميدان الظاهرة الإنسانية التي تختلف عن الظاهرة الطبيعية فإن الاستمرار في تطبيق المنهج العلمي على العلوم

الاجتماعية أمر ممكن إلا أن الباحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية يحتاج إلى وعي أكثر وتنظيم أكثر ودقة أكثر وتجرد أكثر.

٤ - إن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد لدراسة الظواهر الإنسانية مع مراعاة أن أسلوب التجريب لا يمكن تطبيقه في بعض الحالات التي تحدث ضرراً على الإنسان الذي يخضع للتجربة .

٥ - يصعب أن تكون الموضوعية تامة ومطلقة ؛ لأن ملاحظات الفرد تتأثر إلى حد كبير بخبراته السابقة وتوقعاته التي يراها في ضوء هذه الخبرات وكلما ابتعد الباحث عن الأحكام الذاتية وتحرر من التحيزات الفردية زادت درجة الموضوعية وذلك لكون حقائق العلم يجب أن تكون مستقلة عن رغبات الباحث وذاتيته .

٦ - إن العلوم الاجتماعية تسعى دائماً نحو الكمال في البحث عن الحقيقة وبدأت تستعين بالأسلوب الكمي والرياضيات مما يجعل نتائجها صادقة وموضوعية .

٧ - نجحت العلوم الاجتماعية في تطوير قدراتها على اكتشاف القوانين والتنبؤ بالظواهر ووضع هذه القوانين في صيغة نظريات تماثل نظريات العلوم الطبيعية .

٨ - إذا كان هناك بعض الظواهر الاجتماعية التي يصعب حالياً دراستها باستخدام الأساليب العلمية فقد يمكن دراستها في المستقبل بفضل الجهود المتواصلة للباحثين في العلوم الاجتماعية التي تهدف إلى ابتكار مناهج وأدوات جديدة أكثر دقة وموضوعية تتفق مع طبيعة الظواهر الاجتماعية .

• • •

(١) محمود طنطاوي دنيا، استراتيجيات تدريس المواد الاجتماعية، (مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٢م)، ص ٢٠.

Carpenter, H.M. (ed.), **Skills in Social Studies**, 24th Yearbook of the National (٢) Concil for the Social Studies, Washington, 1953, p. 18.

Krng, M. **History and the Social Sciences**, Waltham, Mass, Blaisdell, 1976, p. (٣) 45.

Ralph, C.P. & Wany L.H., **Theaching Social Studies**, (Hole Rine Hasland (٤) Winston Inc., New York, 1974) p. 6.

Linnie, J.B. & La Monte C., **Geography Today**, (Appleson Century Craffs, (٥) New York, 1968) p. 5.

Inceles, Alex, **What is Sociology: An Introduction to the Discipline and Pro- (٦) fession**, (Prentice - Hall, New York, 1955), p. 7.

Ernest, R.H. & Richard C.A., **Introduction to Psychology**, Hocourt Brace and (٧) World, New York, 1967, p. 3.

Marshall, A., **Economics**, MacMillan, London, 7th edition, 1954, p. 7. (٨)

(٩) محي الدين صابر، التفجير الحضاري وتنمية المجتمع، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢) ص ١٦.

(١٠) ذوقان عيدات، عبد الرحمن عدس، كايد عبد الحق، البحث العلمي، (دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٤) ص ١٩.

(١١) عمر التويي الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي (دار الثقافة، بيروت ١٩٧١) ص ٢٢.

(١٢) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي (مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م) ص ٧٦.

(١٣) فاخر عقل، أسس البحث العلمي في العلوم السلوكية (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩) ص ١٢.

(١٤) صلاح قصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، (دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠) ص ٥٠-٥٨.

- (١٥) محمد الجوهري وعبد الله الخريجي، طرق البحث الاجتماعي (دار الكتاب للتوزيع، القاهرة ١٩٨٢م) ص ١١١.
- (١٦) عليا علي شكري، مقدمة في علم الاجتماع، (دار الجيل للطباعة، القاهرة، ١٩٧٣م) ص ١٢١.
- (١٧) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٦م) ص ٨٥.
- (١٨) عبد اللطيف محمد العبد، مناهج البحث العلمي (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٩م) ص ٦٤.
- (١٩) حكمت العربي، البحث الاجتماعي: المنهج وتطبيقاته، (مطابع الفرزدق، الرياض ١٩٩٠م) ص ١٦-٢٠.
- (٢٠) حكمت العربي، المرجع السابق، ص ٢٠-٢٣.
- (٢١) حكمت العربي، نفس المرجع، ص ٢٣-٢٥.
- (٢٢) محمد زيان عمر، البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، (دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، جدة ١٩٨٣م) ص ٤٩.
- (٢٣) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرائق البحث وأساليبه، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨١) ص ١٢٦-١٣٠.
- (٢٤) حنان عيسى سلطان وغانم سعيد شريف العبيدي، أساسيات البحث العلمي بين النظرية والتطبيق، (دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٤م).
- (٢٥) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٠م) ص ١٠٧.
- (٢٦) دوركايم، أ.، قواعد المنهج في علم الاجتماع، (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م) ص ٣٧.
- (٢٧) حكمت العربي، البحث الاجتماعي: المنهج وتطبيقاته، (مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٩٩٠م) ص ٣٧-٣٨.
- (٢٨) حكمت العربي، البحث الاجتماعي: المنهج وتطبيقاته، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (٢٩) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، دراسة في طرائق البحث وأساليبه، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ٢، ١٩٨١م) ص ٨٦٤-٨٧٦.
- C. Wright Mills, *The Sociological Imagination*, (New York 1966), pp. 1- 24. (٣٠)

Objectivity and Subjectivity in Research Methodology in Social Sciences

Hikmat Al-Orabi

Abstract

Many still believe that research methodology in social sciences lacks objectivity and is very much affected by the value-judgment of the researcher, his personal views and the dominated beliefs in his society. However, this view ignores the recent developments in these sciences and in particular the application of scientific tools of research methodology.

This paper examines these developments and reviews the new trends in the research methodology in social sciences. The paper also offers a number of suggestions to enhance the degree of objectivity of this methodology.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- ١ - أحمد، سمير نعيم، المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية، القاهرة، دار سعيد رأفت للطبع والنشر، ١٩٨٨م.
- ٢ - الجوهري، محمد، وعبد الله الخريجي، طرق البحث الاجتماعي، القاهرة، دار الكتاب للتوزيع، ١٩٨٢م.
- ٣ - الحمد، تركي، الموضوعية ومنهجية علوم الاجتماع، الرياض، مركز البحوث، كلية العلوم الإدارية، جامعة الملك سعود، ١٩٨٨م.
- ٤ - الخشاب، أحمد، التفكير الاجتماعي: نشأته وتطوره، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨١م.
- ٥ - الشيباني، عمر التوبي، مناهج البحث الاجتماعي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١م.
- ٦ - الطويل، توفيق، خصائص التفكير العلمي «مجلة عالم الفكر»، المجلد ٣، العدد ٤، الكويت، ١٩٧٣م، ص.ص. ١٥٣-١٨٤.
- ٧ - العبد، عبد اللطيف محمد، مناهج البحث العلمي، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧٦م.
- ٨ - العرابي، حكمت، البحث الاجتماعي، المنهج وتطبيقاته، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٩٠م.
- ٩ - النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٩١م.
- ١٠ - باشلار، غاستون، تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ٣، ١٩٨٦م.

- ١١ - بريل، ليفي، فلسفة أوجست كونت، ترجمة محمود قاسم، والسيد بدوي، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٢ م.
- ١٢ - جلال، سعد، القياس النفسي: المقاييس والاختبارات، الاسكندرية، مكتبة المعارف الحديثة، ١٩٨٥ م.
- ١٣ - حسن، عبد الباسط محمد، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٨ م.
- ١٤ - خيرى، السيد محمد، الإحصاء في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية، القاهرة، دار النهضة، ١٩٧٠ م.
- ١٥ - دنيا، محمد طنطاوي، استراتيجيات تدريس المواد الاجتماعية، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٢ م.
- ١٦ - دور كايم، اميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧٤ م.
- ١٧ - شكري، علياء علي، مقدمة في علم الاجتماع، القاهرة، دار الجيل للطباعة، ١٩٧٣ م.
- ١٨ - صابر، محي الدين، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢ م.
- ١٩ - عارف، محمد، المنهج في علم الاجتماع في ضوء نظرية التكامل المنهجي، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥ م.
- ٢٠ - عقل، فاخر، أسس البحث العلمي في العلوم السلوكية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩ م.
- ٢١ - عمار، حامد، المنهج العلمي في دراسة المجتمع، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤ م.
- ٢٢ - عمر، محمد زيان، البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٩٨٣ م.
- ٢٣ - عمر، معن خليل، الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي، بيروت، دار الأفاق الجديدة، ١٩٨٣ م.

- ٢٤ - عيدات، ذوقان، وآخرين، البحث العلمي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.
- ٢٥ - عيسى، محمد طلعت، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٢م.
- ٢٦ - قاسم، محمد، المنطق الحديث ومناهج البحث، القاهرة، دار المعارف، ط ٦، ١٩٧٢م.
- ٢٧ - قنصوة، صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.
- ٢٨ - محمد، محمد علي، علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرائق البحث وأساليبه، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١م.
- ٢٩ - ياكوب، باريون، ماهي الايديولوجية، ترجمة أسعد رزوق، بيروت، الدار العلمية، ١٩٧١م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Baily, K., **Methods of Social Research**, New York, The Free Press, 1982.
- Benenson, F.C., **Probaility, Objectivity and Evidence**, London, Routledge & Kegan Paul, 1984.
- Giddens, A., (ed.), **Positivism and Sociology**, 1974.
- Lamb, Sharon, "An Objectivist in Social Construction Clothing", **American Psychologist**, Washington, D.C., Vol. 47, No. I, January 1992, pp. 80-81.
- Lundberg, **Soicial Research, Foundations of Sociology**, New York, 1964.
- Linnie, J.B., & LaMoute C., **Geography Today**, New York, Appleson Century Graffs, 1968.

Mills, C. Wright, **The Sociological Imagination**, New York, Grave Press, 1961.

Popper, Karl R., **Objective Knowledge: An Evolutionary Approach**, Oxford University Press, Oxford, 1979.

Weber, Max, **The Methodology of Social Sciences**, (Ed.), E. Shild & H.A. Finch, Free Press, 1949.

Willard, Dallas, **Logic and the Objectivity of Knowledge: A Study in Husserl's Early Philosophy**, Athens, Ohio University Press, 1984.

Scientific Sociology, Theory and Method, N.J. Printice Hall, 1967.

Hess, B.B. & Others, **Sociology**, MacMillan Publishing House, Inc., 1982.

Stephen, I., **Handbook in Reserach & Evaluation**, California, Robert R. Knopps Publisher, 1972.

Krug, M., **History and the Social Sciences**, Wathan, Mass, Blaisdell, 1976.

Ralph, C.P. & Wamy L.H., **Teaching Social Studies**, New York, Hole Rine Hasland Winston Inc., 1974.

Deutscher, Max, **Subjecting and Objecting: An Essay in Objectivity**, Queensland, University of Queensland Press, 1983.

Cohen, B., **Developing Sociological Knowledge: Theory and Method**, N.J., Printice Hall, 1980.



التعريب

بين التفكير والتفسير

د. كمال بشو



ينطلق الحديث من وقت إلى آخر في عالمنا العربي مناديا
بوجوب تعريب العلوم باعتماد اللغة العربية لغة
التدريس والتأليف والبحث العلمي والتقنيات الحديثة
في جامعاتنا ومعاهدنا. وهناك من الدارسين أهل الاختصاص من
لم يعبروا هذا النداء أي اهتمام، بل ربما عارضه بعضهم وأطلقوا
شعارات أخرى ترمي إلى إسكات هذا النداء والتشويش عليه حتى
لا ينفذ إلى الأذان ويخرج إلى حيز التنفيذ عاجلا أو آجلا. ولا نعدم
في الوقت نفسه أن نجد من يقف وسط المعركة حائرا، لا يدري إلى
أي من القبيلين ينسب، إما لجهله أعماق القضية، وإما عجزا عن
تقديم يد العون لهؤلاء أو أولئك.

ونحن من جانبنا نؤيد «التعريب» من حيث المبدأ. والمبدأ أشبه
شيء بالدستور يحتاج إلى تفسير وضبط لأبعاده وأهدافه، وتعرف
مجالات تطبيقه، وبيئة هذا التطبيق وزمانه. وهذا يقتضي منا إلقاء
الضوء على بعض الأفكار والجوانب المتعلقة بهذا المبدأ إيجابا
وسلبا، والتي قد يغيب عن بعضهم من القبيلين كليهما إدراك
حقيقة الأمر فيها وما يلقها من مشكلات وصعوبات.

وأول ذلك تحديد مفهوم «التعريب» في التوظيف العربي المعاصر، إذ أن المصطلحات هي مفاتيح العلوم، فينبغي أن تكون ذات قدرة وكفاية للكشف عن مغاليق ما نود الوصول إليه، ولا يكون ذلك - بطبيعة الحال - إلا بإخضاعها للنظر والتدقيق مبنى ومعنى.

يُوظَّف «التعريب» - مصطلحا - في الثقافة العربية المعاصرة في أربعة معانٍ، مختلطة الحدود في أذهان الكثيرين منا في النظر والتطبيق على سواء.

المعنى الأول:

قد يطلق «التعريب» في ميادين الثقافة العامة ويقصد به إخضاع النصوص أو الأعمال الأجنبية - علمية أو أدبية أو فنية - لشيء من التصرف في مبناها ومعناها، وذلك بتطويعها لمقتضيات الظروف وأنماط التقاليد الاجتماعية والثقافة العربية، وجعلها ذات سمة عربية في الإطار العام.

وقد يقتضي ذلك شيئا من التغيير في الجزئيات وبعض التفاصيل بذكر أفكار أو أمثلة أو نماذج عربية في صلب النص أو العمل المنقول.

ومعنى هذا أن النقل - في حالة النصوص المكتوبة - يأخذ طريقين متصلين غير منفصلين: أحدهما ترجمة الفكرة العامة أو العناصر الرئيسة للموضوع، وثانيهما حشو النص المنقول بأفكار جزئية عربية، أو التحوير والتعديل في بعض نقاطه أو حذف شيء أو أشياء منه، حتى يأخذ الطابع العربي بصورة من الصور. وكثيرا ما يحدث هذا الضرب من «التعريب» في المسرحيات والأفلام ونحوها وبعض الأعمال العلمية، وقد يسمى بالاعتباس أحيانا، أي اقتباس الفكر الرئيسة وصوغها في بناء عربي.

المعنى الثاني:

وهو شديد الصلة بالأول، حيث يطلق «التعريب» ويراد به الترجمة. وهذا المفهوم يأخذ به بعض الناس - مثقفين وغير مثقفين - بطريق التجوُّز أو

عن سوء فهم أو جهل بالمعاني الدقيقة للمصطلحات. وهذا المسلك - في رأينا - تنقصه الدقة أو - في الأصح - هو ضرب من الخطأ المحض.

إن الترجمة تعنى نقل معاني الكلمات أو العبارات والنصوص الأجنبية والتعبير عنها بكلمات وعبارات مقابلة لها في اللغة المنقول إليها، سواء أكانت هذه اللغة المنقول إليها عربية أم غير عربية، في حين أن «التعريب» - في أدق معانيه - محصور في النقل إلى العربية، (والعربية وحدها). وقد يكون النقل في مجال الألفاظ ذاتها، وهو الأشيع والأكثر استعمالاً لمصطلح «التعريب» (انظر المعنى الثالث) أو بتطويع النصوص على الوجه الذي يتينا في المعنى الأول. وقد يراد بالتعريب اعتماد اللغة العربية لغة العلم والفن بدلا من اللغات الأجنبية (انظر المعنى الرابع).

المعنى الثالث:

وهو الأشهر في الاستعمال والأكثر استقراراً واتباعاً في مجال العلم، وبخاصة في المصطلحات ونحوها. والمقصود به هنا نقل اللفظة الأجنبية بحالها إلى اللغة العربية، مع نوع من التعديل أو التغيير في صورتها بالقدر الذي يتمشى مع القواعد الصوتية والصرفية في اللغة العربية، وفقا للمخطوط العريضة لضوابط هذين الجانبين في لغتنا. فالتعريب هنا إذن محصورٌ مفهومه في مجال الألفاظ ونحوها من حيث المبنى والشكل.

والتعريب بهذا المعنى الثالث (أي تطويع الألفاظ الأجنبية بردها إلى الصور العربية صوتياً وصرفياً) هو ما يشيع العمل به في نقل العلوم والفنون الحديثة، غير أن استخدامه في هذا النقل له حدود وضوابط من حيث الكيف والكم. لقد سجل الأقدمون بعض القواعد العامة التي ينبغي اتباعها عند تعريب المصطلحات، فاشتروها شروطاً صوتية وأخرى صرفية للألفاظ المنقولة، حتى تأخذ السمة العربية التي تؤهلها للانتظام في الثروة

اللفظية العربية ، وحتى يسهل عليها التأقلم وتصبح «عربية» بالاستعمال الخاص والعام معا . وهذه الشروط كلها أو بعضها ما زال بعض الباحثين يتمسكون بها حتى وقتنا هذا . قصداً إلى إزاحة الغربة عن هذه الألفاظ ومنحها أُرديّة مألوفة مأنوسة .

والحق أن اشتراط حدود معيّنة للصور النطقية والصرفية للمصطلحات المنقولة بالتعريب ينبغي ألا يؤخذ على إطلاقه . وإنما يعالج الأمر بحسب الظروف والحالات التي تواجهها ، شريطة أن يكون صوغها على وفق المؤلف لألسنة العرب وآذانهم قدر المستطاع .

أما من حيث الكم والأقدار المنقولة من الألفاظ بالتعريب فهناك آراء . هناك من لا يميز التعريب البتة ؛ لأن فيه - على ما يرى أصحاب هذا الرأي - إفساداً للعربية وتشويهاً لمادتها . وعندهم أن الترجمة هي السبيل الأوفق والأولى بالاتباع في هذه السبيل . وهناك في الجانب الآخر من يرى فتح باب التعريب على إطلاقه ، دون شرط أو قيد ، على أساس أن المصطلح المعرب أقرب في الدلالة على المفهوم المقصود وأكثر وفاء بأغراض التعبير من الترجمة . أما المنتصفون من الدارسين والباحثين فلا يرون بأساً من التعريب ، وبخاصة في المراحل الأولى من نقل العلوم والفنون الأجنبية ، ولكن بأقدار مناسبة ، وحيث تكون الحاجة ملّحة إلى هذا النهج . وهم في ذلك يستدلون بما جرى في القديم ، حيث أقدم علماءنا على تعريب أعداد كبيرة من المصطلحات ذات الأهمية الخاصة ، على ما هو معروف ومشهور .

ونحن من جانبنا نأخذ بهذا الرأي ، ولكن بشروطنا الخاصة التي تتمثل في وجوب وضع التعريب تالياً للترجمة في المحاولة والاجتهاد ، وفي وضع نوع من الضوابط تحكم هذا النقل بالتعريب .

المعنى الرابع :

يشيع بين أهل الاختصاص من الدارسين العرب في السنوات الأخيرة توظيف مصطلح «التعريب» في مفهوم خاص، وإن كان هذا المفهوم ما يزال غائماً في أذهان الكثيرين منهم. وأحسب أن أوضح تحديده له وأدق تفسير لمعناه في سياق المعارك الدائرة حوله الآن، هو ما قدمه لنا الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني في بحث له اشترك به في فعاليات المؤتمر الثامن والخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٢ م. ومعلوم أن هذا المؤتمر قد عُقِدَ ورُتِبَت كل أعماله وبحوثه لمناقشة قضية التعريب بهذا المفهوم الخاص (من جميع زواياه وجوانبه) الذي حدّده الدكتور خليفة بقوله: «فالتعريب في هذا المصطلح الذي يكون محور مؤتمر مجمعنا لهذا العام، يعنى بالتحديد تحويل الجامعات والكليات الجامعية والمعاهد العليا التي تضم مئات الأقسام العلمية، من التدريس باللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى التدريس باللغة العربية، واعتماد اللغة العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي والتقنيات الحديثة».

هذا هو «التعريب» ذو المفهوم الخاص الذي نلن أو يُفترض أن المناقشات الجارية في الساحة العربية منذ فترة قصيرة تدور حوله تأييداً أو معارضةً، وعلى الرغم من وضوح هذا المفهوم للتعريب والأخذ به عند جملة من الباحثين العارفين، فالملاحظ أن هذا المفهوم قد اقتصر على التعريب اللغوي، أي اعتماد العربية لغة العلم تدريساً وبحثاً وتأليفاً بدلاً من اللغات الأجنبية. وهذا التفسير للتعريب تفسير جائر ومقبول بوجه من الوجوه، ولكنه لا ينفذ إلى جوهر الموضوع ولا يصل بنا إلى أعماق القضية الأساسية، قضية «التبعية» العلمية للآخرين، والسير من خلفهم والتلقّي عنهم دون مشاركة فاعلة.

التعريب عندنا يعني تعريب الفكر واللغة معاً، إذ الاختصار على التعريب اللغوي علاج قاصر إذا لم يعتمد على تفكير عربي؛ لأن التوظيف اللغوي المحض غير الصادر عن فكر عربي قد يكون بالترجمة أو بنقل أفكار الآخرين والاقتراس منها وصوغ ذلك كله باللغة العربية. ومردود ذلك أننا نظل تابعين فكرياً وإن بدأ أننا مستقلون لغوياً. والتبعية الفكرية هي الداء الحقيقي الذي يفرز أدواء أخرى تنخر في عظام الجسم العربي. وعلى رأسها داء التعريب اللغوي الذي توجهت إليه أنظارُ الدارسين، وجعلوه محور مناقشاتهم ومعاركهم، غافلين عن مصدره الذي يتولد عنه ويمدّه بعناصر وجوده، وهو التعريب الفكري.

لا ننكر أن بعض الباحثين قد أشاروا إلى قضية تعريب الفكر هذه، ولكنها جاءت إشارات خاطفة وردت هنا وهناك في سياق الحديث عن التعريب اللغوي الذي رآوه السبيل الوحيد المفضى إلى تعريب الفكر. يقول الدكتور خليفة في بحثه المشار إليه سابقاً: «هذا المدلول الحديث (مشيراً إلى تحديده السابق للتعريب) . . . يعني التحول من استعمال لغة أجنبية فُرضت على المؤسسات العامة والخاصة إلى استعمال اللغة العربية وتأصيلها لغة للفكر والتفكير».

صحيح أن تعريب اللغة له دور لا يُنكر في تعريب الفكر، إذ بين الجانبين ارتباط وثيق، ولكن هناك عوامل وعناصر أخرى كثيرة ذات فعالية غير منكورة في تنمية الفكر وتعميقه وتنويع أبعاده وجوانبه، كالتجربة والثقافة العامة وسعة الاطلاع على مصادر المعرفة العامة والخاصة، سواء أكانت هذه المعارف عربية أم أجنبية. هذه العوامل مجتمعة (وغيرها كثير) هي الأدوات الفاعلة في تحريك الفكر وتنشيطه ودفعه إلى الخلق والابتكار، بحيث يصبح

قادرا على التفاعل والتعامل مع ما يجري في الحياة، والتصرف فيما يقابله أو يواجهه من مشكلات، ومن ضمنها التعريب اللغوي نفسه.

وتعريب الفكر عندنا يعنى بالضرورة أن يكون للعرب دور إيجابي فاعل ذو خصوصية مميزة، لها نوع من الكيان المؤثر في السوق العلمية والفنية وجميع مجالات الحياة الإنسانية. ويتم ذلك في مجال العلوم بالمشاركة والمساهمة في النشاط العلمي بمجالاته المختلفة، كأن يكون لنا نصيب في الابتداع والابتكار أو الإضافة والتجديد أو التعديل والتطوير، أو حتى التفسير والتطويع للتطبيق السليم الراشد.

وهذه المشاركة الفاعلة وتلك المساهمة الإيجابية لا تأتي من فراغ، وإنما أساسها العمل الدائب في الاطلاع والتحصيل والاستيعاب والهضم لأعمال الآخرين، بالإضافة إلى محصول الدارس نفسه ومخزون معارفه وثقافته. ثم يقلّب هذا الدارس كل ذلك في فكره العربي في إطار شخصيته وموقعه، حتى تستقر لديه حصيلة معرفية أصيلة يستطيع - إن شاء - أن يعبر عنها باللغة العربية في سهولة ويسر، شريطة أن يكون مسيطرا على أدوات التعبير بها.

ومعنى هذا أن التعبير اللغوي العربي يولّده التفكير العربي، فإن الإنسان يعبر باللغة التي يفكر بها. إنك إن أعملت فكرك باللغة العربية كتبت بها واستطعت أن توظفها إذا شئت، وأتى شئت. والذين يوظفون اللغات الأجنبية أو يفضلون توظيفها في أعمالهم العلمية هم واحد من اثنين؛ إما أنهم يفكرون بهذه اللغات، وإما أنهم يختارون الطريق السهل، وهو مجرد نقل مادة جاهزة باللغات الأجنبية، وتكون المسألة حينئذ أشبه باستيراد «فيلم» صُنِعَ في بلد ما وعرض على «شاشاتنا»، بصورته ومضمونه أو بمبناه

ومعناه ، دون أن يكون لنا دور في هذا العرض سوى التسلية وتزجية الفراغ ، وربما ضياع الوقت أيضا .

ومعلوم بالضرورة ، أن التفكير العربي المولّد للتعبير بالعربية يحتاج إلى مخزون عقلي من هذه اللغة وحصيلة من نظمها وأساليبها مناسبة للتخصّص أو العلم المعين . فإذا كان هذا التخصّص أو ذاك العلم جديداً بالنسبة للدارس أو غير مستقر الأصول عنده ، فلا مناص له من العود إلى لغة الأصل والتفكير بها ، حتى يستوعب ويهضم ، ثم يُخرج - بعدُ - ما يستوعب ويهضم في عبارات عربية .

ومهما يكن الأمر ، فالتعريب لغويا فقط أو لغويا وفكريا ، له أنصار ومعارضون ، ولكل فريق حججه ومسوّغات اتجاهه . ونحن كما ألمحنا سابقا من أنصار « التعريب » شريطة أن يكون التعريب تعريبا فكريا ولغويا معا . أما حججنا لوجوب تعريب الفكر فواضحة لا تحتاج إلى دليل . ويكفي أن نقرر أن تعريب الفكر فيه تخليصنا من التبعية العلمية ، ومنحنا فرصة التفاعل الإيجابي في السوق العلمية . وهو تفاعل من شأنه أن يزيد في محصولنا العلمي وينمي قدراتنا على الابتداع والابتكار ، ومن ثمّ تصبح لنا « هوية » علمية ، وشخصية فاعلة لها دورها وموقعها في كتاب الزاحفين نحو خير البشرية بالنظر والدرس والإنتاج الأصيل . ينبغي أن نضيف لبنة إلى البناء ، ولا يعقل أن نظل قاعدين أو متفرجين أو ناقلين ، فنعرض أنفسنا للتخلف أو الضياع وسط هذا العالم المائج المائج بالأفكار في شتى حقول العلم والمعرفة .

وليس يخفى على أحد أن تعريب الفكر (في حقول العلم في الأقل) قد يأخذ وقتا طويلا لكثرة عوامله وعناصره ، وتشابكها ؛ الأمر الذي يقتضي منا

النظر في هذه العوامل والعناصر، واختيار أقربها منالاً وأهمها فعالية في هذا السبيل. ذلك العامل أو العنصر في رأينا هو التعريب اللغوي، فلنبداً به، ولكن بتخطيط محكم وتطبيق واع، وإن بالتدرج.

التعريب اللغوي: مؤيدوه ومعارضوه:

المؤيدون

التعريب اللغوي هو المنطلق الحقيقي لتعريب الفكر، ونحن نراه خطوة أساسية في هذه السبيل، بالإضافة إلى أنه أصبح ضرورة قومية وعلمية، لصالح العرب والعربية ذاتها. وفيما يلي جملة من الأسباب التي ترشح الرأي المؤيد للقبول.

١ - التعريب مطلب قومي:

ليس من المقبول شكلاً وموضوعاً أن يظل العلم (أو بعض فروع) في البلاد العربية أسيراً للغات أجنبية تفكيراً وتناولاً وتحصيلاً حتى هذه اللحظة؛ ذلك أن إثارة اللغات الأجنبية على لغتنا القومية فيه تقليل لشأنها وإضعاف لمنزلتها بين الناس. وربما يؤدي ذلك في النهاية إلى خلق جو علمي ثقافي مضطرب، لا هو إلى الأجنبي ينتمي، ولا هو إلى العربية ينتسب. وإنما هو جو فاقد «الهوية» مشتت السمت مشوه القسما، ليس له حدود ضابطة ولا أصول ثابتة. وهذا هو الضياع القومي والانهيار الفكري الذي ينذر بمحو روح الانتماء التي تعد اللغة قطبها الذي يتجسد وتتمثل فيه كل القيم والمثل وأنماط السلوك الفارقة بين قوم وقوم والمميّزة لأمة من أخرى.

٢ - التعريب مطلب علمي:

توظيف العربية في العلوم ييسر للطالب والباحث العربي العملية العلمية

والتعليمية، ويساعدهما على سرعة الفهم والتحصيل والإنتاج. والقول بأن الطالب العادي تعوزه أدوات التعبير بالعربية الفصيحة الصحيحة قول يحمل بطلانه في طياته. إذا كان هذا الطالب ضعيفاً في لغته القومية فهو في اللغة الأجنبية أضعف، وإذا كان عاجزاً عن توظيف اللغة العربية فهو في التعامل مع اللغات الأجنبية أعجز. ومنطق الأشياء يقّرر أن الإنسان مهما جادت حصيلته من اللغة الأجنبية، فلن يقوى على التعامل بها أو توظيفها بالقدر الذي يمنحه لسان أمّه، الذي استقر في عقله ووجدانه ولازمه منذ نعومة أظفاره، ويروى أن «كلوت» بك ناظر مدرسة الطب المصرية في عهدها الأولى، كان حريصاً على ترجمة المواد الطبية من الفرنسية إلى العربية، وفاء بهذا المعنى نفسه. ويقول في ذلك: «إن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطيد العلم أو تعميم نفعه».

٣- التعريب مطلب لغوي:

التعريب يمنح لغتنا القومية فرصة ذهبية بتمكينها من التفاعل الحيّ والكشف عن طاقاتها، تلك الطاقات والقدرات التي لم يحاول بعض الدارسين تنشيطها واستغلالها، وتركوها معطلة - قصداً أو عن غير قصد - حتى غدت في نظرهم عاجزة عن الوفاء بحاجاتهم من وسائل التعبير وأدواته. ومن ثمّ توهموا عاجزاً طبيعياً فيها وعُقفاً خَلْقياً في مادتها، فانصرفوا عنها وألقوا بها خارج أسوار معاهدهم واستبدلوا بها لُسنًا أعجمية.

ومنحُ العربية فرصة التفاعل في البيئات العلمية يزيد من ثروتها، وينمي محصولها، كما يساعد الدارسين على التفكير بها، الأمر الذي يؤدي إلى إلفها والتعامل بها، وبذلك ينزاح عنها توهم ضعفها وإتهامها بالعجز عن ملاحقة العلوم وما يجتد فيها من تطوّر.

٤ - التعريب مطلب اجتماعي :

الإصرار على توظيف اللغات الأجنبية في العلوم قد يؤخذ دليلاً على وجود نوع من النزعة إلى إظهار التفوق والامتياز، على أساس أن هذه اللغات هي لأقوام محسوبين في عداد الأمم التي يُنظر إليها على أنها جديرة بالتقليد في مجالات الحياة بوجه عام وفي مجال العلوم في أقل تقدير.

وهذه النزعة - إن صحَّ وجودها ويبدو أن الأمر كذلك - لها وجهان من الخطأ والخطر من الوجهة الثقافية والاجتماعية على المستويين العام والخاص . أما أول هذين الوجهين فيتمثل في إحداث هزة في السلوك الاجتماعي، إذ ربما تستهوي هذه النزعة بعضاً من الناس - مثقفين وغير مثقفين - وتجزّهم إلى السير في هذا الدرب الخادع، وينحازون - قصداً أو عن غير قصد - إلى كل ما هو مستورد أو منقول من ألوان العلم والثقافة، ويحاولون التزيّن أو التجمّل بهذه الألوان تكلفاً واصطناعاً، أو ادّعاء بأنهم طبقة متميزة أو أنهم قطعوا شوطاً في الوصول إلى مدارج رفيعة من سلّم الطبقات الاجتماعية . ومن ثمّ نرى هؤلاء الناس وأمثالهم يعلنون ويلحّون في الإعلان عن أنفسهم باتخاذ أنماط من السلوك الاجتماعي، توحى بهذا الامتياز المتوهم . ويأتي على القمة من وسائل هذا الإعلان توظيف اللغات الأجنبية في حياتهم العامة والخاصة، والتشذّق بكلمات منها مشوّمة، مغلوطة نطقاً واستخداماً، كلما ألحّت عليهم نزعة الاستعلاء وتحركت في نفوسهم فكرة الامتياز . وربما يلخص هذا المسلك كله قول القائلين : إن السرّ في انحياز بعضهم إلى توظيف اللغات الأجنبية في العلوم وغيرها هو محاولة الاحتفاظ بأرستقراطية المهنة وإظهار «الفوقية» في السلّم الاجتماعي والثقافي .

وأما ثاني هذين الوجهين فهو ذو نسب قريب من الوجه الأول ومرتّب عليه نفسياً وعلمياً ذلك أن السلوك الاجتماعي - مهما كانت مصادره وأنهاطه - لا بد - إن عاجلاً أو آجلاً - أن يصبح تقليدًا وعادةً، فتستقر ملاحظه وقسماته في النفس وتنفذ إلى الفكر والعقل، وتكوّن اتجاهها نفسياً ينشد «التغريب» وتتطلع إليه كي تهتّب لنفسها بيئةً على شاكلتها، تضمن لها النموّ وتمنحها عوامل البقاء والاستمرارية. والنتيجة الحتمية لهذا كله فقدان روح الانتباه القومي، وإن بالتدريج، وتعويد النفس على التقليد والتبعية في مجال العلم والثقافة وحرمانها من الأخذ بأسباب الابتكار والاعتماد على النفس. وذلك - للأسف - ما نلمس بعض مظاهره وآثاره واضحةً في ميدان العلوم وبعض مناحي الفكر والثقافة في العالم العربي بأجمعه.

المعارضون:

هناك في الجانب الآخر أقوام يقفون موقف المعارضة لمبدأ التعريب، ويرسلون صرخاتهم بانفعال وحماس شديدين، منادين بأن الدعوة إلى التعريب دعوة إلى التخلف العلمي والجمود الفكري. ذلك أنهم متصورون أن هذا النهج سوف يقود إلى عزلنا عن العالم المتقدم ويباعد بيننا وبين ما يجري في حقوله العلمية من تطور وابتداع متلاحقين. ويحتج هؤلاء لرفضهم هذه الدعوة بمجموعة من الحجج، نشر إلى اثنتين منها لاهميتها ولمحاولة الكشف عما يغلفهما من غموض وما يلبسهما من سوء تقدير وتجاوز في النظر.

١ - قصور اللغة العربية وعجز أدائها عن التعبير:

يدعي هؤلاء أن اللغة العربية لغة جامدة غير متطورة، وقفت مادتها وقوالب التعبير فيها عند حدّ لا يمكنها من مواكبة العلوم الحديثة أو الوفاء

بوسائلها اللغوية ، وهي وسائل متعددة سريعة الخطو في الخلق والابتداع . وإيثار العربية القاصرة عن ملاحظة هذه الاستمرارية في التجديد والابتكار على اللغات الأجنبية فيه تعطيل لمسيرتنا العلمية وحرمان لنا من المشاركة الفعالة أو الأخذ بنصيب مما ينعم به الآخرون من علم ومعرفة .

والقول بقصور العربية أو عجزها عن أداء دورها في مجال التعريب قول خالٍ من النصفة وتعوزه الحجة . هذا الادعاء في رأينا إنها يصدر عن واحد من اثنين من الفائلين به ؛ قد يدّعيه إنسان تنقصه المعرفة بحقيقة اللغة وطبيعتها ، وما ينبغي أن تكون عليه علاقتها بمجتمعها الذي تعيش فيه ، أو يزوج لها مخدوع غير حصيف ، ينشد الانتصار لكل ما هو أجنبي ويرمي إلى التقليل من شأن مقوماتنا الحضارية وأدواتنا الثقافية .

ولتوضيح الأمر بالنسبة لشبهات هذين الوجهين ، نقول : إن أوجه النقص والقصور في أية لغة لا ترجع إلى هذه اللغة بذاتها ، بقدر ما تُنسب إلى أهلها وإلى الظروف العلمية والثقافية التي تلتفها وتتفاعل معها . فكلما حرص أهلها على إمدادها بالزاد ، وكلما ماجت البيئة المعينة بالنشاط العلمي والثقافي ، نهضت اللغة واستجابت لهذا النشاط ، وأخذت في استغلال طاقاتها من الوسائل اللغوية اللازمة للسواء بحاجاتهم . وكلما جمد التفكير العلمي وتخلّف النشاط الثقافي ، ظلت اللغة في موقعها جامدة ، لا تُبدي حراكا ، ولا تقدم زادا ؛ لأنها بذلك قد فقدت عوامل النمو وحرمت من عناصر النضج . إن اللغة تعطي وتأخذ ، ولا يمكن أن يستمر دروها في العطاء ما حرمت من المنح وتقديم الزاد .

إن الذي حدث - وما يزال يحدث - في حالتنا نحن العرب أن بعض علمائنا في العصر الحديث كفّوا عن الابتكار وجانبوا التفكير العلمي المبدع ،

وقنعوا في بعض الحالات بالتقليد والنقل . ومن الطبيعي أن نقل الفكرة الأجنبية أو تقليدها يستتبع حتماً وبالضرورة نقل الوسائل اللغوية المعتبرة عنها ، واستخدام مصطلحاتها الفنية . والمعروف أن العالم المبتكر أو الباحث المُنشئ لا يجد صعوبة في العثور على أدوات تعبيره اللغوي ومصطلحاته . إن هذه الأدوات حاضرة في ذهنه بصورة من الصور؛ لأن انشغال الفكر بالابتكار تصحبه عادة صور لغوية مهزوزة أو غائمة في أول الأمر، وهي بمثابة القوالب أو الأطر التي تصلح لاحتواء الفكر أو الحقائق التي يشغل بها الباحث الأصيل نفسه، وما عليه بُعد إلا أن يخلص هذه الصور اللغوية من غموضها ويعمل على تلوّزتها ، وذلك بصوغها في النهاية في أشكال لغوية واضحة ، معبرة خير تعبير عن فكره وحقائقه .

فلو أن علماءنا عمدوا إلى مثل هذا النهج في التفكير العلمي لضمنا ثروة لغوية عربية تواكب ما ينتجون من علم وتفي بحاجات مبتكراتهم ، لارتباط الجانين (الفكري واللغوي) ارتباطاً وثيقاً وجوذاً وعدمًا . أما التبعية في التفكير العلمي فلا مناص لها من التبعية اللغوية .

وليس من المبالغة في شيء أن نقرر مع ما قرره باحثون آخرون في هذا الشأن من أن «الدعوة إلى استعمال اللغات غير العربية في دراسة العلوم لم تنبعث من عدم إمكان تيسير استعمال العربية في العلوم الجديدة، ولا هي رد فعل على موقف متين في الدفاع عن الفصحى بمفهومهم الضيق لها، إنما هي منبعثة من دافع نفسي أعمق، وهو مدى ضعف إدراكهم لكيانهم العربي ومدى رغبتهم في الحفاظ عليه وتنميته . إن موقفهم لا ينبعث من اعتقادهم بعجز اللغة العربية، بقدر ما هو من إعجاب يصل حد الاستسلام للحضارة الغربية^(١)» .

٢ - حجب اللغات الأجنبية عزل لمسيرة التطور العلمي :

يتوهم المعارضون أن الدعوة إلى التعريب تعنى - بطريق مباشر أو غير مباشر - إهمال اللغات الأجنبية وإبعادها وإخراجها من الحسابان في ميادين العلم والثقافة، في حين أن هذه اللغات هي الأداء الأساسية والفعالة التي تمكّنتنا من ملاحقة ما يجري في العالم من نشاط علمي يزيد من معارفنا وينمّي قدراتنا وطاقاتنا، ويدفعنا إلى التعمق والتجويد. وزحزحة هذه اللغات عن الساحة العلمية تستتبع حتما حصرنا في دائرة ضيقة تحدّها أسوار العزلة التي تعنى الجمود.

وهذا - في الحق - وهمٌ مرفوض؛ إذ لم يدر بخلد أيّ من الداعين إلى التعريب أن ينزلق إلى هذا الوهم أو مجرد التفكير فيه أو الانحياز إلى جانبه. إن الأمر على العكس من ذلك. إن دعاة التعريب ينادون في الوقت نفسه بضرورة إجادة اللغات الأجنبية بالقدر الذي يسعف المهتمين بالشئون العلمية ويمكنهم من فتح نوافذ جديدة تصلهم بالعالم من حولهم وتمنحهم فرصة المشاركة والتفاعل مع الأجواء العلمية هنا وهناك.

وقد نسى الرافضون لدعوة التعريب أن هناك فرقاً كبيراً بين إجادة لغة للإفادة منها وفرضها فرضاً على معاهد العلم، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى سيطرة هذه اللغة على مقوماتنا العلمية والثقافية والفكرية، وإلى طرح اللغة القومية جانبا، فيجفّ ماؤها وينضب معينها، فتكف عن المنح والعطاء، ومن ثمّ يرفع المعارضون أصواتهم، معلّنين عجز العربية وقصورها عن أداء دورها في هذا المجال.

وقد يزيد هؤلاء المعارضون من حججهم، بإبراز المصطلحات العلمية أمام الداعين إلى التعريب، إذ إن غالبية هذه المصطلحات لها صفة العالمية،

ولا تستطيع لغة واحدة أن تتعامل معها وتنقلها إليها بأدواتها التعبيرية الخاصة، فتتقصر العرى بين الدارسين وتضطرب الأمور وتختلط مفاتيح العلم المتمثلة في هذه المصطلحات .

وحقيقة الأمر أن المصطلحات العلمية مشكلة قائمة بذاتها، سواء أخذنا بالتعريب أم لم نأخذ به . ومن ثم تستحق وقفة خاصة للنظر في أبعادها وإبداء الرأي في معالجتها، وأملنا أن نعود إلى ذلك في فرصة أخرى بمشيئة الله .

ومع ذلك يمكننا في هذا السياق - سياق تعريب العلم فكرياً ولغوياً - أن نشير إلى جملة من الخطوط العريضة التي يتمشى تطبيقها مع مبدأ التعريب ويفي بحاجة الداعين إلى هذا المبدأ . ويمكن أن نوجز تصورنا لهذا المنهج في الأمور التالية :

أولاً: في حالة الابتكار أو التعريب الفكري :

إذا كان الباحث المعين مبتكراً في تخصصه ومجال مسئوليته العلمية، فليست هناك صعوبة ذات بال تقف في طريق ابتكار مصطلحاته ووضعها بالطريق المعهود في وضع المصطلحات . إنه صاحب المادة العلمية في هذه الحالة ، وبمقدوره حيثئذ أن يصنع مفاتيحها ويشكلها وفقاً لما صُنِعت له من علم وفن . وهذا هو الحال المعهود عند كل الرواد من الدارسين الذين يأتون بالجديد، معتمدين على أفكارهم ومحبوهم المعرفي . وقد تشجع ابتكاراتهم العلمية حاملة معها مفاتيحها، أي مصطلحاتها، وتصبح تراثاً عاماً يمتاح منه الماثقون هنا وهناك بدون تفريق - حدث هذا أو مثله أيام الازدهار الفكري والعلمي في تاريخ العرب والمسلمين .

وهذا بالطبع يقتضي أن يكون الباحث ذا علم واسع ودراية عميقة بالشروة

اللفظية للغة العربية وطرائق تصرفاتها في الكلمات من اشتقاق ونحت وتوليد للمعاني بالتوسيع في دلالات كلمات قديمة أو بالتوظيف المجازي لها إلخ. فالمفكر المبدع المدرك لأسرار لغته يستطيع أن يلبي حاجاته من المصطلحات متى كانت الفكرة العلمية واضحة لديه ومتى كان هو مدركاً لأبعادها وأعماقها، وهذا شأن المبدعين في حقيقة الأمر.

ثانياً: في حالة النقل أو التعريب اللغوي:

أما إذا كان المصطلح منقولاً من لغة أجنبية، لخصوصية في وصفه وتوظيفه أو لشهرته وعلميته، أو لأي سبب علمي آخر، فإن هذا النقل يشكل صعوبة حقيقية في التعامل معه وفي «أقلّمته» وذلك لشدة ارتباطه بهادته التي صنع هذا المصطلح لبلورتها والكشف عن مغاليقها. وليس من النادر أن تكون هذه المادة نفسها غير واضحة تمام الوضوح بالنسبة للناقلين، إمّا لجذّتها وإمّا لضعف في استيعابها وهضمها، الأمر الذي من شأنه أن يزيد المسألة تعقيداً واضطراباً.

ومع هذا فقد حاول الدارسون اقتراح أساليب معينة يمكن اتباعها في هذا النقل، متفقين تارة ومختلفين أخرى في ترتيبها وأولوياتها. وهذا هو اختيارنا لترتيب هذه الأساليب في سياق قضيتنا الحالية، وهي محاولة تعريب العلوم:

١- الترجمة

٢- التعريب

٣- نقل المصطلح الأجنبي بحاله.

الترجمة:

نحن في سياق تعريب العلوم نفضل البدء بمحاولة ترجمة المصطلحات الأجنبية التي يُراد نقلها إلى ساحتنا العلمية، على الرغم مما قد تنتظمه الترجمة

من مزالق وتضحيات بحقائق الأمور في قليل أو كثير. نفضل ذلك؛ لأن في الترجمة مزايا علمية وقومية، يتمثل أهمها في الظفر بحقائق علمية، نكسوها لباساً عربياً يرشحها للتمثيل والهضم والاستيعاب في سهولة ويسر، بالإضافة إلى ما يعنيه ذلك من إثراء اللغة العربية وتطوير مادتها.

واختيار البدء بالترجمة مشروط بشرطين متلازمين؛ أولهما الفهم التام الدقيق لمفهوم المصطلح الأجنبي. ثانيهما أن يكون المصطلح العربي المقابل مناسباً نطقاً وصياغة، خالياً من الشذوذ والإغراب في أصواته وبنائه، أي أن تكون صورته النطقية مقبولة مستساغة وشكله الصرفي مانوساً، بحيث يسهل استخدامه بطريقة تعمل على استقراره وانتشاره في الوسط العلمي المعين. فإذا كان المصطلح العربي المناسب موجوداً بالفعل فيها ونعمت، وإلا لجأنا إلى ابتكاره بطريقة التوليد.

والتوليد له جانبان: توليد في الصيغة وتوليد في الدلالة.

والتوليد في الصيغة قد يكون بالوضع أو النحت. ونعني بالوضع ابتكار كلمة جديدة من أصل عربي، بطريقة الاشتقاق أو القياس وما إلى ذلك من ضروب التوليد اللفظي. فإن لم يسعفنا الحال لجأنا إلى النحت، وهو منهج مأخوذ به في اللغة العربية منذ أقدم عصورها.

أما التوليد في الدلالة، فنعني به توظيف كلمات قديمة في معنى جديد، بالتوسيع في دلالاتها على ضرب من المجاز، أو تعدد الدلالات. فالتوليد إذن يعني اختراع كلمة جديدة، أو توظيف كلمة قديمة في معنى جديد.

التعريب:

وإذا لم يوفق الدارس إلى ترجمة مصطلحاته الأجنبية إلى ما يقابلها في العربية بالوسائل المشار إليها سابقاً فلا ضير عليه، بل ربما يتحتم عليه، أن

يلجأ إلى التعريب . والتعريب أسلوب مشروع ، وله أحكامه وضوابطه التي تعنى في الأساس إخضاع المصطلح الأجنبي لشيء من التعديل أو التغيير في بنيته ، ليطابق النظم الصوتية والصرفية في العربية . فالتعريب في مجال المصطلحات تابع للترجمة وتآل لها ، متى كانت الترجمة الدقيقة عصية المثال ، أو كانت تنتظم تضحية بدقائق المعاني ومفاهيم المصطلح الأجنبي .

نقل المصطلح الأجنبي لحاله :

التعريب بضوابطه وأحكامه المقررة قد يصعب الأخذ به أحيانا ، ومن ثم لا مانع لدينا من نقل المصطلح الأجنبي بصورته الأصلية كاملة غير منقوصة ، حتى يستقر مفهومه ويتضح بصورة لا لبس فيها ولا غموض . ولا ضير بعد أن يعود إليه الدارس لترجمته ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

وليس في التعريب أو النقل الحرفي للمصطلح ضرر أو منقصة في حالة استحالة الترجمة . إنما الضرر والمنقصة في التضحية بحقائق العلوم والتورط في استخدام مصطلحات غامضة أو قاصرة عن التعبير العلمي الدقيق . ومهما يكن من أمر ، فجواز التعريب والنقل الحرفي ينبغي أن يكون مشروطا وموقوتا ، وعلى الدارسين من أهل الاختصاص واللغويين أن يتحملوا مسئولياتهم ويبدلوا ما وسعهم الجهد في سبيل سدّ النقص والتخلص منه . وليس يكفي في هذا المجال ترجمة المصطلحات أو تعريبها أو نقلها ، وإنما الأوفق أن تنصرف إلى ذوات أنفسنا ونعمل على تنشيط التفكير العلمي المبدع بصورة عربية في المادة والمصطلحات معا .

وخلاصة الرأي في هذا الموضوع كله - موضوع تعريب العلوم ونقل المصطلحات الأجنبية - أن التعريب ينبغي أن يكون تعريبا فكريا ولغويا معا ، وهو بهذا المعنى مطلب قومي وعلمي واجتماعي . أما من الناحية

القومية فالتعريب من شأنه أن يردنا إلى ذوات أنفسنا فننظر في طاقاتنا وكفاياتنا، ونعمل على استغلالها أو توظيفها في بلورة هويتها وتأكيدا، بحيث يصبح لها وزن ونوعٌ خصوصية تصونها من الضياع أو الذوبان أو التبعية وسط هذا الحشد الهائل من القوميات والأيدولوجيات المتصارعة على التفوق وانتزاع السيطرة على العالم . ولا يكون ذلك - بالطبع - إلا باكتمال العدد والأدوات التي تؤهلنا للوقوف على أرض صلبة ، تحمي شخصيتنا وتقيها من هزة التآرجح والتذبذب التي قد تؤدي في النهاية إلى محو شخصيتنا أو تفرقتها بين القبائل . وأولى هذه العدد والأدوات ومصدرها الحقيقي يتمثل في الفكر الأصيل ومشاركته الفعالة بسلح العلم الذي يضمن لنا موقعا ذا خصوصية عربية .

والتعريب من الوجهة العلمية هو بمثابة المرأة الكاشفة عن شخصيتنا، وهو الدليل على أهليتنا لاكتساب موقع محمي حقيقتنا ويمكنها من الانطلاق نحو عالم أوسع وأرحب من الفعالية والمشاركة الإيجابية . إن التعريب ييسر سبل التحصيل والاستيعاب والهضم للدارسين ، وينشط محصلهم اللغوي ، الذي - بدوره - يعمل على تنشيط الفكر وتعميقه ، بحيث يخرج لنا زادا عربيا أصيلا نشارك به في المسيرة العلمية في العالم ، . وليس من اللائق علميا أن ندور في فلك الآخرين بالاعتماد على لغاتهم والتفكير بها ، وهو في رأينا تفكير لا جذور له ولا عمق فيه ، لأنه موظف في الأساس في التقليد أو مجرد النقل عنهم .

والانصراف عن تجربة التعريب الفكري واللغوي ، بالاعتماد على المحصول المعرفي المصدر إلينا أو المستورد من الخارج ، لا بد أن يجزنا - عاجلاً أو آجلاً - إلى تبعية ثقافية واجتماعية . وهي تبعية أشد خطورة وأعمق تأثيراً ، لا تساع دأثرتها وتعدّد مناحيها ، إذ سوف تجرّ إلى ساحتها جميع الطبقات والفئات ، وتهدّد ببيتهم الاجتماعية وتشوّه هويتهم الثقافية .

تحقيق مطلب التعريب قومياً:

تحقيق التعريب وجعله حقيقة واقعة لا يجدي فيه رفع الصوت أو إطلاق الشعارات في جانبه، كما لا تُغني فيه جهود أفراد أو جماعات منهم في محاولة شق الطريق إلى هذا الهدف المنشود. إن إطلاق الشعارات ورفع الصوت بالنداءات الداعية إلى ضرورته وحتميته لا تلبث أن تفتى في الهواء دون إحداث أي أثر لها، سوى رجعها الذي يحشو الأذان ويشغل الأدمغة بالضوضاء. وكذلك تبقى جهود الأفراد أعمالاً متناثرة هنا وهناك، محرومة من المنهجية والتكامل، الأمر الذي يفقدها قوة الفاعلية ويعرضها للتضارب، وربما التناقض أحياناً.

تحقيق التعريب قومياً، وبصورة علمية جادة، يحتاج إلى نظرة شاملة مبنية على تخطيط مرسوم ذي حدود وضوابط تكفل له التطبيق السليم، حسب الأهداف والغايات المنوطة به.

يقتضي الأمر في نظرنا تأسيس هيئة علمية تُلقَى إليها مسئولية النظر والدرس والتخطيط ووضع مناهج التنفيذ ومكانه وزمانه، وكيفية تشكيل هذه الهيئة بحيث تنتظم أعضاء من ذوي الاختصاص والخبرة والمعرفة الواسعة بالعلوم واللغة، وبحيث تكون مبرأة من الألوان السياسية أو الانحياز إلى اتجاهات أيديولوجية غير قومية أو إلى مَرَامٍ شخصية أو نفعية. هدفها الأول والأخير خدمة العلوم في الإطار القومي العام.

ولقد أحسن «السودان» الشقيق صنْعاً حين أقدم في سبتمبر ١٩٩٠م، على تأسيس ما سَمَّوه «الهيئة العليا للتعريب»، متضمناً هذا التأسيس القرارات واللوائح المنظمة لأعمالها ومسئولياتها تجاه أهدافها وغاياتها في إطار المصلحة القومية. والملاحظ أن هذه الهيئة السودانية قد قصرت مسئولياتها

على التخطيط ورسم السياسات العامة للتعريب ومتابعة إنجاز ما رُسمَ
وخطط في الجهات المعنية وهي الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث.
فهي متابعة ضابطة داعمة، وليست متابعة تأمر أو تفرض أو تتدخل إلا في
حدود المرسوم بلوائح الهيئة. إن وظيفتها التنسيق وتقديم الدعم الأدبي
والمادي، ضمانا لإنجاح العمل وحمايته من الفوضى والاضطراب والتدخل
والتكرار، وضمانا لاستمرارية العمل وتأكيد مسيرته بدفع عجلته بمنحه
الأدوات والوسائل اللازمة من مال ومراجع ومكتبات، ومستلزمات النشر
إلخ.

ومن شواهد هذا التنسيق والانضباط ما رآته الهيئة من قيام وحدات
للتعريب بكل جامعة وكل كلية وكل قسم، مع الربط بينها جميعا، حتى
تساق المعلومات من القسم مروراً بالكلية والجامعة حتى مركز التنسيق
الممثل في الهيئة ذاتها، وبالعكس.

والملاحظ كذلك أن هذه الهيئة قد توسعت في مفهوم التعريب، بحيث
يشمل الترجمة والنقل من الآثار الأجنبية. وهذا النهج مقبول في هذه المرحلة
البادئة التي يُرجى لها أن تنتهي إلى تأصيل الفكر العربي، بحيث يسهم في
النشاط العلمي العالمي بالابتداع والمشاركة الفعالة التي قد تصقلها وتعمقها
الترجمات الضرورية حسب الحالة والظرف المعين.

وفي رأينا أن موقعنا العلمي والأدبي يفرض علينا أن نكف عن الجدل
وننتقل إلى خطوة عملية يجسدها إنشاء هيئة أو تعيين جهة معينة تتولى هذه
المسئولية وتبدأ في الإعداد والتخطيط لها، على أن يكون التطبيق الفعلي
بالترجيح زمانا ومكانا وتخصصا، حتى تكتمل العدد والأدوات ونقف على
أرض صلبة، ويصبح الأمل واقعا، والحلم حقيقة.

وهذه العدد والأدوات كثيرة متنوعة يدركها أهل الاختصاص، ولكن لا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أمرين هما بمثابة حجر الأساس في هذا البناء القومي المأمول إقامته، حتى نلجأ إليه ونلوذ به، حماية لشخصيتنا ووقاية لها من التطفل والازدحام على موائد الآخرين.

أول هذين الأمرين يتمثل في محاولة تنشيط الفكر العربي، بتخليصه من التبعية بالتدرج، وذلك بإمداده بالوسائل والعناصر التي تحفزها إلى التدريب والتجريب في ميدان الابتداع، والاعتماد على الذات. ولا يعنى ذلك بحال أننا ننادي بالانكفاء على أنفسنا والانكفاء بها لدينا، إذ المعارف إنما تنمو وتتأصل بتبادل الخبرات والثقافات والاحتكاك المباشر وغير المباشر المبني على منهج الأخذ والعطاء معاً.

والأمر الثاني الذي ينبغي أن نأخذه منذ البدء في عملية التعريب - تفكيراً وإنجازاً - هو ضرورة التوجه إلى لغتنا القومية، فنوفها حقها ونمكّنها من أداء دورها في هذا الميدان. ويكون ذلك - في رأينا - بالعمل على محورين: محور التجريب بتوظيفها في العلوم بالتأليف المنشئ أو النقل بالترجمة، ومحور النظر في أدواتها التعبيرية وثروتها اللفظية والأسلوبية، بهدف الوصول إلى مادة طيّعة قادرة على تشكيل الأفكار العلمية وصبّها في قوالب دقيقة تتسم بالسهولة النسبية وتمثل روح العصر وحاجاته المتطورة المتجددة.

وهذا بالقطع يجزنا إلى قضية جوهرية، وهي قضية اللغة العربية وتوظيفها في الحياة العامة والخاصة. إن إخضاعها للتجريب في ميدان العلوم يجزنا فوراً إلى النظر في أدواتها ومشكلاتها بشكل علمي دقيق. وفي صلاح اللغة العربية صلاحاً للفكر العربي الذي يمثل قطب الرّحى في عملية التعريب.

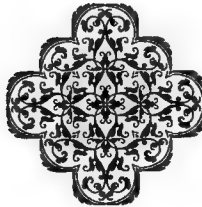
وجدير بالذكر أن «الهيئة العليا للتعريب» بالسودان، قد ضمنت نظام

العمل عقد دورات متخصصة في علم اللغة العربية وفقها للعاملين في
مجال التعريب ، حتى يكون العمل عربيا متكاملأ فكرا ولغة . وهذا ما نحلم
به ونرجو تحقيقه في الوطن العربي بأجمعه .

• • •

الهوامش

(١) صالح أحمد العلي «أسلوب الكتابة والهوية الثقافية القومية» من مجموعة بحوث ومقالات صادرة
عن «مركز دراسات الوحدة العربية» بعنوان «اللغة العربية والوعي القومي» ص ١٧٨ - الطبعة
الأولى سنة ١٩٨٤ م.



التقرير الأول عن: ميناء أكرأ

«مجسات موقع القصير الواقع جنوب الوجه»

إعداد: د. علي بن خالد عيان

في تاريخ ١٤١٢/١٠/٩ هـ، حصلت على تصريح من إدارة الآثار والمتاحف لعمل مجسات في مبنى صغير يقع على بعد ٤٥ كيلو متراً جنوب مدينة الوجه، على مقربة من ساحل البحر الأحمر عند مصب وادي الحمض. ويعرف هذا المبنى باسم القصير عند سكان المنطقة، لاعتقادهم بأنه قصر صغير. وقد كنت أظن أنه المبنى الأثري الوحيد في المنطقة التي يقع فيها، وبعد العمل الميداني اتضح أنه جزء من موقع كبير متصل بساحل البحر بطريق ترابي مردوم، وأن له مرسىً يحمل اسم كركمة، وأن الآثار الظاهرة على سطح هذا الموقع ترجع إلى العصر النبطي وأن المبنى الموجود بهذا الموقع ما هو إلا معبد من ذلك العصر، مما جعلني أستنتج أن هذا الموقع هو موقع ميناء أكرأ - كومه الذي ذكر في المصادر الكلاسيكية في معرض الحديث عن حملة القائد الروماني يوليوس غالوس الفاشلة على الجزيرة العربية، والتي تمت في عام ٢٤/٢٥ قبل الميلاد.



وقد استمر العمل في هذا الموقع مدة سبعة أيام من ١٠/٢٢ إلى ١٠/٢٨/١٤١٢ هـ، تم خلالها مسح الموقع والمنطقة الساحلية المحيطة به، والتقاط بعض الكسر الفخارية من على سطح الموقع، وتنفيذ بعض المجسات. وقد تركزت أعمال الحفر على المبنى الصغير فقط، وشملت رفع الطبقة الرملية التي تنتشر على سطحه، وطبقة هدم البناء المتساقطة في داخل المبنى وعلى أضلاعه من الخارج، وعمل مجس صغير (١٠٠ × ١٥٠ سم) في داخل المبنى لفحص الأساسات.

● وصف معبد القصير ●

يقع المعبد على حافة الضفة الجنوبية لمجرى وادي الحمض، وإلى الجنوب منه تقع باقي التلال الأثرية التي تكون باقي الموقع. ويأخذ هذا المعبد شكلاً مستطيلاً أبعاده ٩٠، ١٢ × ٨٥، ٩ م، وأضلاعه تمتد على غير الاتجاهات الأصلية، وهو مبني من حجر الرخام المشذب، وترتفع أرضيته من الداخل بمقدار ١٢٠ سم عن مستوى الأرض الخارجية بالموقع، ويصعد إليه على أربع درجات نفذت في مسطبة مبنية، تتقدم ضلعه الجنوبي الشرقي المواجه لمطلع الشمس. وتفضي هذه المسطبة إلى مدخل المعبد المحصور بين عمودين من الرخام، قاعدة أحدهما ما زالت موجودة في مكانها. وتتكون أرضية المعبد من الداخل من مستويين يرتفع أعلاهما بمقدار ٣٠ سم عن المستوى المنخفض، ويأخذ هذا الأخير شكلاً مستطيلاً يمثل قلب المعبد من الداخل. وأرضية المعبد مبلطة ببلاطات الرخام، وقد عثرنا على مخربشات ورسوم منقوشة على إحدى هذا البلاطات.

ويلاحظ أن جدار الضلع الشمالي الشرقي للمعبد الذي يقع على حافة الوادي مهدم تماماً، كما يلاحظ وجود الكثير من الأحجار الرخامية المشذبة في شكل اسطوانات أعمدة، وقواعد، وتيجان، وأفاريز من النوع الذي

يحمل فوق الأعمدة . وتكثر هذه الأحجار بخاصة في ركام هدم البناء الواقع على الضلعين الجنوبي الشرقي والجنوبي الغربي للمعبد . وأشكال هذه الأحجار الرخامية ، المقطوعة بعناية شديدة ، تشبه ما هو منفذ في واجهات المقابر النبطية بالحجر . وقد تم تجميع هذه الأحجار ووضعها بجانب مبنى المعبد . وتخطيط هذا المعبد يشبه تخطيط المعابد النبطية التي كشفت في منطقة النقب وجنوب الأردن .

● الطبقات الأثرية الموجودة بالمعبد ●

تتكون الطبقات الأثرية في معبد القصير من أربع طبقات :

الأولى : طبيعية التكوين ، وهي عبارة عن تربة رملية جلبتها الرياح ، واستقرت على سطح المبنى في أماكن متفرقة . وتختلف سماكة هذه الطبقة من مكان إلى آخر ، وتزيد في بعض الأماكن عن ٣٠ سم .

الطبقة الثانية : طبقة هدم بناء تتكون من تربة طينية مختلطة بملاط البناء ، وبأحجار رخامية مشذبة ، وأخرى بازلتية ورسوبية غير مشذبة . وفي هذه الطبقة تم العثور على معظم المعثورات الأثرية التي وجدت بها هذا المبنى . وتستقر هذه الطبقة على أرضية المعبد المبلطة ببلاطات الرخام .

الطبقة الثالثة : وهي تلي الأرضية المبلطة وتتكون من رديم تسوية وضع في بطن المعبد لرفع منسوب أرضيته من الداخل إلى مستوى يقارب مستوى المسطبة التي تتقدم مدخل المعبد ، وتبلغ سماكة هذا الرديم ١٢٠ سم ، ويتكون من أحجار منظمة وأخرى غير منظمة ، ومن تربة طينية ورملية وكسر جص ، ويقايا المواد المستخدمة في بناء الجدران . وقد وضع هذا الرديم فوق الأرض العذراء بالموقع ويمكن تمييز أربعة أنواع من التكوين الطبقي في مواد الدفن التي يتكون منها هذا الرديم .

الطبقة الرابعة : طبقة رديم الأساس وهي مكونة من الحصى والطين .

● المعثورات ●

١ - المعثورات الحجرية :

- * رchy من الحجر الرسوبي مكونة من قطعتين عثرت عليها بداخل المعبد في الطبقة الثانية .
- * كسرة صغيرة من قاعدة عامود رخامي ، عثرت عليها في الطبقة نفسها .
- * جزء من تاج عمود من الرخام ، عثرت عليها في الطبقة نفسها .
- * كسرتين من إنائين مصنوعين من الحجرين الصابوني ، عثرت عليهما في طبقة هدم البناء فوق المسطبة (شفة مع جزء من البدن) .
- * حجر رملي مشكل في هيئة مسحن صغير، عثرت عليه بداخل المعبد في طبقة هدم البناء .
- * تاج عمود منحوت في حجرة من الرخام ، يشبه التيجان النبطية .

٢ - الكسر الفخارية :

تم التقاط ما مجموعه ٢١٢ كسرة فخارية من الموقع الأثري المحيط بمبنى المعبد وجميعها من الفخار النبطي والفخار الروماني غير المزجج ، باستثناء كسرة واحدة صغيرة عليها طلاء قلوي أزرق ميال للخضرة .

كما تم جمع ٦٨ كسرة فخار مختلفة الأنواع من طبقة الهدم التي بداخل المعبد ومن ركام الهدم المتساقط على أضلاعه الخارجية ، وهي تماثل أنواع الفخار الملتقطة من الموقع المحيط بالمعبد ، ومن بينها كسرة من جرة كبيرة عليها طلاء داخلي بالقرار . كما تم العثور على كسرة فخار (جزء صغير من بدن إناء) في المجلس الذي نفذناه بجانب الضلع الشمالي الشرقي للمعبد ،

وهذه الكسرة توجد في آخر طبقة بالمجس على عمق ١٤٥ سم من مستوى سطح المعبد ، وهي طبقة رديم أساسات تعلو التربة العذراء مباشرة .

٣ - المعثورات البرونزية :

* قطعة برونزية قد تكون جناحًا صغيرًا لطائر، عثرنا عليها في الركام الخارجي للضلع الجنوبي الغربي للمعبد .

* قطعة كبيرة من البرونز تمثل طيات ثوب ، أو جزء من جناح كبير لطائر وقد عثرنا عليها على الأرضية الرخامية للمسبطة التي تتقدم المدخل .

* قرن وعل غير مكتمل (عثر عليه في المكان نفسه) .

* خمس كسر برونزية غير متميزة ، قد تكون كسرًا لآواني أو أجزاء من تمثال كبير (في المكان نفسه) .

* قطعة برونزية تأخذ شكل جزء من مقبض (عثر عليها في طبقة الرديم التي تعلو أرضية المعبد) .

* قطعة برونزية على شكل رجل حصان (في المكان نفسه) .

* مساران من البرونز .

٤ - المخربشات الكتابية :

تم العثور في درجات المعبد على مخربشات كتابية بخط المسند الشمالي ، عبارة عن أسماء أشخاص ، وإلى جوارها رسوم منقوشة تصور وعولاً وأشكالاً رمزية . وعلى إحدى البلاطات الرخامية المثبتة في الأرضية الداخلية للمعبد نقشت مجموعة من الرسوم .

٥ - معثورات أخرى :

* مجموعة كسر من قشر بيض النعام ، عثر عليها في طبقة الهدم التي بداخل المعبد في نواح مختلفة .

* مجموعة من الودع والقواقع بأحجام مختلفة، عثرت على أكثرها في الركام الخارجي الذي يحيط بأضلاع المعبد.

* ثلاث قطع صغيرة من القار، عثرت عليها بداخل المعبد في طبقة الهدم في زاوية المعبد الشمالية الغربية.

* قطعة معدنية مستديرة تأخذ شكل العملة وبها ثقب وليست عليها آثار حروف أو صور.

* كسرة زجاج صغيرة غير متميزة من بدن إناء أخضر اللون.

● تاريخ الموقع وعلاقته بميناء أكرأ ●

تثبت جميع الأدلة الأثرية، من كسر فخارية وقطع برونزية ومخربشات كتابية، أن تاريخ هذا المعبد والموقع المتصل به يرجع إلى العصر النبطي، ويؤكد ذلك طراز عمارة المعبد الذي يشبه طراز واجهات المقابر النبطية بالحجر، وتخطيط المعبد الذي يشبه تخطيط المعابد النبطية في جنوب الأردن. أما علاقة هذا الموقع بميناء أكرأ فتأتي من كونه يقع على ساحل البحر الأحمر، ومن وجود مرسى متصلاً به، فضلاً عن أن أكرأ هو الاسم القديم لهذا المكان، وفيما يلي بعض الأدلة التي تثبت أن هذا الموقع هو ميناء أكرأ المذكور في المصادر الكلاسيكية، التي تحدثت عن شمال غرب الجزيرة العربية في العصر النبطي:

- إن الموقع هو أقرب ميناء على البحر الأحمر لمنطقة الحجر والعلال إذ إنه يبعد عنها مسافة ١٧٠ كم ويرتبط بها بطريق بري يسمى طريق الخرار.

- وجود آثار الميناء بالموقع وكون هذه الآثار من العصر النبطي، وهو العصر الذي تحدثت فيه المصادر عن هذا الميناء.

- وجود طراز عمارة الحجر (مدائن صالح) بالموقع الذي يلاحظ على واجهات المقابر بالحجر مثل استخدام الأعمدة والأفاريز والتيجان النبطية .
- وجود كتابات ومخربشات في الموقع بالخط الذي كان مستخدماً في منطقة العلا والحجر في تلك الفترة .

- إن الميناء ما زال حتى الآن يحمل اسم اكرا وقد عرف من بعض المصادر العربية باسم كرا وهو قريب جداً لاسم اقرا الذي ورد في المصادر الكلاسيكية .

- إن مرسى الميناء يسمى اليوم كركمة وهذا الاسم أصله نبطي وهو مكون من مقطعين كرا - كومة ، وكرا هو اسم المكان وكومة في اللغة النبطية بمعنى الميناء أو القرية ، واسم كركمة الذي لا يزال يطلق على مرسى الميناء هو تسهيل لنطق كرا كومة التي تعني ميناء كرا أو قرية كرا ، وكما ذكرت أعلاه فإن هذه المنطقة كانت تسمى اكرا ، وكرا في المصادر العربية .

والجدير بالذكر أن حرف الألف الواقع في نهاية اسم كرا يأتي في اللغة النبطية بمعنى آل التعريف التي تدخل على الأسماء في اللغة العربية ، وعليه فيكون اسم كرا معادلاً لاسم الكر في اللغة العربية . والكر في الوقت الحاضر اسم منطقة تقع إلى الشرق من اكرا غير بعيدة عنها ، ولذلك فإنني اعتقد بأن اكرا ، وكرا ، والكر كلها أسماء لمنطقة واحدة ، وأن كل هذه الناحية كانت تسمى قديماً كرا وأن ميناءها الواقع على البحر كان يسمى كرا - كومة وهو لا يزال حتى الآن يسمى كركمة .

● اكرا في المصادر العربية ●

ورد ذكر موقع اكرا في عدد من المصادر العربية باعتبار أن اكرا هي المنطقة التي يفيض فيها وادي اضم (الحمض) ويصب في البحر . ووادي اضم

الذي يسمى اليوم باسم الحمض من أكبر أودية الحجاز، وهو يسير من المدينة، وتصب فيه عدد من الأودية الشهيرة قبل أن يصب في البحر، مثل وادي الجزل ووادي خيبر. وقد كتب اسم هذا المكان في المصادر العربية بعدة أشكال، فقد ورد اكرا وأكرى وأكره، وفي أقدم الكتابات العربية ورد اسم كرا (كرى)، وقد نقل السهودي عن المطري أن سيل وادي اضم يصل إلى كرى من طريق مصر ويصب في البحر (وفاء الوفاء جـ ٣، ص ١٠٨١) ونقل عن الرنخشري صاحب كتاب الجبال والأمكنة أن أكرا خبت بقرب ساحل البحر. كما أن اكرا ذكرت في كتاب الرحالة الحجاج الذين وصفوا طريق الحج المصري كابن فضل الله العمري، وكالجزيري في كتاب الدرر، وزين العابدين البكري، والخيارى، والتابلسي. وهي تكتب عندهم أكره وأكرى، وفي العصر العثماني أنشئت بركة في منزل الحجاج باكرا. واكرا التي تذكر في كتب الرحالة الحجاج تقع إلى الشرق من موقع ميناء اكرا الذي تم اكتشافه بنحو ٨ إلى ١٠ كم، ولم يشر أحد من الرحالة الحجاج أو الكتاب المسلمين إلى آثار ميناء اكرا، وربما لكونها بعيدة عن مسار طريق الحج. ويمكن أن نستنتج من مجموع ماورد في كتب المؤرخين والرحالة المسلمين أن الناحية بأكملها كانت تحمل في عصرهم اسم كرا أو اكرا الذي هو أيضاً اسم المنطقة منذ القرون السابقة للميلاد، وعليه فإن الكتاب اليونانيين أطلقوا اسم اقرا على هذا الميناء بسبب نطقهم لحرف الكاف في هذا الاسم بصورة قريبة من نطق الجيم غير المعطشة.

• • •

الأطفال ومحتوى الإعلانات في التلفزيون السعودي

د. سامي محمد ربيع الشريف

● مقدمة ●



جاءت نشأة التلفزيون متأخرة عن نشأة غيره من وسائل الإعلام الأخرى، إلا أنه في غضون سنوات قليلة أصبح يترى على عرش تلك الوسائل، وأصبح منافساً خطيراً لها من حيث الجماهيرية والانتشار وربما من حيث القدرة على التأثير.

ولم تقف منافسة التلفزيون لغيره من الوسائل عند حد الوظيفة الإخبارية أو الترفيهية فحسب، بل امتدت تلك المنافسة لتشمل مختلف الوظائف الاتصالية الأخرى ومن بينها «الوظيفة الإعلانانية». ولقد ارتبطت هذه الوظيفة بالتلفزيون منذ البدايات الأولى له، فرغم أن المحاولات الأولى للبحث التلفزيوني بدأت في وقت مبكر من الأربعينيات من هذا القرن إلا أن عام ١٩٤١ م كان البداية الحقيقية للتلفزيون على المستوى الجماهيري، ففي هذا العام وافقت اللجنة الفيدرالية الأمريكية للاتصالات على استخدام التلفزيون في المنازل حيث كان هناك نحو خمسة آلاف جهاز استقبال تلفزيوني معظمها في نيويورك^(١).

وفي العام نفسه قدم أول إعلان تلفزيوني في الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا ، وسرعان ما انتقل هذا الفن التلفزيوني الجديد إلى أوروبا الغربية ، ومنها إلى بقية أنحاء العالم وانتشر بشكل واسع حتى أصبح الإعلان مادة أساسية ضمن المواد التلفزيونية في معظم المجتمعات ، بل أنشئت محطات تلفزيونية تعتمد على الإعلان كمصدر أساسي في تمويلها ولا سيما في المجتمعات ذات الأنظمة الاقتصادية التي تقوم على المشروعات المتنافسة^(٢) .

وسرعان ما تطورت الخدمة الإعلانية في التلفزيون بشكل سريع ومطرد في مختلف دول العالم ، وبرز التلفزيون كوسيلة الإعلان الأول دون منازع في العديد من تلك الدول . ويحتل التلفزيون - اليوم - مكانة متميزة كوسيلة إعلانية سواء بالنسبة للمعلن أو بالنسبة للجمهور ، ففي دراسة أجريت على أفضليات الوسائل الإعلانية عند الجمهور المصري ، جاء التلفزيون في المرتبة الأولى من حيث تفضيل أفراد العينة لمشاهدة الإعلان من خلاله وذلك بنسبة ٢٦٪^(٣) .

ولقد واجه التلفزيون - منذ البداية - هجومًا مكثفًا من جانب المؤسسات الدينية التربوية والتعليمية والتي رأت فيه وسيلة ذات تأثير سلبي شديد على جماهيره من المشاهدين ولا سيما الأطفال . وكان موضوع تأثير التلفزيون على الطفل ولا يزال محورًا للعديد من الدراسات التي استهدفت قياس هذا التأثير وتقويمه ووضع المقترحات والحلول لتلافي سلبياته . . . ويمكن القول أن المعركة الدائرة بين المؤيدين والمعارضين لبرامج التلفزيون ومدى تأثيرها على الأطفال لم تحسم بعد حيث يقدم كل فريق حججه وبراهينه التي تؤيد وجهة نظره وتدحض وجهات نظر الآخرين . . . وقد ركزت انتقادات

المعارضين على إثارة قضية العلاقة بين مشاهدة الأطفال للتلفزيون وميلهم للسلوك العدواني وأن مشاهدة برامج الرعب والتخويف في التلفزيون ذات علاقة وثيقة بما يعتري الأطفال من حالات القلق والاضطراب^(٤).

وتطرق دراسات أخرى للحديث عن التأثير السلبي للتلفزيون على انخفاض المهارات الكتابية والقراءة لدى تلاميذ المدارس الابتدائية^(٥) كما أشارت بعض الدراسات للعلاقة السلبية لمشاهدة الأطفال للتلفزيون وانخفاض مستوى تحصيلهم الدراسي^(٦). وأثار المعارضون لبرامج التلفزيون العلاقة السلبية للمشاهدة المنتظمة للتلفزيون ومستوى ذكاء الطفل، وأثبت بعضهم أنه كلما ارتفع ذكاء الطفل قلت مشاهدته للتلفزيون^(٧).

وعلى الجانب الآخر يقف فريق المؤيدين الذين يرون دوراً إيجابياً مهماً للتلفزيون كوسيلة تعليمية وتربوية للطفل، فأثبتت بعض الدراسات الآثار الإيجابية للتلفزيون والتي يحققها للطفل كتعلم قيم اجتماعية جديدة، وارتفاع رغبته في الاطلاع والتحصيل الدراسي وتدعيم القيم الاجتماعية في المجتمع^(٨).

وتحدثت دراسات أخرى عن ارتفاع درجة إتقان الطفل وتجاوبه مع العلاقات الاجتماعية كلما زادت معدلات مشاهدته للتلفزيون^(٩). وانتهت دراسات أخرى إلى أنه ليس للتلفزيون أية آثار جسيمة ضارة على الأطفال، بل أنه يساعدهم في الحصول على المعلومات ويثير اهتمامهم تجاه موضوعات لم تكن متاحة أمامهم من قبل^(١٠).

ورغم أننا لسنا بصدد دراسة التأثير الذي يتركه التلفزيون على جمهوره وتقويم وجهات نظر المؤيدين والمعارضين لبرامجه ومدى تأثيرها على الأطفال

إلا أنه يمكن القول أن لحجج المعارضين الكثير من الوجاهة والمعقولية التي تجعلنا نضم أصواتنا إليهم في التحذير من خطورة تأثير التلفزيون على أطفالنا، والدعوة إلى ضرورة ترشيد عملية مشاهدتهم لبرامجه بحيث تتم هذه المشاهدة في وجود وتحت رقابة الوالدين أو أحدهما، ولا سيما في المراحل المبكرة من العمر، فقد أثبتت عدة دراسات أن مشاهدة الطفل للتلفزيون مع أحد والديه لا يقلل - فقط - من الأثر السلبي للتلفزيون، بل يساعد الطفل على الاستفادة من برامجه، كما يساعده على فهم ما يقدم بصورة حقيقية ويطور مهاراته وعقليته. (١١)

كما أنه من الأهمية بمكان الإشارة إلى دور التحصين الداخلي للطفل من قبل الأسرة والمدرسة وذلك عن طريق التنشئة الدينية والتربوية بدلا من ترك الأطفال في مواجهة التلفزيون ثم إلقاء كل التبعة على برامج التلفزيون!!

ورغم كثرة ما كتب في مجال التلفزيون والطفل، إلا أن المكتبة العربية لا تزال بحاجة للعديد من الدراسات التي تعالج التأثير السلبي لبرامج التلفزيون على الأطفال، وتضع المقترحات والحلول لمواجهة ذلك التأثير ومن منطلقات مختلفة عن تلك التي تقوم عليها الدراسات المماثلة في المجتمعات الغربية، مع الأخذ في الاعتبار قيم ومعتقدات وتقاليد مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

مشكلة الدراسة:

منذ بدأ التلفزيون في تقديم الإعلانات، وظف كل إمكاناته الفنية وقدراته الإقناعية لخدمة هذا الفن الجديد. وتطور الإعلان التلفزيوني تطورا هائلا وابتكرت له العديد من الأشكال والقوالب التي زادت من جاذبيته وقدرته على التأثير، حتى أصبحت إعلانات التلفزيون تحظى بمعدلات

عالية من المشاهدة والجاهزية ربما تنافس بها برامج التلفزيون الأخرى . ولقد أفاد المعلنون من خصائص ومميزات التلفزيون فضمنوا انتشارا أوسع لإعلاناتهم وقدرة أكبر على التأثير والإقناع في مختلف أوساط ومستويات المشاهدين . وتدفقت الإعلانات التجارية على محطات التلفزيون حتى أصبح الإعلان مادة أساسية في برامج التلفزيون في مختلف المجتمعات رغم اختلاف وتباين وظائفه وأهدافه في بعض الأحيان .

وإذا كانت الوظيفة الإعلانية للتلفزيون قد بدأت وتطورت في المجتمعات الغربية الرأسمالية إلا أنها سرعان ما انتقلت إلى مجتمعاتنا العربية والإسلامية كما هي ودون مراعاة للاختلافات الحضارية والثقافية والقيم الدينية بين مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية .

وفي الوقت الذي لاقت فيه الإعلانات التلفزيونية النجاح والانتشار، فقد تعرضت للهجوم والانتقاد في مختلف المجتمعات نظرا لما يمكن أن تنطوي عليه من سلبيات كالدعوة لتشجيع الاستهلاك والتبذير، وما تقوم به من دور في نقل القيم والأفكار والعادات وأنماط السلوك الغربية عن المجتمع . كما أثار المعارضون للإعلان التلفزيوني قضية مهمة تتعلق بتوظيف الأطفال ومشاركاتهم في الإعلانات التلفزيونية، وأشار هؤلاء إلى ما يمكن أن يتركه ذلك من تأثيرات سلبية عديدة على الأطفال سواء أولئك الذين يشاركون في الإعلانات أو أولئك المشاهدين لها . (١٢)

كما أن الصورة التي يقدم بها الأطفال من خلال الإعلانات التلفزيونية - كانت ولا تزال محل انتقاد ومعارضة في محاولة لوضع الضوابط الأخلاقية التي تحفظ للأطفال صفاءهم وبراءتهم رغم ما وضعت كثير من دول العالم من شروط لاستخدام الأطفال في وسائل الإعلام .

وكان التلفزيون السعودي قد بدأ في تقديم الإعلانات لأول مرة في غرة جمادى الأولى عام ١٤٠٦ هـ، وسرعان ما تطور الإعلان التلفزيوني السعودي بشكل كبير من حيث الابتكار والشكل والتنفيذ، وأصبح التلفزيون وسيلة الإعلان الأولى في المملكة العربية السعودية، وبلغ نصيب التلفزيون السعودي ٤٧,٥ ٪ من حصة الإنفاق الإعلاني في المملكة عام ١٩٨٨. (١٣)

ومنذ بدأ التلفزيون السعودي في تقديم الإعلانات، ارتفعت أصوات متعددة من جانب المؤسسات الدينية والتربوية تعارض هذا النشاط، وتحذر من مغبة التوسع في إعلانات التلفزيون لما يمكن أن تسببه من إفساد للأخلاق واستخفاف بالقيم، وإثارة للغرائز ولا سيما في أوساط الشباب، كما رأت هذه المؤسسات في الإعلان التلفزيوني خرقاً لطمأنينة الأسرة، وتمهيداً لقيمها ومبادئها وذلك بتشجيعه للتنافس والتسابق على جمع المال والاستمتاع بالملذات مما يؤدي إلى الإنصراف عن القيم والأخلاق الفاضلة، وأنه سيكون مساعداً لمزيد من شقاء الإنسان وخسارته بتزيينه للملذات ودعوته للمتعة والترف. (١٤) كما أشار البعض لمدى الخطورة التي يمكن أن تقدمها إعلانات التلفزيون للنشء والصغار، لا سيما إذا عرفنا أن معدل مشاهدة الأطفال السعوديين للتلفزيون يتراوح بين ٣٣ ساعة صيفاً، و ٢٤ ساعة شتاءً كل أسبوع (١٥). ورغم أهمية وخطورة ما يمكن أن تنطوي عليه الإعلانات التلفزيونية في مضامينها وأساليب تقديمها، ومخاطبتها للأطفال ولا سيما في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فإن هذه القضية لم تحظ بالاهتمام المناسب من جانب الباحثين، ولا تزال المكتبة العربية تفتقر للدراسات التي تقوم الصورة التي يقدم بها الأطفال في إعلانات التلفزيون، وأساليب تلك الإعلانات في مخاطبة جمهورها من الأطفال.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسة والتي تستهدف دراسة حدود استخدام الأطفال ومشاركاتهم في إعلانات التلفزيون السعودي، وطبيعة تلك المشاركة، والأساليب التي تتبعها إعلانات التلفزيون السعودي في مخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف، وتقويم ذلك في ضوء الأهداف والضوابط التي تنظم العمل الإعلامي في المملكة العربية السعودية، ودراسة مدى ملائمة تلك الإعلانات واستخدامها للأطفال لطبيعة وقيم وعادات المجتمع السعودي.

أي أن هذه الدراسة تهتم بالطفل في الإعلانات التلفزيونية كقائم بالاتصال، وكمتلقي للرسالة الإعلامية.

تساؤلات الدراسة :

سوف يقسم الباحث تساؤلات هذه الدراسة إلى ثلاث مجموعات :

أولاً: تساؤلات عامة حول إعلانات التلفزيون السعودي :

١ - ما حجم ونسبة الإعلانات عن السلع الوطنية والأجنبية في التلفزيون السعودي؟

٢ - ما نوعية السلع التي يكثر الإعلان عنها في التلفزيون السعودي؟

٣ - من هو الجمهور المستهدف لإعلانات التلفزيون السعودي؟

٤ - ما اللغات واللهجات المستخدمة في إعلانات التلفزيون السعودي؟

٥ - ما مدى ظهور واستخدام الأشخاص في إعلانات التلفزيون السعودي؟

ثانياً : تساؤلات تتعلق بالإعلانات التي شارك فيها الأطفال :

- ١ - ما مدى مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي؟
- ٢ - ما طبيعة مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي؟
- ٣ - ما الفئات العمرية للأطفال الذين يشاركون في إعلانات التلفزيون السعودي؟
- ٤ - أيهما أكثر ظهوراً في إعلانات التلفزيون السعودي الأطفال الذكور أم الإناث؟
- ٥ - ما القوالب الفنية التي كثر استخدامها في إعلانات التلفزيون السعودي التي شارك فيها الأطفال؟
- ٦ - ما حدود استخدام الأطفال في إعلانات عن سلع تخصصهم مباشرة؟
- ٧ - ما اللغات أو اللهجات التي يتحدث بها الأطفال في الإعلانات التي شاركوا فيها؟

ثالثاً : تساؤلات تتعلق بالإعلانات التي تخاطب الأطفال كجمهور مستهدف :

- ١ - ما نوعية السلع التي توجه إعلاناتها لمخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف؟
- ٢ - ما القوالب الفنية الأكثر استخداماً في الإعلانات التلفزيونية التي تخاطب الأطفال؟
- ٣ - ما اللغات أو اللهجات المستخدمة في الإعلانات التي تخاطب الأطفال؟

٤ - ما الأساليب الإقناعية المستخدمة في الإعلانات التي تخاطب الأطفال؟

٥ - ما العناصر التي تركّز الدراسة الإعلانبة على إبرازها في الإعلانات التلفزيونية التي تخاطب الأطفال؟

مسح الدراسات السابقة :

لم يقع الباحث على أية دراسات تتعلق بموضوع دراسته مباشرة، وهو كيفية استخدام الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي، والأدوار التي يقومون بها في هذه الإعلانات، وأسلوب مخاطبتها للأطفال كجمهور مستهدف. أما الدراسات السابقة ذات الصلة غير المباشرة بموضوع هذه الدراسة فيمكن استعراضها من خلال محورين :

أولاً: دراسات تناولت إعلانات التلفزيون السعودي بشكل عام :

رغم أن التلفزيون السعودي يأتي على رأس وسائل الإعلام من حيث دخلها من الإعلان، ورغم نجاح تجربة الإعلانات التلفزيونية في المجتمع السعودي وارتفاع مستواها الفني من حيث الفكرة والشكل والتنفيذ، إلا أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام الباحثين، فلم يعثر الباحث - خلال عملية المسح - سوى على دراستين فقط تناولتا إعلانات التلفزيون السعودي، إحداهما دراسة أجراها مجلس الغرف التجارية الصناعية السعودية بعنوان «دور الإعلان التجاري في ترويج منتجات الصناعة السعودية»^(١٦) وقد ركزت هذه الدراسة على الجوانب الاقتصادية والتسويقية للإعلانات ودورها في ترويج السلع بشكل أساسي، كما أشارت إلى الدور المهم الذي يمكن للتلفزيون أن يقوم به في الإعلان عن منتجات الصناعة السعودية وترويجها.

أما الدراسة الثانية فقد أجراها الباحث وشملت تحليل محتوى عينة من إعلانات التلفزيون السعودي قوامها ٢١٤١ إعلاناً قدمت خلال شهر نوفمبر ١٩٨٩ م. (١٧) وقد أسفرت هذه الدراسة عن عدد من النتائج أهمها:

أن التلفزيون السعودي يهتم بتقديم إعلانات عن السلع بالدرجة الأولى، في حين لا تجد إعلانات الخدمات نفس الاهتمام، كما زادت الإعلانات المقدمة عن السلع الأجنبية عن مثيلاتها من السلع الوطنية.

تهتم إعلانات التلفزيون السعودي بالتوجه إلى «الجمهور العام» بالدرجة الأولى جاءت بعدها الإعلانات الموجهة للسيدات، فالإعلانات الموجهة للرجال، فالإعلانات الموجهة للأسرة، كما يلاحظ أن هناك ثمة اختلاف واضح بين الجمهور المستهدف ونوعيات السلع المعلن عنها.

ركزت إعلانات التلفزيون السعودي على استخدام المغريات والميول الإيجابية المواتية للسلعة في مخاطبة جمهورها المستهدف مع الإهتمام بإبراز عدد معين من تلك المغريات والميول، وأثبتت نتائج التحليل أن المغريات والميول التي جاءت في المراكز الخمسة الأولى هي: الحاجة للطعام والشراب - الجمال والإشراق - الراحة والاستجمام - الاقتصاد والتوفير - النظافة.

جاء «الإعلان الغنائي» في مقدمة القوالب الفنية التي تستخدمها إعلانات التلفزيون السعودي، حيث شغل هذا القالب ٢٥ ، ٣١٪ من جملة ما قدم من إعلانات خلال عينة الدراسة.

إن الإعلانات التي استخدمت أطفالاً فقط شغلت ٩٩ ، ٨٪ من جملة الإعلانات التي قدمها التلفزيون السعودي، وقد ارتبطت معظم تلك الإعلانات بالسلع التي تستهدف الأطفال المستهلكين.

ثانيًا : دراسات تناولت إعلانات التلفزيون والطفل :

فى حين حظى موضوع إعلانات التلفزيون وتأثيرها على الأطفال باهتمام كبير من جانب الباحثين فى المجتمعات الغربية ، إلا أن هذا الموضوع لم يجد بعد الاهتمام الكافى من جانب الباحثين العرب ، ولم يتعرض له سوى القليل من الدراسات العربية ، ففي عام ١٩٨٧م ، أجرت الدكتور/ منى الحديدى والدكتور/ سلوى إمام ، دراسة حول قواعد ترشيد استخدام الأطفال فى الإعلانات التلفزيونية .^(١٨) وأشارت الباحثتان إلى ضرورة وضع الضوابط التى تحكم استخدام الأطفال وتوظيفهم فى تقديم إعلانات التلفزيون .

وفى دراسة أخرى للباحثين حول إعلانات التلفزيون المصرى ، جاء أن نسبة الإعلانات التى استخدمت أطفالاً فقط لم تتعد ١٪ من جملة الإعلانات التى خضعت للتحليل واعتبرت الباحثتان أن هذا يعد إتجاهاً إيجابياً حيث ارتبط استخدام الأطفال بالسلع الخاصة بهم مباشرة .^(١٩)

ومن الدراسات الجديدة فى مجال قياس أثر الإعلانات التلفزيونية على الطفل ، تلك الدراسة التى أجريت على عينة من أمهات الأطفال فى مصر حول حدود تأثير تعرض الطفل المصرى للإعلانات التلفزيونية وإتجاهه نحوها على سلوكه الشرائى .^(٢٠)

وقد أوضحت هذه الدراسة حرص الأطفال على مشاهدة إعلانات التلفزيون ، حيث أثبتت أن ٧٥٪ من أطفال العينة يشاهدون الإعلانات بانتظام ، وأن ١٦٪ تتسم مشاهدتهم بالانتظام النسبى ، بينما لم ترد نسبة عدم المشاهدة بانتظام عن ٩٪ فقط . كما كان من أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة :

إن الإعلان التلفزيوني يمثل العامل الأول في تحريك الطلب على السلع لدى الطفل ، وذلك بنسبة ٤٤٪ وأن للإعلان قدرة كبيرة على تشكيل أنماط استهلاكية للطفل تظل لصيقة به .

يتناسب طلب الطفل ومعدله للسلع المعلن عنها تناسباً طردياً مع حجم تعرضه لإعلاناتها ، وإنه كلما زاد تعرض الطفل للإعلانات سلع معينة ، زاد طلبه عليها وبمعدل أعلى .

إن سن الطفل يعد متغيراً مهماً يؤثر في تحجيم أثر الإعلان في الطلب ومعدله إلا أن ضعف الإعلان واختلاف قدرات الأهميات على ترشيد سلوك أبنائهم في مراحل الطفولة المبكرة والوسيلة يزيد من الآثار السلبية المحتملة للإعلان .

إن الإعلانات الموجهة للأطفال والمتضمنة سلعا يمثل الأطفال المستهلك الأول لها هي أكثر الإعلانات التي يفضلها الأطفال ، ويحرصون على مشاهدتها ، وعزت الدراسة ذلك إلى اعتماد غالبية تلك الإعلانات على استخدام الأطفال كشخصيات رئيسة فيها مما يسهل توحيد الأطفال المشاهدين معها ، كما أن أغلبها يعتمد على الطابع الغنائي الذي يسهل على الطفل حفظه .

وتتضمن نتائج هذه الدراسة مع ما توصلت إليه دراسات غربية كثيرة من تأثير الإعلانات التلفزيونية على الأطفال وتوجيههم لاختيار أو شراء نوعيات معينة من السلع والمنتجات . ومن بينها دراسة — Held and Atkin — والتي أثبتت أن ثمة علاقة ارتباطية قوية بين ارتفاع معدل مشاهدة إعلانات التلفزيون عن السلع الغذائية وبين تفضيل السلع المعلن عنها ، وأن ٦٦٪ من عينة الأطفال التي شملتها الدراسة ممن ترتفع كثافة مشاهدتهم لإعلانات التلفزيون أحبوا وفضلوا السلع المعلن عنها . (٢١)

كما أن ثمة دراسات بالغت في التحذير من الآثار السلبية لإعلانات التلفزيون على الطفل، فأرجع بعضها إلى انخفاض مستوى مهارات الكتابة والقراءة لدى تلاميذ المدارس الابتدائية إلى «لغة الإعلانات التجارية» التي يقدمها التلفزيون بصورة هستيرية خالية من المضمون التخيلي. (٢٢)

كما أشارت دراسة John and Jenkins والتي أجريت على عينة من الجمهور الكندي إلى أن الإعلانات - بصفة عامة - ذات تأثير سلبي شديد على الأطفال. (٢٣)

منهج الدراسة وإجراءاتها:

* منهج الدراسة:

تصنيف هذه الدراسة ضمن البحوث الوصفية Descriptive Research وهي تلك البحوث التي تهدف إلى وصف ظواهر أو وقائع أو حقائق معينة من خلال جمع البيانات والمعلومات والملاحظات عنها (٢٤)

ولا تقف الدراسات الوصفية عند مجرد جمع البيانات والحقائق، بل تتجه إلى تصنيف هذه الحقائق والبيانات وتحليلها وتفسيرها لاستخلاص دلالتها وتحديدتها بالصورة التي هي عليها كما وكيفا (٢٥).

ومن هنا فإن هذه الدراسة تسعى إلى تحديد وتصوير خصائص ومحتوى الإعلانات التجارية التي يقدمها التلفزيون السعودي بهدف التعرف على حدود استخدام الأطفال في تلك الإعلانات، وطبيعة هذا الاستخدام، والأساليب التي تتبعها إعلانات التلفزيون السعودي في مخاطبة الأطفال - كجمهور مستهدف، وتقويم ذلك في ضوء الأهداف والضوابط التي تنظم العمل الإعلامي في المملكة العربية السعودية ودراسة مدى ملائمة تلك الإعلانات واستخدامها للأطفال لطبيعة وقيم وعادات المجتمع السعودي.

ولقد اعتمد الباحث في جمع البيانات على منهج المسح بالعينة، حيث اختار عينة من الإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي . وفي إطار هذا المنهج استخدم أسلوب تحليل المحتوى بوصفه تحليل منتظم ودقيق نستطيع بموجبه أن نقدم صورة واضحة حول كمية وطبيعة الرسالة المدروسة في برامج الوسيلة محل الدراسة^(٢٦).

عينة الدراسة :

يقدم التلفزيون السعودي الإعلانات التجارية عبر قناتين الأولى والثانية وعلى مدى ساعات الإرسال اليومي . وقد كان من الصعب إجراء مسح شامل لكل مجتمع الدراسة مما جعل اللجوء إلى الأخذ بأسلوب العينة لإجراء الدراسة بديلا عمليا .

وقد لاحظ الباحث أن الإعلانات التي تقدم على قناتي التلفزيون متشابهة إلى حد كبير، عدا أن بعضها تقدم باللغة الانجليزية على القناة الثانية، كما لوحظ أن التلفزيون يكرر إذاعة مجموعة من الإعلانات على مدى شهرين طويلين . وفي إطار ذلك فقد اقتصرنا الدراسة على الإعلانات التي تقدم على القناة الأولى في التلفزيون السعودي بوصفها القناة الأكثر انتشارا وجاهورية، إضافة إلى أنها تقدم النسبة الأكبر من الإعلانات، وتفوق إيراداتها من الإعلانات مثيلاتها في القناة الثانية، ففي حين بلغ دخل القناة الأولى من الإعلانات التجارية عام ١٩٨٨ م، ٧٥، ٩٥٪ من جملة دخل التلفزيون السعودي من حصيلة الإعلانات، كان نصيب القناة الثانية ٢٥، ٤٪ فقط^(٢٧).

وقد تم اختيار عينة زمنية عمدية قوامها ثلاثة شهور وهي الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٤١٣ هـ . وتم حصر جميع الإعلانات التي قدمتها القناة

الأولى طوال هذه الفترة، مع استبعاد عملية تكرار الإعلان الواحد أكثر من مرة خلال فترة الدراسة، «أي أن كل إعلان تلفزيوني سيتم تحليله ودراسته مرة واحدة بصرف النظر عن عدد مرات تكرار إذاعته».

وقد بلغ عدد الإعلانات التجارية التي تم حصرها خلال فترة الدراسة ٢٥٠ إعلاناً. وقد تم تسجيل هذه الإعلانات على شرائط الفيديو.

جمع البيانات:

قام الباحث بتصميم استمارة لتحليل محتوى الإعلانات التجارية، وفقاً للتساؤلات التي قدمها في دراسته. وقد اشتملت الاستمارة على مجموعة من الفئات الرئيسة والفرعية للتحليل. وفيما يلي نعرض للفئات الرئيسة للتحليل التي اعتمدت عليها تلك الدراسة.

- ١ - فئة طول الإعلان التلفزيوني.
- ٢ - فئة نوعية الإعلانات «سلع - خدمات».
- ٣ - فئة نوعية السلع المعلن عنها.
- ٤ - فئة الجمهور المستهدف للإعلانات.
- ٥ - فئة السلع الوطنية والأجنبية المعلن عنها.
- ٦ - فئة القوالب الأكثر استخداماً في الإعلانات التلفزيونية.
- ٧ - فئة اللغات واللهجات المستخدمة في الإعلانات التلفزيونية.
- ٨ - فئة حدود استخدام الأشخاص في الإعلانات التلفزيونية.
- ٩ - فئة حدود مشاركة الأطفال في الإعلانات التلفزيونية.
- ١٠ - فئة نوعية مشاركة الأطفال في الإعلانات التلفزيونية.

- ١١ - فئة أعمار الأطفال الأكثر استخداما في الإعلانات التلفزيونية .
- ١٢ - فئة جنس الأطفال الأكثر استخداما في الإعلانات التلفزيونية .
- ١٣ - فئة قوالب وأشكال الإعلانات التلفزيونية التي يشارك فيها الأطفال .
- ١٤ - فئة الأساليب الإقناعية المستخدمة في الإعلانات الموجهة للأطفال .
- ١٥ - فئة العناصر التي تركز عليها الرسالة الإعلانية في الإعلانات الموجهة للأطفال .

* وحدات التحليل :

استخدم الباحث في هذه الدراسة وحدتين للقياس هما :

١ - وحدة المفردة :

وقد اعتبر كل إعلان داخل الفترة الإعلانية وحدة مستقلة للتحليل .

٢ - وحدة قياس الزمن :

واعتمد الباحث عليها في دراسة الفترة الزمنية التي يشغلها تقديم الإعلان على شاشة التلفزيون ، واستخدمت الثانية كوحدة للعد الزمني .

وقد استغرقت عملية جمع الإعلانات وحصرها ثلاثة شهور ، واستغرقت عملية مشاهدة وتحليل محتواها نحو شهرين . وسوف نعرض فيما يلي للنتائج التي توصلت إليها الدراسة والإجابة على التساؤلات التي تم طرحها .

نتائج الدراسة التحليلية :

بلغ عدد الإعلانات التي قدمها التلفزيون السعودي عبر قنواته الأولى خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٤١٣ هـ، مئتين وخمسين إعلاناً،

خضعت كلها للدراسة والتحليل وفق المنهج الذي إختاره الباحث . وقد أسفرت عملية التحليل لمحتوى تلك الإعلانات عن عدة نتائج ، نستعرضها فيما يلي على ضوء ما تم طرحه من تساؤلات .

أولاً: الإجابة على التساؤلات العامة حول إعلانات التلفزيون السعودي :

١ - ما حجم ونسبة الإعلانات عن السلع الوطنية والأجنبية في التلفزيون السعودي؟

أوضحت الدراسات التحليلية اهتمام التلفزيون السعودي بتقديم إعلانات عن السلع الأجنبية بصورة أكبر من إعلانات السلع الوطنية ، فمن بين مئتين وخمسين إعلاناً هي جملة ما تم تحليله ، بلغ عدد الإعلانات عن السلع الأجنبية ١٥٥ إعلاناً بنسبة ٤٠,٦٪ ، مقابل ٩٩ إعلاناً عن السلع الوطنية بنسبة ٣٩,٦٪ .

وتتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت إليها دراسات سابقة أثبتت ارتفاع نسبة الإعلانات عن السلع الأجنبية عن مثيلاتها من الإعلانات عن السلع الوطنية في التلفزيون السعودي . وتلفت هذه النتيجة النظر إلى سيطرة السلع والمنتجات الأجنبية على الإعلان التلفزيوني ومن ثم على السوق السعودية والمستهلك السعودي . ويمكن تفسير ذلك في ضوء ارتفاع أسعار الإعلان في التلفزيون بحيث لا تقوى كثير من الشركات والمؤسسات الوطنية على تحملها .

٢ - ما نوعية السلع التي يكثر الإعلان عنها في التلفزيون السعودي؟

كانت جميع الإعلانات التي اشتملت عليها الدراسة إعلانات عن سلع ، في حين لم تتضمن العينة أية إعلانات خدمة . ويوضح الجدول رقم (١) توزيع إعلانات السلع على نوعياتها المختلفة .

جدول رقم (١)
السلع التي تم الإعلان عنها
في التلفزيون السعودي مرتبة ترتيباً تنازلياً

النسبة	التكرار	إعلانات السلع
٤٠,٨ %	١٠٢	المواد الغذائية
١٦,٤ %	٤١	مستحضرات التجميل والعطور
١٢,٤ %	٣١	المنظفات الصناعية
٦ %	١٥	السيارات
٥,٦ %	١٤	الأجهزة الكهربائية
٣,٦ %	٩	الأسواق التجارية
٣,٦ %	٩	زيوت وإطارات السيارات
٢,٨ %	٧	حفاظات الأطفال
٢,٨ %	٧	الملابس والمفروشات
١,٦ %	٤	مستلزمات البناء
٠,٨ %	٢	المبيدات الحشرية
٠,٨ %	٢	الساعات والمجوهرات
٠,٨ %	٢	البنوك الاستثمارية
٠,٤ %	١	الأدوات المنزلية
٠,٤ %	١	معطرات الجو
٠,٤ %	١	المنتجات الورقية
٠,٤ %	١	خدمات النقل
٠,٤ %	١	الأسمدة
١٠٠ %	٢٥٠	الاجمالي

• قسيمة اشتراك •

أرفق شيكاً مقبولاً بالدفع

باسم داراة الملك عبد العزيز بالرياض/ عن قيمة اشتراك لمدة سنة واحدة على أن ترسل

إلى العنوان الآتي:

الاسم:

العنوان:

رقم التلکس أو الفاكس:

• الاشتراك: ٢٠ ريالاً داخل المملكة العربية السعودية

• • البلاد العربية ما يخلد: ٢٠ ريالاً سعودياً

• • • دولارات خارج البلاد العربية.



مجلة فصلية محكمة تصدر من داراة الملك عبد العزيز

٢٩٤٥ الرياض، ١١٤٦١ ✉

٤٤١٢٣١٨ - ٤٤١٣٩٤٤ ☎

رقم الفاكس ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

المملكة العربية السعودية



• Subscription card •

Please enter my subscription for king abdul Aziz Research Centre



address:
King Abdulaziz Research Center

✉ 2945

Riyadh 11461

☎ 4412318-4413944

Facsimile No.: 00/966/1/4417020

Riyadh - Kingdom of Saudi Arabia

Please bill me
check enclosed for \$

Name

Address

City Country

☐ Fax.

Annual Subscriptions

• Saudi Arabia: 20 Riyals

• • Arab Countries: The equivalent of 4 issues Price: SR 20

• • • Non Arab Countries: US \$6



ويوضح الجدول السابق أن الإعلانات عن المواد الغذائية جاءت في المرتبة الأولى من جملة الإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي وذلك بنسبة ٤٠,٨٪، وجاءت بعدها الإعلانات عن مستحضرات التجميل والعطور بنسبة ١٦,٤٪. تلتها الإعلانات عن المنظفات الصناعية في المرتبة الثالثة ونسبة ١٢,٤٪. كما احتلت إعلانات السيارات المركز الرابع بنسبة ٦٪، وفي المركز الخامس جاءت الإعلانات عن الأجهزة الكهربائية بنسبة ٥,٦٪.

ويتضح من هذه النتائج أن الإعلانات عن السلع الاستهلاكية تشغل النسبة الأكبر من الإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي، ويفسر ذلك في ضوء ارتفاع مستويات المعيشة في المملكة مما يدفع إلى مزيد من الاستهلاك، ومن ثم يتبارى معلنو السلع الاستهلاكية في غزو ميدان الإعلان التلفزيوني وبشكل مستمر حيث تقدم إعلانات هذه السلع بشكل مستمر على مدى ساعات الإرسال التلفزيوني. ولعل مما ينبغي الإشارة إليه هو ما أثبتته الدراسة من أن معظم تلك الإعلانات عن السلع الاستهلاكية كانت عن سلع ومنتجات أجنبية !!

٣- من هو الجمهور المستهدف لإعلانات التلفزيون السعودي؟-

تحدد نوعية الجمهور المستهدف شكل وأسلوب مخاطبة الرسالة الإعلانية له، ويختلف الجمهور المستهدف باختلاف نوعية السلع المعلن عنها.

وقد أوضحت نتائج الدراسة أن «جمهور السيدات» كان المستهدف الأول للإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي، فقد بلغ عدد الإعلانات التي وجهت لمخاطبة السيدات ٩٧ إعلاناً بنسبة ٣٨,٨٪ من جملة الإعلانات التي شملها التحليل. وجاء «الجمهور العام» في المركز الثاني كجمهور مستهدف لإعلانات التلفزيون السعودي، وبلغ عدد الإعلانات التي وجهت للجمهور العام ٥١ إعلاناً بنسبة ٢٠,٤٪.

وبلغ عدد الإعلانات التي خاطبت «الرجال» كجمهور مستهدف ٣٣ إعلانا بنسبة ١٣,٢٪. محملة المركز الثالث. وجاءت الإعلانات الموجهة لمخاطبة «الأسرة» في المركز الرابع وبلغت ٣٢ إعلانا بنسبة ١٢,٨٪ وجاء «الأطفال» في المركز الخامس كجمهور مستهدف لإعلانات التلفزيون السعودي، وبلغ عدد الإعلانات التي وجهت لمخاطبة الأطفال ٢٠ إعلانا وبنسبة ٨٪ وجاء الشباب في المركز السادس كجمهور مستهدف وبنسبة ٦٪، ثم «الجمهور المتخصص» وبنسبة ٨,٠٪.

٤ - ما اللغات واللهجات المستخدمة في إعلانات التلفزيون السعودي؟

لما كانت كثير من الإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي تنتج خارج المملكة أو تكون ضمن الإعلانات الدولية، فقد لوحظ أن ثمة العديد من الإعلانات التي تستخدم لهجات عربية عديدة إلى جانب اللغة الفصحى، كما أن هناك بعض الإعلانات التي استخدمت لغة أجنبية. ويوضح الجدول رقم (٢) اللغات واللهجات المستخدمة في إعلانات التلفزيون السعودي.

جدول رقم (٢)
اللغات واللهجات المستخدمة في
عينة إعلانات التلفزيون السعودي

النسبة	التكرار	اللغة أو اللهجة المستخدمة
٦٩,٢٪	١٧٣	الفصحى
٢٤,٨٪	٦٢	اللهجة المصرية
٢,٨٪	٧	اللهجة اللبنانية
٢,٤٪	٦	اللهجة السعودية
٨,٠٪	٢	اللهجة الانجليزية
١٠٠٪	٢٥٠	الإجمالي

توضح بيانات الجدول السابق أن اللغة العربية هي الأساس في إعلانات التلفزيون السعودي وإن اختلفت مستوياتها بين الفصحى وغيرها من اللهجات العربية، وقد جاءت اللغة العربية الفصحى في مقدمة مستويات العربية المستخدمة في إعلانات التلفزيون السعودي، وشغلت الإعلانات الناطقة بالفصحى ٢, ٦٩٪ من جملة ما قدم من إعلانات. ولعل هذه النتيجة تعد إحدى حسنات الإعلانات التلفزيونية في السعودية، ذلك أن حفاظها على الفصحى من شأنه المساعدة على نشرها بين أوساط النشء والشباب الذين تستهويهم تلك الإعلانات. وهذا ما لا نجده في العديد من محطات التلفزيون العربية التي تفرق إعلاناتها في اللهجات المحلية بصورة كبيرة.

وجاءت الإعلانات الناطقة «باللهجة المصرية» في المركز الثاني وشغلت ٨, ٢٤٪ من جملة الإعلانات التي تم تحليلها، وهي نسبة عالية توضح مدى الشعبية التي تحظى بها اللهجة المصرية ليس فقط في المملكة العربية السعودية بل في مختلف دول الخليج العربية.

وجاءت الإعلانات التي استخدمت «اللهجة اللبنانية» في المركز الثالث وشغلت ٨, ٢٪ من عينة الدراسة، تلتها في المركز الرابع الإعلانات التي قدمت «باللهجة السعودية» الدارجة وشغلت ٤, ٢٪، وقد لوحظ أن معظم الإعلانات التي قدمت باللهجة السعودية كانت عن سلع وطنية، وقد شارك في بعضها ممثلون سعوديون. وجاءت الإعلانات التي قدمت «باللغة الإنجليزية» في المركز الأخير، وكانت عبارة عن إعلانين: أحدهما عن نوع من العطور، والآخر عن نوع من الشيكولاتة وشغلت نسبة ٨, ٠٪.

٥ - ما مدى ظهور واستخدام الأشخاص في إعلانات التلفزيون السعودي؟

يلجأ مصممو الإعلانات إلى استخدام الإعلانات الفيلمية المتحركة بدرجة أكبر من استخدام الإعلانات الثابتة للتعبير عن أفكارهم الإعلانية، وذلك بتوظيف الإمكانيات الفنية للتلفزيون كوسيلة إعلانية. وكثيرا ما تستخدم هذه النوعية من الإعلانات أشخاصا لتمثيل أو تقديم الإعلانات ولاسيما عندما تعرض السلعة في الاستخدام، كما يحقق استخدام الأشخاص في الإعلانات جاذبية أكبر وقدرة إقناعية أعلى بالنسبة للجمهور المستهدف.

وبتحليل محتوى إعلانات عينة الدراسة اتضح أن عدد الإعلانات التي ظهر فيها أشخاص بلغ ١٦٩ إعلانا بنسبة ٦٧٪، في مقابل ٨١ إعلانا لم يظهر فيها أشخاص بنسبة ٤٨٪. من جملة الإعلانات محل الدراسة. وقد لاحظ الباحث أن النسبة الأعلى من هذه الإعلانات التي ظهر فيها أشخاص قد استخدمت «رجالا ونساء وأطفالا» وأوضحت أسرا كاملة أثناء استخدامها للسلعة. ويعد هذا التوظيف اتجاها إيجابيا للإعلان التلفزيوني حين يستفيد المعلن من إشاعة «الجو الأسري» في الإعلان وربطه بالسلعة أو الخدمة المعلن عنها.

كما يلاحظ أن نسبة الإعلانات التي ظهرت فيها «المرأة سواء وحدها أو مع غيرها من الرجال والأطفال نسبة عالية، وهو أمر يحتاج للكثير من الضوابط والترشيد بشأن كيفية ظهور المرأة في الإعلانات، ونوعية تلك الإعلانات، ومدى مخالطتها للرجال وغير ذلك من الضوابط حتى لا يصبح «الإعلان التلفزيوني» في مجتمعاتنا العربية والإسلامية مجرد محاكاة وتقليد أعمى لمثيله في الغرب !!

أما عن ظهور «الأطفال» وتوظيفهم على الإعلانات التلفزيونية فسيكون محل بحث وتحليل في موقع آخر من هذه الدراسة.

ثانيًا: الإجابة على التساؤلات التي تتعلق بالإعلانات التي شارك فيها الأطفال:

يتضمن هذا الجزء عرضاً للنتائج التي أسفرت عنها عملية تحليل محتوى الإعلانات التي عرضها التلفزيون السعودي خلال فترة الدراسة وشارك الأطفال في تقديمها سواء بالظهور أو بتقديم الإعلان بالصوت والصورة.

١ - ما مدى مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي؟

بلغ عدد الإعلانات التي قدمها التلفزيون السعودي وظهر فيها أشخاص ١٦٩ إعلاناً، كان من بينها ٩٤ إعلاناً شارك فيها الأطفال سواء بالظهور فقط أو بتقديم الإعلان بالصوت والصورة وذلك بنسبة ٦٢, ٥٥٪ مقابل ٧٥ إعلاناً لم يشارك الأطفال فيها بنسبة ٣٨, ٤٤٪.

وتوضح هذه النتيجة أن ثمة اهتمام من جانب مصممي الإعلانات التلفزيونية على استخدام الأطفال وتوظيفهم في تقديم الإعلانات، وهو ما يمكن أن يثير العديد من التساؤلات عن كيفية هذا التوظيف، ونوعية السلع التي يشارك الأطفال في الإعلان عنها، وما يمكن أن يتركه ذلك من سلبيات.

وقد لاحظ الباحث أن مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي ارتبطت بظهور الأطفال - خلال فترة الدراسة - شارك فيها الأطفال بالصوت فقط دون ظهور صورهم.

٢ - ما طبيعة مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي؟

يهدف هذا التساؤل الكشف عن طبيعة الأدوار التي يقوم بها الأطفال في الإعلانات التي شاركوا فيها، وهل يقتصر دورهم على ظهور الصورة فقط أم أنهم يشاركون بالصوت والصورة في تقديم الرسالة الإعلانية. ويوضح الجدول رقم (٣) طبيعة هذه المشاركة.

جدول رقم (٣)
طبيعة الأدوار التي يقوم بها الأطفال في
إعلانات التلفزيون السعودي

النسبة	التكرار	طبيعة الأدوار التي يقوم بها الأطفال
٦٥,٩٦٪	٦٢	ظهور في الإعلانات فقط
١٨,٠٨٪	١٧	ظهور ومشاركة في تقديم الإعلانات مع آخرين
١٥,٩٦٪	١٥	ظهور الأطفال وتقديم الإعلانات بشكل كامل
١٠٠٪	٩٤	الإجمالي

توضح بيانات الجدول السابق أن «ظهور الأطفال فقط» يمثل النسبة الأعلى من مشاركة الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي، حيث كان نصيب هذا النوع من المشاركة ٦٥,٩٦٪ من جملة الإعلانات التي شارك الأطفال فيها. وتتمثل هذه المشاركة في مجرد ظهور الأطفال في الإعلان وحدهم أو مع آخرين دون أن يشاركوا بأصواتهم في تقديم الإعلان.

وجاء ظهور الأطفال ومشاركاتهم مع آخرين في تقديم الإعلانات في المركز الثاني لطبيعة الأدوار التي يقوم بها الأطفال وذلك بنسبة ١٨,٠٨٪، وهنا يشارك الأطفال في تقديم الإعلان بالظهور وبالتحدث مع آخرين لشرح الرسالة الإعلانية، وقد كان «الإعلان الحوارى» هو الشكل الأكثر استخداماً لهذا النوع من مشاركة الأطفال حيث يتحدث الأطفال مع الأب أو الأم عن مزايا السلعة أو كيفية استخدامها. وبلغ عدد الإعلانات التي شارك الأطفال في تقديمها بشكل كامل خمسة عشر إعلاناً وذلك بنسبة ١٥,٩٦٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال.

٣ - ما الفئات العمرية للأطفال الذين يشاركون في إعلانات التلفزيون السعودي؟

يوضح الجدول رقم (٤) الفئات العمرية للأطفال الذين اشتركوا في تقديم إعلانات التلفزيون السعودي خلال فترة الدراسة ، وقد اتضح من بيانات الجدول أن الفئة العمرية «من ٦ إلى أقل من ١٠ سنوات» هي أكثر الفئات العمرية تكراراً حيث بلغ عدد الإعلانات التي شارك فيها أطفال في هذه الفئة ٣٩ إعلاناً وذلك بنسبة ٤٩ ، ٤١٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال ، تلتها الفئة العمرية «من سنتين إلى أقل من ٦ سنوات» وبلغ عدد الإعلانات التي شارك فيها أطفال في هذه الفئة ٣٠ إعلاناً وذلك بنسبة ٩١ ، ٣١٪ . جاء بعدها الأطفال الذين تزيد أعمارهم عن عشر سنوات وذلك بنسبة ١٨ ، ٠٩٪ وفي المرتبة الأخيرة جاء الأطفال الرضع والذين شاركوا في ثمانية إعلانات كانت نسبتها ٨ ، ٥١٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال .

جدول رقم (٤)

النسبة	التكرار	الفئات العمرية للأطفال
٨ ، ٥١٪	٨	أطفال رضع
٣١ ، ٩١٪	٣٠	من سنتين إلى أقل من ٦
٤١ ، ٤٩٪	٣٩	من ٦ إلى أقل من ١٠ سنوات
١٨ ، ٠٩٪	١٧	١٠ سنوات فأكثر
١٠٠٪	٩٤	الإجمالي

٤ - أيهما أكثر ظهوراً في إعلانات التلفزيون السعودي الأطفال الذكور أم الإناث؟

جاءت الإعلانات التي ظهر فيها الأطفال ذكورا وإناثا معا في مقدمة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال ، وبلغ عددها ٤٥ إعلانا بنسبة ٨٧ ، ٤٧٪ ثم جاءت بعدها الإعلانات التي قدمها أطفال ذكور وكان عددها ٣٤ إعلانا وذلك بنسبة ١٧ ، ٣٦٪ ، فالإعلانات التي قدمها أطفال إناث وعددها ١٥ إعلانا بنسبة ٩٦ ، ١٥٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال . وبذلك فإن الأطفال الذكور كانوا أكثر استخداما في إعلانات التلفزيون السعودي سواء ظهوروا وحدهم أو مع أطفال إناث .

٥ - ما القوالب الفنية التي كثر استخدامها في الإعلانات التي شارك فيها الأطفال؟

يوضح الجدول رقم (٥) القوالب الفنية لإعلانات التلفزيون السعودي والتي شارك الأطفال في تقديمها .

جدول رقم (٥)
القوالب الفنية للإعلانات التي شارك فيها الأطفال

النسبة	التكرار	القوالب الفنية
٦٨ ، ٤٤٪	٤٢	الإعلان الغنائي
٨٥ ، ٣٠٪	٢٩	إعلان «الحديث المباشر»
٨٣ ، ١٣٪	١٣	الإعلان الحوارى
٣٨ ، ٦٪	٦	الإعلان التمثيلي
٢٥ ، ٤٪	٤	إعلان الرسوم المتحركة
١٠٠٪	٩٤	الإجمالي

جاء الإعلان الغنائي في مقدمة القوالب الفنية التي قدمت بها إعلانات الأطفال حيث شغل هذا القالب ٦٨, ٤٤٪ ويعد قالب الأغنية من أكثر قوالب الإعلان نجاحًا وشعبية في نقل الرسالة الإعلانية ولاسيما حين تتوفر العناصر الفنية الجيدة للكتابة وإخراج الأغنية من حيث كلماتها وموسيقاها . . . ولقد أصبحت أغاني الإعلانات على ألسنة المشاهدين ولاسيما الأطفال الذين يسارعون إلى حفظ كلماتها وتداولها . . . وتكمن خطورة هذا القالب فيما يمكن أن تروجه تلك الإعلانات الغنائية من كلمات نابية أو ألفاظ سوقية أو قيم سلبية مما يسهل انتشارها وسط الجمهور وخاصة الأطفال . وجاء إعلان «الحديث المباشر» في المركز الثاني بنسبة ٨٥, ٣٠٪ وهو القالب الذي يعتمد على ظهور السلعة ثم تقديم خصائصها ومميزاتها وبعض المعلومات عن كيفية استخدامها من خلال صوت مصاحب أو أكثر سواء كان صاحب الصوت ظاهرًا في «الكادر» أو غير ظاهر.

وفي المركز الثالث جاء «الإعلان الحوارى» بنسبة ٨٣, ٣١٪، جاء بعدها الإعلان التمثيلي والذي شغل نسبة ٣٨, ٦٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال وقد كان من بين هذه الإعلانات الستة أربعة إعلانات قام أطفال بتمثيلها كاملة دون مشاركة من أحد . وفي المركز الأخير جاء «إعلان الرسوم المتحركة» وذلك بنسبة ٣٨, ٦٪ وتعد هذه النسبة قليلة جدًا إذا ما قورنت بإمكانية استغلال هذا القالب في تقديم الإعلانات بوصفه قالبًا محببًا للأطفال، كما أن هذا القالب يمكن لمصمم الإعلان - إذا ما استخدمه - التغلب على كثير من القيود والمحاذير التي تفرضها طبيعة ظروف المجتمع السعودي على استخدام القوالب الأخرى كظهور المرأة .

٦ - ما حدود استخدام الأطفال في إعلانات عن سلع تخصهم مباشرة؟

إذا كان استخدام الأطفال في الإعلانات التلفزيونية يلقي هجوما ومعارضة شديدين، فإن استخدامهم في الإعلان عن سلع لا تخصهم بشكل مباشر يجب أن يلقي معارضة أشد.

ويوضح الجدول رقم (٦) أنواع السلع التي شارك الأطفال في الإعلان عنها.

جدول رقم (٦)
أنواع السلع التي شارك الأطفال في الإعلان عنها
في التلفزيون السعودي

النسبة	التكرار	إعلانات السلع
٥٨,٥١%	٥٥	المواد الغذائية
١٥,٩٦%	١٥	المنظفات الصناعية
٢١,٧٦%	١٢	مستحضرات التجميل
٥,٣٢%	٥	حفاظات الأطفال
٢,١٣%	٢	السيارات
٢,١٣%	٢	الأجهزة الكهربائية
١,٠٦%	١	المقروشات والبطاطين
١,٠٦%	١	المنتجات الورقية
١,٠٦%	١	البنوك الاستثمارية
١٠٠%	٩٤	الإجمالي

وبتحليل الإعلانات التي شارك الأطفال فيها، اتضح للباحث أن هناك ٣٦ إعلاناً عن سلع تخص الأطفال مباشرة وذلك بنسبة ٣٠، ٣٨٪ من جملة الإعلانات التي شارك فيها الأطفال، في حين كان هناك ٥٨ إعلاناً عن سلع لا تخص الأطفال ٧٠، ٦١٪.

وتوضح هذه النتيجة أن مصممي الإعلان في التلفزيون السعودي يعتمدون إلى استخدام الأطفال وإشراكهم في الإعلان عن سلع لا تخصهم بشكل مباشر، جرياً وراء تحقيق إعلان جذاب ويحظى بجماهيرية واسعة، وهو الأمر الذي يجب تداركه. فمن بين ٥٥ إعلاناً هي جملة الإعلانات التي قدمت عن سلع غذائية وشارك الأطفال في تقديمها لم تكن من بين هذه السلع سوى ٢٥ سلعة فقط تخص الأطفال!! كما أن إعلانات «المنظفات الصناعية» والتي جاءت في المركز الثاني من بين الإعلانات التي شارك الأطفال في تقديمها وحدهم أو مع آخرين. لم يكن بينها إعلان واحد عن سلع تخص الأطفال!!

وفي المركز الثالث، جاءت إعلانات «مستحضرات التجميل» والتي شملت ١٢ إعلاناً بنسبة ٧٥، ١٢٪ من جملة الإعلانات التي شارك الأطفال في تقديمها، وبإستثناء ٥ سلع تخص الأطفال، فقد كانت بقية مستحضرات التجميل لا تخص الأطفال. وجاءت في المركز الرابع إعلانات «حفاضات الأطفال» وشغلت ٣٢، ٥٪ من جملة الإعلانات التي شارك الأطفال في تقديمها. تلتها الإعلانات عن «السيارات»، فالإعلانات عن «الأجهزة الكهربائية» بنسبة ١٣، ٢٪ لكل منهما. وهي سلع — كما يبدو — لا تخص الأطفال بشكل مباشر.

وهكذا يتضح ضرورة ترشيد استخدام الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي بما يضمن قصر هذا الاستخدام على إعلانات السلع التي تخص الأطفال بشكل مباشر، وبصورة تحفظ للأطفال صفاءهم وبراءاتهم.

٧- ما اللغات أو اللهجات التي يتحدث بها الأطفال في الإعلانات التي شاركوا فيها؟

يسعى هذا التساؤل للتعرف على اللغات أو اللهجات التي يتحدث بها الأطفال الذين يشاركون في إعلانات التلفزيون السعودي سواء كانت المشاركة بتقديم الإعلانات كاملة، أو تقديمها بمشاركة الأطفال مع آخرين. وبالصورة للجدول رقم (٣) يتضح لنا أن الإعلانات التي شارك الأطفال في تقديمها وحدهم أو مع آخرين بلغت ٣٢ إعلاناً. ويوضح الجدول رقم (٧) اللغات واللهجات المستخدمة في تقديم تلك الإعلانات.

جدول رقم (٧)

اللغات واللهجات التي يتحدث بها الأطفال في
الإعلانات التي شاركوا فيها

النسبة	التكرار	اللغة أو اللهجات
٦٥,٦٢٪	٢١	اللهجة المصرية
٢٥٪	٨	الفصحى
٦,٢٥٪	٢	اللهجة السعودية
٣,١٣٪	١	اللهجة اللبنانية
١٠٠٪	٣٢	الإجمالي

كانت اللهجة المصرية في مقدمة اللهجات التي يتحدث بها الأطفال في إعلانات التلفزيون السعودي، فمن بين ٣٢ إعلاناً قدمها الأطفال، كان هناك ٢١ إعلاناً قدمت باللهجة مصرية وذلك بنسبة ٦٢، ٦٥٪، وإذا أضفنا إلى ذلك ارتفاع نسبة الإعلانات التي تقدم باللهجة المصرية في التلفزيون السعودي بصفة عامة ندرك مدى انتشار وتأثير هذه اللهجة على الأطفال السعوديين لا سيما حين تتضمن الإعلانات بعض الكلمات المصرية العامة والتي تنتشر على ألسنة الصغار، وتحفل إعلانات التلفزيون السعودي بالعديد من هذه الكلمات.

وتأتي اللغة الفصحى في المرتبة الثانية بين اللغات واللهجات التي يتحدث بها الأطفال في الإعلانات وشغلت نسبة ٢٥٪ منها، وهي نسبة جيدة يمكن تطويرها بحيث نفيد من حفظ الإعلانات بسرعة لدى الأطفال في تقويم لغتهم الفصحى وتحسينها. واستخدمت اللهجة السعودية في إعلانين - فقط - من بين الإعلانات التي قدمها الأطفال. كما استخدمت «اللهجة اللبنانية» مرة واحدة.

وتدفعنا هذه النتائج إلى القول بضرورة أن يسعى المسؤولون عن الإعلانات في التلفزيون السعودي إلى محاولة إضفاء «الصفة الوطنية» على إعلاناتهم سواء من حيث الكلمة أو الموسيقى أو مقدمي الرسالة الإعلانية، حتى لا تكون الإعلانات غريبة عن المجتمع.

ثالثاً: التساؤلات التي تتعلق بالإعلانات التي تخاطب الأطفال كجمهور مستهدف؟

يفرق خبراء الإعلان بين نوعين من الجمهور، القائم بشراء السلعة، ومستهلكها. إذ إنه ليس من الضروري أن يكون القائم بشراء السلعة هو

مستهلكها. ومن ثم يسعى مخططو الحملات الإعلانية ومصممو الإعلانات إلى مخاطبة كل من القوائم بشراء السلعة ومن يستهلكها لتحقيق أكبر قدر ممكن من النجاح لإعلاناتهم. وعندما يتعامل المعلن مع الأطفال ويخاطبهم فإنه يدرك أن الطفل كمستهلك لا يستطيع - في كل الأحوال - أن يقوم بشراء السلعة أو اتخاذ قرار شرائها إلا أنه - وأيا كان عمره - يستطيع أن يؤثر على الأبوين أو غيرهما في اتخاذ قرار الشراء وتحديد نوعية السلعة المشتراة وفي الوقت الذي يريد. وفي دراسة سابقة اتضح أن الطفل يستخدم أساليب متعددة للحصول على ما يطلبه من سلع، واحتل أسلوب التلميح بأنه شاهد السلعة في التلفزيون المرتبة الأولى بين الأساليب المستخدمة وذلك بنسبة ٣٢٪ (٢٨).

ومن هنا توجه بعض الإعلانات التلفزيونية رسائلها للأطفال مباشرة، خاصة عندما تكون عن سلع تخصهم مباشرة. وتحليل عينة الإعلانات التي شملتها الدراسة، وجد الباحث أن عدد الإعلانات التي استهدفت مخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف بلغ عشرين إعلاناً وذلك بنسبة ٨٪ من جملة عينة الدراسة. وقد يقارن البعض بين هذه النتيجة وبين ما أسفرت عنه الدراسة من أن ثمة (٣٨ إعلاناً) في عينة الدراسة كانت تخص الأطفال مباشرة. والواقع أنه ليس هناك أي تناقض ذلك أن الإعلان عن سلع تخص الأطفال ليس بالضرورة أن يوجه رسالته للأطفال، بل قد يوجه الإعلان للأم أو للأب مثلاً. فإعلانات حفاظ الأطفال وإن كانت تخص الأطفال إلا أنها في الغالب توجه لمخاطبة الأم وإقناعها بالشراء!! وسوف يجيب الباحث في هذا الجزء عن التساؤلات التي تتعلق بالإعلانات التي تخاطب الأطفال «كجمهور مستهدف».

١ - ما نوعية السلع التي توجه إعلاناتها لمخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف؟

جاءت المواد الغذائية في مقدمة السلع التي خاطبت إعلاناتها الأطفال مباشرة وبلغ عدد هذه الإعلانات ١٦ إعلاناً بنسبة ٨٠٪ من جملة الإعلانات التي توجهت لمخاطبة الأطفال مباشرة. وكانت هذه الإعلانات عبارة عن:

* ٦ إعلانات عن أنواع من البسكوتات والشيكولاته.

* ٤ إعلانات عن أنواع من الألبان.

* إعلنان عن أنواع من الأجبان.

* إعلنان عن أنواع من العصائر.

* إعلان واحد عن نوع من البيسي.

* إعلان واحد عن نوع من المربات.

وجاءت الإعلانات عن كل من «معاجين الأسنان»، و«مستحضرات التجميل»، في المركز التالي وبنسبة ١٠٪ لكل منها.

وقد صيغت الرسائل الإعلانية لتلك الإعلانات جميعها لمخاطبة الأطفال مباشرة وبأسلوب سهل وجذاب جاء على لسان أطفال مثلهم مما يسهل من عملية استجابة الأطفال المشاهدين مع الرسالة الإعلانية.

ويلاحظ أن معظم تلك الإعلانات كانت عن سلع استهلاكية، وهو ما يدعم قيمة الاستهلاك عند جمهور المتلقين من الأطفال.

٢ - ما القوالب الفنية الأكثر استخداماً في الإعلانات التلفزيونية التي تخاطب الأطفال؟

يوضح الجدول رقم (٨) القوالب الفنية التي استخدمتها الإعلانات التي تخاطب الأطفال في التلفزيون السعودي .

جدول رقم (٨)
القوالب الفنية المستخدمة في الإعلانات
التي تخاطب الأطفال

النسبة	التكرار	القوالب الفنية
٧٠٪	١٤	الإعلان الغنائي
١٥٪	٣	الإعلان الحوارى
١٥٪	٣	الإعلان التمثيلي
١٠٠٪	٢٠	الإجمالي

اقتصرت القوالب الفنية التي استخدمتها الإعلانات التي تخاطب الأطفال في عينة الدراسة على ثلاثة قوالب ، جاء في مقدمتها «الإعلان الغنائي» والذي بلغت نسبته ٧٠٪ وجميعها إعلانات قام بغنائها أطفال أيضا ، ولا شك أن ارتفاع نسبة الإعلانات الغنائية عند مخاطبة الأطفال يأتي متمشيا مع كونها أكثر القوالب الفنية قبولا وجاذبية لدى الأطفال مما يساعد على سرعة انتشارها ، ومن ثم الاقتناع بما تقدمه من أفكار إعلانية .

وجاء «الإعلان الحوارى» ، و«الإعلان التمثيلي» ، في مستوى واحد وشغل كل منها ١٥٪ من جملة القوالب التي استخدمت في الإعلانات التي تخاطب الأطفال .

ويلاحظ أن جميع الإعلانات التي يقدمها التلفزيون السعودي سواء تلك التي تخاطب الأطفال أو غيرهم كانت مصاحبة بالموسيقى سواء في صلب الأغنيات المصاحبة أو في خلفية الإعلان كله أو في خلفية جزء من الإعلان .
٣ - ما اللغات أو اللهجات المستخدمة في الإعلانات التي تخاطب الأطفال؟

شارك الأطفال في تقديم جميع الإعلانات التي وجهت رسالتها لمخاطبة جمهور «الأطفال» وقد بلغ عدد الإعلانات التي استخدمت «اللهجة المصرية» ١٧ إعلاناً بنسبة ٨٥٪ من جملة الإعلانات التي خاطبت الأطفال، في مقابل ثلاثة إعلانات - فقط - استخدمت «اللغة الفصحى» وذلك بنسبة ١٥٪.

وقد اقترن استخدام «اللهجة المصرية» - بشكل أساسي - بالإعلانات الغنائية، فمن بين أربعة عشر إعلاناً غنائيًا خاطبت الأطفال استخدمت ثلاثة عشر إعلاناً منها «اللهجة المصرية» .

وتؤكد هذه النتيجة ما سبق وأشرنا إليه من انتشار اللهجة المصرية في تقديم الإعلانات في التلفزيون السعودي سواء تلك التي يشارك فيها الأطفال، أو تلك التي توجه رسالتها كمخاطبة الأطفال، وما يمكن أن يترتب على ذلك من انتشار بعض الكلمات العامية والدارجة الغريبة عن المجتمع السعودي .

وثمة العديد من الأمثلة عن إعلانات يقدمها التلفزيون السعودي وتستخدم كلمات عامية من اللهجة المصرية تلقى انتشاراً واسعاً بين جماهير الأطفال . *

* مثال ذلك إعلانات زيت الذرة ليزا - إعلانات فول المراعي الخضراء - إعلانات مسحوق الغسيل إيريل - إعلانات عصارة الفواكه براون - إعلانات معجون أسنان سيجنال تو .

٤ - ما الأساليب الإقناعية المستخدمة في الإعلانات التلفزيونية التي تخاطب الأطفال؟

قسم الباحث الأساليب الإقناعية التي يمكن أن تلجأ إليها الإعلانات في مخاطبة الأطفال إلى ثلاثة أساليب:

* الأسلوب العقلائي .

* الأسلوب العاطفي .

* الجمع بين الأسلوبين .

ويوضح الجدول رقم (٩) الأساليب الإقناعية التي استخدمتها الإعلانات التي تخاطب الأطفال .

جدول رقم (٩)

الأساليب الإقناعية المستخدمة في
الإعلانات التي تخاطب الأطفال

النسبة	التكرار	الأساليب الإقناعية
٥٪	١	الأسلوب العقلائي
٦٥٪	١٣	الأسلوب العاطفي
٣٠٪	٦	الجمع بين الأسلوبين
١٠٠٪	٢٠	الإجمالي

كان الاتجاه الغالب في إعلانات التلفزيون السعودي التي تخاطب الأطفال هو الاتجاه لمخاطبة العاطفة، حيث بلغت الإعلانات التي استخدمت الأسلوب العاطفي ٦٥٪ من جملة الإعلانات التي تخاطب الأطفال جاءت بعدها الإعلانات التي استخدمت كلا من الأسلوب العاطفي والعقلاني ونسبة ٣٠٪، فالإعلانات التي استخدمت الأسلوب العقلاني وشغلت ٥٪ فقط.

تتفق هذه النتيجة مع نتائج كثير من البحوث والدراسات التي تشير إلى أن العزف على الأوتار العاطفية من أفضل السبل لتحقيق أهداف الرسالة الإعلانية وأسرعها، فكيف إذا كان الإعلان يخاطب أطفالاً !!

ويحذر خبراء الإعلان والتربويين من أن الإغراق في استخدام الأسلوب العاطفي، ومخاطبة الجوانب العاطفية يجب ألا يصل إلى حد الإسفاف وإثارة الغرائز بغرض ترويج السلعة لا سيما إذا كانت الإعلانات تستهدف الوصول إلى الأطفال.

٥ - ما العناصر التي تركز الرسالة الإعلانية على إبرازها في الإعلانات التلفزيونية التي تخاطب الأطفال؟

تشكل عملية صياغة الرسالة الإعلانية حجر الزاوية في نجاح الإعلان التلفزيوني وقدرته على جذب إنتباه الجمهور وإقناعه بشراء السلعة. ويبدل مصمم الإعلان جهوداً مفضية في سبيل إعداد الرسالة الإعلانية بشكل جيد بحيث تحتوي على نقاط وعناصر يمكن من خلالها تحقيق الأهداف الإعلانية.

ويوضح الجدول رقم (١٠) العناصر التي ركزت عليها الرسالة الإعلانية في الإعلانات التي تخاطب الأطفال مع الأخذ في الاعتبار أن الإعلان الواحد يمكن أن يستخدم أكثر من عنصر لإبرازه في رسالته.

جدول رقم (١٠)
العناصر التي ركزت عليها الرسالة الإعلانية
في الإعلانات التي تخاطب الأطفال

النسبة	التكرار	العناصر التي ركزت عليها الإعلانات
٣٠,٧٧٪	٢٠	عرض خصائص السلعة ومميزاتها
٢٦,١٥٪	١٧	شرح فوائد استخدام السلعة
٤,٦٢٪	٣	عرض خبرات وشهادات المستخدمين للسلعة
١٨,٤٦٪	١٢	التركيز على ذكر اسم السلعة وتكراره
١٠,٧٧٪	٧	التركيز على أن السلعة إنتاج وطني
٣,٠٨٪	٢	التركيز على رخص سعر السلعة
٦,١٥٪	٤	التركيز على تفوق السلعة على مثيلاتها
١٠٠٪	٦٥	الإجمالي

باستعراض بيانات الجدول السابق يتضح ما يلي :

* جاء «عرض خصائص السلعة ومميزاتها» في مقدمة العناصر التي أبرزتها الرسالة الإعلانية في الإعلانات التي تخاطب الأطفال، حيث شغلت هذه العناصر ٣٠,٧٧٪ من جملة ما ورد من عناصر. ولا شك في أن ذكر خصائص ومميزات السلعة يعد من الجوانب الإيجابية للنشاط الإعلاني ومن عوامل نجاحه، ذلك أن التركيز على إبراز تلك الخصائص يتيح الفرصة أمام الجمهور للتعرف على السلعة ومميزاتها مما يمكنه من اتخاذ القرارات المناسبة بشأنها. لكن الخطورة تنبع حينما تبالغ الرسالة الإعلانية في ذكر خصائص ومميزات السلعة إلى الدرجة التي تصل إلى حد الكذب أحيانا !!

ولقد جاء التركيز على إبراز خصائص السلعة ومميزاتها مرتبطاً بنقطة أخرى وهي تركيز الإعلانات على شرح فوائد استخدام السلعة كعنصر أساسي في صياغة الرسالة الإعلانية، حيث شغلت هذه النقطة ١٥, ٢٦٪ من جملة العناصر التي ركزت عليها الإعلانات. ويعد استخدام هذا العنصر عاملاً إيجابياً لصالح ترويج السلعة، وفي دراسة أجراها Bogart أوضح أن عملية إقناع الطفل بعملية الشراء تحدث من جراء تعرف الطفل على الموصفات الإيجابية والفوائد التي يحصل عليها من السلعة والتي تقدم له في إطار جذاب يرسم للسلعة صورة محببة ومن ثم يقبل الطفل على استهلاك السلعة (٢٩).

اهتمت إعلانات التلفزيون السعودي بذكر اسم السلعة والتركيز عليه وتكراره حيث شغل هذا العنصر ٤٦, ١٨٪ من جملة العناصر التي أبرزتها تلك الإعلانات عند مخاطبة الأطفال. ويمكن القول أن استغلال هذا العنصر والتركيز عليه مهم جداً بالنسبة للإعلانات التي تخاطب الأطفال، إذ يكفي - في بعض الأحيان - أن يحفظ الطفل اسم السلعة ليشكل ضغطاً على أسرته لشراء السلعة، كما أن تعرف الطفل على شكل السلعة أو اسمها قد يكون عاملاً مهماً في دفعه لطلبها. ويتفق هذا مع ما أثبتته دراسات أخرى من أن تعرض الطفل للإعلانات التلفزيونية كان له أثر كبير في تدعيم طلب الطفل للمسلع المعلن عنها أثناء وجوده في منافذ الشراء.

جاء التركيز على كون السلعة إنتاجاً وطنياً في المرتبة الرابعة بين العناصر التي استخدمتها الرسالة الإعلانية في الإعلانات التي تخاطب الأطفال، وشغلت ٧٧, ١٠٪ منها. وقد لاحظ الباحث أن إعلانات التلفزيون السعودي تركز عامة على إبراز هذا العنصر في رسائلها الإعلانية لإقناع

المشاهد بالشراء، إلا أنها عندما تتخاطب الأطفال فإنها لا تولي هذا العنصر نفس الاهتمام ربما لأنها تجد عناصر أخرى أكثر إقناعاً.

خلاصة النتائج:

استهدفت هذه الدراسة التعرف على حدود استخدام الأطفال ومشاركاتهم في إعلانات التلفزيون السعودي، وطبيعة تلك المشاركة، والأساليب التي تتبعها إعلانات التلفزيون السعودي في مخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف.

ويمكننا تحديد أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فيما يلي:

أولاً: من حيث مشاركة الأطفال في الإعلانات:

أوضحت نتائج الدراسة أن التلفزيون السعودي اهتم بإشراك الأطفال في الإعلانات التي يقدمها، فمن بين ١٦٩ إعلاناً هي جملة الإعلانات التي ظهر فيها أشخاص كان هناك ٩٤ إعلاناً يشارك فيها الأطفال سواء بالظهور فقط أو بتقديم الإعلان بالصوت والصورة وذلك بنسبة ٦٢، ٥٥٪، وكان أكثر الأطفال الذين شاركوا في الإعلانات في المرحلة العمرية من «٦ - إلى أقل من ١٠ سنوات»، تلاهم الأطفال في المرحلة العمرية من ستين إلى أقل من ٦ سنوات وكان الأطفال الذكور أكثر استخداماً في إعلانات التلفزيون السعودي سواء ظهروا وحدهم أو مع أطفال إناث.

جاء الإعلان الغنائي في مقدمة القوالب الفنية التي قدمت بها الإعلانات التي شارك فيها الأطفال، جاء بعدها إعلان «الحديث المباشر»، فالإعلان الحوارى، فالإعلان التمثيلي. ويلاحظ أن التلفزيون السعودي لم يهتم بإعلانات الرسوم المتحركة التي لم تتعد ٣٨، ٦٪ من عينة الدراسة رغم جودة هذا القالب وقدراته الإقناعية العالية ولا سيما بالنسبة للأطفال.

كانت النسبة الأكبر من الإعلانات التي شارك فيها الأطفال عن سلع وبضائع لا تخصهم بشكل مباشر حيث بلغت هذه الإعلانات ٧٠، ٦١٪ من جملة الإعلانات التي شارك الأطفال فيها، ويتنافى ذلك مع ضوابط استخدام الأطفال في إعلانات التلفزيون والتي نصت عليها بعض لوائح الإعلان في دول العالم، وأوصت بها دراسات وأبحاث سابقة. وتوضح هذه النتيجة أن مصممي الإعلان في التلفزيون السعودي يعتمدون إلى استخدام الأطفال وإشراكهم في الإعلان جرياً وراء تحقيق إعلان جذاب وجماهيري، بصرف النظر عن السلع المعلن عنها.

كانت «اللهجة المصرية» - في مقدمة اللهجات التي تتحدث بها إعلانات التلفزيون السعودي التي يشارك فيها الأطفال. فإذا أضفنا إلى ذلك ارتفاع نسبة الإعلانات التي تقدم باللهجة المصرية في التلفزيون السعودي بصفة عامة ندرك مدى انتشار وتأثير هذه اللهجة على الأطفال السعوديين حيث تتضمن الإعلانات بعض الكلمات المصرية العامية وجاءت اللغة العربية الفصحى في المرتبة الثانية بين اللغات واللهجات التي تتحدث بها الأطفال في الإعلانات التلفزيونية مما يدعونا للقول بأهمية عناية الإعلانات بتقويم لغتها لتصبح أداة للحفاظ على الفصحى ونشرها بين النشء.

ثانياً: من حيث مخاطبة الإعلانات للأطفال:

كانت إعلانات المواد الغذائية في مقدمة الإعلانات التي توجهت لمخاطبة الأطفال كجمهور مستهدف وشغلت ٨٠٪ من جملة الإعلانات الموجهة للأطفال، تلتها الإعلانات عن معاجين الأسنان فالإعلانات عن مستحضرات التجميل.

جاء الإعلان الغنائي في مقدمة القوالب الفنية التي استخدمتها الإعلانات التلفزيونية التي خاطبت الأطفال كجمهور مستهدف، وجميع

تلك الإعلانات الغنائية قام بغنائها أطفال أيضا، بما يتمشى مع كون هذا قالب أكثر القوالب الفنية قبولا وجاذبية لدى الأطفال وجاء الإعلان الحوارى فى المركز الثانى تلاه الإعلان التمثيلى بالمركز الثالث. ويلاحظ أن جميع الإعلانات التى يقدمها التلفزيون السعودى سواء تلك التى تتخاطب الأطفال أو غيرهم كانت مصحوبة بالموسيقى سواء فى صلب الأغنيات المصاحبة أو فى خلفية الإعلان كله أو فى خلفية جزء من الإعلان. وتلك نتيجة يجب أن تستوقفنا حيث أصبحت الموسيقى تشكل قاسما مشتركا لجميع إعلانات التلفزيون السعودى وما يمكن أن يتركه من آثار تربوية سلبية على الأطفال المشاهدين ولا سيما فى المجتمع المسلم المحافظ.

كانت اللهجة المصرية فى مقدمة اللهجات التى استخدمتها إعلانات التلفزيون السعودى التى تتخاطب الأطفال، وقد اقترن استخدام اللهجة المصرية - بشكل أساسى - بالإعلانات الغنائية، فمن بين أربعة عشر إعلانا غنائيا خاطبت الأطفال، استخدمت ثلاثة عشر إعلانا باللهجة المصرية، وقد استخدمت إعلانات كثيرة منها العديد من الكلمات المصرية العامة.

كان الاتجاه الغالب فى إعلانات التلفزيون السعودى التى خاطبت الأطفال هم مخاطبة العواطف، فقد بلغت نسبة الإعلانات التى اعتمدت على الأسلوب العاطفى ٦٥٪ مقابل ٣٠٪ للإعلانات التى استخدمت الأسلوبين العاطفى والعقلانى، ٥٪ للإعلانات التى استخدمت الأسلوب العقلانى فقط. وتتفق هذه النتيجة مع نتائج كثير من البحوث والدراسات التى تشير إلى أن العزف على الأوتار العاطفية هو أفضل السبل لتحقيق أهداف الرسالة الإعلانىة وأسرعها.

التوصيات:

تدفعنا النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة للقول بأن استخدام الأطفال ومشاركاتهم في إعلانات التلفزيون السعودي بحاجة إلى إعادة النظر من جانب المسؤولين عن التلفزيون، ليس بإلغاء تلك المشاركة نهائياً، ولكن بترشيد تلك المشاركة لتصبح في حدود السلعة التي تخصهم فقط وبصورة تحفظ للأطفال براءتهم وصفاءهم.

وإذا كان لنا بعض التوصيات فيمكن إيجازها فيما يلي:

١ - ضرورة وضع ضوابط دقيقة تحكم أساليب إعداد وتنفيذ الإعلانات في التلفزيون السعودي حتى تأتي متماشية مع الضوابط الشرعية وملائمة للمجتمع المسلم المحافظ وإخضاع نصوص الإعلانات لرقابة صارمة بحيث لا تحدث تجاوزات تسيء إلى النشء والشباب. ونخص في هذا المقام ترشيد مشاركة الأطفال وظهورهم في الإعلانات. ويمكن للتغلب على ذلك التوسع في تقديم إعلانات الرسوم المتحركة والتي يمكن أن تكون عوضاً عن ظهور الأشخاص في الإعلانات، إضافة إلى ما تحققه تلك النوعية من حيوية ونجاح.

٢ - ضرورة التقليل من ظهور الشخصيات الأجنبية، وخاصة الأطفال فمن إعلانات التلفزيون السعودي لما لذلك من آثار سلبية في نشر عادات وتقاليدها وأنماط سلوكية غريبة عن المجتمع ويمكن إتاحة الفرصة أمام العناصر السعودية في الظهور.

٣ - ضرورة اهتمام برامج التلفزيون السعودي باللغة العربية الفصحى، ولا سيما في الإعلانات التي تغطي بجماهيرية واسعة بين الأطفال. ويمكن لها في هذه الحالة أن تقوم بدور مهم في تقويم لغة الجماهير وتصحيحها ونشر اللغة الفصحى.

٤ - إن اعتماد الإعلانات التلفزيونية - بشكل مبالغ فيه - على استخدام الموسيقى والأغنيات بحاجة إلى ترشيد لما يترتب على ذلك من آثار تربوية سلبية على النشء ولا سيما في المجتمعات الإسلامية التي تسعى إلى تنشئة الصغار على الجدية والوقار.

٥ - ضرورة إعطاء الطابع الوطني والصيغة الشعبية لإعلانات التلفزيون السعودي سواء من حيث الموسيقى والأغنيات المستخدمة بما في ذلك موسيقى المقدمة للفترات الإعلانية، فالتابع لإعلانات التلفزيون السعودي حالياً لا يستطيع التفرقة بينها وبين ما يقدم من إعلانات في غيره من تلفزيونات المنطقة العربية إذ لا توجد شخصية مميزة لإعلانات التلفزيون السعودي فالكلمات والأغنيات والشخصيات المستخدمة لا تمت للمجتمع السعودي بصلة وهو أمر لابد من الالتفات له من قبل المسؤولين.

٦ - أن المجتمع السعودي وهو في مرحلة البناء والتطوير في حاجة إلى الحد من الاستهلاك والاتجاه نحو التوفير والإنتاج، ومن هنا يجب على التلفزيون مراعاة ذلك فيما يقدمه من إعلانات - ولا سيما تلك التي تخاطب الأطفال - بحيث تقلص إعلانات السلعة الاستهلاكية ويستغل نجاح المادة الإعلانية جماهيرياً في إمداد الجماهير ببعض القيم والمبادئ المتعلقة بالعمل وزيادة الإنتاج والتوفير والحد من الاستهلاك مع الأخذ في الاعتبار الدور التربوي الذي يقوم به هذا الأسلوب بالنسبة للصغار.

مصادر الدراسة ومراجعتها

- ١ - حمدي حسن: مقدمة في دراسة وسائل وأساليب الاتصال (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٧م) ص ٥٧.
- ٢ - جيهان رشتي: النظم الإذاعية في المجتمعات الغربية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م) ص ١٩.
- ٣ - صفوت العالم: عملية الاتصال الإعلاني (القاهرة: دار الطباعة للجامعات، ١٩٨٩م) ص ١١٤.
- ٤ - Cantor, J., Wilson, B. G. and Hoffner, C., Emotional responses to a Television Nuclear Holocaust Film, Communication Research, 13, 1986. P. 257 - 277.
- ٥ - Postman, N.: The Teachings of the media Curriculum - M.L. Lazer (eds.) American media and manculture, Barkeley: University of California Press, 1987.
- ٦ - ولبور شرام وآخرون: التلفزيون وأثره في حياة أطفالنا، ترجمة زكريا سيد حسن (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٥م).
- ٧ - Morgan, M, and Gross, L: Television viewing; Journal of broadcasting, Vol., 42, N°. 2, Spring, 1980.
- ٨ - Rushton, J. P.: Television and Peosocial Behavior, in D. Pearl, L. Bouthilet and J. Lazer (Eds.): Television and Behavior: Ten years of scientific progress and implications for Eigties (Vol. 2) Rockville, MD. National Institute of Mental Health.

Rubin, A.: Television usage, attitude and viewing behaviors of children and addescents in Journal of broadcasting, Vol. 21, N^o. 3, Summer, 1977.

Fozard, J. L. and thomas, J. C., Psychology of aging, in - ١٠ J. C. Howells (Ed.): Modern prespectives in the psychiatry of old age, Brunner, Mazel, 1975.

Corder, Bolz, C. R.: Medication: The role of significant others, Journal of communication, 30, 1982.

Meyer, M and Nissen, M.: Effect and function of Television Children and adolescents (N.Y.K.G., Saur, 1979), P.30-35.

١٣ - سامي الشريف: الإعلان التلفزيوني، الأسس والمبادئ (القاهرة: دار الوزان، ١٩٩٠م) ص ١٧١.

١٤ - كامل سلامة الدقي: نفحات من السنة (جدة: دار الشروق، د.ت) ص ١٢.

١٥ - نواف عدوان: الطفل والتلفزيون، مجلة الإذاعات العربية، العدد الثاني، ١٩٩٠م، ص ٥٤-٥٨.

١٦ - مجلس الغرف التجارية الصناعية السعودية: دور الإعلان التجاري في ترويج منتجات الصناعة السعودية، دراسة ميدانية (الرياض: إدارة البحوث والدراسات الاقتصادية، د.ت).

١٧ - سامي الشريف: مرجع سابق، ص ٢٦١-٢٦٤.

١٨ - منى الحديدي، سلوى إمام: ترشيد استخدام الأطفال في الإعلانات التلفزيونية، دراسة تحليلية ميدانية - مجلة علم النفس، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، نوفمبر، ١٩٨٧م.

١٩ - منى الحديدي، سلوى إمام: الإعلان في التلفزيون المصري (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٧م) ص ٢٥، ١٢٢.

٢٠ - سامي عبد العزيز: تأثير الإعلان التلفزيوني على السلوك الشرائي للطفل، دراسة ميدانية، بحث مقدم إلى ندوة وسائل الإعلام والطفل والتي عقدت بكلية الآداب - جامعة الملك سعود بالرياض في الفترة من ٤ إلى ٦/٥/١٩٩٢م.

٢١ - Atkin, C., Heald, G.: The content of children's toy and food commercials. Journal of communication, 1977, Vol. 27, N°1.

٢٢ - Postman N.: The teaching of the media curriculum, OP. Cit.

٢٣ - John, R. G. Jenkins: Reading in advertising (Canada: Wilfrid Laurier University, 1974) P. 190.

٢٤ - محمد شفيق: البحث العلمي (الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٥م) ص ١٠.

٢٥ - أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م) ص ٢٤.

٢٦ - Lowery, S and Defleur, M: Milestones in mass communication research: Media effects (N. Y: Longman, 1983) P. 304.

٢٧ - سامي الشريف: مرجع سابق، ص ١٨٩.

٢٨ - سامي عبد العزيز: مرجع سابق، ص ٣٣.

٢٩ - Bogart, L: Consumer and advertising research in J. Pool and W. Schramm (Eds.) Handbook of communication, Chicago: Rand - Mc Nally, 1973.

**The writer's views do not necessarily
reflect those of the magazine**

- Articles are technically regardless of the writer's prestige.
- Articles can not be returned to authors whether published or not.



Cover Picture:

PRICE PER ISSUE

Saudi Arabia:	3 Riyals	Morocco :	5 Dirhams
U.A.E.:	4 Dirhams	Tunisia:	400 Millimes
Qatar:	4 Riyals	Non - Arab	
Egypt:	40 Piastres	Countries:	1 \$

ANNUAL SUBSCRIPTIONS

Saudi Arabia:	20 Riyals
Arab Countries:	The equivalent of 4 issues
	prices: SR20
Non - Arab Countries:	6. \$

SUBSCRIPTIONS

**Subscriptions should be
directed to King
Abdullaziz**

DISTRIBUTORS

Al-Jazirah: is for distribution Advertising	15 - Riyadh 1 - 11	4666400-466616
	16590-66266	40-66019185
Abu Dhabi:	1 - Abu Dhabi	15-0111
Dubai: is for distribution Advertising	111 - Dubai	15-0111
Qatar: is for distribution Advertising	111 - Doha	11-1400
Bahrain: is for distribution Advertising	11 - Manama	262026
Egypt: is for distribution Advertising	11 - Cairo 2 - 1111	15-1400
Tunisia: is for distribution Advertising	11 - Tunis 1 - 1111	
Morocco: is for distribution Advertising	11 - Casablanca 1 - 1111	

GENERAL SUPERVISOR

H.E. Prof. Khalid Bin Mohammed Al-Angari
Minister of Higher Education & Head of the Board of
Directors of King Abdul-Aziz Research Centre

EDITORIAL DIRECTOR

Abdullah Hamad Al-Hoqail

EDITORIAL DIRECTOR

Dr. Mansour Ibrahim Al-Hazmi
Abdullah Abdul-Aziz Bin Edris
Dr. Abdul Rahman Al-Tayyeb Al-Ansari
Dr. Abdullah Al-Saleh Al-Uthaymeen
Dr. Mohammed Al-Sulayman Al-Sudais

Editorial & Technical Supervisor

Mustafa Amin Jahin

ARTICLES

Articles should be
directed to the:

EDITORIAL BOARD

All Correspondence
should be directed to:

Editor-In-Chief



4417020



4412318-4413844

Fax:

4412316



IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT.



Addarah No (1) has been issued in
Rabi' " I " 1395 A.H. - March 1975 A.D.

An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz
Research Centre

No "4" • Year "19" • Dec 93, Jan., Feb. 1994 A.D.

Bibliotheca Orientalis

**King Abdul Aziz
Research Centre**

- Established by a Royal Decree No. M/45 dated
5/8/1392 A.H. as an autonomous body with in-
dependent juristic identity.

- Run by a Board of Directors vested with full
authority to have its objectives materialized.

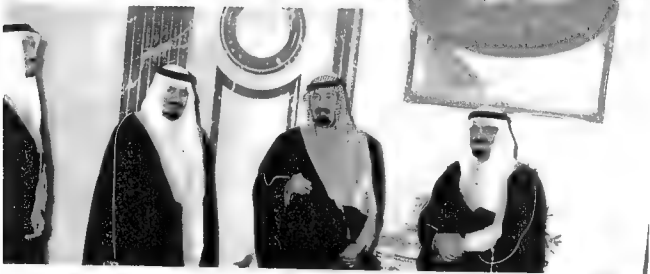
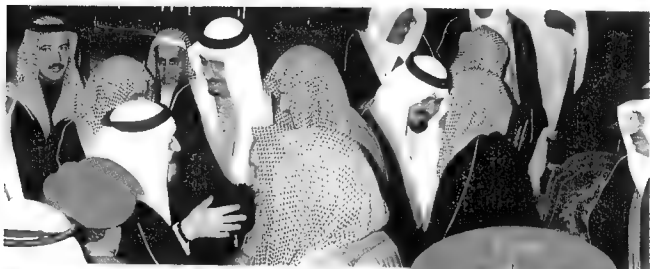
Objectives:

- To further studies pertaining to the history of
the Kingdom, its geography, literature, intellectual
and cultural heritage in particular as well as those
of the Arab and Islamic world in general.

- Issue a cultural magazine carrying its name
ADDARAH.

- In accordance with the Royal approval No.
5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has
become the home of the National Saudi Archives
and Manuscripts.

P.O.Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia
Facsimile No.: 00/966/4417020



AD-DARAH



An Academic Quarterly Issued by: King Abdul Aziz Research Centre-Riyadh K.S.A

